خالد حسيني

ألف شمس ساطعة

ترجمة

إيهاب عبد الحميد

دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY
QATAR FOUNDATION
PUBLISHING

مؤسسة قطر
Qatar Foundation

قالوا عن الرواية

«تكاد القصة من فرط سرعة إيقاعها أن تقفز من بين الصفحات» مترو

«عمل رومانسي تاريخي، يركز على النساء عمدًا... القص فيه غاية في الإثارة» الدايلي تلجراف

«مستحيل مقاومتها» إنترتاينمنت ويكلي

«ما يمنح هذه الرواية الطزاجة وقوة الإقناع هو عين حسيني الراصدة لنسيج الحياة اليومية ومقدرته على تصوير مختلف المشاعر الإنسانية» لوس أنجلس تايمز

«قصة متقنة الصنعة ومقلقة للخاطر... تلك الرواية التي لا تُنسى، كما «عدَّاء الطائرة الورقية»، تضعنا في أفغانستان بقلب مفتوح» إيزابيل ألليندي

«أحببت هذا الكتاب ـ لم أستطع أن أضعه وقرأته في جلسة واحدة» فيونا بروس

«كتاب مفعم بالطاقة ومحفز على التفكير» ليتراري رفيو

«يثبت حسيني أوراق اعتماده كنجم ساطع في سماء القص... لا يقرأ أحدٌ تلك الرواية إلا ويقع في أسرها» ماريللا فروسترب

«قلة من الروائيين المعاصرين يتمتعون بقدرته على صياغة سرديات تصور بهذه الدرجة من الإقناع الحقائق الفظيعة للحرب والمعاناة، وتقدم، في الوقت نفسه، إشارات مقنعة على إمكانية التكفير والخلاص» واترستونز بوكس كوارترلي

«قصة مروعة، وإنما باعثة على الأمل، عن الصبر والحب» وومان أند هوم

«أربعة عقود من الاضطراب والتفكك في أفغانستان، سردية بارعة وقصص مدهشة عن الخراب الشخصي والقدرة على البقاء... إنه حكَّاء يمتلك قوة تدور لها الرؤوس» إيفنينج ستاندرد

«مغامرة صادقة تجمع بين القصة الرومانسية والميلودراما، المكائد الشخصية والسياسية، وحشية الحرب وقسوة الحرمان» **الإندبندنت**

«مؤثرة وواقعية، تكشف ما تجلبه الحرب والقهر من صنوف المذلة من دون أن تحرم الشخصيات من وجهها الإنساني» **إيمدج**

«يكتب حسيني بجمال وهو حكّاء بالفطرة» **سبكتايتر**

«ملحمة ملتهبة أخرى... تصوير قوي ومروع لأفغانستان، وهو أيضًا استحضار عاطفي لحيوات شخصياتها الصبورة وآمالهم الباقية» **ببلشرز ويكلي**

«مأسوية بصورة تفوق الخيال. رواية حسيني الثانية الرائعة هي شهادة حزينة وجميلة على معاناة الأفغان وما يتمتعون به من قوة» **بوكلست**

«قد لا يكون الحب هو أول ما يرد على الأذهان عندما تفكر في المشهد الأفغاني الذي خرَّبته الحرب. لكنه العاطفة ـ التحتية، القوية، الجميلة، المحظورة، والصبورة بلا حدود ـ التي ترشح عبر الصفحات» **أو، ذا أوبرا ماجازين**

«قصة التضحيات الضرورية للإبقاء على الأمل والبهجة، وقوة الحب اللازمة لقهر الخوف. ساطعة بحق» **نيويورك دايلي نيوز**

«يتمتع حسيني بقدرة غير عادية على الحكي... ستكون تمثالًا أصم ما لم تؤثر فيك تلك القصة» **الأيريش إندبندنت**

«الأمل هو الآتي: على الرغم مما في عالمنا من قسوة ظالمة، فإن بطلتي «ألف شمس ساطعة» تصبران، سواء على الورق أو في خيالنا» **ميامي هيرالد**

«بالقدر نفسه تنفطر لها القلوب، بالقدر نفسه قوية» **إيفنينج ستاندرد، «قراءات صيفية»**

«ستجد نفسك عاجزًا عن ترك الأحداث، تلهث وأنت تقلب الصفحات، تبكي على محنة مريم وليلى... قوية ومؤثرة» **جود بوك جايد**

«رواية تشهد على قوة الحب... عميقة التأثير» **الصنداي إكسبرس**

صدرت الطبعة العربية الأولى عام ٢٠١٣ عن
دار بلومزبري ـ مؤسسة قطر للنشر
مؤسسة قطر، فيلا رقم ٣، المدينة التعليمية
صندوق بريد ٥٨٢٥
الدوحة، دولة قطر
www.bqfp.com.qa

A Thousand Splendid Suns
Copyright © 2007 by ATSS Publications, LLC

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

حقوق الترجمة © إيهاب عبد الحميد ٢٠١٣

جميع الحقوق محفوظة
لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر باستثناء في حالة الاقتباسات المختصرة بالدراسات النقدية أو المراجعات.

الترقيم الدولي: 9789992194065

١ ٣ ٥ ٧ ٩ ١٠ ٨ ٦ ٤ ٢

طبع في مصر بشركة صحارا للطباعة

هذا الكتاب مُهدى إلى حارس وفرح،

نور عينيَّ،

وإلى نساء أفغانستان.

الجزء الأول

١

كانت مريم في الخامسة من عُمرها عندما سمعت للمرة الأولى كلمة «حرامي».

حدث ذلك في أحد أيام الخميس. لا بد أن الأمر كذلك، لأن مريم تتذكر اضطرابها وانشغال بالها ذلك اليوم، وهو ما كانت تشعر به أيام الخميس، حين يزورها جليل في «الكُلبه». ولكي تشغل مريم نفسها حتى تراه أخيرًا، وهو يعبر العشب الذي يعلو حتى ركبتيه في «الوَسَعاية» ويلوح لها بيده، تسلقت كرسيًّا وأنزلت طقم الشاي الصيني الخاص بأمها. كان طقم الشاي هو الإرث الوحيد الذي بقي لوالدة مريم، «نانا»، من والدتها التي ماتت عندما كانت «نانا» في الثانية من عُمرها. وكانت «نانا» تحمل معزَّة لكل قطعة من الخزف ذي اللونين الأبيض والأزرق، للانحناءة اللطيفة لبلبل الإبريق، للحساسين وزهور الأقحوان المرسومة يدويًّا، للتنين على السكريَّة، الذي يُفترض أن يُبعد الشر.

تلك القطعة الأخيرة هي التي انزلقت من بين أصابع مريم، وسقطت على ألواح الأرضية الخشبية في «الكُلبه» وتحطمت.

عندما رأت «نانا» السكرية، احمرَّ وجهها وارتعشت شفتها العليا، وتركزت كلتا عينيها، الكسول والسليمة، على مريم من دون أن تطرفا. اعترى وجه «نانا» غضب عارم، حتى إن مريم خافت أن يدخل الجن إلى جسد أمها مجددًا. لكن الجن لم يأتِ، ليس تلك المرَّة. بل قبضت «نانا» على معصم مريم، وشدتها ناحيتها، وقالت وهي تصرُّ بأسنانها:

ـ أنت «حرامي» صغيرة خرقاء. هذا هو جزائي على كل ما تحملته. «حرامي» صغيرة خرقاء تحطم إرثي.

وقتها، لم تفهم مريم. لم تعرف معنى كلمة «حرامي» ـ ابنة حرام. ولم تكن كبيرة بما يكفي لتدرك الظلم، لتعي أن اللوم يجب أن يقع على من أنجبوا «الحرامي»، لا على «الحرامي» نفسه، الذي لم يجنِ ذنبًا غير أنه وُلِد. لكن مريم حدست، من طريقة نُطق «نانا» للكلمة، أن «الحرامي» شيء قبيح وبغيض، مثل حشرة، مثل الصراصير السريعة التي تصب «نانا» عليها لعناتها وتكنسها خارج «الكُلبه».

لاحقًا، عندما كبرت مريم، فهمت. ما جعل مريم تشعر بوخزة الكلمة هو الطريقة التي قالتها بها «نانا» ـ لم تقلها لها وإنما بصقتها عليها. فهمت وقتها ما تقصده «نانا»، أن «الحرامي» هو شيء غير مرغوب فيه، أنها هي، مريم، شخص غير شرعي لن يحق له أبدًا المطالبة الشرعية بالأشياء التي يملكها الآخرون، أشياء مثل الحب، والعائلة، والبيت، والقبول.

جليل لم ينعت مريم بهذا اللفظ قطُّ. جليل كان يقول إنها زهرته الصغيرة. يحب أن يُجلسها على حِجره ويحكي لها القصص، مثلما حكى لها في إحدى المرَّات أن هِرات، المدينة التي ولِدت فيها عام ١٩٥٩، كانت ذات يوم مهد الثقافة الفارسية، وموطن الكُتاب، والرسامين، والمتصوفة.

قال ضاحكًا:

ـ لم يكن ممكنًا أن تمدي ساقًا من دون أن تلكزي شاعرًا في مؤخرته.

حكى لها جليل قصة الملكة «جوهر شاد»، التي شيدت المآذن الشهيرة كأنشودة حب منها لهِرات في القرن الخامس عشر. ووصف لها حقول القمح الخضراء في هِرات، والبساتين، والكرمات المحمَّلة بالعناقيد الممتلئة، وأسواق المدينة المزدحمة ذات السقوف المقببة.

ذات يوم قال جليل:

ـ هناك شجرة فستق، دُفن تحتها، يا مريم جو، الشاعر العظيم «جامي» نفسه.

ثم مال إلى الأمام وهمس:

ـ «جامي» عاش قبل أكثر من خمسمائة عام. حقًّا. لقد اصطحبتك إلى هناك ذات مرَّة، إلى الشجرة. كنت صغيرة. لن تتذكري.

بالفعل، لا تتذكر مريم. وعلى الرغم من أنها سوف تعيش الخمسة عشر عامًا الأولى من حياتها على مرمى حجر من هِرات فلن ترى أبدًا الشجرة المذكورة. لن ترى أبدًا المآذن الشهيرة عن قرب، ولن تقطف أبدًا فاكهة من بساتين هِرات أو تتمشى في حقول القمح فيها. لكن كلما تحدث جليل بتلك الطريقة، كانت مريم تُنصت بانبهار. كانت معجبة بجليل لمعرفته الواسعة وخبرته. وكانت تهيم فخرًا لأن لها أبًا يعرف تلك الأمور.

قالت «نانا» بعد أن غادر جليل:

ـ يا له من كذَّاب كبير! الثري الكبير كذَّاب كبير. لم يأخذك إلى أية

شجرة. ولا تجعليه يسحرك. والدك المحبوب هذا خاننا. طردنا. طردنا من منزله الكبير الفاخر وكأننا لا نمثل شيئًا بالنسبة إليه. وقد فعل ذلك بكل سرور.

كانت مريم تنصت بحكم الواجب، لم تجرؤ قطُّ على أن تقول لـ«نانا» كم تكره كلامها هذا عن جليل. الحقيقة أن مريم، في وجود جليل، لم تشعر بأنها «حرامي» على الإطلاق. ساعة أو اثنتين كل خميس، عندما يأتي جليل لرؤيتها، محمَّلًا بالابتسامات والهدايا والأحضان والقُبل، تشعر مريم أنها تستحق كل ما يجب أن تجود به الحياة من جمال ونِعم. ولهذا السبب، كانت مريم تحب جليلًا.

* * *

حتى وإن كان عليها أن تتقاسمه مع آخرين.

كان لجليل ثلاث زوجات وتسعة أطفال، تسعة أطفال شرعيين، جميعهم غرباء بالنسبة إلى مريم. كان واحدًا من أثرى أثرياء هِرات. كان يمتلك سينما، لم ترها مريم قطُّ، لكن جليلًا وصفها لها تحت إلحاح منها، وهكذا عرفَت أن واجهتها مصنوعة من بلاطات خزفية من اللونين الأزرق والبرونزي، وأن بها مقاعد في مقصورات خاصة وسقفًا على هيئة تعريشة. لها باب أرجوحي مزدوج يفتح على بهو مبلَّط، حيث تُعلَّق ملصقات لأفلام هندية في نوافذ عرض زجاجية. وفي أيام الثلاثاء، كما ذكر لها جليل ذات يوم، يحصل الأطفال على «آيس كريم» مجانية من المقصف.

ابتسمت «نانا» برزانة عندما قال هذا. انتظرت حتى غادر «الكُلبه»، قبل أن تضحك هازئة وتقول:

ـ أطفال الغرباء يحصلون على «الآيس كريم». وعلامَ تحصلين أنت يا مريم؟ على قصص عن «الآيس كريم».

بالإضافة إلى السينما، كان جليل يمتلك أرضًا في كرُخ، وأرضًا في فَراه، وثلاثة متاجر لبيع السجاد، ومحل ملابس، وسيارة «بويك رودماستر» سوداء موديل ١٩٥٦ كان واحدًا من أكثر رجال هِرات اتصالًا بذوي النفوذ، صديقًا للعمدة ولحاكم الولاية. وكان لديه طباخ، وسائق، وثلاث خادمات.

كانت «نانا» إحدى الخادمات. حتى بدأ بطنها ينتفخ.

قالت «نانا» إن عائلة جليل عندما عرفت بالأمر شهقت شهقة واحدة شفطت الهواء من هِرات. أقسم أصهاره إن الدم سوف يسيل. وطالبته الزوجات أن يلقي بها خارجًا. أما والد «نانا»، الذي كان حجَّارًا متواضعًا في قرية جُل دامَن القريبة، فقد تبرأ منها. حزم أمتعته، موصومًا بالعار، واستقل حافلة إلى إيران، ولم يره أحد أو يسمع عنه بعدها.

قالت «نانا» ذات صباح باكر، وهي تُطعم الدجاجات خارج «الكُلبه»:

ـ أحيانًا، أتمنى لو امتلك والدي الشجاعة ليشحذ أحد سكاكينه ويفعل ما يقتضيه الشرف. ربما كان ذلك أفضل لي.

رمت حفنة أخرى من الحبوب في العشة، وسكتت قليلًا، ثم نظرت إلى مريم:

ـ وربما كان أفضل لك أنت أيضًا. كان ذلك سيوفر عليك بؤس معرفة أنك هكذا. لكن أبي كان جبانًا. لم يكن يملك «الدِّيل»، الجرأة، لأن يفعلها.

جليل أيضًا لم يكن يملك «الدِّيل»، كما قالت «نانا»، لأن يفعل ما يقتضيه الشرف. لأن يواجه عائلته، زوجاته وأصهاره، وأن يتحمل مسؤولية فِعلته. بدلًا من ذلك، وخلف أبواب مغلقة، تم عقد اتفاق على عجل لحفظ ماء الوجه. وفي اليوم التالي، جعلها تلملم أشياءها القليلة من سَكَن الخادمات، حيث كانت تعيش، وسرَّحها.

ـ تعرفين ماذا قال لزوجاته دفاعًا عن نفسه؟ إنني رميتُ نفسي عليه. إنها غلطتي. «ديدي»؟ هل ترين؟ هذا معنى أن تكوني امرأة في هذا العالم.

وضعت «نانا» سلطانية الحبوب للدجاج أرضًا. ورفعت ذقن مريم بإحدى أصابعها:

ـ انظري إليَّ يا مريم.

ونظرت مريم بعد تردد.

قالت «نانا»:

ـ افهمي هذا الآن وافهميه جيدًا يا ابنتي: مثل إبرة البوصلة التي تشير إلى الشمال، فإن إصبع الرجل تجد دائمًا امرأة. دائمًا. تذكري هذا يا مريم.

٢

ـ بالنسبة إلى جليل وإلى زوجاته، كنتُ مثل عشبة النار، وأنتِ أيضًا. حتى قبل مولدك.

سألتْ مريم:

ـ ما هي عشبة النار؟

قالت «نانا»:

ـ حشيشة. شيء تقتلعينه وترمينه جانبًا.

تضايقت مريم. لم يكن جليل يعاملها مثل حشيشة. لم يفعل ذلك قطُّ. لكن مريم رأت من الحكمة أن تكتم اعتراضها.

ـ بخلاف الحشيشة، كان يجب أن أُزرع من جديد، تفهمين، أن أُمنح غذاءً وماءً. لأجل خاطرك. كان هذا هو الاتفاق الذي عقده جليل مع عائلته.

قالت «نانا» إنها رفضت العيش في هِرات:

ـ لماذا؟ لكي أراه يقود السيارة مع زوجاته «الكينشيني» في أنحاء البلدة طوال النهار؟

قالت إنها لم تكن لتعيش في بيت أبيها الخالي أيضًا، في قرية جُل دامَن، التي تقع على سفح تل منحدر على بُعد كيلومترين شمالي هِرات. قالت إنها أرادت العيش في مكان ناءٍ، منعزل، حيث لا يحدق الجيران في بطنها ويشيرون إليها ويهزأون منها، أو، الأسوأ، يؤذونها بعطفهم الكاذب.

ـ وصدقيني، فقد استراح والدك لبُعدي عن نظره. كان ذلك يناسبه تمامًا.

كان محسن، الابن الأكبر لجليل من زوجته الأولى خديجة، هو من اقترح «الوَسَعاية». كانت على أطراف جُل دامَن. وللوصول إليها، على المرء أن يسلك دربًا ترابيًّا ممهدًا صاعدًا إلى التل يتفرع عن الطريق الرئيسي بين هِرات وجُل دامَن. على جانبي الدرب تنمو أعشاب تصل إلى الركبة مبرقشة بأزهار بيضاء وصفراء زاهية. ويتعرج الدرب صاعدًا التل الذي يفضي إلى حقل مسطح ترتفع فيه أشجار الحور والحور القطني، وتنمو فيه أجمة من الشجيرات البرية. من الأعلى، يمكن للمرء أن يرى قمم الريشات الصدئة لطاحونة جُل دامَن، وعن اليسار واليمين تنبسط هِرات بأكملها بالأسفل. ينتهي الطريق متعامدًا على غدير واسع مليء بأسماك السالمون المرقط، ينحدر من جبال «سفيد كوه» المحيطة بجُل دامَن. وعلى بعد أقل من مائتي متر أعلى الغدير، باتجاه الجبال، تنمو خميلة مستديرة من أشجار الصفصاف البابلي. وفي المنتصف، في ظلال أشجار الصفصاف، تقع «الوَسَعاية».

ذهب جليل إلى هناك ليُلقي نظرة. وعندما عاد، كما قالت «نانا»، أخذ يتحدث كمأمور يتفاخر بنظافة جدران سجنه ولمعان أرضياته.

ـ وهكذا، بنى والدك جُحر الفئران هذا لأجلنا.

* * *

كادت «نانا» أن تتزوج ذات مرَّة، عندما كانت في الخامسة عشرة. كان الخطيب صبيًّا من شين دَند، بائع ببغاوات شاب. عرفت مريم القصة من «نانا» نفسها، وعلى الرغم من أن «نانا» قللت من أهمية هذا الجزء، فقد تأكد لمريم من لمعة الشوق في عينيها أنها كانت سعيدة. ربما للمرة الوحيدة في حياتها، في أثناء تلك الأيام السابقة على زفافها، كانت «نانا» سعيدة بحق.

بينما تحكي «نانا» القصة، كانت مريم تجلس على حِجرها وتتصور أمها وهي تقيس فستان الزفاف. تخيلتها على صهوة جواد، تبتسم بخجل من خلف طرحة عباءتها الخضراء، وكفاها مخضبتان بحمرة الحناء، وشعرها مفروق بمسحوق الفضة، والضفائر مثبَّتة بنسغ الأشجار. رأت عازفين ينفخون في «الشاهناي» ويضربون على طبول «الدُّهُل»، وأطفال شوارع يتصايحون ويركضون خلف الموكب.

ثم، قبل أسبوع من موعد الزفاف، دخل جنٌّ في جسد «نانا». لم تكن مريم بحاجة لمن يصف لها الأمر، فقد رأته كثيرًا رأي العين. تسقط «نانا» فجأة، يتخشب جسدها، يصبح مشدودًا، تدور عيناها إلى الوراء، يرتجف ذراعاها وساقاها كما لو كان شيء يخنقها من الداخل، الزَّبَد على زاويتي فمها أبيض، وأحيانًا وردي من الدم. ثم الخَدَر، التوهان المخيف، الغمغمة بكلام غير مفهوم.

عندما وصلت الأخبار إلى شين دَند، ألغت عائلة بائع الببغاوات الزفاف.

ـ نفروا مني.

هكذا صاغت «نانا» الأمر.

دُس فستان الزفاف في أحد الأركان. وبعدها، لم يتقدم خُطَّاب آخرون.

* * *

في «الوَسَعاية»، شيد جليل وولداه، فَرهاد ومحسن، «الكُلبه» الصغيرة التي سوف تعيش فيها مريم أول خمسة عشر عامًا من حياتها. ابتنوها بلبنات أيبستها الشمس وطلوها بالطين وقبضات من القش. كانت تضم مرتبتين للنوم، وطاولة خشبية، ومقعدين بظهر مستقيم، ونافذة، ورفوفًا مثبتة إلى الحائط حيث تضع «نانا» قدور الفخار وطقم الشاي الصيني العزيز على قلبها. وقد أحضر جليل موقدًا جديدًا من الحديد الزهر لأجل الشتاء، وكوَّم الحطب خلف «الكُلبه». وأقام فرنًا بالخارج للخبيز وعشة دجاج أحاطها بسور. وجلب بضع أغنام، وصنع لها معلَفًا. وأمر فرهاد ومحسنًا فحفرا حفرة على بعد حوالي مائة متر خارج دائرة أشجار الصفصاف وبنى بيت خلاء فوقها.

قالت «نانا» إن جليلًا كان يستطيع استئجار عمال لبناء «الكُلبه»، لكنه لم يفعل ذلك.

ـ تصوُّره الخاص عن الكفَّارة.

* * *

بحسب رواية «نانا»، لم يأتِ أحد لمساعدتها يوم ولدت مريم. قالت إن ذلك حدث في يوم رطب مُلبَّد بالغيوم في ربيع ١٩٥٩، العام السادس والعشرين من أعوام حكم الملك ظاهر شاه الأربعين التي تكاد تخلو من الأحداث. قالت إن جليلًا لم يكلف نفسه استدعاء طبيب، أو قابلةٍ حتى، على الرغم من معرفته بأن الجن قد يدخل جسدها ويسبب لها واحدة من النوبات في أثناء الولادة. رقدت وحيدة تمامًا على أرضية «الكُلبه»، بجانبها سكين، والعرق يتصبب من جسدها.

ـ عندما كان الألم يشتد، كنت أعض على وسادة وأصرخ فيها حتى يبحَّ صوتي. لكن لا أحد يأتي ليجفف وجهي أو يناولني كوب ماء. وأنت يا مريم جو، لم تتعجلي النزول. جعلتني أرقد على تلك الأرضية القاسية الباردة يومين تقريبًا. لا آكل ولا أنام، فقط أدفع وأدعو الله أن تخرجي.

ـ أنا آسفة يا «نانا»!

ـ قطعتُ الحبل بيننا بنفسي. لهذا جِئتُ بسكين.

ـ أنا آسفة!

هنا، كانت «نانا» تبتسم دائمًا ابتسامة مُتعبة فاترة، وكأنما تتلكأ في نفي التهمة أو تتردد في الصفح. لم تستطع مريم أن تحدد. لم يخطر ببال مريم الصغيرة أن تتمعن في الظلم الواقع عليها إذ تعتذر عن مولِدها.

وعندما بدأ ذلك يخطر ببالها، في العاشرة من عُمرها أو نحو ذلك، كانت قد كفَّت عن تصديق قصة ميلادها تلك. أصبحت تُصدق رواية جليل، أنه، على الرغم من غيابه، حرص على نقل «نانا» إلى المستشفى

في هِرات، حيث تعهدها أحد الأطباء بالرعاية. ورقدت على فراش لائق ونظيف في غرفة جيدة الإضاءة. وقد هز جليل رأسه بحزن عندما أخبرته مريم بأمر السكين.

كذلك، بدأت مريم تشك في أنها جعلت أمها تعاني يومين كاملين.

قال جليل:

- أخبروني أن الأمر انتهى في أقل من ساعة. لقد كنتِ ابنة بارة يا مريم جو. حتى في لحظة ميلادك كنت ابنة بارة.

لكن «نانا» ردَّت بحدة:

- إنه لم يكن هناك حتى! كان في «تخت سفر»، يركب الخيل مع أصدقائه الأعزاء.

وعلى حد قول «نانا»، عندما أخبروا جليلًا بأنه رُزق بابنة جديدة، هز كتفيه وظل يمسِّد عُرف فرسه، وظل في «تخت سفر» أسبوعين آخرين.

- الحقيقة أنه لم يحملك حتى صار عُمرك شهرًا. وحينئذ، ألقى عليك نظرة واحدة، وعلَّق على وجهك المستطيل، ثم أعادك إليَّ.

ولم تعد مريم تُصدق هذا الجزء من القصة بدوره. نعم، لقد أقر جليل بأنه كان يركب الخيل في «تخت سفر»، لكن عندما أبلغوه بالخبر، لم يهز كتفيه، بل قفز على السرج وانطلق عائدًا إلى هِرات. وقد أخذ ينطِّطها في ذراعيه، ويمرر إبهامه على حاجبيها الرقيقين، ويهدهدها بأغنية. ولم تتصور مريم أن يقول جليل إن وجهها مستطيل، على الرغم من أنه مستطيل بحق.

«نانا» قالت إنها هي مَن اختارت لمريم اسمها، وإنها أخذته عن والدتها.

لكن جليلًا قال إنه اختار الاسم لأنه يعني «زهرة الزنبق»، وهي زهرة جميلة.

سألته مريم:

ـ هل هي زهرتك المفضَّلة؟

فقال مبتسمًا:

ـ إحدى زهراتي المفضَّلة.

٣

تتذكر مريم، بين أولى ذكرياتها، صرير العجلات الحديدية لعربة اليد وهي تنط على الأحجار. تأتي عربة اليد مرة كل شهر، محمَّلة بالأرز، والدقيق، والشاي، والسكر، وزيت الطبخ، والصابون، ومعجون الأسنان. يدفعها اثنان من إخوة مريم غير الأشقاء، محسن ورامين، وأحيانًا رامين وفرهاد. صعودًا على الدرب الترابي، فوق الأحجار والحصى، حول الحُفَر والشجيرات، يتبادل الصبيَّان الدفع حتى يصلا إلى الغدير. هناك، يكون عليهما إفراغ العربة وحمل الحاجيات باليد عبر الماء. ثم ينقل الصبيَّان عربة اليد عبر الغدير ويعيدان تحميلها. ثم يدفعانها لمائتي متر أخريين، تلك المرة عبر أعشاب طويلة وكثيفة وحول أجمة متشابكة. تقفز الضفادع هاربة من طريقهما. ويهشُّ الشقيقان البعوض عن وجهيهما المتعرقين.

قالت مريم:

ـ لديه خدم. يمكنه إرسال خادم.

وردت «نانا»:

ـ تصوُّره الخاص عن الكفَّارة.

كان صوت عربة اليد يجذب مريم و«نانا» إلى الخارج. ولسوف تظل مريم تتذكر هيئة «نانا» في «يوم التموين»: امرأة حافية القدمين، نحيلة وطويلة، تستند إلى فتحة الباب، عينها الكسول تضيق لتصبح أشبه بشقٍّ، وذراعاها معقودتان في تحدٍّ واستهزاء، شعرها القصير يلتمع في نور الشمس مكشوفًا ومنكوشًا، ترتدي قميصًا رماديًّا لا يناسب قياسها، أزراره مربوطة حتى حلقها، وجيوبه مملوءة بأحجار بحجم الجوز.

يجلس الصبيان بجوار الغدير وينتظران، بينما تنقل مريم و«نانا» التموين إلى «الكُلبه». لا يقتربان أكثر من ثلاثين مترًا حتى مع ضعف دقة «نانا» في التصويب وسقوط معظم الأحجار التي تلقيها بعيدًا جدًّا عن هدفها. تصرخ «نانا» في الصبيين وهي تحمل حقائب الأرز إلى الداخل، تشتمهما شتائم لا تفهمها مريم. تلعن أميهما، وتكشر في وجهيهما في حقد. لكنهما لا يردان الإهانات.

كانت مريم تشعر بالأسى للصبيين. تفكر مُشفقة أن أذرعهما وسيقانهما لا بد مُتعبة بعد دفع تلك الحمولة الثقيلة. تتمنى لو يُسمح لها أن تسقيهما. لكنها لا تقول شيئًا، وإذا لوَّحا لها لا تلوح لهما. بل ذات مرة، من أجل إسعاد «نانا»، صرخت مريم في محسن، قالت له إن فمه يشبه مؤخرة سحلية ـ وقد استولى عليها بعدها شعور بالذنب، والعار، والخوف من أن يخبرا جليلًا. لكن «نانا» ضحكت بقوة، وانكشفت سنها الأمامية المسوَّسة، حتى إن مريم ظنتها ستسقط في واحدة من نوباتها. نظرت إلى مريم عندما انتهت وقالت:

ـ أنت ابنة بارة.

بعد إفراغ حمولة العربة، يجرجر الصبيَّان أقدامهما ويدفعانها عائدين. تنتظر مريم وتراقبهما يختفيان في العشب الطويل والحشائش المزهرة.

ـ هل ستأتين؟

ـ نعم يا «نانا».

ـ إنهما يضحكان عليك. صدقيني. أنا أسمعهما.

ـ أنا آتية.

ـ لا تصدقينني؟

ـ هأنذا.

ـ تعرفين أنني أحبك يا مريم جو.

* * *

في الصباح، كانتا تستيقظان على ثغاء الأغنام البعيدة وصفير ناي حادٍ فيما يسوق رعاة جُل دامَن قطعانهم لترعى في سفح التل المعشوشب. تحلب مريم و«نانا» المعِز، وتطعمان الدجاج، وتجمعان البيض، وتخبزان الخبز معًا. علَّمتها «نانا» كيف تعجن العجين، كيف تُشعل التنور وتضرب العجين المفرود على جدرانه الداخلية. علَّمتها «نانا» الخياطة أيضًا، وطبخ الأرز ومختلف الإضافات: يخني «الشَّلغَم» باللفت، «سبزي» السبانخ، القنبيط بالزنجبيل.

لم تُخفِ «نانا» كراهيتها للزوَّار ـ بل للناس عمومًا ـ وإن كان لديها استثناءات قليلة. وهكذا كان زعيم جُل دامَن، «أرباب» القرية، حبيب خان، وهو رجل ملتحٍ له رأس صغير وكرش كبيرة، يمر عليهما مرَّة كل شهر أو

نحو ذلك، يتبعه خادم يحمل دجاجة، وقِدْر من أرز «الكيتشيري» أحيانًا، أو سلة من البيض الملون، لأجل مريم.

ثم هناك المرأة العجوز اللحيمة التي كانت «نانا» تدعوها «بيبي جو»، وكان زوجها الراحل حجّارًا وصديقًا لوالد «نانا». تأتي «بيبي جو» دومًا برفقة واحدة من «عروساتها» الست وحفيد أو اثنين. تقطع «الوَسَعاية» وهي تعرج وتنفخ، ثم تجعل من نفسها فُرجة وهي تحك وركها وتُجلس نفسها، بتنهيدة متألمة، على الكرسي الذي سحبته «نانا» لها. كانت «بيبي جو» تجلب شيئًا لمريم دائمًا: علبة من حلوى «الدشلمه»، سلة من السفرجل. أما لـ«نانا» فكانت تجلب أولًا شكاوى عن صحتها المعتلة، ثم نميمة من هِرات وجُل دامَن، تنقلها بالتفصيل بعد إضافة التوابل والبهارات، فيما تجلس زوجة ابنها خلفها وهي تنصت بصمت واحترام.

لكن أكثر من أحبته مريم، من بعد جليل بالطبع، هو الملا فيض الله، «الأخوند»، شيخ كُتّاب القرية المُسن. كان يأتي مرة أو مرتين أسبوعيًا من جُل دامَن ليُعلِّم مريم الصلوات الخمس وتلاوة القرآن، تمامًا كما علَّم «نانا» عندما كانت صغيرة. الملا فيض الله هو مَن علَّم مريم القراءة، هو مَن تابع بصبر شفتيها وهما تتهجيان الكلمات بلا صوت، وسبابتها تتلكأ على كلمة، تضغط حتى يبيضَّ ظفرها، كما لو كان بإمكانها أن تعتصر المعنى من الرموز. الملا فيض الله هو الذي أمسك بيدها، وأرشد قلمها الرصاص إلى الاستقامة في كل «ألف»، والانحناءة في كل «باء» والنقط الثلاث في كل «ثاء».

كان شيخًا هزيلًا، محني القامة، له ابتسامة هتماء ولحية بيضاء تصل إلى سُرَّته. عادة، يأتي بمفرده إلى «الكُلبه»، لكنه يصطحب أحيانًا ابنه

حمزة ذا الشعر الكستنائي، الذي يكبر مريم ببضع سنوات. عندما يظهر الملا فيض الله عند «الكُلبه»، تقبِّل مريم يده ـ وهو ما يشبه تقبيل غصون مكسوة بطبقة رقيقة من الجلد ـ ويقبِّل هو أعلى جبينها قبل أن يجلسا بالداخل للدرس. بعدها، يجلس الاثنان خارج «الكُلبه»، يأكلان الصنوبر ويرتشفان الشاي الأخضر، ويراقبان البلابل في اندفاعها من شجرة إلى شجرة. أحيانًا يتمشيان بين أوراق الشجر البرونزية الساقطة وشجيرات بجوار الماء، بحذاء الغدير وباتجاه الجبال. يدوِّر الملا فيض الله حبات سبحته وهما يتمشيان، وبصوته المرتعش، يحكي لمريم قصصًا عن كل ما شهده في شبابه، عن الحية ذات الرأسين التي رآها في إيران، عن جسر الثلاثة والثلاثين قوسًا في أصفهان، عن البطيخة التي شقَّها ذات مرة أمام الجامع الأزرق في «مزار»، فوجد بذورها تشكل كلمة «الله» على أحد النصفين و«أكبر» على النصف الآخر.

اعترف الملا فيض الله لمريم أنه، أحيانًا، لا يفهم معاني كلمات القرآن. لكنه قال إنه يحب الأصوات الساحرة التي تخرج من الكلمات العربية حين تتردد على لسانه. قال إنها تريحه، وتُطمئن قلبه:

ـ وسوف تريحك أنت أيضًا يا مريم جو. ردديها وقت الحاجة ولن يخيب مسعاك. كلمات الله لن تخذلك أبدًا يا ابنتي.

وكان الملا فيض الله ينصت إلى القصص كما يقصها. فعندما تتحدث مريم، يوليها كامل انتباهه. يومئ ببطء ويبتسم بنظرة عرفان، وكأنما رزقه الله بنعمة مرجوَّة. وكان من السهل على مريم أن تحكي للملا فيض الله أمورًا لا تجرؤ على أن تحكيها لـ«نانا».

ذات يوم، وهما يتمشيان، أخبرته مريم أنها تتمنى الذهاب إلى المدرسة.

ـ أقصد مدرسة حقيقية، يا «أخوند صاحب»، كما في غرفة الدرس. مثل بقية أطفال أبي.

توقف الملا فيض الله.

الأسبوع السابق، كانت «بيبي جو» قد جاءت بخبر أن ابنتي جليل، سيدة وناهيد، ستلتحقان بمدرسة «مهري» للبنات في هِرات. ومن وقتها ظلت الأفكار عن غرف الدرس والمدرِّسين تصطخب في عقل مريم، ومعها صور للكراسات ذات الصفحات المخططة، وأعمدة الأرقام، والأقلام التي تصنع علامات ثقيلة وداكنة. تصورت نفسها في غرفة درس مع فتيات أخريات من سنها. تشوفت مريم لأن تضع المسطرة على صفحة وترسم خطوطًا تبدو عليها الأهمية.

ـ هل هذا ما تريدينه؟

قالها الملا فيض الله، وهو ينظر إليها بعينين رقيقتين دامعتين، ويداه خلف ظهره المحني، وظل عمامته يسقط على بقعة من أزهار رجل الغراب المنتفشة.

ـ نعم.

ـ وتريدينني أن أطلب الإذن من أمك؟

ابتسمت مريم. وفكرت أن ما من شخص في العالم، ما عدا جليلًا، يفهمها أفضل من مُعلمها المُسن.

قال، وهو يربت على خدها بإصبع أصابها التهاب المفاصل:

ـ ماذا أفعل إذن؟ لقد جعل الله، بحكمته، في كل منا مواطن ضعف،

وأكبر مواطن ضعفي أنني لا أستطيع أن أرفض لك طلبًا يا مريم جو.

لكن لاحقًا، عندما فاتَح «نانا»، أسقطت السكين الذي كانت تقطع به البصل من يدها.

ـ ولأي سبب؟

ـ إذا كانت البنت تريد أن تدرس، دعيها تدرس يا عزيزتي. دعي البنت تحصل على تعليم.

ردت «نانا» بحدة:

ـ تعليم؟ أي تعليم يا «ملا صاحب»؟ ماذا هناك لتتعلمه؟

ثم رمقت مريم بعينيها:

ـ ما فائدة تعليم فتاة مثلك؟ الأمر مثل تنظيف مبصَقَة. ثم إنك لن تتعلمي شيئًا مفيدًا في تلك المدارس. هناك مهارة واحدة، واحدة فقط، تحتاجها النساء مثلك ومثلي في الحياة، وتلك المهارة لا يُعلمونها في المدرسة. انظري إليَّ.

قال الملا فيض الله:

ـ لا تتحدثي إليها بتلك الطريقة يا طفلتي.

ـ انظري إليَّ.

ونظرت مريم.

ـ مهارة واحدة. وتلك المهارة هي التحمُّل.

ـ تحمُّل ماذا يا «نانا»؟

ردت «نانا»:

ـ أوه، لا تقلقي نفسك. لن تعاني من أي نقص فيما يجب تحمُّله.

ثم أخذت تحكي كيف أن زوجات جليل كن ينعتنها بالقبيحة الوضيعة ابنة الحجَّار، ويجعلنها تغسل الملابس في الخارج حتى ينمل وجهها وتحترق أناملها من البرد.

ـ إنه قدرنا في الحياة يا مريم. قدر النساء أمثالنا. أن نتحمل. هذا كل ما لدينا. هل تفهمين؟ ثم إنهم سوف يضحكون عليك في المدرسة، صدقيني، وسوف يسمونك «حرامي». سوف يقولون عنك أفظع الأشياء. وأنا لن أسمح بذلك.

أومأت مريم برأسها.

ـ ولا حديث عن المدرسة مرة أخرى. ليس لديَّ سواكِ. ولن أدعهم يأخذونك مني. انظري إليَّ. لا حديث عن المدرسة مرة أخرى.

بدأ الملا فيض الله يقول:

ـ تعقلي! إذا كانت البنت...

ـ وأنت، يا «أخوند صاحب»، مع كل الاحترام، ما كان عليك أن تشجعها على أفكارها الحمقاء. إذا كنت تهتم بها حقًّا، اجعلها تفهم أن مكانها هنا، في البيت مع أمها. لا شيء بالخارج ينتظرها. لا شيء سوى الرفض ووجع القلب. أنا أعرف جيدًا يا «أخوند صاحب»، أعرف جيدًا.

٤

كانت مريم تحب مجيء الزوار إلى «الكُلبه». «أرباب» القرية بهداياه، «بيبي جو» بوركها المتوجعة ونميمتها التي لا تنتهي، وبالطبع، الملا فيض الله. لكن مريم لم تكن تشتاق إلى رؤية أحد، أي أحد، قدر اشتياقها لرؤية جليل.

يبدأ القلق في ليالي الثلاثاء، حيث تنام مريم نومًا مضطربًا، تخاف أن يطرأ طارئ في شغل جليل يمنعه عن زيارة يوم الخميس. أن تضطر للانتظار أسبوعًا آخر بأكمله قبل أن تراه. في أيام الأربعاء، تظل تروح وتجيء خارج «الكُلبه»، ترمي علف الدجاج في العشة بذهن شارد. تمضي في مشاوير بلا هدف، تقطف بتلات الأزهار، وتهش البعوض الذي يقرص ذراعيها. وأخيرًا، في أيام الخميس، لا يسعها إلا الجلوس وظهرها للحائط، عيناها مثبتتان على الغدير، تنتظر. إذا تأخر جليل، تظل الهواجس تحتدم بداخلها حتى تخور ركبتاها ويصبح عليها أن تذهب إلى مكان ما لكي تمدد جسدها.

ثم تناديها «نانا»:

ـ ها هو أبوك. بكامل بهائه.

تهب مريم عندما تراه ينط على الأحجار عابرًا الغدير، مبتسمًا وملوحًا لها بمرح. تعرف مريم أن «نانا» تراقبها، وتقيس ردة فعلها، وهكذا كانت تبذل جهدًا كبيرًا لكي تظل عند الباب، تنتظر، وتتابعه وهو يشق طريقه بطيئًا باتجاهها، من دون أن تركض ناحيته. كانت تكبح نفسها، تراقبه بصبر وهو يخوض في العشب الطويل، سترته مُعلقة على كتفه، والنسيم يطيِّر ربطة عنقه الحمراء.

عندما يدخل جليل إلى «الوَسَعاية»، يرمي بالسترة فوق التنور ويفتح ذراعيه. تمضي مريم إليه، ثم تجري. يرفعها من تحت ذراعيها ويرمي بها عاليًا، فتصرخ.

ترى مريم وهي مُعلقة في الهواء وجه جليل المقلوب بالأسفل، ابتسامته الواسعة المقوسة، المثلث الذي يرسمه شعره لدى التقائه بجبهته، ذقنه المشقوق ـ نقرة تتسع بالضبط لقمة خنصرها، أسنانه، الأكثر بياضًا في بلدة الضروس المسوَّسة. أحبت شاربه المشذَّب، وكونه يرتدي سترة في زياراته أيًّا كانت حالة الطقس ـ سترة بُنية داكنة، لونه المفضل، يخرج من جيب صدرها مثلث المنديل الأبيض ـ لها أزرار أكمام أيضًا، وربطة عنق، حمراء عادةً، يتركها مفكوكة. كذلك ترى مريم نفسها، منعكسة في عيني جليل البُنِّيتين: شعرها يتموج، ووجهها يلمع من الإثارة، والسماء تمتد من خلفها.

كانت «نانا» تقول إنه سيفلتها ذات يوم، لتنزلق بين أصابعه وتسقط أرضًا وتنكسر إحدى عظامها. لكن مريم لم تصدق أن جليلًا يمكن أن يفلتها. كانت واثقة أنها ستهبط بأمان دائمًا بين يدي والدها النظيفتين بأظافرهما المقلمة.

يجلسان خارج «الكُلبه»، في الظلام، وتحضر لهما «نانا» الشاي. تتبادل مع جليل ابتسامة مضطربة وإيماءة، من دون أن يتطرَّق جليل أبدًا إلى موضوع الحجارة التي ترميها «نانا» أو الشتائم التي تكيلها.

وعلى الرغم من تبجح «نانا» على جليل في غير وجوده، كانت تخشع وتصير مهذبة في زيارته. تغسل شعرها دائمًا، وتنظف أسنانها، وتضع أفضل حجاب من أجله. تجلس ساكنة على كرسي مقابل له، يداها مطبقتان في حجرها. لم تنظر إليه مباشرة قطُّ، ولم تتكلم بفظاظة في وجوده. وعندما تضحك، كانت تغطي فمها بإحدى قبضتيها لتخفي السنَّ المعطوبة.

كانت «نانا» تسأله عن أحوال العمل، وعن زوجاته أيضًا. وعندما أخبرته أنها سمعت من «بيبي جو» أن زوجته الصغرى، نرجس، تنتظر مولودها الثالث، ابتسم جليل بكياسة وأومأ برأسه.

قالت «نانا»:

ـ لا بد أنك سعيد. كم لديك الآن؟ عشرة، أليس كذلك، ما شاء الله! عشرة؟

قال جليل:

ـ نعم، عشرة.

ـ أحد عشر، إذا حسبت مريم، بالطبع.

لاحقًا، بعدما غادر جليل إلى بيته، خاضت مريم و«نانا» عراكًا صغيرًا حول الأمر. إذ قالت مريم إنها خدعته.

بعد الشاي مع «نانا»، تذهب مريم وجليل للصيد في الغدير. علَّمها كيف ترمي الخيط، وكيف تسحب السالمون المرقط. علَّمها الطريقة الصحيحة لفتح سمكة السالمون، وتنظيفها، ونزع اللحم عن العظم في حركة واحدة. رسم لها صورًا وهما ينتظران ضربة حظ، وعلَّمها كيف ترسم فيلًا بخط واحد من دون أن ترفع القلم عن الورقة. علَّمها القوافي. وغنَّيا معًا:

حوض العصافير

واسع وكبير

مينو جاءت تشرب

نزلت أقرب أقرب

ابتلعتها البير

كان جليل يجلب قصاصات من صحيفة هِرات، «اتفاق إسلام» ويقرأ لها منها. كان حلقة الوصل بالنسبة إلى مريم، دليلها على وجود عالم فسيح، وراء «الكُلبه»، وراء جُل دامَن وهِرات أيضًا، عالم من رؤساء ذوي أسماء عصية على النطق، وقطارات ومتاحف وكرة قدم، وصواريخ تدور حول الأرض وتهبط على القمر، وكل خميس كان جليل يجلب قطعة من ذلك العالم معه إلى «الكُلبه».

هو مَن أخبرها أنه في صيف عام ١٩٧٣، ومريم في الرابعة عشرة، جرت الإطاحة بالملك ظاهر شاه، الذي حكم من كابل أربعين عامًا، في انقلاب سلمي:

ـ أطاح به ابن عمه داود خان عندما كان الملك في إيطاليا يتلقى العلاج. تتذكرين داود خان، صح؟ حكيت لك عنه. كان رئيس وزراء في كابل عندما ولدتِ. على أية حال، لم تعد أفغانستان مملكة، يا مريم. إنها جمهورية الآن، وداود خان هو الرئيس. تقول الشائعات إن الاشتراكيين في كابل ساعدوه على الاستيلاء على السلطة. لا أقول إنه اشتراكي، بل فقط إنهم ساعدوه. تلك هي الشائعة بأية حال.

سألته مريم ما هو الاشتراكي، وبدأ جليل يشرح، لكن مريم كانت بالكاد تسمعه.

ـ هل تنصتين؟

ـ نعم.

رآها تنظر إلى بروز في جيب معطفه الجانبي.

ـ آه طبعًا. حاضر. ها هي الآن، من دون مزيد من التأخير...

أخرج علبة صغيرة من جيبه وناولها إياها. كان يفعل ذلك من وقت إلى آخر، يجلب لها هدايا صغيرة، سوارًا من العقيق في مرة، وعقدًا من خرز لازوردي في أخرى. ذاك اليوم، فتحت مريم العلبة فوجدت قلادة على شكل ورقة شجر، تتدلى منها عملات فضية صغيرة منقوش عليها أقمار ونجوم.

ـ جربيها يا مريم جو.

وجربتها.

ـ ما رأيكَ؟

أشرق وجه جليل.

ـ رأيي أنك تبدين مثل ملكة.

بعدما غادر، رأت «نانا» القلادة حول عنق مريم.

قالت:

ـ حليُّ البدو الرُّحل. رأيتهم يصنعونها. يذيبون العملات التي يرميها الناس إليهم ويصنعون مصوغات. لنره يأتي لك بذهب حقيقي المرَّة القادمة، أبوك الغالي هذا. لنرَ.

عندما يحين وقت رحيل جليل، تقف مريم عند الباب وتراقبه وهو يخرج من «الوَسَعاية»، محبطة وهي تفكر في الأسبوع الذي يقف، مثل جرم هائل لا يتزحزح، بينها وبين زيارته التالية. تكتم مريم أنفاسها وهي تراه يمضي. تكتم أنفاسها وتعد الثواني في رأسها. تتظاهر أن الله سوف يمنحها يومًا إضافيًّا مع جليل مقابل كل ثانية لا تتنفس فيها.

في الليل، ترقد مريم على مرتبتها وتتساءل كيف يبدو منزله في هِرات. تتساءل كيف تكون المعيشة معه، رؤيته كل يوم. تتصور نفسها تناوله فوطة بعدما ينتهي من حلاقة ذقنه، تنبهه عندما يجرح نفسه. سوف تعد له الشاي. سوف تخيط له أزراره المقطوعة. سوف يتمشيان في هِرات معًا، في السوق ذات السقف المقبب حيث قال جليل إن بإمكانك العثور على أي شيء تريده. سوف يستقلان سيارته، وسوف يشير الناس إليهما ويقولون: «ها هو جليل خان مع ابنته». سوف يريها الشجرة الشهيرة التي دُفن تحتها شاعر.

قررت مريم أنها ستخبر جليلًا بما تفكر فيه عما قريب. وعندما يسمعها، عندما يعرف كم تفتقده حين يرحل، سوف يأخذها معه بكل تأكيد. سوف يأخذها إلى هِرات، لتعيش في بيته، مثل أطفاله الآخرين.

٥

قالت مريم لجليل:

ـ أعرف ماذا أريد.

كان ربيع عام ١٩٧٤، حين أتمت مريم عامها الخامس عشر. كان ثلاثتهم يجلسون خارج «الكُلبه»، في ظلال أشجار الصفصاف، على كراسي قابلة للطي، مرتبة في مثلث.

ـ أعرف ماذا أريد في عيد ميلادي.

قال جليل وهو يبتسم مشجعًا:

ـ حقًّا؟

قبل أسبوعين، وبعد إلحاح من مريم، أفلت لسان جليل وقال إن السينما التي يملكها تعرض فيلمًا أمريكيًّا من نوع خاص، أسماه الرسوم المتحركة. قال إنه عبارة عن سلسلة من الرسومات، آلاف الرسومات، عندما تُجمع في فيلم وتُعرض على شاشة يساورك وهمٌ أن الرسومات تتحرك. قال جليل إن الفيلم يحكي قصة صانع دُمى مُسن لم ينجب، يشعر

بالوحدة ويتحرق شوقًا إلى طفل. وهكذا ينحت دُمية على هيئة صبي تنبعث فيها الحياة بطريقة سحرية. طلبت منه مريم أن يحكي لها المزيد، فقال جليل إن الرجل المُسن ودُميته يخوضان مغامرات عديدة، وإن هناك مكانًا يسمى «أرض المتعة»، وأطفالًا أشقياء يُمسخون حميرًا، بل يبتلعهما حوت في النهاية، الدُّمية ووالده. وأخبرت مريم الملا فيض الله بكل شيء عن الفيلم.

وها هي مريم تقول:

ـ أريدك أن تأخذني إلى السينما. أريد أن أرى الرسوم المتحركة. أريد أن أرى الولد الدُّمية.

عندها، شعرت مريم بتغير في الأجواء. تململ والداها في كرسييهما. وأحست بهما يتبادلان النظرات.

قالت «نانا»:

ـ هذه ليست فكرة جيدة.

كان صوتها هادئًا، يحمل النبرة المهذبة المنضبطة التي تستخدمها في وجود جليل، لكن مريم رأت في عينيها نظرة اتهام قاسية.

راوح جليل مكانه على الكرسي. سعل وتنحنح. قال:

ـ تعرفين. صورة الفيلم ليست بتلك الجودة. ولا الصوت. وجهاز العرض أصبح يتعطل مؤخرًا. ربما تكون أمك مُحقة. ربما يمكنك التفكير في هدية أخرى يا مريم جو.

قالت «نانا»:

ـ هل ترين؟ أبوك يوافقني.

* * *

لكن لاحقًا، عند الغدير، قالت مريم:

ـ خذني.

قال جليل:

ـ سأقول لك شيئًا. سأرسل شخصًا ليأتي ويأخذك. سأتأكد من حصولك على مقعد متميز وعلى كل الحلوى التي تريدينها.

ـ لا، أريدك أنت أن تأخذني.

ـ مريم جو...

ـ وأريدك أن تدعو إخوتي وأخواتي أيضًا. أريد أن أقابلهم. أريد أن نذهب كلنا معًا. هذا ما أريده.

تنهد جليل، ونظر بعيدًا باتجاه الجبال.

تذكرت مريم وهو يخبرها أن وجه الإنسان على الشاشة يبدو كبيرًا مثل بيت، وأنه حين تتحطم سيارة تشعر بمعدنها ينغرس في عظامك. تصورت نفسها جالسة في مقاعد المقصورات الخاصة، تلعق «الآيس كريم»، وجوارها إخوتها وجليل. قالت:

ـ هذا ما أريده.

نظر جليل إليها وقد بدا عليه البؤس.

ـ غدًا. ظهرًا. سأقابلك في هذا المكان نفسه. تمام؟ غدًا؟

قال:

ـ تعالي هنا.

جثا على ركبتيه، وسحبها تجاهه، وظل ممسكًا بها طويلًا، طويلًا جدًّا.

* * *

في البداية، أخذت «نانا» تذرع «الكُلبه»، تضم قبضتيها وتفردهما.

ـ من بين كل البنات، لماذا أعطاني الله ابنة جاحدة مثلك؟ كل ما تحملته من أجلك! كيف تجرئين! كيف تجرئين على التخلي عني بتلك الطريقة، أيتها «الحرامي» الصغيرة الخائنة!

ثم شرعت تهزأ منها:

ـ يا لكِ من فتاة غبية! تظنين أنه يهتم بك، أنك مرغوبة في بيته؟ تظنين أنك ابنة له؟ أنه سوف يأخذك لتعيشي معه؟ دعيني أقل لك شيئًا: إن قلب الرجل خبيث خبيث، يا مريم. ليس مثل رحم الأم. لا ينزف، ولا يتمدد ليفسح لك مكانًا. أنا الشخص الوحيد الذي يحبك. أنا كل ما لديك في هذا العالم يا مريم، وعندما أرحل لن يكون لديكِ شيء. لن يكون لديكِ شيء. لن تكوني شيئًا!

ثم حاولت أن تشعرها بالذنب:

ـ سأموت إذا ذهبتِ. سيأتي الجن، وتصيبني واحدة من النوبات. سوف ترين. سأبتلع لساني وأموت. لا تتركيني يا مريم جو. أرجوكِ ابقي. سأموت إذا ذهبتِ.

لكن مريم لم تنطق بشيء.

ـ تعرفين أنني أحبك يا مريم جو.

قالت مريم إنها ذاهبة لتتمشى.

خافت أن تقول أشياء مؤلمة إن هي بقيت: إنها تعرف أن الجن كذبة. إن جليلًا أخبرها أن ما تعاني منه «نانا» هو مرض له اسم ويمكن للحبوب أن تحسنه. ربما تسأل «نانا» لماذا ترفض رؤية الأطباء الذين يحضرهم جليل على الرغم من إصراره؟ لماذا لا تتناول الحبوب التي يشتريها لها. ولو كانت قادرة على صياغة العبارة، لربما قالت لـ«نانا» إنها تعبت من أن تكون أداة، من أن يُكذب عليها، يُطالب بها، تُستغل. إنها ملَّت من ليِّ «نانا» لحقائق حياتهما، وجعلها، مريم، وجهًا آخر من أوجه حنقها على العالم.

لربما قالت: «أنت خائفة يا «نانا». أنت خائفة أن أجد سعادة لم تعرفيها. ولا تريدين لي السعادة. لا تريدين لي حياة طيبة. صاحب القلب الخبيث هو أنت».

* * *

كانت هناك نقطة مراقبة، على حافة «الوَسَعاية»، تحب مريم الذهاب إليها. ها هي تجلس عندها على العشب الدافئ الجاف، تطل على هِرات المنبسطة بأسفل مثل رقعة لعب: «حديقة النساء» في شمال المدينة، «سوق تشهار» وأطلال قلعة الإسكندر الأكبر القديمة في الجنوب. يمكنها أن تتبين المآذن في البعيد، مثل أصابع عمالقة متربة، والشوارع التي تخيلتها تعج بالناس والعربات والبغال. ترى عصافير السنونو تنطلق وتدور فوق رأسها. وتحسد تلك الطيور. لقد ذهبت إلى هِرات، طارت

فوق جوامعها وأسواقها. وربما هبطت على أسوار بيت جليل، على السلالم الأمامية لسينماه.

التقطت عشر حصوات ورتبتها أفقيًّا في ثلاثة أعمدة. لعبة تلعبها وحدها من وقت إلى آخر بعيدًا عن أنظار «نانا». تضع أربع حصوات في العمود الأول، تمثل أطفال خديجة، وثلاثًا لأطفال «أفسون»، وثلاثًا في العمود الثالث لأطفال نرجس. ثم تضيف عمودًا رابعًا. حصاة حادية عشرة وحيدة.

* * *

في الصباح التالي، ارتدت مريم فستانًا كريميًّا يصل إلى ركبتيها، وبنطالًا قُطنيًّا، وطرحة خضراء على رأسها. تذمرت قليلًا من الطرحة كونها خضراء ولا تنسجم مع الفستان، لكن عليها أن تقبل بها ـ إذ أكلت العث طرحتها البيضاء.

نظرت إلى الساعة. ساعة قديمة بزنبرك، لها أرقام سوداء على وجه أخضر بلون النعناع، هدية من الملا فيض الله. كانت التاسعة. وتساءلت: أين «نانا»؟ فكرت أن تخرج وتُلقي نظرة عليها، لكنها خافت من المواجهة، من النظرات البائسة. ستتهمها «نانا» بخيانتها. ستسخر من طموحاتها الواهمة.

جلست مريم. حاولت أن تجعل الوقت يمر بأن ترسم فيلًا بخط واحد، كما علَّمها جليل، مرة بعد مرة. تيبست عضلاتها من طول الجلوس لكنها لم ترقد خشية أن يتكرمش فستانها.

عندما أشارت العقارب أخيرًا إلى الحادية عشرة والنصف، وضعت مريم الحصوات الإحدى عشرة في جيبها وخرجت. في طريقها إلى

الغدير، رأت «نانا» تجلس على كرسي، في الظلال، أسفل السقف المقبب لصفصافة بابلية. ولم تعرف مريم ما إذا كانت «نانا» قد رأتها أم لا.

عند الغدير، انتظرت مريم بقرب المكان الذي اتفقا عليه في اليوم السابق. في السماء، انسابت بضع سحابات رمادية تشبه القنبيط. كان جليل قد علَّمها أن السحابات الرمادية تكتسب لونها من فرط كثافتها، حتى إن أجزاءها العليا تمتص أشعة الشمس وتلقي ظلالها على قاعدتها. قال: «هذا ما ترينه يا مريم جو، الجزء الداكن في أحشائها».

ومر بعض الوقت.

عادت مريم إلى «الكُلبه». تلك المرة، دارت حول الطرف الغربي للـ«وَسَعاية» حتى لا تضطر إلى المرور بـ«نانا». نظرت إلى الساعة. كانت تقارب الواحدة.

فكرت مريم: «إنه رجل أعمال. لا بد أن طارئًا قد حدث».

عادت إلى الغدير وانتظرت برهة أخرى. دارت الشحارير فوق رأسها، غطست في مكان ما وسط العشب. راقبت يرقة تزحف على حسكة طرية.

انتظرت حتى تيبست ساقاها. تلك المرَّة، لم تعد إلى «الكُلبه»، بل ثنت بنطالها إلى الركبتين، وعبرت الغدير، وللمرَّة الأولى في حياتها نزلت التل باتجاه هِرات.

* * *

كانت «نانا» مخطئة بشأن هِرات أيضًا. لم يشر أحد إليها. لم يضحك أحد منها. مضت مريم في شوارع صاخبة، مزدحمة، تحفها أشجار السرو،

وسط تيار لا ينقطع من المشاة وراكبي الدَّراجات وعربات «الجاري» التي تجرها البغال. لم يرشقها أحد بحجر. لم ينادها أحد «حرامي». بل لم ينظر إليها أحد تقريبًا. كانت، على غير المتوقع، شخصًا عاديًّا على نحو رائع هنا.

لبرهة، وقفت مريم بجوار بركة بيضوية وسط متنزه كبير حيث تتقاطع ممرات مفروشة بالحصى. مرت بأصابعها، متعجبة، على الجياد الرخامية الجميلة التي تقف بطول حافة البركة تحدق في المياه بالأسفل بعيون مطفيَّة. تلصصت على مجموعة من الصبية يدفعون سفنًا ورقية على سطح البحيرة. رأت مريم أزهارًا في كل مكان، توليب، زنبق، بتونيا، بتلاتها مغسولة بنور الشمس. وكان الناس يسيرون في الممرات، ويجلسون على المقاعد الطويلة، ويرتشفون الشاي.

لا تكاد مريم تصدق أنها هنا. قلبها يخفق من الإثارة. تمنت لو يراها الملا فيض الله الآن. كم سيجدها جريئة وشُجاعة! لقد أسلمت نفسها للحياة الجديدة التي تنتظرها في هذه المدينة، حياة مع أبٍ، مع أخوات وإخوة، حياة سوف تحِب فيها وتتلقى الحُب، بلا تحفُّظ أو غرض، بلا خجل.

بخفة، مضت عائدة إلى الطريق الرئيسي الواسع قرب المتنزه. مرت بباعة مُسنين، لهم وجوه كالجلد المدبوغ، يجلسون في ظلال أشجار الدلب، ينظرون إليها بلامبالاة من خلف أهرام من الكرز وأكوام من العنب. الأولاد الحفاة يطاردون السيارات والحافلات، يلوحون بأكياس السفرجل. وقفت مريم عند ناصية شارع وراقبت المارة، وهي لا تفهم كيف يتعاملون مع ما حولهم من أعاجيب بهذا الفتور.

بعد قليل، استجمعت شجاعتها وسألت صاحب عربة «جاري» يجرها

حصان عما إذا كان يعرف بيت جليل، صاحب السينما. كان شيخًا له خدان ممتلئان، يرتدي قفطان «شابان» ملونًا بألوان قوس قزح. قال برفق:

ـ أنتِ لستِ من هِرات، أليس كذلك؟ الجميع يعرفون أين يعيش جليل خان.

ـ هل يمكن أن تدلَّني؟

فتح قطعة حلوى ملفوفة بورق مفضض وقال:

ـ هل أنتِ وحدكِ؟

ـ نعم.

ـ اقفزي. سآخذك إليه.

ـ لا أستطيع أن أدفع لك. لا أملك نقودًا.

أعطاها الحلوى. قال إن أحدًا لم يطلبه في توصيلة منذ ساعتين وإنه كان يستعد للعودة إلى داره على أية حال. ومنزل جليل في طريقه.

قفزت مريم في عربة «الجاري». جلسا صامتَين، جنبًا إلى جنب. وفي الطريق، رأت مريم محلات العطارة، وتجاويف مكعبة مفتوحة الواجهة حيث يشتري المتبضعون البرتقال والكمثرى، والكتب، والشيلان، بل الصقور. كان الأطفال يلعبون «البلي» في دوائر مرسومة على التراب. وأمام المقاهي، على دكك خشبية مفروشة بالحصر، جلس الرجال يشربون الشاي ويدخنون النارجيل.

انعطف الشيخ في شارع واسع تحفه أشجار الصنوبر. وأوقف حصانه في المنتصف:

ـ ها هو. يبدو أنك محظوظة يا «دُختَر جو»، فتلك هي سيارته.

قفزت مريم من العربة. وابتسم هو مواصلًا طريقه.

* * *

لم تكن مريم قد لمست سيارة من قبل. مررت أصابعها على مُقدِّمة سيارة جليل السوداء اللامعة ذات الإطارات البرَّاقة، حيث رأت مريم صورة منفردة مستعرَضة لها. المقاعد مصنوعة من الجلد الأبيض. وخلف عجلة القيادة، رأت مريم لوحات زجاجية مستديرة وراءها مؤشرات.

للحظة، سمعت مريم صوت «نانا» في رأسها، تهزأ بها، تطفئ جذوة الأمل المشتعلة في أعماقها. تقدمت مريم نحو الباب الأمامي للمنزل بساقين مرتجفتين. وضعت يديها على السور، كان عاليًا جدًّا، ومقبضًا جدًّا. أسوار جليل. كان عليها أن تشرئب بعنقها لكي ترى أشجار السرو التي تبرز قممها من الجانب الآخر. كانت قمم الأشجار تتمايل مع النسيم، وتخيلت أنها تومئ لها مُرحبة. تماسكت مريم أمام أمواج الفزع التي تضربها.

فتحت الباب امرأة شابة حافية القدمين، لها وشم أسفل شفتها السفلى.

ـ جِئت لأرى جليل خان. أنا مريم، ابنته.

ارتسمت نظرة ارتباك على وجه الفتاة. ثم ظهر على وجهها بريق الانتباه. ابتسمت ابتسامة شاحبة ودبت فيها الحماسة والتوجس. قالت بسرعة:

ـ انتظري هنا.

وأغلقت الباب.

مرَّت بضع دقائق، ثم فتح رجل الباب. كان طويلًا بكتفين مُربعتين، له عينان ناعستان ووجه هادئ.

قال بلهجة لا تخلو من الرِّقة:

ـ أنا «شوفير» جليل خان.

ـ أنت ماذا؟

ـ سائقه الخاص. جليل خان ليس هنا.

قالت مريم:

ـ لكني أرى سيارته.

ـ لقد خرج في عمل طارئ.

ـ متى سيعود؟

ـ لم يقل.

قالت مريم إنها ستنتظر.

أغلق البوابة. جلست مريم، وضمت ركبتيها إلى صدرها. كان المساء قد حل بالفعل، وبدأت تشعر بالجوع. تناولت قطعة الحلوى التي أعطاها لها سائق «الجاري». وبعد فترة، خرج السائق مجددًا.

قال:

ـ يجب عليك العودة إلى المنزل الآن. ستُظلم بعد أقل من ساعة.

ـ أنا معتادة على الظلام.

ـ سيبرد الجو أيضًا. لماذا لا تتركينني أوصلك إلى المنزل؟ سأخبره أنك كنت هنا.

لكن مريم نظرت إليه من دون رد.

ـ سآخذك إلى فندق، إذن. يمكنك أن تنامي هناك نومًا مريحًا. وفي الصباح سنرى ماذا نفعل.

ـ أدخلني إلى البيت.

ـ لقد تلقيت أوامر ألا أفعل ذلك. اسمعي، لا أحد يعرف متى سيعود. ربما بعد أيام.

عقدت مريم ذراعيها.

تنهد السائق ونظر إليها بعتاب رقيق.

على مدار الأعوام، سيكون لدى مريم فرصة وافرة للتفكير فيما كانت ستؤول إليه الأمور لو تركت السائق يعيدها إلى «الكُلبه». لكنها لم تفعل، وإنما قضت الليل أمام منزل جليل. راقبت السماء تظلم، والظلال تغمر واجهات المنازل المجاورة. جلبت لها الفتاة ذات الوشم بعض الخبز وطبقًا من الأرز، قالت مريم إنها لا تريده. تركته الفتاة بالقرب من مريم. من وقت إلى آخر، كانت مريم تسمع وقع أقدام في الشارع، أبوابًا تُفتح، ترحابًا مكتومًا. أُشعلت أضواء كهربائية، والتمعت نوافذ بخفوت. نبحت كلاب. عندما لم تعد مريم تستطيع مقاومة الجوع، أكلت طبق الأرز والخبز. ثم أنصتت إلى صراصير الليل وهي تسقسق في الحدائق. ومن فوقها، انسابت السُّحب تحت قمر شاحب.

في الصباح، وجدت مَن يهزها ليوقظها، وأدركت أن شخصًا قد جاء في الليل وغطاها ببطانية.

كان السائق هو مَن يهز كتفيها.

ـ يكفي هذا، لقد جعلت من نفسك فرجة. «بَسْ». حان وقت العودة.

اعتدلت مريم جالسة وفركت عينيها. شعرت بألم في ظهرها ورقبتها.

ـ سأنتظره.

قال:

ـ انظري إليَّ. جليل خان يقول إنني يجب أن أُعيدك الآن. الآن. هل تفهمين؟ جليل خان يقول هذا.

فتح الباب الخلفي للسيارة، وقال بِرقة:

ـ «بيا». هيا!

قالت مريم وعيناها تدمعان:

ـ أريد أن أراه.

تنهد السائق.

ـ دعيني أصحبك إلى المنزل. هيَّا يا «دُختَر جو».

نهضت مريم وسارت ناحيته. لكنها، في اللحظة الأخيرة، غيَّرت اتجاهها وركضت نحو البوابة الأمامية. شعرت بأصابع السائق تنطلق لتقبض على كتفها. نفضته واندفعت عبر البوابة المفتوحة.

في الثواني القليلة التي قضتها في حديقة جليل، رصدت عينا مريم هيكلًا زجاجيًّا براقًا بداخله نباتات، كرمات عنب مُعلَّقة على تعريشات خشبية، حوض أسماك مبني بأحجار رمادية، أشجار فاكهة، شجيرات بأزهار زاهية الألوان في كل مكان. مسحت نظرتها كل تلك الأشياء قبل أن تلمح وجهًا عبر الحديقة، في نافذة بالطابق العلوي. لم يظل الوجه إلا لحظة واحدة، لمحة كالبرق، لكنها كافية. كافية لأن ترى مريم العينين تتسعان، والفم ينفتح. ثم اندفع مبتعدًا عن الأنظار. وظهرت يدٌ شدت حبلًا بعنف، فسقطت الستائر.

ثم غاصت يدان أسفل إبطيها فارتفعت عن الأرض. رفست مريم. وسقطت الحصوات من جيبها. ظلت مريم ترفس وتصرخ وهي تُحمَلُ إلى السيارة وتُنزَلُ على الجلد البارد للمقعد الخلفي.

* * *

أخذ السائق يتحدث بنبرة خافتة مُعزية وهو يقود السيارة. لم تسمعه مريم. طوال الرحلة، وهي تنط على المقعد الخلفي، كانت تبكي. دموع حزن، وغضب، وخيبة أمل. لكنها بالأساس دموع خجل عميق عميق، من سذاجتها التي جعلتها تودع ثقتها في جليل، كيف شغلت بالها باختيار فستان، وبالطرحة التي لا تتسق معه، كيف قطعت كل هذا الطريق، ورفضت المغادرة، ونامت في الشارع مثل كلب ضال. شعرت بالخجل لأنها تجاهلت نظرات أمها المكسورة، وعينيها المنتفختين. «نانا»، التي حذَّرتها، التي كانت مُحقة طوال الوقت.

ظلت مريم تفكر في وجهه الذي ظهر في نافذة الطابق العلوي. لقد تركها تنام في الشارع. في الشارع. بكت مريم وهي راقدة. لم تجلس،

لم ترغب في أن يراها أحد. تخيلت أن هِرات كلها عرفت هذا الصباح كيف أذلَّت نفسها. وتمنت لو كان الملا فيض الله هنا حتى تضع رأسها على حِجره وتتركه يخفف عنها.

بعد فترة، أصبح الطريق أكثر وعورة، وبدأت مقدمة السيارة ترتفع. كانا على الطريق الصاعد إلى التل بين هِرات وجُل دامَن.

تساءلت مريم: ماذا ستقول لـ«نانا»؟ كيف ستعتذر؟ بل كيف ستتمكن من مواجهة «نانا» الآن؟

توقفت السيارة وساعدها السائق على الخروج. قال:

ـ سأسير معكِ.

تركته يقودها في الطريق وفي الدرب الصاعد. كانت زهور العسلة تنمو بطول الممر، وعشبة اللبن أيضًا. والنحلات تطن فوق الزهور البرية المتلألئة. تناول السائق يدها وساعدها على عبور الغدير. ثم تركها، وأخذ يتكلم عن رياح المائة والعشرين يومًا التي تشتهر بها هِرات، وكيف أنها ستبدأ في الهبوب قريبًا، بدءًا من منتصف الصباح وحتى الغسق، وكيف سيصاب ذباب الرمال بالفَجَع. ثم فجأة، وقف أمامها وحاول أن يخفي عينيها، وأخذ يدفعها إلى الخلف من حيث جاءا وهو يقول:

ـ ارجعي! لا! لا تنظري الآن! استديري! ارجعي!

لكنه لم يكن سريعًا بما يكفي. فرأت مريم. عصفة ريح هبَّت وباعدت بين الفروع المدلاة لأشجار الصفصاف البابلية فكأنما هي ستارة وانفتحت، ولمحت مريم ما كان خلف الشجرة: الكرسي ذو المقعد المستقيم مقلوب. الحبل المتدلي من فرع عالٍ. و«نانا» وهي تتأرجح من طرفه.

٦

دفنوا «نانا» في ركن من مقبرة جُل دامَن. وقفت مريم بجوار «بيبي جو»، مع النساء، فيما أخذ الملا فيض الله يقرأ القرآن على القبر والرجال يُنزلون جسد «نانا» المكفَّن داخل الأرض.

بعدها، سار جليل مع مريم إلى «الكُلبه»، حيث بالغ في إظهار اعتنائه بمريم أمام مَن رافقهما من القرويين. لملم بعضًا من متاعها، ووضعه في حقيبة. جلس بجوار مرتبتها، حيث استلقت، وروَّح على وجهها. ربَّت على جبينها، وسألها، وقد علا وجهه الهم، إذا كانت تحتاج إلى «أي شيء؟ أي شيء؟» قالها هكذا، مرتين.

قالت مريم:

ـ أريد الملا فيض الله.

ـ طبعًا، إنه في الخارج. سأحضره لك.

حينئذ، ومع ظهور هيئة الملا فيض الله بجسده النحيل المنحني عند باب «الكُلبه»، بكت مريم لأول مرة ذلك اليوم.

ـ آه يا مريم جو.

جلس إلى جوارها وأمسك بوجهها بين كفيه.

ـ ابكي يا مريم جو. هيا. لا تخجلي من البكاء. لكن تذكري يا ابنتي، قوله في كتابه العزيز: «تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا». إن القرآن لا ينطق إلا بالحق يا ابنتي. ولله حكمته من وراء كل ابتلاء يصيبنا به.

لكن مريم لم تجد في كلمات الله راحة. ليس يومها. ليس ساعتها. لم تكن تسمع سوى «نانا» وهي تقول «سأموت إذا ذهبتِ. سأموت». لم يسعها إلا أن تبكي وتبكي وتترك دموعها تتساقط على جلد يدي ألملا فيض الله المبرقش، والرقيق مثل ورقة.

* * *

في الطريق إلى المنزل، جلس جليل مع مريم في المقعد الخلفي لسيارته، ذراعه مُعلقة على كتفها.

قال:

ـ يمكنك البقاء معي يا مريم جو. لقد طلبت منهم أن يجهزوا لك حجرة في الطابق العلوي. أعتقد أنك ستحبينها. إنها تطل على الحديقة.

للمرة الأولى، تسمعه مريم بأذني «نانا». تسمع الآن بكل وضوح المراء الذي طالما كان كامنًا تحت تطميناته الفارغة الزائفة. ولم تستطع النظر إليه.

عندما توقفت السيارة أمام منزل جليل، فتح السائق لهما الباب وحمل حقيبة مريم. وضع جليل كفيه على كتفي مريم وقادها عبر البوابة نفسها

التي، قبل يومين، نامت على الرصيف أمامها تنتظره. قبل يومين ـ حين لم تكن مريم ترغب في شيء في العالم قدر السير في تلك الحديقة بصحبة جليل. زمن بدا لها حياة أخرى. وسألت مريم نفسها، كيف انقلبت حياتها رأسًا على عقب بتلك السرعة. ظلت تنظر إلى الأرض، إلى قدميها، وهي تسير على الممر الحجري الرمادي. تدرك وجود أناس في الحديقة، يغمغمون، يتنحون جانبًا، حين يمر جليل من أمامهم. شعرت بثقل عيون عليها، تنظر من نوافذ الطابق العلوي.

داخل المنزل أيضًا، أبقت مريم رأسها منكسًا. سارت على سجادة كستنائية يتكرر عليها شكل هندسي ثُماني الأضلاع بالأزرق والأصفر، ولمحت بطرف عينها القواعد الرخامية للتماثيل، والأنصاف السفلى من المزهريات، و«شراشيب» المنسوجات المزركشة متعددة الألوان المعلقة على الجدران. كانت السلالم التي صعدتها هي وجليل عريضة ومغطاة بسجادة شبيهة، مسمَّرة في قاعدة كل درجة. وعند أعلى السلم، قادها جليل إلى اليسار، عبر ردهة أخرى طويلة مفروشة بالسجاد. وقف بجوار أحد الأبواب، وفتحه، وأدخلها.

قال جليل:

ـ أختاكِ، «نيلوفَر» وعطية، تلعبان هنا أحيانًا. لكن أغلب الوقت نستخدم هذه الغرفة للضيوف. أعتقد أنك ستشعرين بالراحة هنا. إنها لطيفة، أليست كذلك؟

كان بالغرفة سرير له بطانية مزدانة بالزهور الخضراء، محبوكة بعُقَد ضيقة بتصميم أقراص العسل. الستائر مفتوحة تكشف الحديقة بالأسفل، وتنسجم مع البطانية. وبجوار السرير طاولة جانبية بثلاثة أدراج عليها

مزهرية. وبطول الجدران أرفف عليها صور لأناس لم تتعرف عليهم مريم. ورأت مريم على أحد الأرفف مجموعة من الدُّمى الخشبية المتماثلة، مرتبة في صف من الكبرى إلى الصغرى.

رآها جليل تنظر.

ـ إنها دمى «ماتريوشكا». جئت بها من موسكو. يمكنك اللعب بها إذا أردتِ. لن يمانع أحد.

جلست مريم على السرير.

قال جليل:

ـ هل تريدين أي شيء؟

رقدت مريم وأغلقت عينيها. وبعد قليل، سمعته يغلق الباب برفق.

* * *

لم تخرج مريم من الغرفة إلا حين كانت تضطر لاستخدام الحمَّام في نهاية الردهة. كانت الفتاة ذات الوشم، التي فتحت لها البوابة، تحضر لها الوجبات على صينية: كباب الضأن، «السبزي»، شوربة «الآش»، فتعيد معظمها من دون أن تمسه. وكان جليل يأتي عدة مرات في اليوم، يجلس على سريرها، يسألها إذا كانت بخير.

قال، ولكن من دون كثير من الحماس:

ـ يمكنك تناول الطعام معنا بالأسفل.

وتفهَّمَ فورًا عندما أخبرته مريم أنها تفضل الأكل بمفردها.

من النافذة، أخذت مريم تراقب بلا اكتراث ما كانت تتساءل عنه وتتلهف على رؤيته على مدار أغلب سنوات حياتها: وقائع حياة جليل اليومية. خدم يهرعون دخولًا وخروجًا من البوابة الأمامية. بستاني يشذب الشجيرات، ويروي النباتات في الصوبة. سيارات بمقدمات طويلة وملساء تتوقف في الشارع. يخرج منها رجال في بدلات، في قفاطين «شابان» وقبعات من «الكاراكول»، ونساء يرتدين حجابًا، وأطفال بشعور مهندمة. وعرفت مريم، وهي ترى جليلًا يصافح هؤلاء الغرباء، وهي تراه يضع كفيه على صدره ويحني رأسه لزوجاتهم، أن «نانا» قالت الحق. أنها لا تنتمي إلى هنا.

«ولكن إلى أين أنتمي؟ ماذا سأفعل الآن؟».

«أنا كل ما لديكِ في هذا العالم يا مريم، وعندما أرحل لن يكون لديكِ شيء. لن يكون لديكِ شيء. لن تكوني شيئًا!».

مثلما تخترق الريح أشجار الصفصاف حول «الكُلبه»، ظلت أعاصير سوداء معتمة تفور بداخل مريم.

في ثاني أيام مريم في بيت جليل، دخلت الحجرة فتاة صغيرة. قالت:

ـ يجب أن آخذ شيئًا.

نهضت مريم جالسة على الفراش وعقدت ساقيها، وسحبت البطانية على حِجرها.

أسرعت الفتاة بالدخول وفتحت باب الخزانة. تناولت صندوقًا رماديًّا مُربعًا. قالت وهي تفتحه:

ـ هل تعرفين ما هذا؟ اسمه «جراموفون». جرامو ـ فون. إنه يشغِّل تسجيلات. تعرفين؟ موسيقى. «جراموفون».

ـ أنتِ «نيلوفَر». عمرك ثمان سنوات.

ابتسمت الفتاة الصغيرة. كانت لها ابتسامة جليل وطابع الحسن في ذقنه.

ـ كيف عرفتِ؟

هزت مريم كتفيها. لم تقل للفتاة إنها أطلقت اسمها على حصاة ذات مرة.

ـ هل تسمعين أغنية؟

وصلت «نيلوفَر» الجرامافون بالكهرباء. أخرجت أسطوانة صغيرة من جيب أسفل غطاء الصندوق. وضعتها، وأنزلت الإبرة. بدأت الموسيقى تصدح:

سأجعل بتلة الزهرة ورقة

وأكتب لكِ أحلى رسالة

أنت سلطانة قلبي

سلطانة قلبي

ـ هل تعرفينها؟

ـ لا.

ـ إنها من فيلم إيراني. رأيته في سينما أبي. هاي، هل تريدين أن تري شيئًا؟

قبل أن تجيب مريم، وضعت «نيلوفَر» كفيها وجبهتها على الأرض. دفعت بأصابع قدميها فصارت تقف بالمقلوب، مرتكزة على رأسها ويديها. قالت بود:

ـ هل يمكنك عمل هذا؟

ـ لا.

أنزلت «نيلوفَر» ساقيها وشدت بلوزتها. قالت، وهي تدفع شعرها عن جبينها المتورد:

ـ يمكنني أن أعلمك. كم ستبقين هنا إذن؟

ـ لا أعرف.

ـ أمي تقول إنكِ لست أختي مثلما تقولين.

كذبت مريم:

ـ لم أقل هذا قطُّ.

ـ أمي تقول إنكِ قلتِ. لا يهمني. أقصد أنني لا أمانع إذا كنتِ قلتِ ذلك، أو إذا كنت أختي. لا أمانع.

تمددت مريم:

ـ أنا مُتعَبة الآن.

ـ تقول أمي إن جنًّا جعل أمك تشنق نفسها.

قالت مريم، وهي تنقلب على جنبها:

ـ يمكنك أن توقفي هذا الآن. أقصد الموسيقى.

«بيبي جو» أيضًا جاءت لرؤيتها ذلك اليوم. كانت السماء تمطر حين جاءت. أنزلت جسمها الضخم على الكرسي المجاور لسريرها وهي تكشِّر.

ـ هذا المطر يا مريم جو يسبب آلامًا قاتلة في مفاصل وركي. قاتلة بحق. يا ليت... آه. الآن! تعالي هنا يا طفلتي. تعالي إلى «بيبي جو». لا تبكِ. كفى، هيا. أيتها المسكينة. أيتها المسكينة.

تلك الليلة، لم تستطع مريم النوم طويلًا. رقدت في فراشها تنظر إلى السماء، تنصت لوقع الأقدام بالأسفل، للأصوات التي تكتمها الجدران، وزخات المطر التي تضرب النافذة. وعندما أغفت، استيقظت فزعة على صراخ. أصوات بالأسفل، حادة وغاضبة، لم تستطع مريم تبين الكلمات. كان شخصٌ يصفع بابًا.

في الصباح التالي، جاء الملا فيض الله لزيارتها. عندما رأت مريم صديقها عند الباب، بلحيته البيضاء وابتسامته اللطيفة الهتماء، شعرت بحرقة الدموع في زاوية عينيها مجددًا. نزلت من سريرها وهرولت إليه. قبَّلت يده كالمعتاد وقبَّل هو جبينها. سحبت له كرسيًّا.

أخرج لها المصحف الذي جلبه معه وفتحه:

ـ لم أرَ معنى لأن نتوقف عن دروسنا. هه؟

ـ تعرف أنني لم أعد بحاجة إلى الدروس يا «ملا صاحب»، لقد علَّمتني كل سور القرآن وآياته في السنين الماضية.

ابتسم ورفع يديه باستسلام.

ـ أعترف، إذن. لقد افتضح أمري. لكني لم أستطع التفكير في عذر أفضل من ذلك لزيارتك.

ـ أنت تحديدًا لا تحتاج إلى عذر.

ـ كم هو رقيق منك أن تقولي هذا يا مريم جو.

ناولها المصحف. وكما علَّمها، قبَّلته ثلاث مرات ـ وهي تضعه على جبهتها بعد كل مرة ـ وأعادته إليه.

ـ كيف حالك يا ابنتي؟

شرعت مريم تقول:

ـ ما زلت...

لكنها توقفت، إذ شعرت وكأن حجرًا قد علق بحلقها.

ـ ما زلت أفكر فيما قالته لي قبل أن أغادر. إنها...

ـ لا، لا، لا.

وضع الملا فيض الله يده على ركبتها.

ـ أمك، غفر الله لها، كانت امرأة مُعذَّبة وبائسة يا مريم جو. لقد ارتكبت فعلًا فظيعًا في حق نفسها. في حق نفسها، وفي حقك، وفي حق الله. سوف يغفر لها، فهو الغفور الرحيم. لكنَّ فِعلتها تُغضب الله، فهو لا يرضى عن قتل النفس، سواء قتل الشخص نفسه أم نفس إنسان آخر، لأنه يقول إن الحياة مُقدَّسة. هل تفهمين؟

سحب مقعده ليقترب أكثر، وتناول يد مريم بين يديه.

ـ هل تفهمين؟ لقد عرفتُ أمك قبل مولدك، عندما كانت فتاة صغيرة، وأقول لك إنها كانت بائسة ساعتها. إن بذرة فعلتها كانت مغروسة فيها منذ زمن، مع الأسف. ما أقصده هو أنها ليست غلطتك. ليست غلطتك يا ابنتي.

ـ ما كان يجب أن أتركها. كان يجب...

ـ توقفي عن ذلك. لا فائدة من تلك الأفكار يا مريم جو. هل تسمعين يا طفلتي؟ لا فائدة. سوف تدمرك. تلك ليست غلطتك. ليست غلطتك. لا.

أومأت مريم، لكن بقدر ما كانت تتوق إلى تصديقه، بقدر ما عجزت عن ذلك.

* * *

ذات أصيل، بعدها بأسبوع، طُرق الباب، ودخلت امرأة طويلة. بشرتها فاتحة وشعرها محمرٌّ، وأصابعها طويلة. قالت:

ـ أنا «أفسون»، والدة «نيلوفَر». ما رأيك يا مريم أن تغتسلي وتنزلي؟

قالت مريم إنها تفضل البقاء في غرفتها.

ـ لا، «نه فَهْميدي»، أنت لم تفهمي. يجب أن تنزلي. يجب أن نتكلم معك. الموضوع مهم.

٧

جلسوا أمامها، جليل وزوجاته، على طاولة طويلة بنية داكنة. وبينهم، في مركز الطاولة، مزهرية كريستال بها أزهار أقحوان وإبريق ماء مُندًّى. كانت ذات الشعر الأحمر التي قدَّمت نفسها على أنها «أفسون»، والدة «نيلوفَر»، تجلس عن يمين جليل، فيما تجلس خديجة ونرجس عن شماله. وكانت كل من الزوجات تضع وشاحًا أسود رقيقًا، ليس على الرأس، بل مربوطًا من دون إحكام حول العنق، وكأنما وضعنه في اللحظة الأخيرة. لم تتوقع مريم أن يرتدين الأسود على «نانا»، وتصورت أن إحداهن اقترحت ذلك قبيل استدعائها مباشرة، أو ربما كان جليل صاحب الاقتراح.

صبت «أفسون» الماء من الإبريق ووضعت الكوب أمام مريم على قطعة قماشية واقية عليها مربعات مختلفة الألوان. قالت:

ـ ما زلنا في الربيع، وها هو الحر قد بدأ.

ثم أخذت تروِّح بيديها.

سألتها نرجس، التي لها ذقن صغير وشعر أسود متموج:

ـ هل ارتحتِ؟ نأمل أن تكوني قد ارتحتِ. تلك... المحنة... لا بد أنها قاسية عليك. صعبة جدًّا.

أومأت الاثنتان الأخريان. رأت مريم حواجبهن المحفوفة، وابتساماتهن المتسامحة الشاحبة التي كن يوجهنها إليها. شعرت بطنين مزعج في رأسها، وحرقة في حلقها، فشربت بعض الماء.

عبر النافذة الواسعة خلف جليل، رأت مريم صفًّا من أشجار التفاح المزهرة. وعلى الحائط المجاور للنافذة انتصبت خزانة خشبية داكنة، بداخلها ساعة، وصورة داخل إطار لجليل وأولاده الثلاثة الصغار يمسكون بسمكة، والشمس تلتمع على قشرة السمكة، وكان جليل وأولاده يبتسمون.

بدأت «أفسون» الحديث:

ـ طيب. أنا، أقصد نحن، جئنا بك إلى هنا لأن عندنا لك أخبارًا جيدة جدًّا.

رفعت مريم رأسها.

لمحتهن وهن يتبادلن نظرة سريعة من فوق جليل، الذي جلس مرتخيًا في مقعده، ينظر بشرود إلى الإبريق على الطاولة. كانت خديجة، التي تبدو أكبر الثلاثة سنًّا، هي مَن حولت نظرها إلى مريم، وراود مريم الانطباع أن هذا الترتيب أيضًا قد نوقش، واتُّفق عليه، قبل استدعائها.

قالت خديجة:

ـ جاءك خطيب.

سقط قلب مريم، وقالت بين شفتين أصبحتا خدرتين فجأة:

ـ جاءني ماذا؟

تابعت خديجة:

ـ «خواستِجار»، خطيب. اسمه رشيد. صديق لأحد شركاء والدك في العمل. وهو بشتوني، أصله من قندهار، ولكنه يعيش في كابل، في ناحية «دِه مزنج»، في بيت مِلكٍ من طابقين.

كانت «أفسون» تهز رأسها.

ـ وهو يتحدث الفارسية مثلنا، ومثلك. أي أنك لن تضطري لتعلُّم البشتونية.

أخذ صدر مريم يضيق. وبدأت الغرفة تتأرجح لأعلى وأسفل، والأرض تميد تحت قدميها.

وها هي خديجة تقول:

ـ صانع أحذية. لكن ليس مجرد «موشي» من أولئك الذين يجلسون على الأرصفة. لا. لا. بل لديه دكانه الخاص، وهو أحد أكثر صُناع الأحذية شهرة في كابل. يصنعها للدبلوماسيين، والعائلة الرئاسية ـ تلك الطبقة. لذا لن يكون لديه مشكلة في الإنفاق عليك.

ثبتت مريم عينيها على جليل، وقلبها يدق بعنف في صدرها.

ـ هل هذا صحيح؟ هذا الذي تقوله، هل هو صحيح؟

لكن جليلًا لم ينظر إليها، وتابع قضم زاوية فمه السفلى والتحديق في الإبريق.

وجاء دور «أفسون»:

ـ الآن، هو أكبر منك قليلًا. لكن عمره ليس أكثر من.. أربعين، أو خمسة وأربعين على الأكثر. أليس كذلك يا نرجس؟

ـ نعم، لكنني رأيت فتيات في التاسعة يُزوَّجن لرجال أكبر من خطيبك بعشرين سنة يا مريم. كلنا رأينا ذلك. كم عُمرك أنت، خمسة عشر؟ سن ناضجة ومناسبة للزواج بالنسبة إلى فتاة.

أومأت الرؤوس مؤمِّنة بحماس. ولم يفت مريم عدم ورود ذكر أختيها غير الشقيقتين سيدة أو ناهيد، وكلتاهما في عُمرها، وكلتاهما طالبتان في مدرسة «مهري» في هِرات، وكلتاهما تنويان الالتحاق بجامعة كابل. الواضح أن الخامسة عشرة ليست سنًّا ناضجة ومناسبة للزواج بالنسبة إليهما.

تابعت نرجس:

ـ علاوة على ذلك، فهو الآخر عانى من فَقدٍ عظيم في حياته، إذ سمعنا أن زوجته ماتت في أثناء الولادة قبل عشرة أعوام، ثم، بعدها بثلاث سنوات، غرق ابنه في بحيرة.

ـ نعم، أمر موجع. وهو يبحث عن عروس منذ سنوات، لكنه لم يجد بعد من تناسبه.

قالت مريم:

ـ لا أريد.

نظرت إلى جليل وقالت:

ـ لا أريد هذا. لا تجبرني على هذا.

كرهت الشهيق ونبرة الاستجداء في صوتها لكنها لم تستطع منعها.

قالت إحدى الزوجات:

ـ تعقَّلي يا مريم.

لكن مريم لم تعد تتابع من يقول ماذا. ظلت تحدق في جليل، تنتظره أن ينطق، أن يقول إن كل هذا الكلام غير حقيقي.

ـ لا يمكنك قضاء بقية حياتك هنا.

ـ ألا تريدين عائلة خاصة بك؟

ـ نعم، بيت وأطفال.

ـ يجب أن تمضي في حياتك.

ـ صحيح أنه أفضل لك أن تتزوجي من هنا، رجلًا طاجيكيًّا، لكن رشيدًا صحته جيدة، وهو يريدك. لديه بيت ووظيفة. هذا هو المهم، أليس كذلك؟ وكابل مدينة جميلة ومبهجة. ربما لا تأتيك فرصة كهذه مرة أخرى.

حوَّلت مريم انتباهها إلى الزوجات.

قالت:

ـ سأعيش مع الملا فيض الله. سيأخذني. أعرف أنه سيأخذني.

قالت خديجة:

ـ لا فائدة من هذا. إنه شيخ مُسن و...

أخذت تبحث عن الكلمة الدقيقة، وفهمت مريم أنها تريد أن تقول إنه «اقترب جدًّا». فهمت ما كن يردن. «ربما لا تأتيك فرصة كهذه مرة أخرى». وربما لا تأتيهن فرصة كهذه. لقد جلب مولدها العار عليهن، وتلك هي فرصتهن لمحو آخر آثار فضيحة زوجهن إلى الأبد. إنهن يرسلنها بعيدًا لأنها التجسيد السائر على قدمين لما لحق بهن من عار. أخيرًا، قالت خديجة:

ـ إنه مُسن جدًّا وضعيف. ماذا ستفعلين عند رحيله؟ ستكونين عِبئًا على أُسرته.

«كما أنك عبء علينا»، تكاد مريم أن ترى الكلمات غير المنطوقة تخرج من فم خديجة، مثل بخار أنفاس في يوم بارد.

تصورت مريم نفسها في كابل، مدينة كبيرة وغريبة ومزدحمة، تبعد، كما قال لها جليل ذات مرة، ستمائة وخمسين كيلومترًا شرقي هِرات. ستمائة وخمسين كيلومترًا. كان أكثر ما ابتعدته عن «الكُلبه» هي مسافة الكيلومترين اللذين قطعتهما سيرًا إلى بيت جليل. تصورت نفسها تعيش هناك، في كابل، على الطرف الآخر من تلك المسافة غير المتخيلة، تعيش في بيت شخص غريب حيث سيكون عليها أن تساير أمزجته وتطيع أوامره. سيكون عليها أن تنظف وراء هذا الرجل، رشيد، وأن تطبخ له، وأن تغسل ملابسه. وستكون هناك واجبات زوجية أيضًا ـ كانت «نانا» قد أخبرتها بما يفعله الأزواج بزوجاتهن. كان التفكير في تلك اللقاءات الحميمية تحديدًا، التي تخيلتها كممارسات انحرافية مؤلمة، هو ما غمرها بالهلع وجعلها تتفصد عرقًا.

استدارت إلى جليل ثانية.

ـ قل لهن. قل لهن إنك لن تدعهن يفعلن ذلك.

قالت «أفسون»:

ـ الواقع أن والدك أعطى رشيدًا كلمة بالفعل. رشيد هنا، في هِرات، وقد جاء كل تلك المسافة من كابل. سيكون «النكاح» صباح غد، ثم هناك حافلة ستغادر إلى كابل في الظهيرة.

صرخت مريم:

ـ قل لهن!

سكتت النساء. وأحست مريم أنهن أيضًا يرصدنه، مترقبات. وعمَّ الغرفة صمت. أخذ جليل يدوِّر دبلته، وعلى وجهه نظرة عاجزة مكلومة. ومن داخل الخزانة، كانت الساعة تتكتك مرَّة بعد مرَّة.

قالت إحداهن أخيرًا:

ـ جليل جو؟

ارتفعت عينا جليل ببطء، والتقت بعيني مريم، تلكأتا لحظة، ثم سقطتا. فتح فمه، لكنه لم يخرج سوى زفرة واحدة متألمة.

قالت مريم:

ـ انطق.

ثم نطق جليل، بصوت خافت مُنهك:

ـ اللعنة يا مريم! لا تفعلي هذا بي!

قالها كما لو كان هو المفعول به.

ومع تلك الكلمات، شعرت مريم بالتوتر يتلاشى من الغرفة.

وبينما بدأت زوجات جليل ـ وبرقَّة أكبر ـ جولة جديدة من محاولات الإقناع، ظلت مريم تنظر إلى الطاولة. عيناها تتتبعان الاستدارات الملساء في سيقان الطاولة، الانحناءات المتموجة لزواياها، لمعة سطحها البني الداكن العاكس. لاحظت أنها في كل مرة تزفر، يتعكر السطح بالبخار، وتختفي هي من فوق طاولة أبيها.

رافقتها «أفسون» حتى الغرفة بالأعلى. وعندما أغلقت «أفسون» الباب، سمعت مريم صرير مفتاح يدور في القفل.

٨

في الصباح، أُعطيت مريم فستانًا أخضر داكنًا بأكمام طويلة لترتديه فوق البنطال القطني الأبيض. وأعطتها «أفسون» حجابًا أخضر وصندلًا باللون نفسه.

اصطُحبت إلى الغرفة ذات الطاولة البنية الطويلة، وكان عليها الآن سلطانية من الملبس، ومصحف، وطرحة خضراء، ومرآة. ويجلس إلى الطاولة رجلان لم ترهما مريم من قبل ـ افترضت أنهما الشاهدان ـ ومُلَّا لا تعرفه.

أجلسها جليل على كرسي. كان يرتدي حلة بنية فاتحة وربطة عنق حمراء، وكان شعره مغسولًا. وعندما سحب الكرسي لها، حاول أن يبتسم مشجعًا، بينما جلست خديجة و«أفسون» تلك المرَّة عند طرف الطاولة.

أشار الملا باتجاه الطرحة، فوضعتها نرجس على رأس مريم قبل أن تتخذ مقعدًا. خفضت مريم بصرها إلى يديها.

قال جليل لشخص ما:

ـ يمكنك أن تناديه الآن.

شمَّت مريم رائحته قبل أن تراه. دخان سجائر وكولونيا ثقيلة بها حلاوة، ليست خفيفة مثل التي يضعها جليل. اكتسح عبقها منخاري مريم. من وراء الطرحة، من زاوية عينها، رأت مريم رجلًا طويلًا، أكرش، عريض الكتفين، ينحني ليدخل من فتحة الباب. كادت تشهق لمرأى جِرمه، وخفضت بصرها وقلبها يدق متسارعًا. شعرت به يتلكأ عند الباب، ثم بخطواته البطيئة الثقيلة تقطع الغرفة. وأخذت سلطانية الحلوى على الطاولة تطقطق متناغمة مع خطواته. وبزفرة غليظة، حطَّ على الكرسي بجوارها، وأخذ يتنفس بصخب.

رحب الملا بهم. وقال إن ذلك لن يكون «نكاحًا» تقليديًّا.

ـ فقد علمتُ أن رشيد أغا لديه تذكرتان لحافلة كابل التي ستغادر قريبًا. لذا، وتوفيرًا للوقت، سنتجاوز بعض الخطوات التقليدية لنُسرِّع الإجراءات.

استهل الملا بمباركة العروسين، وتكلم قليلًا عن أهمية الزواج. ثم سأل جليلًا إن كان لديه اعتراض على هذا الارتباط، فهز جليل رأسه. بعدها سأل الملا رشيدًا إذا كان يرغب حقًّا في الارتباط بمريم برباط الزوجية. ورد رشيد بالإيجاب. ذكَّرها صوته القاسي الخشن بصوت أوراق الخريف الجافة وهي تنسحق تحت الأقدام.

ـ وأنتِ يا مريم جان، هل تقبلين هذا الرجل زوجًا لك؟

ظلت مريم صامتة. وعلت أصوات نحنحة.

ثم جاء صوت نسائي من طرف الطاولة:

- نعم، تقبل.

قال الملا:

- يجب أن تجيب بنفسها. ويجب أن تنتظر حتى أسأل ثلاث مرات، فهو من يطلب يدها وليس العكس.

سأل السؤال مرتين أخريين، وعندما لم تجب مريم، سأل مرة أخرى، تلك المرَّة بقوة أكبر. شعرت مريم بجليل يتململ على مقعده بجوارها، أحست بالأقدام تتقاطع وتتباعد أسفل الطاولة. وعلت أصوات نحنحة أخرى. وامتدت يد صغيرة بيضاء ونفضت ذرة تراب عن الطاولة.

همس جليل:

- مريم.

قالت مرتجفة:

- نعم.

مُرِّرت مرآة تحت الطرحة. فيها، رأت مريم وجهها، حاجبيها غير المقوسين غير المحفوفين، الشعر المفرود، العينين خضراوين ومكروبتين وقريبتين للغاية حتى قد يظنها المرء حولاء، جلدها خشنًا ومبرقشًا ببقع داكنة. وفكرت أن جبهتها عريضة جدًّا، والذقن ضيق جدًّا، والشفتين رفيعتان جدًّا. أما وجهها إجمالًا فهو مستطيل، مثلث، يشبه وجوه كلاب الصيد. لكن مريم رأت، وهو أمر غريب، أن تلك التفاصيل غير المميزة تشكل معًا وجهًا، ليس جميلًا، ولكنه، بطريقة ما، ليس قبيح المنظر أيضًا.

في المرآة، ألقت مريم أول نظرة على رشيد: الوجه الضخم المربع المحمر، الأنف المعقوف، الخدين المتوردين اللذين يشعان بفرحة خبيثة، العينين الدامعتين الحمراوين، الأسنان المتزاحمة ـ الأماميتان تتكئان إحداهما على الأخرى كجملونات السقف، حد الشعر المنخفض إلى درجة مستحيلة تاركًا جبهة لا تزيد عن إصبعين فوق الحاجبين الأشعثين، ثم الشعر الكثيف الخشن العالي مثل جدار، والذي يستوي سواده وبياضه.

التقت نظرتاهما وهلة في الزجاج ثم ابتعدتا.

فكرت مريم: «هذا هو وجه زوجي».

تبادلا الدبلتين الذهبيتين اللتين أخرجهما رشيد من جيب معطفه. كانت أظافره بنية مصفرَّة، مثل قلب تفاحة عطنة، وبعضها معقوف لأعلى. ارتجفت يدا مريم عندما حاولت دفع الدبلة في إصبعه، وكان على رشيد أن يساعدها. أما دبلتها هي فكانت ضيقة قليلًا، لكن رشيدًا لم يجد مشكلة في دفعها إلى آخر الإصبع.

قال:

ـ ها نحن!

وقالت إحدى الزوجات:

ـ دبلة جميلة. كم هي لطيفة يا مريم.

وقال الملا:

ـ لا يبقى الآن إلا توقيع العقد.

وقعت مريم باسمها ـ الميم والراء والياء والميم ثانية ـ وهي تحس بالعيون مثبتة على يدها. المرة التالية التي ستوقع فيها مريم باسمها على وثيقة، بعد سبعة وعشرين عامًا، ستكون بحضور ملًّا آخر.

قال الملا:

ـ أنتما الآن زوج وزوجة. مبروك!

* * *

انتظر رشيد في الحافلة الملونة. لم تكن مريم تراه من حيث تقف مع جليل، بجوار الزجاج الخلفي، فقط ترى دخان سيجارته وهو يتلوى خارجًا من الشباك المفتوح. ومن حولهما، تصافحت الأيادي وعلت كلمات الوداع. قُبِّلت المصاحف ومر المغادرون من تحتها. وأخذ صبية حفاة يتقافزون بين المسافرين، وقد اختفت وجوههم خلف صوانٍ من اللبان والسجائر.

كان جليل يخبرها بمدى جمال كابل، حتى إن إمبراطور المغول «بابُر» طلب أن يدفن هناك. وكانت مريم تعرف أنه سينتقل إلى الحديث عن حدائق كابل، ومتاجرها، وأشجارها، وهوائها، وسرعان ما ستكون في الحافلة وسيسير إلى جوارها، يلوح لها مبتهجًا، سالمًا معافى.

ولم تكن مريم لتسمح بذلك.

قالت:

ـ لقد كنت أعبدك.

توقف جليل في منتصف العبارة. عقد ذراعيه وفكهما. ومرَّ بينهما

زوجان هنديان شابان، الزوجة تحمل صبيًّا بين ذراعيها، والزوج يجرجر حقيبة سفر. وبدا جليل ممتنًّا للمقاطعة. اعتذرا، وابتسما له بتهذيب.

ـ في أيام الخميس، كنت أجلس بالساعات في انتظارك. أخاف إلى حد المرض من ألا تظهر.

ـ الرحلة طويلة. يجب أن تأكلي شيئًا.

عرض عليها أن يشتري لها بعض الخبز وجبن الماعز.

ـ كنت أفكر فيك طوال الوقت. كنت أدعو أن تعيش مائة سنة. لم أكن أعرف. لم أكن أعرف أنك تشعر بالعار مني.

نكس جليل رأسه، ومثل طفل كبير أخذ يحفر بإصبع حذائه.

ـ كنت تستحي مني.

غمغم قائلًا:

ـ سوف أزورك. سوف آتي إلى كابل لكي أراك. سوف...

قالت:

ـ لا. لا. لا تأتِ. لن أراك. لا تأتِ. لا أريد أن أسمع عنك. أبدًا. أبدًا.

تطلَّع إليها بنظرة جريحة.

ـ علاقتنا تنتهي هنا. ودِّعني.

قال بصوت خافت:

ـ لا ترحلي هكذا.

ـ لم تعطني الفرصة حتى لأودع الملا فيض الله.

استدارت ودارت حول الحافلة. سمعته وهو يتبعها. وعندما وصلت إلى الباب الهيدروليكي، سمعته خلفها:

ـ مريم جو.

صعدت السلم، ولم تنظر من النافذة على الرغم من أنها لمحت بزاوية عينها جليلًا وهو يمشي بحذائها. مضت في طريقها حتى آخر الممر، حيث يجلس رشيد وحقيبتها بين قدميه. لم تستدر لتنظر عندما ضغط جليل بكفيه على الزجاج، عندما طرق بأصابعه عليه مرة بعد مرة. عندما انتفضت الحافلة إلى الأمام، لم تستدر لتراه يهرول بجوارها. وعندما انطلقت الحافلة، لم تنظر إلى الوراء لتراه وهو يتراجع، لتراه يختفي وسط سحابة العادم والتراب.

وضع رشيد، الذي احتل مقعد النافذة والمقعد الأوسط، يده الغليظة على يدها.

ـ ها نحن الآن يا فتاة.

قالها وهو ينظر من النافذة وقد ضيَّق عينيه، وكأن شيئًا أكثر إثارة قد جذب أنظاره.

٩

وصلا إلى منزل رشيد مساء اليوم التالي.

قال:

ـ نحن الآن في دِه مزنج.

كانا على الرصيف. يحمل حقيبتها بيد ويفتح بالأخرى البوابة الأمامية الخشبية.

ـ في الجزء الجنوبي والغربي من المدينة. حديقة الحيوان قريبة، والجامعة أيضًا.

أومأت مريم. كانت قد عرفت أن عليها الانتباه عندما يتحدث، على الرغم من قدرتها على فهمه. لم تكن معتادة على نطق الفارسية باللهجة الكابلية التي يتحدث بها، ولا على اللكنة البشتونية المبطَّنة لها، لغة مدينته الأصلية قندهار. أما هو، من الجانب الآخر، فبدا أنه لا يجد صعوبة في فهم فارسيتها الهِراتية.

ألقت مريم نظرة على الطريق الضيق غير المرصوف الذي يقع فيه بيت

رشيد. البيوت في هذا الطريق متلاصقة تتشارك في جدرانها، أمامها باحات صغيرة مسوَّرة تفصلها عن الشارع. معظم المنازل مسطحة الأسقف، ومبنية من الطوب المحروق، وبعضها من طين له اللون الترابي نفسه للجبال المحيطة بالمدينة. الرصيف مفصول عن الطريق من الجانبين بمصارف تجري فيها مياه طينية. ورأت مريم أكوام قمامة صغيرة متناثرة هنا وهناك في الشارع، يحط عليها الذباب. كان منزل رشيد من طابقين. واستطاعت مريم أن تلاحظ أنه كان أزرق ذات يوم.

عندما فتح رشيد البوابة الأمامية، وجدت مريم نفسها في باحة صغيرة مشعثة حيث ينمو عشب أصفر في بقع خفيفة. رأت مريم بيت خلاء على اليمين، في باحة جانبية، وعلى اليسار، بئرًا بمضخة يدوية، وصفًّا من الشتلات المحتضرة. وقرب الجدار كانت هناك سقيفة لتخزين الأدوات، ودراجة تستند إلى الحائط.

قال رشيد وهما يقطعان الباحة متجهَين إلى المنزل، الذي لم تر له مريم باحة خلفية:

ـ أبوك قال لي إنك تحبين الصيد. لدينا وديان في الشمال. أنهار بها أسماك كثيرة. ربما آخذك إلى هناك يومًا.

فتح الباب الأمامي وأدخلها إلى المنزل.

كان منزل رشيد أصغر كثيرًا من منزل جليل، لكن، مقارنة بـ«الكُلبه» التي عاشت فيها مريم مع «نانا»، كان قصرًا. كانت هناك ردهة، وغرفة معيشة بالطابق السفلي، ومطبخ أدخلها إليه ليريها القدور والقلايات وحلة ضغط و«إشتوب» يعمل بالكيروسين. في غرفة المعيشة أريكة

جلدية خضراء بلون الفستق، بها مزق في جنبها خِيط بغير إتقان. الجدران عارية. وثمة طاولة، وكرسيان بقعدة من الخيزران المجدول، وكرسيان قابلان للطيِّ، وفي الزاوية، موقد أسود من حديد الصلب.

وقفت مريم في وسط غرفة المعيشة، تنظر حولها. في «الكُلبه»، كانت تستطيع أن تلمس السقف بأطراف أصابعها. تستطيع أن ترقد على مرتبتها وتعرف الوقت نهارًا من زاوية سقوط ضوء الشمس عبر النافذة. كانت تعرف إلى أية درجة ينفتح بابها قبل أن تبدأ مفصلاته في الصرير. تعرف كل فلق وشق في كل لوح من ألواح الأرضية الخشبية الثلاثين. الآن راحت كل تلك الأشياء المألوفة. ماتت «نانا»، وهي الآن هنا، في مدينة غريبة، يفصلها عن الحياة التي عرفتها وديان وسلاسل جبلية ذات قمم ثلجية وصحاري بأكملها. كانت في بيت شخص غريب، بغرفه المختلفة وهوائه المعبق بدخان السجائر، بخزاناته غير المألوفة المليئة بمواعين غير مألوفة، بستائره الثقيلة الخضراء الداكنة، وسقفه الذي لا تطوله. اختنقت مريم من فضاء البيت. ووخزها الحنين إلى «نانا»، إلى الملا فيض الله، إلى حياتها القديمة.

ثم أخذت تبكي.

قال رشيد متجهمًا:

ـ علامَ هذا البكاء؟

وضع يده في جيب بنطاله. فرد أصابع مريم، ودس في كفها منديلًا. أشعل سيجارة واستند على الحائط. راقب مريم وهي تضغط المنديل على عينيها.

ـ انتهيتِ؟

أومأت مريم.

ـ متأكدة؟

ـ نعم.

تناول مرفقها وقادها إلى نافذة غرفة المعيشة.

قال، وهو ينقر على الزجاج بإظفر سبابته المعقوف:

ـ هذه النافذة تطل على الشمال. هذا هو جبل «أسماي» أمامنا مباشرة ـ هل ترينه؟ وعلى اليسار، جبل «علي آباد»، الجامعة عند سفحه. وخلفنا، في الشرق، لن تستطيعي رؤيته من هنا، جبل «شير دروازه»، كل يوم عند الظهر يضربون مدفعًا منه. أوقفي البكاء، الآن. أنا أعني ما أقول.

جففت مريم عينيها.

قال عابسًا:

ـ هذا من الأمور التي لا أطيقها. صوت المرأة وهي تبكي. آسف. لا أستطيع تحمله.

قالت مريم:

ـ أريد العودة إلى بيتي.

تنهد رشيد بضيق، ولفح نَفَسه المعبق بالدخان وجه مريم:

ـ لن آخذ هذا على محمل شخصي. هذه المرَّة.

أمسك بمرفقها ثانية، وقادها إلى الطابق العلوي.

كانت هناك ردهة خافتة الإضاءة وغرفتان، باب الكبرى منفرج، من خلاله رأت مريم أنها شحيحة الأثاث، مثل بقية البيت: سرير في الزاوية، ببطانية بُنية ووسادة، دولاب ملابس، و«تسريحة»، جدرانها عارية إلا من مرآة صغيرة. أغلق رشيد الباب.

ـ هذه غرفتي.

قال إن بإمكانها استخدام غرفة الضيوف.

ـ أرجو ألا تمانعي، فأنا معتاد على النوم وحدي.

لم تقل له مريم كم كانت مرتاحة في هذا الشأن على الأقل.

الغرفة التي ستصبح غرفة مريم أصغر كثيرًا من تلك التي كانت تقيم بها في بيت جليل. بها سرير، وطاولة فراش قديمة بُنية رمادية، ودولاب ملابس صغير. تطل نافذتها على الباحة، وعلى الشارع من خلفها. وضع رشيد حقيبتها في أحد الأركان.

جلست مريم على السرير.

قال:

ـ لم تلاحظي.

كان يقف في فتحة الباب، منحنيًا قليلًا حتى لا يصطدم رأسه.

ـ انظري إلى حافة النافذة. تعرفين نوعها؟ لقد وضعتها هنا قبل أن أسافر إلى هِرات.

الآن فقط رأت مريم سلة على حافة النافذة، تنسكب على جوانبها زنابق بيضاء.

ـ هل تحبينها؟ هل أنت مسرورة؟

ـ نعم.

ـ يمكنك أن تشكريني إذن.

ـ شكرًا. أنا آسفة. «تَشَكُّر».

ـ أنت ترتجفين. ربما أخيفك. هل أخيفك؟ هل تخافين مني؟

لم تكن مريم تنظر إليه، لكنها لاحظت نبرة مرح خبيثة في أسئلته، وكأنه يغيظها. هزت رأسها بسرعة فيما عرفت أنها أول كذبة في زواجهما.

ـ لا؟ هذا أفضل، أفضل لك. هذا هو بيتك الآن. سوف تحبين المكان هنا. سوف ترين. هل أخبرتك أن لدينا كهرباء؟ معظم النهارات وكل الليالي.

تحرك كما لو ليخرج. ثم توقف عند الباب، وسحب نفسًا آخر، وغضن عينيه في الدخان. ظنت مريم أنه سيقول شيئًا، لكنه لم ينطق، بل أغلق الباب وتركها وحدها مع حقيبتها وأزهارها.

١٠

في الأيام القليلة الأولى، لم تكن مريم تغادر غرفتها تقريبًا. كانت تستيقظ كل فجر على صوت الأذان البعيد من أجل الصلاة، ثم تعود إلى فراشها. تكون في فراشها، عندما يصلها صوت رشيد وهو يغتسل في الحمَّام، عندما يدخل غرفتها ليلقي نظرة عليها قبل أن يذهب إلى دكانه. من نافذتها، تتابعه وهو في الباحة، يحكم وضع غدائه في سلة دراجته الخلفية، ثم يدفع دراجته إلى الشارع. تتابعه وهو يبتعد على دراجته، ترى هيئته ذات الكتفين العريضتين الغليظتين تختفي عند الناصية في نهاية الشارع.

أغلب الأيام، كانت مريم تظل في الفراش، تشعر بنفسها مهجورة، منجرفة مع التيار. أحيانًا تنزل إلى المطبخ، تمرر يديها على الرف اللزج الملوث بالدهون، على الستائر «الفينيل» ذات الأزهار التي تفوح منها رائحة الوجبات المحترقة. تعاين الأدراج التي لا تناسب أماكنها، الملاعق والسكاكين غير المتشابهة، المصفاة والسكاكين الخشبية المكسورة، تلك ستكون أدوات حياتها اليومية الجديدة، وكلها تذكرها بالإعصار الذي

ضرب حياتها، تجعلها تشعر بأنها منزوعة من جذورها، مشرَّدة، مثل دخيل في حياة شخص آخر.

في «الكُلبه»، كانت شهيتها منتظمة، أما هنا فنادرًا ما تدمدم معدتها طلبًا للطعام. أحيانًا تأخذ طبق أرز أبيض بائت وكسرة خبز إلى غرفة المعيشة، بجوار النافذة. من هناك، ترى أسقف بيوت شارعهم ذات الطابق الواحد. ترى باحاتها أيضًا، النساء وهن ينشرن الملابس على حبال الغسيل ويزجرن أطفالهن، والدجاجات وهي تنقِّر في التراب، والحفَّارات والمجاريف، والأبقار المربوطة إلى الأشجار.

أخذها الحنين إلى كل ليالي الصيف التي نامت فيها هي و«نانا» على سطح «الكُلبه» المسطَّح، تنظران إلى القمر يتوهج فوق جُل دامَن، والحرارة تجعل قميصيهما يلتصقان بصدريهما مثلما تلتصق ورقة شجر مبللة بشبَّاك. أوحشتها الأصائل الشتوية وهي تقرأ مع الملا فيض الله في «الكُلبه»، وطقطقة الكتل الجليدية المتدلية من الأشجار حين تسقط فوق سقفها، والغربان وهي تنعق بالخارج من فوق الأغصان المثقلة بالثلج.

وحيدة في المنزل، تروح مريم وتجيء متوترة، من المطبخ إلى غرفة المعيشة، صعودًا إلى غرفتها ثم نزولًا مرة أخرى. ثم ينتهي بها الحال في غرفتها ثانية، تصلي أو تجلس على السرير، تفتقد أمها، تشعر بالغثيان والحنين إلى الديار.

لكن قلق مريم كان يبلغ أشده حين تزحف الشمس باتجاه الغرب. تصطك أسنانها وهي تفكر في الليل، حيث قد يقرر رشيد أخيرًا أن يفعل بها ما يفعله الأزواج بزوجاتهم. كانت تستلقي في الفراش، محطمة الأعصاب، فيما يأكل هو وحيدًا بالطابق السفلي.

وكان دائمًا يتوقف عند باب غرفتها ويدس رأسه بالداخل.

ـ لا يمكن أن تكوني نائمة. الساعة السابعة. هل أنت صاحية؟ أجيبيني. هيا! الآن!

ويظل يضغط حتى تقول مريم من الظلام:

ـ أنا هنا.

عندها ينزلق ويجلس في فتحة بابها. وترى وهي في فراشها جِرمه الكبير، ساقيه الطويلتين، الدخان الذي يتلوى حول المنظر الجانبي لأنفه المعقوف، الرأس الكهرماني لسيجارته تتوهج وتعتم.

يحكي لها عن يومه، عن خفٍّ صنعه بالطلب لنائب رئيس الوزراء ـ الذي يزعم رشيد أنه لا يشتري الأحذية إلا منه، عن الدبلوماسي البولندي الذي طلب منه صنادل له ولزوجته. يحكي لها عن الخرافات التي يرددها الناس عن الأحذية: أن وضعها على الفراش بمثابة دعوة للموت إلى الأسرة، أن انتعال فردة الحذاء اليسرى قبل اليمنى يجلب العراك:

ـ إلا إذا حدث ذلك من دون عمد يوم الجمعة. وهل تعرفين أنهم يقولون إن ربط فردتي الحذاء معًا وتعليقهما على مسمار فأل سيئ؟

رشيد نفسه لم يكن يصدق أيًا من هذا. في رأيه، كانت الخرافات عمومًا شأنًا من شؤون النساء.

كان ينقل لها أشياء سمعها في الشوارع، مثل استقالة الرئيس الأمريكي «ريتشارد نيكسون» عقب فضيحة.

أما مريم، التي لم تكن سمعت بـ«نيكسون» من قبل، أو الفضيحة التي

أجبرته على الاستقالة، فلم ترد بأي شيء. كانت تنتظر بقلق حتى يكمل رشيد كلامه، ويسحق سيجارته، ويمضي. فقط عندما كانت تسمعه يقطع الردهة، وتسمع بابه ينفتح ثم ينغلق، فقط وقتها تنفكُّ القبضة الحديدية التي تقبض على بطنها.

ثم ذات ليلة سحق سيجارته وبدلًا من أن يتمنى لها ليلة سعيدة اتكأ على فتحة الباب.

قال وهو يشير برأسه إلى حقيبتها:

ـ ألن تفرغي هذه؟

ثم عقد ذراعيه وتابع:

ـ ظننتك بحاجة لبعض الوقت، لكن هذا عبث! لقد مر أسبوع... طيب، غدًا صباحًا أنتظر منك أن تبدئي التصرف كزوجة. «فهميدي»؟ مفهوم؟

بدأت أسنان مريم تصطك.

ـ أريد جوابًا.

ـ نعم.

ـ عظيم. ماذا كنت تظنين؟ أنك في فندق؟ أنني مدير فندق أو ما شابه؟ طيب، هذا... آه. آه. لا إله إلا الله! ماذا قلتُ لك عن البكاء؟ يا مريم، ماذا قلت لك عن البكاء؟

* * *

في الصباح التالي، بعدما غادر رشيد إلى العمل، أخرجت مريم ملابسها ووضعتها في الدولاب. سحبت دلو مياه من البئر، وباستخدام قطعة قماش غسلت نوافذ غرفتها ونوافذ غرفة المعيشة بالطابق السفلي. كنست الأرضيات، وأزالت شباك العنكبوت التي كانت تخفق في زوايا السقف. وفتحت النوافذ لتهوية المنزل.

نقعت ثلاثة فناجين من العدس في قدر، وقطعت بعض الجزر وثمرتي بطاطس، ونقعتها أيضًا. بحثت عن دقيق، فوجدته في عمق إحدى الخِزانات خلف صف من برطمانات توابل متسخة. وعجنت عجينًا، راحت تعجنه مثلما علمتها أمها، تضغطه بكفها أعلى المعصم، وتثني الحافة الخارجية، ثم تقلبها، وتضغطها ثانية. بعدما أعدت العجين، لفَّته بقماشة رطبة، ووضعت طرحة على رأسها، وخرجت إلى المخبز العمومي.

كان رشيد قد أخبرها بمكانه، تتجه لآخر الشارع ثم تنعطف يسارًا ثم أول يمين، لكن كان يكفي مريم أن تتبع سرب النساء والأطفال المتجه إلى المكان نفسه. كان الأطفال الذين رأتهم مريم، يركضون خلف أمهاتهم أو أمامهن، يرتدون قمصانًا رُقِّعت مرة بعد مرة. يرتدون بناطيل تبدو كبيرة جدًّا أو صغيرة جدًّا عليهم، وصنادل بسيور ممزقة تصطفق إلى الأمام وإلى الخلف. ويسوقون أمامهم إطارات دراجات قديمة يدفعونها بعصيٍّ.

وكانت أمهاتهم يمشين في مجموعات من ثلاث أو أربع نساء، بعضهن بالبرقع، وأخريات سافرات. استطاعت مريم أن تسمع ثرثرتهن العالية، وضحكاتهن المجلجلة. والتقطت، وهي تسير منكسة الرأس، ندفًا من

دعاباتهن، التي بدا أنها تدور دائمًا حول أطفال مرضى أو أزواج كسالى ناكرين للجميل.

«كما لو كانت الوجبات تطبخ نفسها».

«والله بالله، لا أستريح ولو لدقيقة».

«ويقول لي، أقسم بالله، هذا حقيقي، يقول لي فعلًا...»

أخذت تلك المحادثات التي لا تنتهي، بنبرة أسيانة لكنها مرحة على نحو غريب، تدور وتدور في دائرة. استمرت، بطول الشارع، وحول الناصية، وفي طابور المخبز. أزواج يقامرون. أزواج متعلقون بأمهاتهم ولا ينفقون روبية على الزوجات. وتساءلت مريم كيف يمكن لكل هؤلاء النساء أن يعانين من الحظ التعس نفسه، أن يتزوجن، جميعهن، رجالًا مريعين. أم إن تلك لعبة زوجات لا تعرفها، طقس يومي، مثل نقع الأرز أو عجن العجين؟ وهل سينتظرن منها أن تنضم إليهن قريبًا؟

في طابور المخبز، لاحظت مريم نظرات جانبية ترمقها. سمعت همسات. راحت يداها تتعرقان. تخيلت أنهن جميعًا يعرفن أنها وُلدت «حرامي»، عار على والدها وأسرته؛ أنهن جميعًا يعرفن أنها خانت أمها وجلبت العار على نفسها.

بزاوية طرحتها، جففت الرطوبة فوق شفتها العليا وحاولت تمالك أعصابها.

لبضع دقائق، جرى كل شيء على ما يرام.

ثم شعرت بمن يربت على كتفها. استدارت مريم لتجد امرأة ممتلئة فاتحة البشرة تضع طرحة مثلها، لها شعر أسود خشن قصير، ووجه بشوش كامل الاستدارة تقريبًا، شفتاها أكثر اكتنازًا من شفتي مريم، السفلى متهدلة قليلًا، وكأنما سُحبت إلى أسفل بفعل الشامة الكبيرة الداكنة أسفل خط الشفة مباشرة، لها عينان خضراوان واسعتان مشرقتان وهما تنظران إلى مريم ببريق مشجع.

قالت المرأة بابتسامة واسعة:

ـ أنت زوجة رشيد جان الجديدة، أليس كذلك؟ تلك التي جاءت من هِرات. أنت صغيرة جدًّا! مريم جان، أليس كذلك؟ اسمي «فريبا». أسكن في شارعك، إلى يسارك بخمسة منازل، في البيت ذي الباب الأخضر. وهذا ابني نور.

كان للولد الواقف بجانبها وجه سعيد ناعم، وشعر خشن مثل أمه، وثمة بقعة من الشعرات السوداء على شحمة أذنه اليسرى. وكانت عيناه تشعان بالشقاوة والتهور. رفع يده قائلًا:

ـ سلام يا خالة جان.

ـ نور في العاشرة. وعندي أحمد أكبر منه.

قال نور:

ـ هو في الثالثة عشرة.

ـ نعم، في الثالثة عشرة، ويظن نفسه في الأربعين.

ضحكت «فريبا»، ثم استطردت:

ـ زوجي اسمه حكيم، مُدرِّس هنا في دِه مزنج. يجب أن تزورينا يومًا، سنتناول فنجانًا...

ثم فجأة، كما لو كن قد تشجعن، دفعت النساء الأخريات «فريبا» وتجمهرن حول مريم، وبسرعة مفزعة شكلن دائرة حولها.

ـ إذن أنت عروس رشيد جان الصغيرة...

ـ هل أعجبتك كابل؟

ـ لقد ذهبتُ إلى هِرات. لديَّ قريب هناك.

ـ هل تريدين ولدًا أم بنتًا أولًا؟

ـ المآذن! آه، يا لجمالها! يا لها من مدينة بديعة!

ـ الولد أفضل يا مريم جان، يحمل اسم العائلة...

ـ باه! الأولاد يتزوجون ويهربون. البنات يبقين معك ويعتنين بك في الكِبَر.

ـ سمعنا بخبر حضورك.

ـ فلتنجبي توأمين، ولدًا وبنتًا! لإرضاء الجميع.

تراجعت مريم. كانت تتنفس بسرعة وعمق. أذناها تطنان، وقلبها يخفق، وعيناها تندفعان من وجه إلى آخر. تراجعت ثانية، لكن لم يكن ثمة مكان تذهب إليه ـ كانت في مركز دائرة. رأت «فريبا»، التي كانت عابسة، حيث أحست أنها في ورطة.

كانت «فريبا» تقول:

ـ اتركنها! أفسحن لها الطريق! اتركنها! ستفزعنها!

ضمت مريم العجين إلى صدرها وشقت طريقها عبر الزحام.

ـ إلى أين تذهبين يا «همشيره»؟

ظلت تشق طريقها حتى وجدت نفسها بطريقة ما وقد تحررت، ثم أخذت تجري في الشارع. ولم تدرك أنها كانت تجري في الاتجاه العكسي إلا عندما وصلت إلى التقاطع، فاستدارت وانطلقت تجري عائدة في الاتجاه الآخر، رأسها منكس، تتعثر مرة فتخدش ركبتها خدشًا سيئًا، ثم تنهض ثانية وتجري، تندفع من أمام النساء.

ـ ماذا بها؟

ـ أنت تنزفين يا «همشيره»!

انعطفت مريم عند ناصية، ثم عند الأخرى. وجدت نفسها في الشارع الصحيح، لكن، فجأة، لم يعد بوسعها تذكر منزل رشيد. أخذت تجري رائحة غادية في الشارع، وهي تلهث، تكاد الدموع تطفر من عينيها، وبدأت تجرب الأبواب على غير هدًى، بعضها كان مقفلًا، وبعضها منفرجًا يكشف باحات غير مألوفة، وكلابًا نابحة، ودجاجات جزعة. تصورت رشيد وقد عاد إلى البيت ليجدها ما زالت تبحث بتلك الطريقة، ركبتها تنزف، ضائعة في شارعها. راحت تبكي فعلًا. دفعت أبوابًا، تمتمت بدعوات ملتاعة، وجهها مبلل بالدموع، حتى انفتح واحد، وارتاح قلبها لمرأى بيت الخلاء، والبئر، والسقيفة. صفعت الباب خلفها وأدارت المزلاج. ثم نزلت على أربع، بجوار الحائط، تتقيأ. عندما فرغت، زحفت بعيدًا،

وجلست مستندة إلى الجدار، ساقاها ممددتان أمامها. وشعرت بوحدة لم تشعر بها في حياتها قطُّ.

* * *

عندما عاد رشيد إلى البيت تلك الليلة، جلب معه حقيبة ورقية بُنية. وأُحبطت مريم لأنه لم يلاحظ النوافذ النظيفة، والأرضيات المكنوسة، واختفاء شباك العنكبوت. لكنه بدا مسرورًا كونها أعدت له طبق عشائه، على «سفرة» نظيفة مفروشة على أرضية غرفة المعيشة.

قالت مريم:

ـ طبخت لك عدسًا، «دال».

ـ عظيم، فأنا أتضور جوعًا.

صبت له ماء من «الأفتوَه» ليغسل يديه. وفيما يجفف يديه بالمنشفة، وضعت أمامه سلطانية «دال» يتصاعد منها البخار وطبقًا من الأرز الأبيض المفلفل. كانت تلك أول وجبة تطبخها له، وتمنت مريم لو كانت في حالة أفضل وهي تعدها. كانت تطبخ وهي لا تزال ترتجف مما حدث عند المخبز، وظلت طوال اليوم مشغولة بقوام «الدال» ولونه، وقلقة من أن يظن أن الزنجبيل أكثر من اللازم أو أن الكركم أقل من اللازم.

غرس ملعقته في «الدال» ذي اللون الذهبي.

تململت مريم قليلًا. ماذا لو خاب أمله أو غضب؟ ماذا لو دفع الطبق بعيدًا في استياء؟

استجمعت مريم نفسها وقالت:

ـ حذار، إنه ساخن.

ضم رشيد شفتيه ونفخ، ثم وضع الملعقة في فمه.

قال:

ـ إنه طيب. ملحه خفيف قليلًا لكنه طيب، بل ربما أكثر من طيب.

ارتاحت مريم، وراحت تتابعه وهو يأكل، وأصابها على حين غرة وهج من كبرياء. لقد أبلت بلاء حسنًا ـ «بل ربما أكثر من طيب» ـ وقد أدهشتها تلك الإثارة التي أحست بها بعد هذا الإطراء الصغير، وتراجع كرب أول اليوم قليلًا.

قال رشيد:

ـ غدًا الجمعة. ما قولك أن أصحبك في جولة؟

ـ جولة في كابل؟

ـ لا. في كالكتا.

طرفت مريم بعينيها.

ـ أنا أمزح. بالطبع في كابل، أين ستكون؟

وضع يده في الحقيبة الورقية البُنية.

ـ لكن أولًا، يجب أن أقول لك شيئًا.

أخرج برقعًا أزرق سماويًا من الحقيبة. انسكبت أمتار القماش المطوي على ركبتيه عندما رفعه إلى أعلى. لفَّ البرقع، ونظر إلى مريم.

ـ عندي زبائن يا مريم، رجال، يأتون بصحبة زوجاتهم إلى دكاني. تأتي النساء سافرات، يتحدثن إليَّ مباشرة، ينظرن في عيني من دون خجل، يضعن مساحيق التجميل ويرتدين تنانير تكشف الركبة، بل أحيانًا يضعن أقدامهن أمامي، حقيقة، لقياس الأحذية، وأزواجهن يقفون وينظرون، موافقين على ذلك، لا يرون ما يعيب في أن يلمس شخص غريب أقدام زوجاتهم العارية! يظنون أنفسهم حداثيين هكذا، مثقفين، بسبب تربيتهم على ما أعتقد. لا يرون أنهم يضيِّعون «النَنج» و«الناموس»، الشرف وعزة النفس.

هز رأسه:

ـ أغلبهم يعيش في أكثر مناطق كابل ثراء. سوف أصطحبك إلى هناك، وسوف ترين. لكنهم هنا أيضًا، يا مريم، في هذا الحي بعينه، هؤلاء الرجال الناعمون. لدينا مُدرِّس في شارعنا، اسمه حكيم، أرى زوجته «فريبا» طوال الوقت تمشي في الشارع بمفردها بلا شيء على رأسها سوى وشاح. إنني أخجل، بصراحة، حين أرى رجلًا يفقد السيطرة على زوجته.

رمق مريم بنظرة قاسية:

ـ لكنني طينة مختلفة من الرجال يا مريم. في المكان الذي أتيت منه، نظرة خاطئة واحدة، كلمة واحدة غير مناسبة، وتسيل الدماء. المكان الذي أتيت منه، فيه وجه المرأة شأن من شؤون زوجها وحده. أريد منك أن تتذكري هذا. هل تفهمين؟

أومأت مريم. وعندما مد لها رشيد الحقيبة الورقية، تناولتها منه.

تبخرت السعادة التي أحست بها عند رضائه عن طبخها. وبدلًا منها تملكها إحساس بالضآلة. لقد شعرت مريم بإرادة هذا الرجل مهولة وراسخة مثل جبال «سفيد كوه» التي تطل على جُل دامَن من علٍ.

قال رشيد:

ـ اتفقنا إذن. الآن، اغرفي لي مزيدًا من هذا «الدال».

١١

لم تضع مريم برقعًا من قبل. وكان على رشيد أن يساعدها على ارتدائه. شعرت بقطعة الرأس المبطَّنة محكمة وثقيلة على جمجمتها، واستغربت رؤية العالم من وراء شبكة. تمرنت على التجوال به في غرفتها، وظلت تدوس على ذيل الثوب وتتعثر. كذلك كان فقدان الرؤية الجانبية مثيرًا للأعصاب، وانزعجت من ثنية القماش التي تضغط على فمها وتخنقها.

قال رشيد:

ـ ستعتادين عليه، بل أراهن أنك ستحبينه مع الوقت.

استقلا حافلة إلى مكان أسماه رشيد متنزه «شهر نو»، حيث يدفع الأطفال بعضهم بعضًا على الأراجيح ويضربون الكرات الطائرة فوق شبكات بالية مربوطة إلى جذوع أشجار. تمشيا معًا وشاهدا الأولاد وهم يطيِّرون الطائرات الورقية. مريم تسير بجانب رشيد، تتعثر من حين إلى آخر في ذيل البرقع. على الغداء، اصطحبها رشيد لتناول الطعام في مطعم كباب صغير قرب جامع يسمى «حجي يعقوب». كانت الأرض لزجة والهواء معبقًا بالدخان. الجدران تفوح برائحة لحم نيئ خفيفة،

وموسيقى، وصفها رشيد بـ«اللوجَري»، تصدح عاليًا. الطهاة صبية نحيلون يروِّحون على الأسياخ بإحدى اليدين ويهشُّون الذباب بالأخرى. استغربت مريم، التي لم تدخل مطعمًا من قبل، أول الأمر أن تجلس في غرفة مزدحمة مع كل هؤلاء الغرباء، ترفع برقعها كي تدس اللُّقم في فمها. واضطربت معدتها قلقًا كما اضطربت سابقًا عند المخبز، لكن وجود رشيد أراحها نوعًا ما، وبعد فترة، لم تعد تكترث للموسيقى، أو الدخان، أو الناس حتى. أما البرقع، فقد اكتشفت، لدهشتها، أنه مريح بدوره. يشبه نافذة «باتجاه واحد». هي بداخله متفرجة، معزولة عن عيون الغرباء المدققة. لم تعد تقلق أن يعرف الناس، بنظرة واحدة، كل أسرار ماضيها المخزية.

في الشوارع، راح رشيد يسمي البنايات المختلفة بنبرة العارف بالأمور: هذه السفارة الأمريكية، وتلك وزارة الخارجية. أشار إلى السيارات، وذكر أسماءها وبلد منشئها: «فولجا» سوفييتية، «شيفروليه» أمريكية، «أوبل» ألمانية.

سألها:

ـ أيها تعجبك أكثر؟

ترددت مريم، وأشارت إلى «الفولجا»، فضحك رشيد.

كانت كابل أكثر ازدحامًا بكثير مقارنة بالجزء الضئيل من هِرات الذي رأته مريم. الأشجار أقل، وعربات «الجاري» التي تجرها الجياد أقل، لكن السيارات أكثر، والبنايات أعلى، وإشارات المرور أكثر، والطرق المرصوفة أكثر. وفي كل مكان كانت مريم تسمع لهجة المدينة المميزة:

فـ«عزيزي» تصبح «جان» بدلًا من «جو»، و«أخت» تلفظ «همشيره» بدلًا من «همشيري»، وهكذا.

اشترى رشيد لها «آيس كريم» من بائع متجول. كانت أول مرة تأكل «آيس كريم»، ولم تتخيل قطُّ أن ألاعيب كهذه يمكن أن تُلعب في الفم. التهمت السلطانية بأكملها، والفستق المسحوق الذي يتوِّجها، وشعرية الأرز الضئيلة في القاع. تعجبت من قوامه الخلاب، وحلاوته على اللسان.

تمشيا إلى مكان يدعى «كوتشه مُرغ»، شارع الدجاج. كان سوقًا ضيقة مزدحمة في حي قال رشيد إنه أحد أكثر أحياء كابل ثراء.

ـ هنا يعيش الدبلوماسيون الأجانب، رجال الأعمال الأثرياء، أبناء العائلة الملكية ـ هذا النوع من الناس. ليس مثلك ومثلي.

قالت مريم:

ـ لا أرى أي دجاج.

ضحك رشيد:

ـ هذا هو الشيء الوحيد الذي لن تجديه في شارع الدجاج.

اصطفت على جانبي الشارع محلات ودكاكين صغيرة تبيع قبعات من جلد الخراف وقفاطين «شابان» بألوان قوس قزح. توقف رشيد ليتفرج على خنجر فضي منقوش في أحد المحلات، وفي آخر، على مسدس قديم أكد له البائع أنه من أيام الحرب الأولى ضد البريطانيين.

غمغم رشيد:

ـ وأنا «موشيه ديان»!

ابتسم نصف ابتسامة، وبدا لمريم أنها ابتسامة لها وحدها. ابتسامة خاصة، ابتسامة زوجين.

تمشيا أمام محلات السجاد، محلات المشغولات اليدوية، محلات المخبوزات، محلات الزهور، ومحلات تبيع بَدْلات للرجال وفساتين للنساء، رأت مريم بداخلها، خلف ستائر من «الدانتيل»، فتيات صغيرات يخطن أزرارًا ويكوين ياقات. من حين إلى آخر، كان رشيد يلقي السلام على بائع يعرفه، بالفارسية أحيانًا، وبالبشتونية في أحيان أخرى. وبينما يتصافحان ويتبادلان القبلات على الخدين، تقف مريم على بعد بضع أقدام، لا يشير إليها رشيد كي تتقدم، ولا يعرِّفها بأحد.

طلب منها الانتظار خارج محل للتطريز. قال:

ـ أعرف صاحب المحل. سأدخل دقيقة واحدة كي ألقي عليه السلام.

انتظرت مريم بالخارج على الرصيف المزدحم. راحت تراقب السيارات التي تمضي بطول شارع الدجاج، تسير في طابور وسط جحافل من الباعة المتجولين والمشاة، تطلق أبواقها للأطفال والحمير الذين لا يتحركون من أمامها. راحت تراقب التجار وقد بدا عليهم الملل داخل دكاكينهم الضئيلة، يدخنون، أو يبصقون في مباصق نحاسية، وجوههم تبرز من بين الظلال بين حين وآخر لتعرض على المارة منسوجات ومعاطف من «البوستين» بياقات من الفراء.

لكن أكثر من جذب عيني مريم كان النساء.

كانت النساء في هذا الجزء من كابل طينة مختلفة عن النساء في الأحياء

الأفقر ـ مثل الحي الذي تعيش فيه هي ورشيد، حيث أغلب النساء يرتدين البرقع. أما أولئك النساء فكن ـ ما هي الكلمة التي استخدمها رشيد؟ ـ «حداثيات». نعم، نساء أفغانيات حداثيات متزوجات من رجال أفغان حداثيين لا يمانعون أن تمشي نساؤهم بين الغرباء متبرجات وحاسرات الرؤوس. أخذت مريم تراقبهن وهن يسرن في الشارع على راحتهن، أحيانًا بصحبة رجال، وأحيانًا بمفردهن، أحيانًا مع أطفال بخدود متوردة يرتدون أحذية لامعة وساعات يد بأساور جلدية، يدفعون دراجات لها مقاود عالية وأسلاك إطارات مذهَّبة ـ على خلاف الأطفال في ده مزنج، الذين يحملون على وجوههم ندوبًا خلفتها ذبابات الرمال ويدحرجون إطارات دراجات قديمة بعصي.

كانت تلك النساء يحملن حقائب يد تتأرجح ويرتدين تنانير تخشخش. بل رأت مريم إحداهن تدخن خلف مقود سيارة. أظافرهن طويلة، مطلية بالوردي أو البرتقالي، وشفاههن حمراء مثل «التيوليب»، يمشين في أحذية بكعب عال، مهرولات، كما لو أن عملًا عاجلًا ينتظرهن طوال الوقت. يضعن نظارات شمس داكنة، وعندما تهل نسائمهن، كانت مريم تشم نفحة من عطرهن. تخيلتهن جميعًا يحملن شهادات جامعية، يعملن في بنايات مكتبية، خلف مكاتب خاصة بهن، يكتبن على لوحات مفاتيح، ويدخنَّ، ويُجرين مكالمات مهمة لأناس مهمين. تلك النساء أربكن مريم. جعلنها تدرك وضاعتها، مظهرها العادي، افتقارها للطموح، جهلها بكثير وكثير من الأمور.

ثم انتبهت على رشيد وهو يربت على كتفها ويناولها شيئًا.

ـ خذي.

كان شالًا حريريًّا كستنائيًّا له «شراشيب» من الخرز وحوافه مطرزة بخيط ذهبي.

ـ هل يعجبك؟

رفعت مريم رأسها، ففعل رشيد شيئًا مؤثرًا: طرف بعينيه وتحاشى نظرتها.

فكرت مريم في جليل، كيف كان يدفع إليها الحليَّ بطريقة جازمة ومرحة، ووجهه مغمور ببشاشة لا تدع مجالًا لرد فعل غير الامتنان الخجول. كانت «نانا» محقة بشأن هدايا جليل؛ كلها عرابين فاترة للتكفير عن الذنب، لَفتات غير صادقة، أشبه بالرشوة، يسعى بها لإرضاء نفسه أكثر مما يسعى لإرضائها. ورأت مريم في الشال هدية حقيقية.

قالت:

ـ إنه جميل.

* * *

تلك الليلة، زار رشيد حجرتها ثانية. لكن بدلًا من التدخين في فتحة الباب، دخل الغرفة وجلس بجانبها حيث كانت ترقد في الفراش. طقطقت النوابض المعدنية فيما مالت المرتبة ناحيته.

مرت لحظة ترقب، ثم وضع يده على عنقها، أصابعه الغليظة تضغط ببطء على بروزات مؤخرتها. انزلق إبهامه، وراح يمسد التجويف أعلى عظمة الترقوة، ثم على اللحم أسفلها. بدأت مريم ترتجف. زحفت يده إلى أسفل وأسفل، أظافره تشتبك بقطن بلوزتها.

ـ لا أستطيع.

قالتها بصوت متحشرج وهي تنظر إلى صورة وجهه الجانبية المضاءة بنور القمر، إلى كتفيه الغليظتين وصدره الواسع، وهوشات الشعر الرمادي النافرة من ياقته المفتوحة.

كانت يده الآن على ثديها الأيمن، تعتصره بقوة من فوق البلوزة، وسمعته يتنفس بعمق من أنفه.

انزلق تحت البطانية إلى جوارها. أحست بيده تعمل على حزامه، على رباط سروالها. ضمت قبضتيها متشبثة بالملاءة. تقلَّب ليعتليها، تلوَّى وراوح مكانه، وأطلقت هي أنة نشيج. أغمضت مريم عينيها، وصرَّت بأسنانها.

كان الألم مفاجئًا وفظيعًا. قفزت عيناها من محجريهما. شهقت الهواء عبر أسنانها وعضَّت على بُرجم إبهامها. رمت ذراعها الحرة فوق ظهر رشيد وغاصت أصابعها في قميصه.

دفن رشيد وجهه في وسادتها، وحدقت مريم، وعيناها مفتوحتان على وسعهما، في السقف فوق كتفيه، وهي ترتعد، شفتاها مضمومتان، تشعر بحرارة أنفاسه السريعة على كتفها. تفوح في الهواء بينهما رائحة تبغ، رائحة البصل والضأن المشوي الذي تناولاه قبلها. وبين حين وآخر، تحتك أذنه بخدها، وعرفت من خشونتها أنه قد حَلَقها.

عندما انتهى الأمر، تقلَّب من فوقها لاهثًا. رمى بساعده على جبهته. وفي الظلام، رأت أسورة ساعته الزرقاء. رقدا هكذا برهة، على ظهريهما، لا ينظر أحدهما إلى الآخر.

قال، والكلام يخرج من شفتيه مدغمًا قليلًا:

ـ لا عيب في هذا يا مريم. هذا ما يفعله الأزواج. هذا ما كان يفعله النبي نفسه مع زوجاته. لا عيب في ذلك.

بعد لحظات، أزاح البطانية وغادر الغرفة، تاركًا إياها مع أثر رأسه على وسادتها، تاركًا إياها تنتظر حتى ينتهي الألم بالأسفل، تنظر إلى النجوم المجمدة في السماء وإلى سحابة كانت تستر وجه القمر مثل طرحة زفاف.

١٢

حلَّ رمضان في الخريف ذلك العام، ١٩٧٤ . رأت مريم، للمرة الأولى في حياتها، كيف تغير رؤية الهلال وجه مدينة بأكملها، وتبدل إيقاعها ومزاجها. لاحظت صمتًا دائخًا يحل على كابل. أصبح المرور كسولًا، واهنًا، بل ساكنًا. أُفرغت المتاجر. أطفأت المطاعم أنوارها، وأغلقت أبوابها. لم ترَ مريم مدخنين في الشوارع، لا فناجين شاي يتصاعد منها البخار من حواف النوافذ. وعندما تغطس الشمس في المغيب ويضرب المدفع من جبل «شير دروازه»، تفطر المدينة، وتفطر مريم، بكسرة خبز وحبة تمر، متذوقة للمرة الأولى على مدار سِني حياتها الخمس عشرة حلاوة المشاركة في خبرة جماعية.

عدا بضعة أيام، لم يكن رشيد يصوم. والمرات القليلة التي يصوم فيها، يرجع إلى المنزل في مزاج متعكر. كان الجوع يجعله فظًّا، سهل الاستثارة، نافد الصبر. في إحدى الليالي، تأخرت مريم بضع دقائق في إعداد الإفطار، فبدأ يأكل الخبز مع الفجل. وحتى بعد أن وضعت مريم الأرز و«قورمه» الضأن والبامية أمامه، لم يمسها. لم ينطق، وواصل مضغ

الخبز، صدغاه مستمران في العمل، والوريد في جبهته نافر وغاضب. تابع المضغ وهو ينظر إلى الأمام، وعندما تحدثت مريم إليه نظر إليها من دون أن يرى وجهها ووضع قطعة أخرى من الخبز في فمه.

وارتاحت مريم لانتهاء رمضان.

في الماضي، في زمن «الكُلبه»، في أول أيام عيد الفطر، كان جليل يزور مريم و«نانا». يأتي مرتديًا بدلة وربطة عنق، حاملًا هدايا العيد. في إحدى السنوات، أهدى مريم شالًا من الصوف. وكان ثلاثتهم يجلسون لشرب الشاي ثم يستأذن جليل في الرحيل.

كانت «نانا» تقول وهو يعبر الغدير ويلوح بيديه:

ـ ذهب ليحتفل بالعيد مع أسرته الحقيقية.

وكان الملا فيض الله يأتي هو الآخر. يجلب لمريم شوكولاتة ملفوفة في ورق مفضض، وسلة ممتلئة بالبيض المسلوق الملون، وكعكًا مُحلًّى. وبعد رحيله، تتسلق مريم صفصافة مع حلواها. تعتلي غصنًا عاليًا، وتأكل شوكولاتة الملا فيض الله وترمي الورق المفضض حتى يتناثر حول جذع الشجرة مثل براعم فضية. وعندما تنتهي الشوكولاتة، تبدأ في تناول إحدى الكعكات المحلاة، وتشرع في رسم وجوه بالقلم الرصاص على البيض الذي جلبه لها. مع ذلك، فلم تكن سعادتها كبيرة بذلك. كانت مريم تخاف من العيد، أيام الضيافة والاحتفال، حيث ترتدي العائلات أفضل ما لديها وتتزاور. كانت تتخيل الهواء في هِرات وهو يعج بالمرح، وأناسًا بروح معنوية عالية، وعيون مشرقة، يغمرون بعضهم بعضًا بالأحضان والقبلات والمودة. وكان كدر ينزل عليها مثل ستارة لا ترتفع إلا بعد انتهاء العيد.

هذا العام، للمرة الأولى، رأت مريم بعينيها العيد كما في خيالات طفولتها.

خرجت هي ورشيد إلى الشوارع. لم تمشِ مريم من قبل وسط هذه الحيوية. تدفقت العائلات في شوارع المدينة في جولات محمومة لزيارة الأقارب غير عابئة بالبرودة القارسة. في شارعهم، رأت مريم «فريبا» وابنها نور، وكان يرتدي بدلة كاملة. كانت «فريبا» تضع وشاحًا أبيض على رأسها، وتسير بصحبة رجل ضئيل الجسم، خجول الهيئة، يضع نظارة طبية. وكان بصحبتهم أيضًا ابنها الأكبر ـ استطاعت مريم بطريقة ما أن تتذكر «فريبا» وهي تخبرها باسمه، أحمد، عند المخبز حيث التقتا للمرة الأولى. له عينان غائرتان مهمومتان، ووجه أكثر تأملًا، وأكثر وقارًا، من وجه أخيه الأصغر، وجه يوحي بنضج مبكر كما يوحي وجه أخيه بصبيانية متأخرة. وحول عنق أحمد قلادة تحمل لفظ الجلالة.

لا بد أن «فريبا» قد تعرفت عليها وهي تسير في البرقع إلى جوار رشيد، إذ لوَّحت لها وهتفت «عيد مبارك!».

ومن داخل البرقع، منحتها مريم شبح إيماءة.

قال رشيد:

ـ أنت، إذن، تعرفين تلك المرأة، زوجة المدرِّس.

قالت مريم إنها لا تعرفها.

ـ الأفضل أن تظلي بعيدة عنها. إنها نمَّامة وحِشريَّة. وزوجها يظن نفسه مثقفًا واسع العلم، لكنه مجرد فأر. انظري إليه، ألا يشبه الفأر؟

ذهبا إلى «شهر نو»، حيث كان الأطفال يصطخبون في قمصان جديدة وصدريات مطرزة زاهية الألوان ويقارنون هدايا العيد. كانت النساء توزع صواني الحلويات. ورأت مريم فوانيس العيد تتدلى من واجهات عرض المحلات، وسمعت موسيقى تصدح من مكبرات الصوت. وكان غرباء يقولون لها «عيد مبارك» وهم يمرون إلى جوارها.

تلك الليلة ذهبا إلى «تشَمَن». وشاهدت مريم، وهي تقف خلف رشيد، الألعاب النارية تضيء السماء، في ومضات من الأخضر، والوردي، والأصفر. وأوحشها الجلوس مع الملا فيض الله خارج «الكُلبه»، يتفرجان على الألعاب النارية وهي تنفجر فوق هِرات في البعيد، والألوان التي تفرقع فجأة وهي تنعكس في عيني معلمها المُغَرْبلتين بالمياه البيضاء. لكن أكثر ما أوحشها كان «نانا». تمنت مريم لو كانت أمها حية لترى هذا. لتراها وسط كل هذا. لترى أخيرًا أن السرور والجمال ليسا مطالب بعيدة المنال، حتى لأمثالهما.

* * *

جاءتهما زيارات عيد. كلهم رجال، أصدقاء رشيد. عندما كان الباب يقرع، كانت مريم تعرف أن عليها الصعود إلى غرفتها في الطابق العلوي وإغلاق الباب. تنتظر هناك، فيما يرتشف الرجال الشاي مع رشيد بالأسفل، ويدخنون، ويتحادثون. وكان رشيد قد أمر مريم ألا تنزل إلا بعد مغادرة الزوار.

لم تمانع مريم، بل إنها، للحق، شعرت بالإطراء. فرشيد يرى قدسية في الرباط الذي يربطهما معًا. يرى شرفها، «الناموس»، شيئًا يستحق الحماية. وأشعرتها نزعته الحمائية بأنها شيء ثمين، مصونة وذات شأن.

في اليوم الثالث والأخير من العيد، ذهب رشيد لزيارة بعض الأصدقاء. أما مريم، التي عانت من اضطراب في معدتها الليلة السابقة، فقد غلت بعض الماء وأعدت لنفسها فنجانًا من الشاي الأخضر بالهيل. في غرفة المعيشة، أزالت آثار زيارات العيد في الليلة الفائتة: الفناجين المقلوبة، بذور القرع نصف الممضوغة المحشورة بين الحشيَّات، الأطباق المتسخة ببقايا وجبة الليلة الماضية. شرعت مريم في تنظيف الفوضى، وهي تتعجب من درجة النشاط التي يمكن أن يتمتع بها الرجال الكسالى.

لم تقصد دخول غرفة رشيد، لكنَّ التنظيف قادها من غرفة المعيشة إلى السلالم، ثم إلى ردهة الطابق العلوي، ثم إلى بابه، وفجأة وجدت نفسها في غرفته للمرة الأولى، تجلس على فراشه، تشعر وكأنها دخيلة.

رأت الستائر الخضراء الثقيلة، أزواج الأحذية الملمَّعة المصفوفة بانتظام بحذاء الحائط، باب دولاب الملابس، حيث تقشر الطلاء الرمادي وكشف عن الخشب تحته. لمحت علبة سجائر فوق طاولة فراشه. وضعت واحدة بين شفتيها ووقفت أمام المرآة البيضوية الصغيرة المثبتة على الحائط. نفخت الهواء في المرآة وقلدت حركات نفض الرماد. أعادتها إلى مكانها. لن يمكنها أبدًا تقليد الظرافة المتناهية التي تدخن بها الكابليات. التدخين عليها بدا مبتذلًا وسخيفًا.

وراودها شعور بالذنب وهي تفتح الدرج العلوي لطاولة فراشه.

رأت المسدس أولًا. كان أسود، بمقبض خشبي وماسورة قصيرة. حرصت مريم على التأكد من الزاوية التي كان موضوعًا بها قبل أن تلتقطه. قلبته بين يديها. كان أثقل كثيرًا مما يبدو. شعرت بالمقبض ناعمًا في يديها، والماسورة باردة. ساورها قلق من امتلاك رشيد شيئًا الهدف الوحيد منه

هو قتل شخص آخر. لكنه بالتأكيد يحتفظ به من أجل سلامتهما. من أجل سلامتها.

تحت المسدس كانت عدة مجلات ذات زوايا ملتوية. فتحت مريم واحدة. سقط قلبها في ضلوعها، وانفغر فاهها.

كانت النساء على كل صفحة، نساء جميلات، لا يرتدين قمصانًا، ولا بنطلونات، ولا جوارب، ولا ملابس داخلية. لا يرتدين شيئًا على الإطلاق. يرقدن في مخادع وسط ملاءات مجعدة ويحدقن في مريم بعيون نصف مغمضة. وفي معظم الصور، كانت السيقان منفرجة، وحظيت مريم بإطلالة كاملة على المكان الداكن بينها. في بعضها، كانت النساء مكوَّرات كما لو كن ـ حاشا لله ـ يسجدن، وينظرن إلى الخلف من فوق أكتافهن نظرة ضجر وازدراء.

سارعت مريم بإعادة المجلة إلى حيث وجدتها. شعرت بحذر. من هؤلاء النساء؟ وكيف يسمحن لأنفسهن بالظهور عاريات في صور فوتوغرافية بتلك الطريقة؟ ثارت معدتها من الاشمئزاز. هل هذا ما يفعله إذن في تلك الليالي التي لا يزور فيها حجرتها؟ هل يشعر بالإحباط منها في هذا الصدد تحديدًا؟ وماذا عن كل ذلك الكلام عن الشرف والحشمة، وانتقاده لزبائنه من النساء اللاتي، في نهاية الأمر، لا يُظهرن إلا أقدامهن من أجل قياس الأحذية؟ لقد قال: «إن وجه المرأة شأن من شؤون زوجها وحده». أكيد أن النساء في تلك الصفحات لديهن أزواج، بعضهن كذلك بالضرورة. على الأقل، لديهن إخوة. وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا يصر رشيد على أن تتغطى هي بينما لا يرى خطأ في النظر إلى المناطق الخاصة لدى زوجات وأخوات الرجال الآخرين؟

جلست مريم على سريره، تشعر بالخجل والارتباك. احتضنت وجهها بيديها وأغمضت عينيها. تنفست وتنفست حتى شعرت بأنها أهدأ.

رويدًا رويدًا، تبدى أمامها تفسير. لقد كان، في نهاية الأمر، رجلًا يعيش وحيدًا منذ سنوات قبل أن تنتقل للعيش معه. احتياجاته مختلفة عن احتياجاتها. بالنسبة إليها، وبعد مرور كل تلك الشهور، ظل لقاؤهما تمرينًا على تحمل الألم. أما هو، فقد كانت شهيته ضارية، تصل إلى العنف أحيانًا: كيف كان يثبتها أسفله، اعتصاره لثدييها بقوة، الحركة المهتاجة لأردافه. لقد كان رجلًا، وقد عاش كل تلك السنوات بلا امرأة. هل تلومه على كونه كما خلقه الله؟

عرفت مريم أنها لا يمكن أن تتكلم معه في هذا الشأن. إنه شيء لا يقال. لكن أكان شيئًا لا يُغتفر؟ كان عليها فقط أن تفكر في الرجل الآخر في حياتها. فجليل، الذي كان زوجًا لثلاثٍ وأبًا لتسعة في ذاك الوقت، أقام علاقة غير شرعية مع «نانا». أيهما أسوأ: مجلات رشيد أم فِعلة جليل؟ وما الذي يؤهلها هي، على أية حال، وهي القروية ابنة الحرام، على إصدار الأحكام؟

ثم ألقت مريم نظرة على الدرج السفلي لطاولة الفراش.

هناك وجدت صورة للصبي، يونس. صورة بالأبيض والأسود. يبدو في الرابعة أو الخامسة ربما. يرتدي قميصًا مضلَّعًا وربطة عنق على شكل فراشة. صبي صغير وسيم، له أنف أسطواني، وشعر بُني، وعينان داكنتان غائرتان قليلًا. بدا مشتتًا، كما لو أن شيئًا قد جذب انتباهه في اللحظة التي ومضت فيها الكاميرا.

تحتها، عثرت مريم على صورة أخرى، بالأبيض والأسود أيضًا، صورة خشنة الملمس قليلًا، لامرأة جالسة وخلفها رشيد، أنحف وأصغر سنًّا، وبشعر أسود. كانت المرأة جميلة. ليست في جمال نساء المجلة، ربما، ولكن جميلة. أجمل بالتأكيد منها هي، مريم. لها ذقن دقيق وشعر أسود طويل مفروق من المنتصف. عظمتا الوجنتين مرتفعتان والجبهة ظريفة. تصورت مريم وجهها هي، شفتيها الرفيعتين والذقن المستطيل، وشعرت برقَّة من غيرة.

نظرت إلى تلك الصورة طويلًا. ثمة شيء غامض وغير مريح في وقفة رشيد، وكأنما يهيمن على المرأة، يداه على كتفيها، الابتسامة الملتذة على شفتيه المطبقتين، والابتسامة الغائبة عن وجهها الواجم، جسدها المائل إلى الأمام قليلًا، وكأنما تحاول أن تتملص من بين يديه.

أعادت مريم كل شيء إلى مكانه.

لاحقًا، وهي تغسل الغسيل، ندمت على تسللها إلى الغرفة. لأي غرض؟ ما الشيء المفيد الذي عرفته عنه؟ أنه يمتلك مسدسًا، أنه رجل له احتياجات رجل؟ وما كان عليها أن تحدق في صورته مع زوجته طويلًا كما فعلت. لقد قرأت عيناها معنًى ما في وضعية تصوير عشوائية التقطت في لحظة من الزمن.

الآن، بينما ينط الحبل المثقل بالغسيل بقوة أمامها، كانت مريم تشعر بالحزن على رشيد. لقد عاش هو الآخر حياة عصيبة، حياة اتسمت بالفقد وتقلبات القدر الحزينة. وعادت أفكارها إلى ابنه يونس، الذي صنع رجالًا من الثلج في هذه الباحة، وقرعت قدماه تلك السلالم. لقد خطفته البحيرة من رشيد، ابتلعته، تمامًا كما ابتلع الحوت سميَّه النبي في القرآن. وأوجع

مريم ـ أوجعها بحق ـ أن تتصور رشيدًا وقد تملكه الذعر والإحساس بالعجز، يذرع ضفاف البحيرة متوسلًا إليها أن تلفظ ابنه إلى اليابسة ثانية. وشعرت للمرة الأولى بصلة قربى مع زوجها. وقالت لنفسها إنهما يشكلان رفقة طيبة في نهاية الأمر.

١٣

بينما كانت مريم تستقل الحافلة عائدة إلى البيت من عند الطبيب، شعرت بشيء شديد الغرابة. أينما نظرت كانت ترى ألوانًا زاهية: على الشقق الأسمنتية الرمادية الكئيبة، على المحلات ذات الواجهات المفتوحة والأسقف الصفيح، في المياه الموحلة المنسابة في المصارف. كما لو أن قوس قزح قد ذاب في عينيها.

كان رشيد يطبل بأصابعه المقفَّزة ويدندن بأغنية. وكلما طبَّت الحافلة في حفرة ووثبت إلى الأمام، انطلقت يده لتحمي بطنها.

قال:

ـ ما رأيك في «زلماي»؟ إنه اسم بشتوني جميل.

قالت مريم:

ـ ماذا لو كانت بنتًا؟

ـ أظنه ولدًا. نعم، ولد.

سرت همهمة في الحافلة. أخذ بعض الركاب يشيرون إلى شيء فيما انحنى ركاب آخرون إلى الأمام على مقاعدهم لينظروا.

قال رشيد وهو ينقر بقبضته على الزجاج، ويبتسم:

ـ انظري! هناك، هل ترين؟

رأت مريم أناسًا يتوقفون في الشوارع، ووجوه تخرج من نوافذ السيارات عند الإشارات الضوئية، وتنظر إلى أعلى باتجاه النعومة المنهمرة. وتساءلت مريم ما المبهج لتلك الدرجة في أول هطول للثلج في الموسم؟ أهي فرصة رؤية شيء لم تلوثه يد، ولم تطأه قدم؟ الإمساك باللطافة الزائلة لموسم جديد، البدايات الفاتنة، قبل أن تداس بالأقدام وتتلوث؟

قال رشيد:

ـ إن كانت فتاة، وهي ليست كذلك، لكن إن كانت فتاة، يمكنك أن تختاري لها الاسم الذي تريدين.

استيقظت مريم في الصباح التالي على صوت نشرٍ وطَرقٍ. لفَّت شالًا عليها وخرجت إلى الباحة المغطاة بالثلوج. كان وابل الثلوج الذي انهمر الليلة الماضية قد توقف. والآن مجرد ندف دوَّارة خفيفة تدغدغ خديها. كانت الريح ساكنة والهواء يفوح برائحة أشبه بفحم يحترق. وكابل غارقة في صمت مهيب، ملتحفة بالأبيض، ولبلاب من دخان يزحف متسلقًا إلى أعلى هنا وهناك.

وجدت رشيدًا في السقيفة، يدق مسامير في لوح خشب. عندما رآها، أخرج مسمارًا من زاوية فمه:

ـ كانت مفاجأة. سيحتاج إلى مهد. لم أكن أريدك أن تريه إلا بعد انتهائه.

تمنت مريم ألا يفعل ذلك، ألا يُعلِّق أحلامه على كون الطفل صبيًّا. فبقدر سعادتها لهذا الحمل، راحت توقعاته تثقل عليها. بالأمس، خرج رشيد وعاد بمعطف شتوي صبياني من الجلد المدبوغ، مبطن من الداخل بجلد الخراف، وكماه مطرزان بخيوط حريرية رقيقة، حمراء وصفراء.

رفع رشيد لوحًا ضيقًا وطويلًا. وإذ بدأ ينشره نصفين، قال إن السلالم تقلقه.

ـ يجب أن نفعل شيئًا بشأنها لاحقًا، عندما يكبر ويصبح قادرًا على صعود السلم.

قال إن الموقد أيضًا يقلقه، وإن السكاكين والشوكات يجب أن تحفظ بعيدًا عن متناول يديه.

ـ الحرص واجب. والأولاد متهورون بطبيعتهم.

وشعرت مريم بالبرد فلفَّت شالها حولها.

* * *

في الصباح التالي، قال رشيد إنه يريد دعوة أصدقائه على العشاء للاحتفال. طوال النهار، نظفت مريم العدس، ونقعت الأرز، وقطعت الباذنجان لإعداد «البوراني»، وطهت الكراث مع اللحم المفروم من أجل «الآشَك». كنست الأرض، ونفَّضت الستائر، وهوَّت المنزل، على الرغم من الثلج الذي بدأ في الهطول ثانية. رتبت الحشيات والمساند

بطول جدران غرفة المعيشة، ووضعت سلطانيات من الحلوى واللوز المحمص على الطاولة.

دخلت غرفتها أول المساء قبل وصول أول الرجال. رقدت في فراشها فيما بدأت أصوات الصخب والضحك والهزل في الطابق السفلي تتعالى. لم تستطع أن تمنع يديها من الانجراف إلى بطنها. وأخذت تفكر فيما ينمو هناك، وغشيتها السعادة مثل عصفة ريح تهب فتفتح بابًا على وسعه، ودمعت عيناها.

فكرت مريم في رحلتها بالحافلة مسافة ستمائة وخمسين كيلومترًا بصحبة رشيد، من هِرات غربًا، قرب الحدود مع إيران، إلى كابل شرقًا. لقد مرا ببلدات صغيرة وبلدات كبيرة، وسلاسل من القرى الصغيرة التي تظل تنبثق واحدة بعد أخرى. صعدا جبالًا وعبرا صحاري ملتهبة، من ولاية إلى التي تليها. وها هي الآن، فوق تلك التلال الصخرية اليابسة، مع بيت لها وحدها، وزوج لها وحدها، تتجه ناحية ولاية أخيرة عزيزة: الأمومة. أي متعة يجلبها التفكير في هذا الطفل، طفلها، طفلهما. أي مفخرة في أن تعرف أن حبها له بات يتضاءل أمامه بالفعل كل ما شعرت به في حياتها كإنسان. أن تعرف أنها لم تعد تحتاج لعبة الحصى.

في الطابق السفلي، كان أحدهم يدوزن أرغن الهارمونيوم، ثم راحت عصا تضرب على طبلة. وتنحنح أحدهم. ثم علا صفير وتصفيق وهتاف وغناء.

ملست مريم على نعومة بطنها. كان الطبيب قد قال: «ليس أكبر من ظفر إصبع».

فكرت: «سأكون أمًّا».

قالت:

ـ سأكون أمًّا.

ثم أخذت تضحك لنفسها، وتقولها مرة بعد مرة، متلذذة بمذاق الكلمات.

عندما كانت مريم تفكر في هذا الطفل، كان قلبها يكبر بداخلها. يكبر ويكبر حتى يختفي كل ما عانته في حياتها من فقد ووحدة وخزي. لهذا السبب أتى بها الله إلى هنا، وجعلها تقطع كل هذا الطريق، أصبحت تعرف هذا الآن. وتذكرت آية من القرآن كان الملا فيض الله قد علمها إياها: «وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ». بسطت سجادة الصلاة وشرعت تصلي. عندما انتهت، كوَّرت يديها أمام وجهها ودعت الله أن يحفظ لها كل تلك النعم.

* * *

كان رشيد صاحب فكرة أن يذهبا إلى «الحمَّام». لم تكن مريم قد ذهبت إلى حمَّام من قبل، لكنه قال إنه لا شيء أفضل من الخروج من الحمَّام واستنشاق أول نفس من الهواء البارد، والإحساس بالحرارة تخرج من الجلد.

في حمَّام النساء، كانت الأجساد تتجول في البخار حول مريم، لمحة من ردف هنا، وانحناءة كتف هناك. صياح فتاة صغيرة، وتأوهات نساء كبيرات، وصدى انسياب مياه الحمَّام بين الجدران فيما تُحك الظهور وتُصبَّن الشعور. جلست مريم في الركن البعيد وحيدة، تفرك كعبيها بحجر الخفَّاف، معزولة عن الأجساد العابرة بجدار من البخار.

ثم كان دمٌ وراحت تصرخ.

علا صوت أقدام على الحصى المبلل. وجوه تحدق فيها عبر البخار. ألسنة تطقطق.

لاحقًا تلك الليلة، في الفراش، قالت «فريبا» لزوجها إنها سمعت صرخة فركضت ناحيتها لتجد زوجة رشيد متشنجة في أحد الأركان، تحضن ركبتيها، وبركة من الدماء عند قدميها.

ـ كنت تسمع أسنان الفتاة المسكينة تصطك يا حكيم، وكانت ترتجف بقوة.

وقالت «فريبا» إن مريم عندما رأتها، سألتها بصوت متضرع عال: «هذا طبيعي، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟ أليس هذا طبيعيًّا؟».

* * *

رحلة أخرى بالحافلة مع رشيد. ثلج يهطل ثانية، بكثافة تلك المرَّة. يتراكم في كومات على الأرصفة، على الأسقف، يتجمع في لطخات على لحاء أشجار مبعثرة الأغصان. راقبت مريم التجار وهم يجرفون الثلوج من أمام متاجرهم. ومجموعة من الصبية يطاردون كلبًا أسود. لوحوا للحافلة بمرح. ألقت مريم نظرة على رشيد. كانت عيناه مغمضتين. لم يكن يدندن. أراحت مريم رأسها وأغمضت عينيها بدورها. أرادت الخروج من جوربها البارد، من سترتها الصوفية المبللة التي توخز جلدها. أرادت الخروج من الحافلة.

في المنزل، غطاها رشيد بلحاف عندما رقدت على الأريكة، لكن مسحة من عدم الاكتراث ظهرت في لفتته تلك.

عاد يقول:

ـ أية إجابة تلك؟ هذا قول يُنتظر من مُلّا. ولكنَ حين تدفعين نقودًا لطبيب فأنت تنتظرين إجابة أفضل من «هذه مشيئة الله».

ثنت مريم ركبتيها أسفل اللحاف وقالت إن عليه أن يخلد للراحة.

ردد وهو يتميز غيظًا:

ـ مشيئة الله!

وجلس في غرفته يدخن طوال النهار.

رقدت مريم على الأريكة، يداها مدسوستان أسفل ركبتيها، تراقب دوامة ثلج تتلوى وتدوِّم خارج النافذة. تذكرت «نانا» وهي تقول ذات مرة إن كل ندفة ثلج تنهيدة تطلقها امرأة مكروبة في مكان ما في العالم. إن كل التنهيدات تنجرف إلى السماء، وتتجمع في سحابات، ثم تتشظى إلى قطع ضئيلة تسقط بصمت على الناس بالأسفل.

«تذكرة بمعاناتنا نحن النساء. وكيف نتحمل في صمت كل ما ينزل على رؤوسنا من مصائب».

١٤

ظل الحزن يدهش مريم. لا يحتاج للانطلاق من عقاله سوى أن تتذكر المهد غير المكتمل في السقيفة، أو المعطف الجلدي في دولاب ملابس رشيد. كان الطفل حينئذ يتجسد حيًّا، تسمعه، تسمع تأوهات جوعه، وقرقراته وتأتآته. تشعر به يتشمم ثدييها. اجتاحها الحزن، وغمرها، وقلبها رأسًا على عقب. وأذهل مريم أن تشتاق لحد الاختناق إلى كيان لم تره حتى.

ثم تأتي أيام لا تبدو فيها الوحشة شديدة القسوة على مريم. أيام لا تبدو فيها فكرة مواصلة وتيرة الحياة القديمة مرهقة جدًّا، حيث لا تحتاج إلى جهد هائل للخروج من الفراش، والصلاة، وغسل الغسيل، وإعداد الطعام لرشيد.

وارتعبت مريم من الخروج. باتت، فجأة، تحسد كل نساء الحي على ما يتمتعن به من وفرة في الأطفال. لبعضهن سبعة أو ثمانية ولا يدركن كم هن محظوظات، كم هن في نعمة لأن أطفالهن ترعرعوا في أرحامهن، وعاشوا ليتلووا بين أذرعهن ويرضعوا من أثدائهن. أطفال لم ينزفنهم مع

الماء المصبَّن وأوساخ الأجساد الغريبة في مصارف حمَّام شعبي. وكانت مريم تحقد عليهن حين تسمعهن يشتكين من شقاوة الأولاد وكسل البنات.

حاول صوت بداخلها أن يطيِّب خاطرها بعزاءٍ حَسن النية ولكنه في غير محله: «لديك فرص أخرى، إن شاء الله. أنت صغيرة. بالتأكيد ستأتيك فرص أخرى عديدة».

لكن حزن مريم لم يكن جزافيًّا أو عموميًّا. لقد حزنت مريم على هذا الطفل، هذا الطفل بالتحديد، الذي أنعم عليها بهذا القدر من السعادة فترة من الزمن.

في بعض الأيام، كانت نفسها تحدثها أنها لا تستحق نعمة الأطفال، أن ذلك جزاؤها على ما فعلته بـ«نانا». أليس صحيحًا أنها ربما كانت هي من لف الأنشوطة حول رقبة أمها؟ البنات الخائنات غير جديرات بأن يصبحن أمهات، وهذا جزاء عادل. كانت تراودها أحلام متقطعة، ترى فيها جنَّ «نانا» يتسلل إلى غرفتها ليلًا، ينشب مخالبه في رحمها، ويسرق طفلها. وفي تلك الأحلام، كانت «نانا» تقهقه فرِحة بالانتقام.

في أيام أخرى، كان الغضب يتملك مريم. إنها غلطة رشيد الذي احتفل قبل الأوان. الذي جعلته سذاجته متيقنًا من أنها تحمل ولدًا، جعلته يختار للولد اسمًا، ويتعامل مع مشيئة الله باعتبارها تحصيل حاصل. إنها غلطته، أن يأخذها إلى الحمَّام. شيء هناك هو السبب، البخار، الماء القذر، الصابون، شيء هناك هو السبب في حدوث ذلك. لا. ليس رشيدًا، بل يقع اللوم عليها هي. وتحنق على نفسها لأنها نامت في الوضعية الخطأ، لأنها تناولت أطعمة متبَّلة أكثر من اللازم، لأنها لم تأكل ما يكفي من الفاكهة، لأنها شربت كثيرًا من الشاي.

كانت غلطة الرب، الذي استهزأ بها هكذا. الذي حرمها مما منحه لكثير من النساء غيرها. الذي دلَّى أمامها الشيء الذي يعرف أنه سيمنحها أعظم سعادة، غاظها به، ثم سحبه بعيدًا عنها.

لكن لم تكن هناك فائدة من ذلك، من اللوم، من خطب الاتهام العصماء التي تنط في رأسها. فالتفكير في هذه الأفكار كُفر. والله ليس كيَّادًا. ليس إلهًا تافهًا. وهسهست كلمات الملا فيض الله في رأسها: «تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ».

وهكذا كانت مريم، حين يستولي عليها الذنب، تصلي طلبًا للمغفرة على تلك الأفكار.

* * *

في الوقت نفسه، طرأ تغيُّر على رشيد منذ يوم الحمَّام. أصبح نادرًا ما يتكلم عندما يرجع إلى البيت ليلًا. يأكل، ويدخن، ثم يذهب إلى فراشه، وأحيانًا يرجع في منتصف الليل لجماع قصير، أصبح جافًّا مؤخرًا، صار أكثر ميلًا للتكشير، يعيب على طبخها، ويشكو من الأشياء المبعثرة في الباحة أو ينتقد نظافة أشياء تافهة في المنزل. من وقت إلى آخر، كان يصحبها في جولة في البلدة أيام الجمعة، كما في السابق، لكنه أصبح يسرع الخطى على الرصيف، ويتقدمها دائمًا ببضع خطوات، لا يتبادل معها حديثًا، ولا ينتبه إليها وهي تكاد تجري لكي تسايره، لم تعد ضحكته قريبة في تلك الخروجات، لم يعد يشتري لها حلوى أو هدايا، ولا يقف ليسمِّي لها الأماكن كما كان يفعل. وبدا أن أسئلتها باتت تثير أعصابه.

ذات ليلة، كانا يجلسان في غرفة المعيشة يستمعان إلى الراديو. كان

الشتاء في نهايته. وقد هدأت الرياح القاسية التي تدفع الثلج ليلتصق بالوجوه ويُدمع العيون. وكانت هوشات فضية من الثلج تذوب على أفرع أشجار الدردار العالية استعدادًا لأن تنبت مكانها، بعد أسابيع قليلة، براعم خضراء شاحبة، قصيرة وحادة. راح رشيد يهز قدمه شاردًا على إيقاع الطبلة في أغنية لـ«هَماهَنْج»، عيناه مغضنتان خلف دخان السيجارة.

سألت مريم:

ـ هل أنت غاضب مني؟

لم ينطق رشيد. انتهت الأغنية وبدأت أخرى. وأعلن صوت امرأة أن الرئيس داود خان أعاد مجموعة أخرى من المستشارين السوفييت إلى موسكو، في خطوة يُنتظر أن تثير استياء الكريملين.

ـ أخشى أن تكون غاضبًا مني.

تنهد رشيد.

ـ هل أنت غاضب؟

حول عينيه إليها.

ـ ولماذا أغضب؟

ـ لا أعرف، ولكن من وقت الطفل...

ـ هل تظنين أنني من هؤلاء الرجال، بعد كل ما فعلته من أجلك؟

ـ لا. بالطبع لا.

ـ إذن كفي نكدًا!

ـ آسفة. «بِبَخش» يا رشيد. آسفة.

سحق سيجارته وأشعل أخرى. ورفع صوت الراديو.

قالت مريم، وهي ترفع صوتها فوق صوت الموسيقى:

ـ مع ذلك، كنت أفكر.

تنهد رشيد ثانية، بمزيد من الضيق، وخفض الصوت من جديد. حك جبهته بنفاد صبر:

ـ ماذا الآن؟

ـ كنت أفكر، ربما يجب أن نقيم دفنةً مناسبة. أعني للطفل. نحن فقط، وبعض الأدعية، ليس أكثر.

كانت مريم تفكر في هذا الأمر منذ فترة. لم تكن تريد نسيان هذا الطفل. لم تستصوب أن يمر هذا الفقد من دون أن يبقى منه أثر ما.

ـ لماذا؟ هذا عَبَط!

ـ أظن أن ذلك سيريحني.

قال بحدة:

ـ إذن افعليه أنتِ. لقد دفنتُ صبيًّا بالفعل. ولن أدفن آخر. والآن، إذا لم يكن عندك مانع، فأنا أحاول أن أنصت.

رفع الصوت ثانية، وأرجع رأسه للخلف وأغمض عينيه.

ذات صباح مشمس ذاك الأسبوع، اختارت مريم بقعة في الباحة وحفرت حفرة.

قالت همسًا، وهي تغرس جاروفها في الأرض: «بسم الله وبالله، وباسم نبيه عليه الصلاة والسلام». وضعت المعطف الجلدي الذي كان رشيد قد اشتراه للطفل في الحفرة وأهالت فوقه التراب. «تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

ساوت التراب بظهر الجاروف. ثم جثت بجوار كومة التراب، وأغمضت عينيها.

«اللهم صبرًا! اللهم الصبر من لدنك».

١٥

أبريل ١٩٧٨

في ١٧ أبريل ١٩٧٨، العام الذي أتمت فيه مريم عامها التاسع عشر، عُثر على رجل يُدعى «مير أكبر خَيبر» مقتولًا. بعدها بيومين، اندلعت مظاهرة ضخمة في كابل. وخرج كل سكان الحي إلى الشوارع يتحدثون عن الأمر. من النافذة، رأت مريم جيرانًا يروحون ويجيئون، يتناقشون بحماس، وأجهزة الراديو الترانزستور مضغوطة على آذانهم. رأت «فريبا» تستند على حائط منزلها، تتكلم مع امرأة مستجدة على دِه مزنج. كانت «فريبا» تبتسم، وكفاها مضغوطتان على انتفاخ بطنها الحامل. وكانت المرأة الأخرى، التي هرب اسمها من ذاكرة مريم، تبدو أكبر من «فريبا»، شعرها به مسحة أرجوانية مميزة. تمسك بيد صبي صغير. وعرفت أن اسم الصبي طارق، لأنها سمعت تلك المرأة تنادي عليه في الشارع.

لم ينضم مريم ورشيد إلى جيرانهما. ظلا يستمعان إلى الراديو بينما تدفق نحو عشرة آلاف شخص إلى الشوارع وساروا في مسيرات بطول الحي الحكومي في كابل وعرضه. قال رشيد إن «مير أكبر خان» كان أحد

الشيوعيين البارزين، وإن أنصاره يلقون باللائمة في مقتله على حكومة الرئيس داود خان. لم ينظر إليها وهو يقول ذلك. في تلك الأيام لم يعد ينظر إليها، ولم تكن مريم واثقة قطُّ إن كانت هي المقصودة بالحديث.

سألت:

ـ ما الشيوعي؟

نخر رشيد ورفع حاجبيه:

ـ ألا تعرفين ما الشيوعي؟ هذا الأمر البسيط. الجميع يعرفون. إنها معرفة عامة. ألا تعرفين... باه. لا أعرف لماذا أنا مندهش.

ثم عقد كاحليه على الطاولة ودمدم بأن الشيوعي هو من يؤمن بـ«كارل ماركسيَّة».

ـ ومَن «كارل ماركسية»؟

تنهد رشيد.

في الراديو، كان صوت امرأة يقول إن «تَرَكي»، زعيم فرع «خلق» من حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني، وهو الحزب الشيوعي في أفغانستان، في الشوارع يلقي خطبًا تحريضية على المتظاهرين.

سألت مريم:

ـ ما أقصده هو، ماذا يريدون؟ هؤلاء الشيوعيون، ما الذي يؤمنون به؟

أطلق رشيد ضحكة عالية مصحوبة بشخير، لكن مريم ظنت أنها لمحت قدرًا من الحيرة في طريقة عقده لذراعيه، وطريقة تحوُّل عينيه.

ـ أنت لا تعرفين أي شيء، أليس كذلك؟ أنت مثل طفلة. عقلك فارغ. لا يحتوي على أية معلومات.

ـ أنا أسأل لأن...

ـ «تشَب كو»، اخرسي!

خرست مريم.

لم يكن من السهل عليها تحمل كلامه معها بتلك الطريقة، تحمل استخفافه، استهزائه، إهاناته، مروره بها كما لو كانت قطة منزلية ليس إلا. لكن بعد أربع سنوات من الزواج، أدركت مريم كم تستطيع المرأة أن تتحمل بدافع الخوف. وقد كانت مريم خائفة. كانت تعيش في خوف من مزاجاته المتقلبة، من طباعه المضطربة، من إصراره على تحويل المناقشات الاعتيادية حتى إلى مواجهات، ينهيها، من حين إلى آخر، باللكمات والصفعات والركلات، ثم يحاول إصلاحها أحيانًا باعتذارات كريهة، وأحيانًا لا.

في السنوات الأربع منذ يوم الحمَّام، عرفت مريم ست دورات من الأمل الذي كان يرتفع ثم يهوي حطامًا. وكان كل فقد، كل انهيار، كل رحلة إلى الطبيب تسحق مريم أكثر وأكثر. ومع كل إحباط كان رشيد يصبح أكثر بُعدًا وحقدًا. الآن لم يعد أي مما تفعله يرضيه. كانت تنظف البيت، تتأكد دائمًا أن لديه فائضًا من القمصان النظيفة، تطهو له أطباقه المفضلة. بل اشترت، ذات مرة، وكانت كارثة، مساحيق تجميل وتزينت له. لكنه عندما عاد إلى المنزل، نظر إليها نظرة واحدة وأجفل مشمئزًّا حتى إنها هرعت إلى الحمَّام وغسلت وجهها، ودموع الخجل تختلط بالماء المصبَّن، وأحمر الشفاه، والكحل.

الآن، ترتعب مريم من صوته وهو عائد إلى المنزل مساء. من صلصلة المفتاح، من صرير الباب ـ كانت أصواتًا ينتفض لها قلبها. من فراشها، تنصت إلى طقطقة كعبيه، إلى التبديل المكتوم لقدميه وقد خلع حذاءه. بأذنيها، كانت تحصر تحركاته: سيقان الكرسي وهي تُجر على الأرضية، الصرير الأسيان لمقعد الخيزران وهو يجلس عليه، طقطقة الملعقة على الطبق، رفيف صفحات الجريدة وهي تُطوَى، شفط الماء. وفيما يدق قلبها، كان عقلها يتساءل أي حجة سيتحجج بها الليلة لينقض عليها. كان ثمة شيء دائمًا، شيء صغير يثير غضبه، لأنه أيًا كان ما تفعله لإرضائه، ومهما كرست نفسها بالكامل لرغباته واحتياجاته، لم يكن يكفي. لم تكن قادرة على إعادة ابنه إليه. لقد خيبت أمله من تلك الناحية الأهم ـ سبع مرات خيبت أمله ـ والآن لم تعد سوى عبء عليه. كانت ترى ذلك في نظرته لها، إن كلف نفسه النظر إليها. لقد كانت عبئًا عليه.

والآن تسأله:

ـ ماذا سيحدث؟

رماها رشيد بنظرة جانبية. وأخرج صوتًا بين التنهد والتأوه، وأنزل ساقيه عن الطاولة، وأطفأ الراديو. أخذه معه إلى غرفته في الطابق العلوي. وأغلق الباب.

* * *

في ٢٧ أبريل، تلقت مريم إجابة عن سؤالها عندما سمعت أصوات قرقعة وهدير صاخب كثيف. ركضت حافية إلى غرفة المعيشة بالأسفل فوجدت رشيدًا عند النافذة، في قميصه الداخلي، شعره مشعث، وكفاه

تضغطان على الزجاج. اتجهت مريم إلى النافذة المجاورة له. بالأعلى، رأت طائرات عسكرية تقترب، متجهة شمالًا وشرقًا. أزيزها الصارخ آلم أذنيها. ومن بعيد، دوت انفجارات عالية وارتفعت أعمدة دخان في السماء.

قالت:

ـ ما الذي يحدث يا رشيد؟ ما كل هذا؟

غمغم قائلًا:

ـ الله أعلم.

حاول مع الراديو لكنه لم يطلق سوى خرفشة.

ـ ماذا نفعل؟

قال رشيد بنفاد صبر:

ـ ننتظر.

* * *

لاحقًا في ذلك اليوم، ظل رشيد يحاول مع الراديو بينما راحت مريم تعد الأرز بصلصة السبانخ في المطبخ. تذكرت مريم حين كانت تستمتع بالطبخ لرشيد، بل تنتظره. الآن بات الطبخ تمرينًا على القلق الذي تتزايد حدته. كانت أنواع «القورمه» المختلفة إما مالحة زيادة عن اللزوم أو عذبة جدًّا بالنسبة إلى ذوقه. وكان يحكم على الأرز إما بأنه «مُعجَّن» جدًّا أو «مُقرمش» جدًّا، والخبز طري أو ناشف أكثر مما يجب. وكانت مقدرة رشيد على اكتشاف الأخطاء تفقدها ثقتها بنفسها تمامًا.

عندما جاءت له بالطبق، كان النشيد الوطني يعزف في الراديو.

قالت:

ـ أعددت «سبزي».

ـ ضعيه واسكتي.

بعد انتهاء الموسيقى، علا صوت رجل في الراديو. عرَّف نفسه بأنه الكولونيل عبد القادر من القوات الجوية. وأورد أنه في وقت سابق من اليوم حاصرت الفرقة المدرعة الرابعة التابعة للثوار المطار والتقاطعات الحيوية في المدينة. كذلك تم الاستيلاء على راديو كابل، ووزارتي الاتصالات والداخلية، كما تم الاستيلاء على مبنى وزارة الخارجية. وقال بفخر إن كابل أصبحت الآن في أيدي الشعب. وقد هاجمت طائرات المتمردين من طراز «ميج» القصر الرئاسي. واقتحمت الدبابات المقر، وكانت معركة حامية الوطيس تجري هناك. وقد هُزمت كافة القوات التابعة لداود، كما قال عبد القادر في صوت مطَمئن.

بعدها بأيام، عندما بدأ الشيوعيون الإعدامات بعد محاكمات صورية للمرتبطين بنظام داود خان، عندما بدأت الشائعات تطفو في أنحاء كابل عن عيون تُفقأ وأعضاء تناسلية تُكهرب في سجن «بُل تشَرخي»، سمعت مريم عن المذبحة التي وقعت في القصر الرئاسي. قُتل داود خان حقًّا، لكن ليس قبل أن يقتل الثوار الشيوعيون نحو عشرين من أفراد عائلته، بينهم نساء وأحفاد. وسوف تورد شائعات أنه انتحر، وأخرى أنه لقي مصرعه في وطيس المعركة، وشائعات أنه أبقي عليه إلى النهاية، لكي يرى عائلته وهي تُذبح، ثم أُطلق عليه الرصاص.

رفع رشيد الصوت وانحنى إلى الأمام.

قال عبد القادر:

ـ تم تأسيس مجلس ثوري للقوات المسلحة، وسوف تعرف بلادنا الآن باسم جمهورية أفغانستان الديمقراطية. لقد انتهى عصر الأرستقراطية، والمحسوبية، وغياب المساواة، يا أبناء وطني. لقد أنهينا عقودًا من الطغيان. السلطة الآن بين أيدي الجموع والشعب العاشق للحرية. إن عصرًا جديدًا مجيدًا في تاريخ بلادنا يجري على قدم وساق. أفغانستان جديدة تولد. ونحن نطمئنكم، لا تخافوا من شيء يا رفاقي الأفغان، فالنظام الجديد يُكن كل الاحترام لمبادئ الإسلام والديمقراطية على حد سواء. إنه وقت فرح واحتفال.

أطفأ رشيد الراديو.

سألت مريم:

ـ إذن هل هذا جيد أم سيئ؟

قال رشيد:

ـ سيئ بالنسبة إلى الأغنياء، فيما يبدو مما قاله. لكن ليس سيئًا للغاية بالنسبة إلينا.

سرحت مريم بأفكارها إلى جليل. تساءلت إذا كان الشيوعيون سيلاحقونه. هل سيسجنونه هو وأبناءه؟ هل سيصادرون أمواله وممتلكاته؟

قال رشيد وهو ينظر إلى الأرز:

ـ هل هو ساخن؟

ـ أخرجته للتوِّ من القِدر.

زفر متبرمًا وقال لها أن تناوله طبقًا.

* * *

في آخر الشارع، والليل يضيء بومضات فجائية من الأحمر والأصفر، استندت «فريبا» المنهكة على مرفقيها ورفعت جسدها إلى أعلى. كان شعرها مغمورًا بالعرق، وقطرات من الرطوبة تنزلق على حافة شفتها العليا. وبجوار فراشها، كانت القابلة العجوز، «واجمة»، تراقب زوج «فريبا» وولديها وهم يتناقلون الرضيعة فيما بينهم. كانوا يبدون دهشتهم من شعر الطفلة الخفيف، من خديها الورديين وشفتيها المتغضنتين الشبيهتين ببرعم وردة تتفتح، من الشقَّين اللذين يحويان عينين خضراوين بلون اليشم تتحركان بين أجفانها المنتفخة. كانوا يبتسمون بعضهم لبعض عندما سمعوا صوتًا للمرة الأولى، صرخة بدأت مثل مواء قطة ثم انفجرت في عواء من الحلق يكشف عن صحة جيدة. قال نور إن عينيها تشبهان حجرين كريمين. أما أحمد، الذي كان أكثر أفراد العائلة تدينًا، فقد أذَّن في أُذن أخته الطفلة ونفخ في وجهها ثلاث مرات.

سأل حكيم، وهو ينطِّط ابنته:

ـ هو «ليلى»، إذن؟

قالت «فريبا» بابتسامة مرهقة:

ـ هو «ليلى». جميلة الليل. إنه الاسم المناسب.

* * *

ضغط رشيد كرة من الأرز بأصابعه. وضعها في فمه ومضغ مرة، ثم مرتين، قبل أن يعبس ويبصقها على «السفرة».

سألت مريم، وهي تكره النبرة الاعتذارية في صوتها:

ـ ما الأمر؟

شعرت بنبضها يتسارع، وجلدها ينكمش.

مأمأ مقلدًا إياها:

ـ ما الأمر؟ الأمر أنك فعلتِها ثانية.

ـ لكنني غليته لخمس دقائق أكثر من كل مرة.

ـ أنت كذَّابة.

ـ أقسم لك...

نفض الأرز بغضب عن إصبعيه ودفع الطبق بعيدًا، دالقًا الصلصة والأرز على «السفرة». تابعته مريم وهو يندفع خارجًا من غرفة المعيشة، ثم من البيت، صافعًا الباب خلفه.

جلست مريم على ركبتيها وحاولت أن تلتقط حبات الأرز وتضعها ثانية في الطبق، لكن يديها كانتا ترتجفان بقوة، وكان عليها أن تنتظر حتى تتوقف الرجفة. ضَغَط الخوف على صدرها. حاولت أن تسحب بضعة أنفاس عميقة. ولمحت انعكاسها الشاحب في النافذة المظلمة لغرفة المعيشة، فأشاحت بوجهها.

ثم سمعت الباب الأمامي ينفتح، ورشيد يعود إلى غرفة المعيشة.

قال:

ـ انهضي! تعالي هنا! انهضي!

جذب يدها، وفتحها، وأسقط فيها حفنة من الحصى.

ـ ضعيها في فمك.

ـ ماذا؟

ـ ضعي. هذه. في. فمك.

ـ كفى يا رشيد، أنا...

أطبقت يداه القويتان على فكيها. دفع إصبعين إلى فمها وفتحه غصبًا، ثم دفع الحصى الصلب البارد بداخله. قاومت مريم، وهي تدمدم، لكنه ظل يدفع الحصى بالداخل، وشفته العليا ملوية في ازدراء.

قال:

ـ الآن، امضغي!

عبر فم مليء بالجراشة والحصى، دمدمت مريم استرحامًا. وأخذت الدموع تنساب من زاويتي عينيها.

لكنه جأر قائلًا:

ـ امضغي!

ولفحت وجهها عصفة من الأنفاس المعبقة بالدخان.

مضغت مريم. وطقَّ شيء في مؤخرة فمها.

قال رشيد، وخداه يرتعشان:

ـ عظيم. الآن تعرفين طعم الأرز الذي تعدينه. الآن تعرفين ما نالني منك في هذه الزيجة، طعام سيئ، فقط لا غير.

ثم مضى، تاركًا مريم تبصق الحصى، والدم، وشظايا ضرسين مكسورين.

الجزء الثاني

١٦

كابل، ربيع ١٩٨٧

نهضت ليلى ابنة التاسعة من الفراش، كما في معظم الصباحات، مشتاقة لرؤية صديقها طارق. مع ذلك، كانت تعرف في ذلك الصباح أنها لن تراه.

عندما قال لها إن والديه سيصطحبانه إلى مدينة غزني في الجنوب لزيارة عمه، سألته:

ـ كم ستغيب؟

ـ ثلاثة عشر يومًا.

ـ ثلاثة عشر يومًا؟

ـ ليست فترة طويلة. أنت وجهك يتقلص يا ليلى.

ـ لا يتقلص.

ـ لن تبكي، أليس كذلك؟

ـ لن أبكي! ليس عليك. ولا بعد ألف سنة.

ركلته في قصبة ساقه، ليست الصناعية وإنما الحقيقية، وصفعها هو بمرح على مؤخرة رأسها.

ثلاثة عشر يومًا. أسبوعان تقريبًا. وقد تعلَّمت ليلى، بعد خمسة أيام فقط، واحدة من أهم حقائق الزمن: مثل الأكورديون الذي يعزف عليه والد طارق من وقت إلى آخر أغاني بشتونية، يتمدد الوقت وينكمش بحسب غياب طارق أو حضوره.

في الطابق السفلي، كان والداها يتشاجران ثانية. تعرف ليلى الروتين: مامي الهائجة العنيدة، تروح وتجيء لاهثة، وبابي جالس، يبدو وديعًا ودائخًا، يومئ مطيعًا، بانتظار أن تمر العاصفة. أغلقت ليلى بابها وغيرت ملابسها. لكنها ظلت تسمعهما، أو بالأحرى تسمعها. أخيرًا، صُفع بابٌ. ودبَّت أقدام على الأرض. ثم صرَّ فراش مامي عاليًا. أما بابي، فيبدو أنه نجا تلك المرة وكُتبت له الحياة ليوم آخر.

وها هو يناديها:

ـ ليلى! سأتأخر عن العمل.

ـ دقيقة واحدة!

انتعلت ليلى حذاءها ومشطت بسرعة في المرآة خصلات شعرها الشقراء المتموجة النازلة حتى كتفيها. كانت مامي تقول لليلى إنها ورثت لون شعرها ـ وكذا عينيها الفيروزيتين برموشهما السميكة، ووجنتيها ذواتي الغمازتين، وعظام الخدين المرتفعين، ونتوء شفتها السفلى، التي تميز مامي أيضًا ـ من جدتها الكبرى، جدة مامي. تقول مامي: «لقد كانت «بَري»، فاتنة الحسن. كان جمالها حديث الوادي. وقد تخطَّى جيلين من

نساء عائلتنا، لكنه بالتأكيد لم يتخطكِ يا ليلى». الوادي الذي تشير مامي إليه هو بنجشير، تلك المنطقة الطاجيكية التي تتحدث الفارسية وتبعد مائة كيلومتر شمال شرقي كابل. وقد وُلدت مامي وبابي، وهما أولاد عم، ونشآ في بنجشير؛ وانتقلا إلى كابل عام ١٩٦٠ عروسين جديدن بعيون مشرقة ومفعمة بالأمل عندما التحق بابي بجامعة كابل.

هرولت ليلى إلى الطابق السفلي، آملة ألا تخرج مامي من غرفتها لجولة شجار أخرى. وجدت بابي راكعًا على ركبتيه بجوار حاجز الباب.

ـ هل رأيت هذا يا ليلى؟

كان المزق قد ظهر منذ أسابيع. جثت ليلى إلى جانبه.

ـ لا لا بد أنه جديد.

ـ هذا ما قلته لـ«فريبا».

بدا مُزعزعًا وهزيلًا، كحاله دائمًا بعدما تفرغ مامي منه.

ـ تقول إنه يُدخل النحل.

رق قلبها له. كان بابي رجلًا ضئيلًا، له كتفان ضيقتان، ويدان رقيقتان نحيلتان تشبهان أيدي النساء. في الليل، عندما تدخل ليلى غرفة بابي، كانت ترى وجهه المنحني مدسوسًا في كتاب، وقد انزلقت نظارته إلى طرف أنفه. أحيانًا لا يلاحظ وجودها حتى. وعندما يلاحظ، يضع علامة على الصفحة، ويبتسم ابتسامة ودود بشفتين مطبقتين. كان بابي يحفظ أغلب غزليات الرومي وحافظ. ويستطيع الاستطراد في الحديث عن الصراع على أفغانستان بين بريطانيا وروسيا القيصرية. كان يعرف الفرق بين الهوابط

والصواعد، ويمكنه أن يخبرك أن المسافة بين الأرض والشمس تماثل السفر من كابل إلى غزني مليون ونصف مليون مرة. لكن إذا احتاجت ليلي فتح غطاء برطمان حلوى، فعليها أن تذهب إلى مامي، فتشعر بالخيانة. كانت الأدوات العادية تربك بابي. في ورديته، لا تجد مفصلات الباب التي تصدر صريرًا من يزيِّتها. وتستمر الأسقف في التسريب بعدما يسد ثقوبها. وينمو العفن وينتشر متحديًا في خزانات المطبخ. تقول مامي إن أحمد هو من كان يهتم بهذه الأمور بكل همة وكفاءة، قبل أن يرحل مع نور للانضمام إلى الجهاد ضد السوفييت عام ١٩٨٠

تقول:

ـ لكن إذا كان عندك كتاب يحتاج إلى قراءة عاجلة، فحكيم هو الرجل المناسب.

مع ذلك تشعر ليلى أن مامي أيضًا، قبل أن يذهب أحمد ونور للحرب ضد السوفييت ـ قبل أن يتركهما بابي يذهبان إلى الحرب ـ كانت تحب عشقه للكتب، وتنظر إلى سهوه ورعونته بوصفها من الأمور الجذابة.

وها هو يقول وهو يبتسم بخجل:

ـ في أي يوم نحن؟ الخامس أم السادس؟

ردت ليلى وهي تهز كتفيها:

ـ وما لي أنا؟ لا أحسب الأيام.

كانت تكذب، فالواقع أنها أحبته لأنه تذكر. أما مامي فلم تعرف أصلًا أن طارقًا قد سافر.

قال بابي:

ـ طيب. سوف تفرغ بطارية مصباحه قبل أن تعرفي.

كان يلمح إلى لعبة الإشارات الليلية بين ليلى وطارق. كانا يلعبانها منذ فترة حتى باتت طقسًا من طقوس قبل النوم، مثل غسل الأسنان.

مرر بابي إصبعه على المزق:

ـ سأرقِّعه فور أن أجد الوقت. هيا نذهب الآن.

رفع صوته ونادى من فوق كتفه:

ـ سنخرج يا «فريبا»! سآخذ ليلى إلى المدرسة. لا تنسي أن ترجعيها.

بالخارج، فيما كانت تتسلق مؤخرة دراجة بابي، رأت ليلى سيارة مصفوفة في الشارع، أمام المنزل الذي يعيش فيه رشيد صانع الأحذية مع زوجته المنعزلة. كانت من طراز «بينز»، وهو طراز غير شائع في الحي، زرقاء بخط أبيض سميك يقسمها نصفين، من المقدمة، إلى السقف، إلى المؤخرة. وتبينت ليلى رجلين جالسين بالداخل، واحد خلف عجلة القيادة والثاني في المقعد الخلفي.

قالت:

ـ من هما؟

قال بابي:

ـ ليس من شأننا. هيا اصعدي! سنتأخر على الفصل.

تذكرت ليلى معركة أخرى: تلك المرة وقفت مامي أمام بابي وسألته

بصوت متخنث: «هذا شأنك، أليس كذلك يا ابن عمي، اعتبار أن لا شيء من شأنك؟ حتى ذهاب ولديك إلى الحرب. كم توسلت إليك. لكنك دفنت أنفك في تلك الكتب الملعونة وتركت ولدينا يذهبان كما لو كانا ابني حرام».

انطلق بابي في الشارع على الدراجة، وليلى وراءه، ذراعاها حول بطنه. لدى مرورهما بـ«البينز» الزرقاء، لمحت ليلى الرجل في المقعد الخلفي: نحيل، أشيب الشعر، يرتدي بدلة بُنية داكنة، ويخرج من جيب صدره مثلث من منديل أبيض. ولم يسعفها الوقت لترى شيئًا غير ذلك، إلا كون السيارة تحمل أرقام هِرات.

قطعا بقية الطريق صامتين، إلا عند المنعطفات، عندما كان بابي يضغط على الفرامل بحذر وهو يقول:

ـ تماسكي يا ليلى! نحن نبطئ، نبطئ. ها نحن!

* * *

في غرفة الدرس هذا اليوم، صعب على ليلى الانتباه، بين غياب طارق وشجار والديها. لذا عندما طلبت منها المدرسة تسمية عاصمتي رومانيا وكوبا، أُسقط في يدها.

المعلمة اسمها «شانزَي»، لكن، من وراء ظهرها، كان الطلبة يسمونها «الخالة رَنجمال»، أو «الخالة دهَّانة»، في إشارة إلى حركتها المميزة عندما تصفع الطلاب ـ بكف يدها ثم بظهر يدها مرة بعد مرة، مثل دهَّان يطلي جدارًا. كانت «الخالة رَنجمال» امرأة شابة حادة الملامح لها حاجبان كثيفان. في أول أيام الدراسة، أخبرت الفصل بزهو أنها ابنة فلاح فقير

من خوست. وقفت منتصبة، وقد سحبت شعرها الأسود الفاحم بشدة إلى الخلف وعقصته، حتى إن ليلى، عندما تستدير «الخالة رَنجمال»، كانت ترى شعر رقبتها الخشن. لم تكن «الخالة رَنجمال» تضع مساحيق تجميل أو حليًّا. ولا تتحجب، بل تمنع الطالبات من ذلك. قالت إن النساء والرجال متساوون في كل شيء وإنه ما من سبب يجعل النساء يغطين وجوههن دون الرجال.

قالت إن الاتحاد السوفييتي هو أفضل دولة في العالم، إلى جانب أفغانستان. بلد رفيق بعماله، الناس فيه متساوون. الجميع في الاتحاد السوفييتي سعداء وودودون بعكس أمريكا، حيث يخاف الناس من مغادرة بيوتهم بسبب الجريمة. وقالت إن الجميع في أفغانستان سوف يكونون سعداء أيضًا، بمجرد هزيمة قُطاع الطرق المتخلفين أعداء التقدم.

- هذا هو السبب الذي جعل رفاقنا السوفييت يأتون إلى هنا عام ١٩٧٩، ليمدوا أيديهم لجيرانهم، ليساعدونا على هزيمة أولئك المتوحشين الذين يريدون لبلادنا أن تكون بدائية متخلفة. وأنتم يجب أن تمدوا أيديكم يا أولاد. يجب أن تُبلغوا عن أي شخص يعرف شيئًا عن أولئك المتمردين. إنه واجبكم. عليكم أن تنصتوا ثم تُبلغوا. حتى لو كانوا آباءكم أو أعمامكم أو خالاتكم، لأنه ليس منهم من يحبكم كما تحبكم بلادكم. بلادكم أولًا، تذكروا! سوف أفخر بكم، وكذا ستفخر بكم بلادكم.

على الجدار خلف مكتب «الخالة رَنجمال» خريطة للاتحاد السوفييتي، وخريطة لأفغانستان، وصورة داخل إطار لآخر رئيس شيوعي، نجيب الله، الذي يقول بابي إنه كان رئيسًا لجهاز «الخاد» الرهيب، البوليس السري

الأفغاني. وكانت هناك صور أخرى لجنود سوفييت شبان يصافحون فلاحين، ويزرعون شتلات التفاح، ويشيدون البيوت، مبتسمين بعذوبة دائمًا.

وها هي «الخالة رَنجمال» تقول:

ـ هل أيقظتك من حلم يقظتك يا فتاة الثورة؟

كان هذا هو اسم شهرة ليلى، لأنها ولدت ليلة انقلاب أبريل عام ١٩٧٨ـ إلا أن «الخالة رَنجمال» كانت تغضب إذا استخدم أي تلميذ كلمة «انقلاب». كانت تصر على أن ما حدث ثورة، انتفاضة للطبقة العاملة طلبًا للمساواة. كذلك كانت كلمة «جهاد» من الكلمات الأخرى الممنوعة. فوفقًا لها، لم تكن هناك حرب في الأقاليم من الأساس، بل مجرد اشتباكات ضد مثيري الشغب الذين يحرضهم أناس تسميهم مثيري الفتن الأجانب. وبالتأكيد لا أحد، لا أحد أيًا كان، يجرؤ على تكرار الشائعات السارية في وجودها، التي تقول إن السوفييت في طريقهم لخسارة تلك الحرب، بعد ثمان سنوات من القتال. خصوصًا الآن وقد بدأ الرئيس الأمريكي «ريجان» في إمداد المجاهدين بصواريخ «ستينجر» لإسقاط المروحيات السوفييتية، الآن وقد راح المسلمون في جميع أرجاء العالم يلتحقون بالقضية: مصريون، باكستانيون، بل سعوديون أثرياء، تركوا ملايينهم خلفهم وجاءوا إلى أفغانستان من أجل الجهاد.

استطاعت ليلى أن تقول أخيرًا:

ـ بوخارست. هافانا.

ـ وهل هما صديقتان لنا أم لا؟

ـ صديقتان يا «معلم صاحب». إنهما من البلاد الصديقة.

أومأت لها «الخالة رَنجمال» بجفاء.

* * *

مرة أخرى لم تظهر مامي عند انتهاء اليوم الدراسي مثلما كان مفترضًا. وانتهى الأمر بليلى عائدة مشيًا إلى المنزل مع اثنتين من زميلات فصلها، «جيتي» وحسينة.

كانت «جيتي» فتاة صغيرة نحيلة، تضفر شعرها في ذيلي حصان توأمين مربوطين بشريط مرن. عابسة دائمًا، تمشي بكتبها مضغوطة إلى صدرها، مثل درع واق. أما حسينة فكانت في الثانية عشرة، أكبر بثلاث سنوات من ليلى و«جيتي»، لكنها رسبت في الصف الثالث مرة وفي الصف الرابع مرتين. وما كانت حسينة تفتقر إليه من ذكاء تعوضه بالشقاوة والفم الذي، بحد تعبير «جيتي»، يجري مثل ماكينة خياطة. كانت حسينة هي من أطلق على «الخالة رَنجمال» هذا الاسم.

اليوم توزع حسينة النصائح بشأن كيفية التخلص من الخُطَّاب المُنفِّرين.

ـ هذه طريقة مضمونة النجاح للتخلص من المغفلين. خذوها مني كلمة.

قالت «جيتي»:

ـ هذا غباء، أنا أصغر من أن يطلب أحد يدي.

ـ أنت لست صغيرة لهذه الدرجة.

ـ ولكن أحدًا لم يأتِ لطلب يدي.

ـ هذا لأن عندك لحية يا عزيزتي.

انطلقت يد «جيتي» إلى ذقنها، ونظرت بفزع إلى ليلى، التي ابتسمت مشفقة ـ كانت «جيتي» أقل مَن قابلتهم ليلى في حياتها تمتعًا بحس الدعابة ـ وهزت رأسها في طمأنة.

ـ على أية حال، هل تريدان معرفة الطريقة أم لا أيتها السيدتان؟

قالت ليلي:

ـ تفضلي.

ـ الفول. أربع علب على الأقل. في المساء الذي يأتي فيه البُرص الأهتم لطلب يدك. لكن التوقيت، أيتها السيدتان، التوقيت هو كل شيء. عليكِ أن تُمسكي المفرقعات حتى يأتي وقت تقديم الشاي.

قالت ليلى:

ـ سوف أتذكر هذا.

ـ وهو أيضًا.

كان يمكن لليلى أن تقول إنها ليست بحاجة لتلك النصيحة لأن بابي ليس لديه نية لتزويجها قريبًا. فعلى الرغم من عمله في مخبز كابل العملاق، «سيلو»، وسط الحرارة وطنين الماكينات، يوقد النار ويطحن الحبوب طوال اليوم، فهو يحمل مؤهلًا جامعيًا. كان مُدرِّسًا ثانويًا قبل أن يطرده الشيوعيون ـ حدث ذلك قبيل انقلاب ١٩٧٨، أي قبل الغزو السوفييتي بنحو عام ونصف. وقد أوضح بابي لليلى منذ سن صغيرة أن أهم شيء في حياته، بعد أمنها، هو دراستها.

قال: «أعرف أنك ما زلت صغيرة، لكنني أريدك أن تعرفي هذا وتفهميه الآن. الزواج يمكنه أن ينتظر، الدراسة لا. أنت فتاة ذكية جدًّا جدًّا. أنت فعلًا كذلك. يمكنك أن تكوني ما تشائين يا ليلى. أعرف هذا. كما أعرف أن أفغانستان، عندما تنتهي الحرب، سوف تحتاج إليك كما تحتاج إلى رجالها، وربما أكثر. لأن المجتمع لا يمكن أن ينجح ما لم تكن نساؤه متعلمات يا ليلى. لا يمكن أن ينجح».

لكن ليلى لم تقل لحسينة إن بابي قال ذلك، ولم تخبرها بمدى سعادتها بأن يكون لها والد مثله، ولا كم هي فخور بتقديره لها، ولا كم هي عازمة على إكمال تعليمها كما أكمل هو تعليمه. في السنتين الأخيرتين، كانت ليلى قد حصلت على شهادة «أول نمرة»، التي تُمنح سنويًّا للطالب الأول في كل صف. لكنها لم تقل شيئًا عن هذا لحسينة، التي كان والدها سائق تاكسي عصبي سيزوجها بلا شك بعد سنتين أو ثلاثة. لقد أخبرت حسينة ليلى، في واحدة من لحظاتها الجادة النادرة، أن زواجها تقرر بالفعل من ابن عمها الذي يكبرها بعشرين عامًا ويمتلك متجرًا للسيارات في لاهور، وقالت: «رأيته مرتين. وفي المرتين كان يأكل وفمه مفتوح».

الآن، تقول حسينة:

ـ الفول، يا بنات. تذكرا هذا. إلا بالطبع...

وهنا التمعت أسنانها بابتسامة خبيثة ولكزت ليلى بمرفقها:

ـ إلا بالطبع إذا كان أميرك الوسيم ذو الساق الواحدة هو الذي يدق الباب. ساعتها...

دفعت ليلى المرفق. كانت ستشعر بالإساءة لو أن من قال ذلك عن

طارق شخص آخر. لكنها تعرف أن حسينة ليست خبيثة. إنها تسخر ـ هذا ما تفعله ـ وسخريتها تطول الجميع، وأولهم نفسها.

قالت «جيتي»:

ـ لا يجب أن تتكلمي عن الناس هكذا!

ـ أي ناس؟

قالت «جيتي» بجدية، غير مدركة لمشاكسة حسينة:

ـ الناس الذين أصيبوا بسبب الحرب.

ـ أظن أن المُلّا «جيتي» هنا مفتونة بطارق. كنت أعرف! ها! ولكنه محجوز. ألا تعرفين؟ أليس كذلك يا ليلى؟

ـ أنا لست مفتونة. لست مفتونة بأحد!

افترقتا عن ليلى، وانعطفتا إلى شارعهما من دون أن تتوقفا عن الجدال.

سارت ليلى وحدها مسافة «البلوكات» الثلاثة الأخيرة. وعندما دخلت شارعها، لاحظت أن السيارة «البينز» الزرقاء لا تزال واقفة في مكانها، أمام بيت رشيد ومريم. وكان الرجل المسن في الحلة البُنية يقف عندها بجوار مقدمة السيارة، متكئًا على عصا، ناظرًا إلى البيت.

حينئذ، سمعت ليلى صوتًا من خلفها:

ـ هاي. يا ذات الشعر الأصفر. انظري هنا.

استدارت ليلى فاستقبلتها ماسورة مسدس.

١٧

كان المسدس أحمر، وحلقة تأمين الزناد خضراء زاهية. وخلف المسدس لاح وجه خادم المبتسم. خادم في الحادية عشرة، مثل طارق، بدين وطويل، ولديه بروز حاد في الفك السفلي. والده جزار في دِه مزنج، واشتهر عن خادم أنه، من آن إلى آخر، يرشق المارة بقطع من أمعاء عجل. وأحيانًا، حين لا يكون طارق قريبًا، كان خادم يتبع ليلى كظلها في فناء المدرسة في الاستراحة، يحدق فيها بخبث، يشاكسها بأصوات. النواح والأنين. ذات مرة ربَّت على كتفها وقال: «أنت جميلة جدًّا جدًّا، يا ذات الشعر الأصفر. أريد أن أتزوجك».

وها هو يلوح بمسدسه، ويقول:

ـ لا تخافي. لن يظهر، ليس على شعرك.

ـ إياك وأن تفعل هذا! أنا أحذرك!

ـ ماذا ستفعلين؟ هل ستطلقين صاحبك المعوَّق عليَّ؟

«آه يا طارق جان. آه، ألن ترجع لتنقذني من الشقي!».

بدأت ليلى تتراجع، لكن خادمًا كان يضغط الزناد بالفعل. مرة بعد مرة، أصابت دفقات رفيعة من الماء الدافئ شعر ليلى، ثم كفها عندما رفعته لحماية وجهها.

ثم خرج الصبية الآخرون من مخبئهم، يضحكون، ويقهقهون.

وطَفَت إلى شفتي ليلى شتيمة كانت قد سمعتها في الشارع. لا تعرف معناها بالضبط ـ لا تستطيع أن تتصور منطقها ـ لكن كلماتها تحمل دلالات قاسية، وها هي تطلقها:

ـ أمك تأكل القضيب!

رد خادم، من دون أن يتأثر:

ـ على الأقل ليست مجنونة كأمك. على الأقل أبي ليس مخنثًا! وبالمناسبة، لماذا لا تشمي يديك؟

وأخذ الصبية الآخرون يهتفون:

ـ شمي يديك! شمي يديك!

وشمت ليلى يديها، لكنها قبل ذلك كانت قد فهمت قوله إنه لن يظهر في شعرها. أطلقت صرخة حادة. فازداد الصبية صخبًا.

استدارت ليلى، وأخذت تجري إلى بيتها منتحبة.

* * *

سحبت ماء من البئر، وفي الحمَّام، ملأت حوض الاستحمام، ونزعت ملابسها. صبَّنت شعرها، وهي تغرس أصابعها باهتياج في فروة رأسها،

وتجهش بالبكاء من فرط التقزز. تشطفت بسلطانية مياه ثم صبَّنت شعرها ثانية. شعرت عدة مرات أنها ستتقيأ. ظلت تئن وترتجف، وهي تفرك وجهها وعنقها مرة بعد مرة بقماشة الاستحمام المُصبَّنة حتى احمرَّا.

ما كان ذلك ليحدث بأية حال لو كان طارق معها، هكذا فكرت وهي ترتدي قميصًا نظيفًا وبنطالًا جديدًا. ما كان خادم ليجرؤ. وطبعًا ما كان ليحدث لو ظهرت مامي كما هو مُفترَض أيضًا. أحيانًا كانت ليلى تتساءل لماذا تكبدت مامي عناء ولادتها. باتت مقتنعة بضرورة عدم السماح للناس بإنجاب أطفال جدد إذا كانوا قد منحوا بالفعل كل ما لديهم من حب لأطفالهم الأكبر، فهذا ليس عدلًا. وتملكتها نوبة غضب، فذهبت إلى غرفتها، وارتمت على فراشها.

عندما هدأت قليلًا، اجتازت الردهة إلى باب مامي وطرقته. عندما كانت ليلى أصغر سنًّا، كانت تجلس بالساعات خارج هذا الباب. تنقر عليه وتهمس باسم مامي مرة بعد مرة، مثل ترنيمة سحرية تهدف لكسر لعنة ما: «مامي، مامي، مامي، مامي...»، لكن مامي لم تكن تفتح الباب. ولم تفتحه الآن. أدارت ليلى المقبض ودخلت.

* * *

أحيانًا كانت مامي تمر بأيام طيبة. تنهض من فراشها بمرح وعينين ساطعتين. الشفة السفلى المتهدلة تتمدد إلى أعلى في ابتسامة. تتحمم. ترتدي ملابس جديدة وتتكحل. تدع ليلى تمشط شعرها، وهو ما تحبه ليلى، وتدس حلقًا في شحمتي أذنيها. كانتا تذهبان معًا للتسوق في سوق «مَندايي». وتجعلها ليلى تلعب معها «السلم والثعبان»، وتأكلان الشوكولاتة الداكنة المبشورة، وهي إحدى الأشياء القليلة التي تتشابهان

في حبها. أما أفضل الأوقات بالنسبة إلى ليلى في أيام مامي الطيبة، فكانت لحظة رجوع بابي إلى المنزل، عندما ترفع هي ومامي رأسيهما عن لوحة اللعب، وتبتسمان له بأسنان بُنية. ريح سارة كانت تهب على الغرفة وقتها، وتلمح ليلى بارقة من الرقة والرومانسية التي كانت تربط بين والديها سابقًا، عندما كان هذا البيت مزدحمًا وصاخبًا ومبتهجًا.

كانت مامي تخبز أحيانًا في أيامها الطيبة، وتدعو نساء الحي لتناول الشاي والمخبوزات. وكانت ليلى تلعق الطاسات، فيما تجهز مامي المائدة بالفناجين والمناديل والأطباق الجيدة. بعدها، تتخذ ليلى موقعها على مائدة غرفة المعيشة وتحاول أن تقتحم المحادثة، فيما تتكلم النساء بمرح وهن يرتشفن الشاي ويمتدحن مامي على خبيزها. وعلى الرغم من أن ليلى لم تكن تجد ما تقوله، فقد أحبت الجلوس والإصغاء، لأنه في تلك التجمعات كانت تسنح لها متعة نادرة: تحظى بفرصة سماع مامي وهي تتحدث بعاطفة جياشة عن بابي.

كانت مامي تقول:

- كان مدرِّسًا على أعلى مستوى. وكان طلبته يحبونه. ليس فقط لأنه لا يضربهم بالمساطر، مثلما يفعل المدرسون الآخرون، بل يحترمونه، لأنه يحترمهم. كان مدهشًا.

وكانت مامي تحب أن تحكي كيف طلبت يده.

- كنت في السادسة عشرة، وهو في التاسعة عشرة. أسرتانا تعيشان متجاورتين في بنجشير. آه، لقد افتتنت به، يا «همشيرات»! كنت أتسلق الجدار بين بيتينا، ونلعب في بستان والده. وكان حكيم يخاف

دائمًا من أن يُكتشف أمرنا ويعطيه والدي علقة. كان يقول «سيعطيني والدك علقة». كان حذرًا جدًّا، جادًّا جدًّا، حتى في أيامها. ثم في أحد الأيام قلت له، أنا التي قلت: «يا ابن عمي، ماذا سيحدث؟ هل ستطلب يدي أم ستجعلني أنا آتي إليك لأخطبك؟». قلتها هكذا. كان يجب أن ترين وجهه ساعتها!

وتضرب مامي كفيها فيما تضحك النساء وليلى.

حين تنصت ليلى لمامي وهي تحكي تلك القصص، تعرف أن مامي، في زمن ما، كانت تتحدث عن بابي هكذا دائمًا. في زمن ما، لم يكن والداها يناما في غرفتين منفصلتين. وتمنت ليلى لو أنها لحقت بذلك الزمن.

قصة طلب مامي ليد بابي كانت تقود بصورة حتمية إلى خطط توفيق الزيجات. عندما تتحرر أفغانستان من السوفييت ويعود الصبيَّان إلى الديار، سوف يحتاجان إلى زوجتين، وهكذا، واحدة بعد أخرى، كانت النساء يستعرضن فتيات الحي اللاتي ربما، وربما لا، يكنَّ مناسبات لأحمد ونور. كانت ليلى دائمًا ما تشعر بنفسها مستبعدة عندما يتحول الحديث إلى أخويها، كما لو أن النساء يناقشن فيلمًا جميلًا هي وحدها لم تشاهده. كانت في الثانية من عمرها عندما غادر أحمد ونور كابل إلى بنجشير في الشمال، للالتحاق بقوات القائد أحمد شاه مسعود من أجل الجهاد. لا تكاد ليلى تتذكر أي شيء عنهما على الإطلاق. قلادة لامعة على شكل لفظ الجلالة حول عنق أحمد، وبقعة من الشعر الأسود على إحدى أذني نور. هذا كل شيء.

ـ ماذا عن «أزيتا»؟

قالت مامي وهي تصفع خدها بغضب مصطنع:

ـ ابنة صانع الحصر؟ إن شاربها أكبر من شارب حكيم!

ـ هناك «أناهيتا». نسمع أنها متفوقة في فصلها في زرغونه.

ـ هل رأيتِ أسنان تلك البنت؟ إنها شواهد قبور. إنها تُخفي مقبرة خلف هاتين الشفتين.

ـ ماذا عن شقيقتَي وحيدي؟

ـ هاتان القزمتان؟ لا، لا، لا. آه، لا. ليس لولديَّ. ليس لسلطانيَّ. إنهما يستحقان أفضل من هذا.

وبينما تتواصل الأحاديث، كانت ليلى تترك عقلها يسرح، وكان، كالمعتاد، يلتقي بطارق.

* * *

كانت مامي قد أسدلت الستائر المصفرة. في الظلام، تجثم على الغرفة طبقات من الروائح: النوم، البياضات غير النظيفة، العرق، الجوارب المتسخة، العطر، بقايا «قورمه» الليلة السابقة. انتظرت ليلى أن تتكيف عيناها قبل أن تدخل الغرفة. ومع ذلك، تعثرت قدماها في الملابس المبعثرة على الأرضية.

فتحت ليلى الستائر. عند قدم الفراش هناك كرسي معدني قديم قابل للطي. جلست ليلى عليه وأخذت تنظر إلى أمها، تلك الكومة الساكنة المغطاة بالبطانية.

جدران غرفة مامي مغطاة بصور أحمد ونور. أينما نظرت ليلى، وجدت

اثنين من الغرباء يبتسمان لها. في هذه الصورة نور فوق دراجة بثلاث عجلات. وفي هذه أحمد يصلي، يقف في وضعية تصوير بجوار ساعة شمسية كان هو وبابي قد صنعاها عندما كان في الثانية عشرة. وفي تلك، يجلس شقيقاها ظهرًا لظهر أسفل شجرة كمثرى قديمة في الباحة.

تحت سرير مامي، رأت ليلى زاوية صندوق حذاء أحمد بارزة. من وقت إلى آخر، تُطلعها مامي على ما فيه من قصاصات جرائد مكرمشة وقديمة، ومنشورات استطاع أحمد جمعها من المجموعات المتمردة وحركات المقاومة التي تتخذ مقارها في باكستان. وتذكرت ليلى أن إحدى الصور تظهر رجلًا بمعطف أبيض طويل يناول مصاصة لصبي بلا ساقين. وكان التعليق أسفل الصورة يقول: «الأطفال هم الضحايا المستهدفون لحملة الألغام الأرضية السوفييتة». وذكر المقال أن السوفييت كذلك يحبون إخفاء المتفجرات داخل ألعاب زاهية الألوان، بحيث تنفجر اللعبة إذا التقطها طفل، وتمزق أصابعه أو يده بأكملها. هذا يمنع أبيه من الالتحاق بالجهاد، إذ يضطر للبقاء في داره ورعاية طفله. وفي مقالة أخرى في صندوق أحمد يقول أحد المجاهدين الصغار إن السوفييت رشوا قريته بغاز أحرق جلود الناس وأعماهم، وإنه رأى بعينيه أمه وأخته تجريان ناحية الغدير، وهما تسعلان دمًا.

ـ مامي!

تململت الكومة. وأخرجت أنينًا.

ـ انهضي يا مامي! الساعة الثالثة.

أنين آخر. خرجت يد، مثل منظار غواصة يخرق السطح، ثم سقطت.

تحركت الكومة بقدر من الوعي تلك المرَّة. ثم خشخشت الأغطية وهي تطوى طبقات فوق طبقات. ببطء، وعلى مراحل، تجسدت مامي: الشعر المهوش أولًا، ثم الوجه العَبوس الأبيض، فالعينان المتغضنتان في الضوء، فيدٌ تتحسس باحثة عن قائم السرير الخلفي، تنزلق الأغطية إلى أسفل فيما تسحب نفسها إلى أعلى، متأوهة. بذلت مامي جهدًا لتفتح عينيها، ثم أجفلت من الضوء، وتهدل رأسها على صدرها.

غمغمت:

ـ كيف كانت المدرسة؟

ستبدأ إذن. الأسئلة الإجبارية، الإجابات الفاترة. كلاهما تتصنعان. شريكتان غير متحمستين، في تلك الرقصة القديمة المتعَبة.

قالت ليلى:

ـ المدرسة بخير.

ـ هل تعلمتِ شيئًا؟

ـ المعتاد.

ـ هل أكلتِ؟

ـ نعم.

ـ طيب.

رفعت مامي رأسها ثانية، نحو النافذة. أجفلت ورفَّ جفناها. كان الجانب الأيمن من وجهها أحمر، وقد انفرد الشعر على هذا الجانب:

ـ عندي صداع.

ـ هل أحضر لك أسبرين؟

دلَّكت مامي صدغيها:

ـ ربما فيما بعد. هل أبوك بالمنزل؟

ـ الساعة ما زالت الثالثة.

ـ آه. نعم. لقد قلت لي ذلك بالفعل.

تثاءبت مامي، ثم قالت بصوت يعلو قليلًا عن حفيف قميص نومها على الملاءات:

ـ كنت أحلم حالًا، قبل أن تدخلي، لكنني لا أتذكر الحلم الآن. هل يحدث لك هذا؟

ـ إنه يحدث للجميع يا مامي.

ـ شيء غريب.

ـ يجب أن تعرفي أن صبيًّا أطلق بولًا من مسدس مياه على شعري، بينما أنت تحلمين.

ـ أطلق ماذا؟ ما هذا؟ معذرة.

ـ بول.

ـ هذا... هذا فظيع. يا إلهي. أنا آسفة. يا مسكينة. سيكون لي كلام معه فور أن يطلع الصبح، أو ربما مع والدته. نعم، سيكون ذلك أفضل. أظن.

ـ لم أقل لك مَن هو.

ـ آه. نعم. مَن هو؟

ـ لا تشغلي بالك.

ـ هل أنت غاضبة؟

ـ كان يُفترض بك أن تأتي لتأخذيني.

قالت مامي بصوت مبحوح:

ـ صحيح.

لم تستطع ليلى أن تحدد ما إذا كان ذلك سؤالًا. وبدأت مامي تنتف شعراتها. كان ذلك واحدًا من ألغاز الحياة الكبرى بالنسبة إلى ليلى، كيف لم تصبح مامي صلعاء مثل بيضة مع كل هذا النتف؟

ـ ماذا عن... ما اسمه، صديقك، طارق؟ نعم، ماذا عنه؟

ـ لقد سافر منذ أسبوع.

تنهدت مامي من أنفها:

ـ آه. هل تحممتِ؟

ـ نعم.

ـ إذن أنت نظيفة.

حولت مامي نظرتها المتعبة إلى النافذة:

ـ أنت نظيفة، وكل شيء على ما يرام.

وقفت ليلى:

ـ لديَّ واجب الآن.

قالت مامي بصوت يزداد خفوتًا، وهي تغطس بالفعل أسفل الملاءات:

ـ طبعًا. أغلقي الستائر قبل خروجك يا حبيبتي.

عندما مدت ليلى يدها إلى الستائر، شاهدت سيارة تمر في الشارع تتعقبها سحابة من التراب. كانت «البينز» الزرقاء التي لها أرقام هِرات تغادر أخيرًا. تابعتها حتى اختفت حول منعطف، وزجاجها الخلفي يلتمع في الشمس.

كانت مامي تقول من خلفها:

ـ غدًا لن أنسى.

ـ لقد قلت هذا بالأمس.

ـ أنت لا تعرفين يا ليلى.

استدارت ليلى لتواجه أمها:

ـ أعرف ماذا؟ ما الذي لا أعرفه؟

ارتفعت يد ماما عاليًا إلى صدرها، ودقت عليه:

ـ هنا، بالداخل. لا تعرفين ماذا بالداخل.

ثم سقطت يدها بوهن:

ـ لا تعرفين وحسب.

١٨

مر أسبوع، ولم تظهر أية بادرة على عودة طارق. ثم جاء أسبوع آخر وانقضى.

لشغل الوقت، أصلحت ليلى حاجز الباب الذي لم يكن بابي قد اقترب منه بعد. أنزلت كُتب بابي، ونفضت عنها التراب ورتبتها أبجديًّا. ذهبت إلى شارع الدجاج مع حسينة، و«جيتي»، و«نيلا»، والدة «جيتي»، وهي خيَّاطة، وأحيانًا زميلة خياطة لمامي. في ذلك الأسبوع، بدأت ليلى تقتنع أنه من بين كل المصاعب التي يواجهها المرء، لا شيء أقسى من فعل الانتظار البسيط.

ومر أسبوع آخر.

وجدت ليلى نفسها مُعلقة في شبكة من الأفكار الرهيبة.

لن يعود أبدًا. لقد انتقل والده بعيدًا إلى الأبد، والرحلة إلى غزني ليست سوى خدعة. حيلة كبار لكي يوفروا عليهما وداعًا مؤلمًا. انفجر فيه لغم آخر. كما حدث عام ١٩٨١، عندما كان في الخامسة، حين اصطحبه

والداه جنوبًا إلى غزني آخر مرة. كان ذلك عقب عيد ميلاد ليلى الثالث. كان محظوظًا تلك المرَّة، إذ لم يفقد سوى ساق، محظوظًا أنه قد بقي على قيد الحياة.

أخذت تلك الأفكار تدق وتدق في رأسها.

ثم في إحدى الليالي رأت ليلى ضوءًا واهنًا يومض من الشارع. وهرب من بين شفتيها صوت بين الزقزقة والشهيق. سارعت بإخراج مصباحها اليدوي من تحت الفراش، لكنه لم يعمل. ضربته ليلى على كفها، ولعنت البطاريات الفارغة. لكن لا يهم. لقد عاد. جلست ليلى على حافة فراشها، دائخة من الراحة، وأخذت تراقب العين الصفراء الجميلة وهي تفتح وتغمض.

* * *

في طريقها إلى بيت طارق اليوم التالي، رأت ليلى خادمًا ومجموعة من أصدقائه على الرصيف الآخر. كان خادم مقرفصًا، يرسم شيئًا على التراب بعصا. عندما رآها، ترك العصا ونفض أصابعه. قال شيئًا فتعالت الضحكات. نكست ليلى رأسها ومرت من أمامهم مسرعة.

عندما فتح طارق الباب، سألته:

ـ ماذا فعلت؟

تذكرت لحظتها فقط أن عمه حلَّاق.

مرر طارق يده على فروة رأسه المحلوقة حديثًا وابتسم، مظهرًا أسنانًا بيضاء غير مستوية تمامًا:

ـ هل أعجبك؟

ـ كأنك ستلتحق بالجيش.

خفض رأسه وقال:

ـ تريدين أن تتحسسيها؟

حكت الشعرات الخشنة كفَّ ليلى على نحو لطيف. لم يكن طارق مثل بعض الصبيان الآخرين الذين تخفي شعورهم جماجم مخروطية الشكل وتورمات قبيحة المنظر. كان رأس طارق كامل الاستدارة وخالي من التورمات.

قالت:

ـ ماذا أخَّرك إلى هذا الحد؟

ـ كان عمي مريضًا. هيا. ادخلي.

قادها في الردهة إلى غرفة المعيشة. كانت ليلى تحب كل شيء في هذا البيت. البساط البالي القديم في غرفة المعيشة، اللحاف المصنوع من الرُّقَع على الأريكة، الفوضى الاعتيادية لحياة طارق: أثواب القماش الخاصة بأمه، إبر خياطتها المغروسة في بكرات الخيط، المجلات القديمة، حقيبة الأكورديون في الزاوية منتظرة مَن يفتحها.

كانت أمه تنادي من المطبخ:

ـ مَن الذي جاء؟

أجاب:

ـ ليلى.

سحب كرسيًّا. كانت غرفة المعيشة مضاءة بنور ساطع ولها نوافذ مزدوجة تفتح على الباحة. على حافة النافذة برطمانات خاوية تستخدمها والدة طارق لتخليل الباذنجان وصنع مربى الجزر.

قال والده وهو يدخل الغرفة:

ـ هل تقصد عروسة ابننا؟

كان نجارًا، رجلًا نحيلًا أبيض الشعر في أوائل الستينيات. لديه فراغات بين أسنانه الأمامية، وله العينان الضيقتان لشخص قضى معظم عمره في أماكن مفتوحة. فتح ذراعيه فدخلت ليلى بينهما، واستقبلتها رائحته اللطيفة المألوفة، رائحة نشارة الخشب. تبادلا القبلات على الخد ثلاثًا.

قالت والدة طارق، وهي تمر بجوارهم:

ـ قل لها هذا كلما قابلتها حتى تتوقف عن زيارتنا.

كانت تحمل صينية عليها سلطانية كبيرة، وملعقة تقديم، وأربع سلطانيات أصغر. وضعت الصينية على الطاولة. وأمسكت وجه ليلى بين يديها:

ـ ولا يهمك من الرجل العجوز. إننا نسعد برؤيتك يا عزيزتي. هيا، اجلسي. لقد أحضرت لك بعض الخُشاف.

الطاولة ضخمة ومصنوعة من خشب خفيف خام ـ صنعها والد طارق بنفسه، هي وكراسيها ـ مغطاة بمفرش فينيل أخضر طحلبي عليه أهلَّة ونجوم أرجوانية. وغرفة المعيشة تمتلئ بصور لطارق في أعمار مختلفة. في بعض الصور القديمة، يظهر بساقين سليمتين.

قالت ليلى لوالد طارق، وهي تغرس ملعقة في سلطانيتها التي تحوي منقوع الزبيب، والفستق، والمشمش:

ـ سمعت أن أخاك كان مريضًا.

كان يشعل سيجارة:

ـ نعم، لكنه بخير الآن، «شكر خدا»، الحمد لله.

قالت والدة طارق، وهي ترمي زوجها بنظرة لوامة:

ـ أزمة قلبية، للمرة الثانية.

نفخ والد طارق الدخان وغمز لليلى. وأدهشها ثانية أن والدي طارق يمكن ببساطة أن يصلحا جدَّين له. فأمه لم تلده إلا بعد أن تجاوزت الأربعين.

قالت والدة طارق، وهي تنظر من فوق سلطانيتها:

ـ كيف حال والدك يا عزيزتي؟

منذ عرفت ليلى والدة طارق وهي تضع باروكة. كان لونها يتحول إلى البنفسجي الباهت مع الزمن. اليوم كبستها إلى أسفل حتى حاجبيها، ورأت ليلى الشعرات الرمادية لسوالفها. في بعض الأيام، كانت تُعلِّق عاليًا على جبهتها. لكن، بالنسبة إلى ليلى، لم تبدُ والدة طارق قطُّ مثيرة للشفقة فيها. ما تراه ليلى هو الوجه الهادئ الواثق أسفل الباروكة، والعينان الذكيتان، والتصرفات المتمهلة المهذبة.

قالت ليلى:

ـ بخير. ما زال في «سيلو» بالطبع. بخير.

ـ ووالدتك؟

ـ أيام وأيام. كما هي.

قالت والدة طارق شاردة، وقد أنزلت ملعقتها في السلطانية:

ـ نعم، لا بد أنه أمر قاس، أمر فظيع، أن تبعد أم عن أبنائها.

قال طارق:

ـ هل ستتغدين معنا؟

وقالت والدته:

ـ يجب أن تتغدي معنا. أنا أعد «شروَه».

ـ لا أريد أن أكون «مزاحم».

ردت والدة طارق:

ـ أنت تثقلين علينا؟ نسافر أسبوعين فنعود ونجدك قد أصبحت مؤدبة علينا؟

قالت ليلى، وهي تحمر خجلًا وتتبسم:

ـ طيب. سأبقى.

ـ اتفقنا إذن.

الحقيقة أن ليلى تحب تناول الوجبات في بيت طارق كما تكره تناولها في بيتها. في بيت طارق، لا يأكل أحد بمفرده، دائمًا يأكلون كأسرة. تحب

ليلى الأكواب البلاستيكية البنفسجية التي يستخدمونها وربع الليمونة التي تطفو دائمًا على سطح دورق المياه. تحب كيف يبدأون كل وجبة بسلطانية من الزبادي الطازج، وكيف يعصرون البرتقال المر على كل شيء، حتى على الزبادي، وكيف يلقون نكات صغيرة بريئة بعضهم على بعض.

على الطعام، يتدفق الحديث. ومع أن طارقًا ووالديه من البشتون، كانوا جميعًا يتحدثون الفارسية في وجود ليلى لأجل خاطرها، على الرغم من أنها تفهم البشتونية إلى حد ما، وتعلمتها في المدرسة. قال بابي إن ثمة توترًا بين قومهم - الطاجيك - الأقلية، وبين قوم طارق، البشتون، أكبر مجموعة عرقية في أفغانستان. وقال بابي: «لطالما شعر الطاجيك بالاستهانة بهم. إذ حكم ملوك البشتون هذه البلاد لما يقرب من مائتين وخمسين عامًا يا ليلى، فيما لم يحكمها الطاجيك سوى تسعة أشهر، عام ١٩٢٩».

وسألته ليلى: «وأنت؟ هل تشعر بالتجاهل يا بابي؟».

فمسح بابي نظارته بذيل قميصه: «بالنسبة إليَّ فهذا الكلام عن أني طاجيكي وأنت بشتوني وهو هزاره وهي أوزبكية هو محض هراء - هراء شديد الخطورة. كلنا أفغان، هذا هو ما يجب أن يفهمه الجميع. لكن عندما تحكم مجموعةٌ المجموعات الأخرى وقتًا طويلًا هكذا... تصبح إهانة، وتصير خصومة. هكذا الأمر، وطالما كان هكذا».

ربما. لكن ليلى لم تشعر بذلك قطُّ في بيت طارق، حيث لا تُطرح مثل تلك المسائل أبدًا. كانت أوقات ليلى مع عائلة طارق دائمًا طبيعية بالنسبة إليها، لا تحتاج إلى جهد، ولا يعقِّدها اختلاف القبيلة أو اللغة، ولا المرارات والأحقاد الشخصية التي تلوث الهواء في منزلها هي.

قال طارق:

ـ ماذا لو لعبنا دورًا من الورق؟

قالت والدته، وهي تروِّح بانزعاج في سحابة الدخان التي يطلقها زوجها:

ـ نعم، اصعدا إلى الطابق العلوي، وأنا سأعد «الشروَه».

رقدا على بطنيهما وسط غرفة طارق وتبادلا التوزيع في لعبة «البنجبار». وحكى لها طارق عن رحلته وهو يحرك قدميه في الهواء، شتلات الخوخ التي ساعد عمه في زراعتها، والثعبان الذي أمسك به في الحديقة.

كانت تلك الغرفة هي التي ينجز فيها ليلى وطارق واجباتهما المدرسية، التي يبنيان فيها أبراجًا من ورق اللعب ويرسم فيها كل منهما بورتريهات هازئة من الآخر. وعندما تمطر، كانا يستندان على حافة النافذة، ويشربان «فانتا» البرتقال الفوارة، الدافئة، ويشاهدان قطرات المطر المنتفخة وهي تنزلق على الزجاج.

قالت ليلى وهي تخلط الورق:

ـ خذ هذه! ما الذي يدور حول العالم لكنه يظل في الركن؟

ـ انتظري!

دفع طارق نفسه إلى أعلى وأرجح ساقه اليسرى الصناعية مدورًا إياها. رقد على جنبه وهو ينقبض، مستندًا على مرفقه:

ـ ناوليني تلك الوسادة.

وضعها تحت ساقه:

ـ هكذا. هذا أفضل.

تذكرت ليلى أول مرة كشف لها ساقه المجدوعة. كانت في السادسة. بإصبع واحد لكزت الجلد اللامع المشدود أسفل ركبته اليسرى. ووجد إصبعها كتلًا صلبة صغيرة هناك، قال لها طارق وقتها إنها زوائد عظمية تنمو أحيانًا بعد البتر. وسألته إذا كان موضع الجدع يؤلمه، فقال إنه يتقيح في النهاية، عندما يتورم ولا يعود يناسب الساق الصناعية كما هو مُفترض، مثل إصبع في كُشتبان. «وأحيانًا يحتك. خصوصًا عندما يكون الجو حارًّا. ساعتها يظهر عليَّ طفح وبثور، لكن أمي لديها «كريمات» تساعد. ليس الأمر سيئًا جدًّا».

ولدى سماع هذا انفجرت ليلى باكية.

كان قد ربط ساقه في مكانها: «لماذا تبكين؟ لقد أردتِ رؤيتها، أيتها «الجريانوك»، البكَّاءة! لو كنت أعرف أنك ستولولين ما أريتك إياها».

قال:

ـ الطابع.

ـ ماذا؟

ـ الفزورة. الحل هو الطابع. يجب أن نذهب إلى حديقة الحيوان بعد الغداء.

ـ كنت تعرفها. أليس كذلك؟

ـ إطلاقًا.

ـ أنت غشاش.

ـ وأنت تغارين.

ـ ومِمَّ أغار؟

ـ من ذكاء الرجال.

ـ ذكاء الرجال؟ حقًّا؟ قل لي، مَن يفوز دائمًا في الشطرنج؟

ـ أنا أدعك تفوزين.

ضحك. كانا يعرفان أن ذلك ليس صحيحًا.

ـ ومن رسب في الرياضيات؟ مَن الذي تأتي إليه ليساعدك في واجب الرياضيات حتى وأنت أكبر منه بعام دراسي؟

ـ كنت سأكبرك بعامين دراسيين ما لم أكن أملُّ من الرياضيات.

ـ وتمل من الجغرافيا أيضًا.

ـ وماذا تعرفين أنتِ؟ الآن، اخرسي. إذن، هل سنذهب إلى حديقة الحيوان أم لا؟

ابتسمت ليلى:

ـ سنذهب.

ـ طيب.

ـ اشتقت إليك.

مضت فترة صمت. ثم استدار طارق إليها باستياء نصف ضاحك نصف عابس:

ـ ماذا أصابك؟

تساءلت ليلى، كم مرة قالت فيها هي وحسينة و«جيتي» الكلمة نفسها بعضهن لبعض، قلنها بلا تردد، بعد يومين أو ثلاثة لم يتقابلن فيها؟ «اشتقت إليك يا حسينة. آه، وأنا أيضًا اشتقت إليك». في تكشيرة طارق، عرفت ليلى أن الأولاد مختلفون عن البنات في هذا الشأن. إنهم لا يجعلون من الصداقة فُرجة. لا يشعرون برغبة في كلام من هذا النوع، ولا بحاجة إليه. تخيلت ليلى أخويها أيضًا هكذا. أصبحت ليلى تفهم أن الأولاد يتعاملون مع الصداقة مثلما يتعاملون مع الشمس: وجودها أمر لا خلاف عليه، لكن أفضل طريقة للاستمتاع بأشعتها هو عدم التعرض لها مباشرة.

قالت:

ـ أحاول أن أغيظك.

ألقى عليها نظرة جانبية:

ـ وقد نجحتِ.

لكنها رأت تكشيرته تنبسط، ورأت احمرار خديه من حرارة الشمس يزداد، ربما، للحظة.

* * *

لم تقصد ليلى أن تخبره، بل كانت قد قررت أن إخباره فكرة سيئة جدًّا، فالنتيجة ستكون إصابة أحدهما، لأن طارقًا لن يترك الأمور تمر. لكن عندما خرجا إلى الشارع لاحقًا، متوجهين إلى موقف الحافلات، رأت

خادمًا مجددًا، يستند على جدار. كان محاطًا بأصدقائه، إبهاماه معلقان في حلقات حزامه. وابتسم لها متحديًا.

وهكذا أخبرت طارقًا. انسكبت القصة من فمها قبل أن تستطيع منعها.

ـ فعل ماذا؟

أخبرته ثانية.

أشار إلى خادم.

ـ هو؟ هو المقصود؟ هل أنت متأكدة؟

ـ متأكدة.

ضغط طارق أسنانه وغمغم بشيء لنفسه بالبشتونية لم تستطع ليلى سماعه. ثم قال بالفارسية:

ـ انتظري هنا.

ـ لا، يا طارق...

لكنه كان يعبر الشارع بالفعل.

كان خادم أول مَن رآه. خبت ابتسامته، ودفع نفسه عن الجدار. أخرج إصبعيه من حلقتي الحزام وشد جسده منتصبًا، في وضعية إحساس بالخطر. وتابع الآخرون نظرته.

تمنت ليلى لو لم تقل شيئًا. ماذا لو تكالبوا عليه؟ كم عددهم ـ عشرة؟ أحد عشر؟ اثنا عشر؟ ماذا لو أصابوه بأذى؟

ثم توقف طارق على بعد أقدام قليلة من خادم ورفاقه. مرت لحظة

تدبر، وظنت ليلى أنه سيغير رأيه، وعندما انحنى، تخيلته سيتظاهر بأن رباط حذائه قد انفك وسيرجع إليها. ثم راحت يداه تعملان، وفهمت ما يحدث.

الآخرون أيضًا فهموا عندما فرد طارق قامته، واقفًا على ساق واحدة. عندما بدأ يقفز باتجاه خادم، عندما انقض عليه، ساقه المخلوعة مرفوعة عاليًا فوق كتفه مثل سيف.

تنحى الأولاد جانبًا بسرعة. وفتحوا له طريقًا إلى خادم.

ثم ثار التراب وانطلقت القبضات والركلات وعلت الصرخات.

بعدها، لم يضايق خادم ليلى مُطلقًا.

* * *

تلك الليلة، كما في معظم الليالي، أعدت ليلى مائدة العشاء لشخصين فقط. قالت مامي إنها ليست جائعة. في الليالي التي تجوع فيها، كانت تأخذ صحنها إلى غرفتها قبل عودة بابي إلى المنزل. وحين تجلس ليلى وبابي بالأسفل لتناول الطعام، عادة ما تكون نائمة أو راقدة مستيقظة في الفراش.

خرج بابي من الحمَّام، وقد صار شعره ـ الذي يرجع به إلى المنزل ممتلئًا بالدقيق ـ مغسولًا ونظيفًا وممشطًا إلى الخلف:

ـ ماذا سنأكل يا ليلى؟

ـ حساء «الآش» من البارحة.

قال، وهو يطوي الفوطة التي جفف بها شعره:

ـ جميل. إذن ما الذي سنعمل عليه الليلة؟ جمع الكسور الاعتيادية؟

ـ بل تحويل الكسور الاعتيادية إلى كسور مختلطة.

ـ آه. مضبوط.

كل ليلة بعد العشاء، يساعد بابي ليلى في واجباتها المدرسية ويعطيها بعضًا من عنده، فقط ليجعلها متقدمة دائمًا بخطوة أو اثنتين عن فصلها، ليس لأنه لا يرضى عن الواجب الذي يفرض عليها في المدرسة ـ بغض النظر عن الترويج السياسي ـ بل كان بابي يعتقد أن الشيء الوحيد الصحيح الذي فعله الشيوعيون ـ أو على الأقل انتووا فعله ـ كان، للمفارقة، في مجال التعليم، المهنة التي طردوه منها. وبتحديد أكثر، تعليم النساء. إذ أنشأت الحكومة فصولًا لمحو الأمية للنساء. وقال بابي إن نحو ثلثي طلاب جامعة كابل الآن من النساء، نساء يدرسن القانون، والطب، والهندسة.

يقول بابي، هامسًا دومًا، إذ يدرك أن مامي لا يمكن أن تتسامح مع أي حديث إيجابي، ولو من بعيد، عن الشيوعيين: «نساء هذا البلد عانين كثيرًا يا ليلى، لكن ربما كن أكثر حرية الآن، تحت حكم الشيوعيين، ويتمتعن بحقوق أكثر مما كانت لهن من قبل». ويضيف: «صحيح، إنه زمن مناسب للمرء أن يكون امرأة في أفغانستان. ويمكنك أن تستغلي هذا، يا ليلى. بالطبع، حرية المرأة (هنا، يهز رأسه بحسرة) هي في الوقت نفسه أحد الأسباب التي جعلت الناس هناك يحملون السلاح في المقام الأول».

بـ«هناك» لا يعني كابل، التي طالما كانت ليبرالية وتقدمية نسبيًّا. هنا في كابل، تدرِّس النساء في الجامعات، وتدير المدارس، وتحتل المناصب في الحكومة. لا، بابي يقصد المناطق القبلية، خصوصًا مناطق البشتون في الجنوب أو الشرق قرب الحدود الباكستانية، حيث يندر أن ترى نساء في الشوارع، وحين تراهن فبالبرقع وبصحبة رجال. يقصد

تلك المناطق التي تمرد فيها الرجال الذين يعيشون وفقًا للقوانين القبلية القديمة على الشيوعيين وما أصدروه من مراسيم لتحرير النساء، وحظر الزواج الإجباري، ورفع سن زواج الفتيات إلى ستة عشر عامًا. يقول بابي إن الرجال هناك يرون في ذلك إهانة لتقاليدهم الراسخة منذ قرون، أن تقول لهم الحكومة - بل حكومة غير مؤمنة - إن على بناتهن أن يتركن المنزل، ويلتحقن بالمدارس، ويعملن جنبًا إلى جنب مع الرجال.

ويحب بابي أن يقول ساخرًا: «حاشا لله أن يحدث هذا!». ثم يتنهد ويضيف: «ليلى، حبيبتي، العدو الوحيد الذي لا يستطيع الأفغاني الانتصار عليه هو نفسه».

جلس بابي على كرسيه على المائدة، وغمس الخبز في سلطانية «الآش» أمامه.

قررت ليلى أنها ستخبره بما فعله طارق مع خادم، في أثناء تناولهما الطعام، قبل أن يبدأ في الكسور، لكن الفرصة لم تسنح لها قط. لأنه، في تلك اللحظة، قُرع الباب، وعلى الجانب الآخر من الباب، كان غريبٌ يحمل أخبارًا.

١٩

قال عندما فتحت ليلى الباب:

ـ أريد أن أتحدث إلى والديك، يا «دُختَر جان».

كان رجلًا قصيرًا بدينًا، بملامح حادة ووجه أيبسته الشمس. يضع معطفًا بلون البطاطس، ويعتمر «بَكول» صوفية بُنية.

ـ أقول لهما مَن؟

عندها وضع بابي يده على كتف ليلى، وسحبها بلطف بعيدًا عن الباب.

ـ لماذا لا تصعدين إلى أعلى يا ليلى. هيا.

وهي تتجه إلى السلالم، سمعت الزائر يقول لبابي إن لديه أخبارًا من بنجشير. كانت مامي في الغرفة أيضًا، سدت فمها بإحدى يديها، وعيناها تتحولان من بابي إلى الرجل ذي «البَكول».

اختلست ليلى النظر من الطابق العلوي. شاهدت الغريب وهو يجلس مع والديها. انحنى مقتربًا منهما، وقال بضع كلمات خافتة، ثم صار وجه

بابي أبيض، وراح يبيض أكثر وأكثر، وينظر إلى يديه، بينما أخذت مامي تصرخ، وتصرخ، وتشد شعرها.

* * *

في الصباح التالي، يوم «الفاتحة»، تدفقت نساء الحي على المنزل وتولين مسؤولية إعداد عشاء «الختم» الذي سوف يُقدم بعد الجنازة. ظلت مامي جالسة على الأريكة طوال الصباح، وجهها منتفخ، تقلب منديلًا بين أصابعها. تقوم على رعايتها امرأتان لا تكفان عن التنشق، تتناوبان التربيت على يد مامي برقة، وكأنها الدمية الأندر والأكثر هشاشة في العالم. ولم تبدُ مامي واعية بوجودهما.

نزلت ليلى على ركبتيها بجوار أمها وتناولت يديها:

ـ مامي!

انسابت عينا مامي إلى أسفل، وطرفتا.

قالت إحدى النساء بحسم:

ـ سنعتني بها يا ليلى جان.

ذهبت ليلى إلى جنازات من قبل، حيث رأت نساء كتلك، نساء يتلذذن بكل ما له علاقة بالموت، معزِّيات رسميَّات لا يتركن أحدًا يتعدى على الواجبات التي عينَّ أنفسهن لآدائها.

ـ الوضع تحت السيطرة. اذهبي الآن يا فتاتي، وافعلي شيئًا آخر. اتركي أمك وشأنها.

شعرت ليلى، بعدما هُشَّت، بأنها عديمة الفائدة. ظلت تنتقل من غرفة

إلى غرفة، وتشاغلت بالمطبخ برهة. وجاءت حسينة مع أمها، خاشعة على غير عادتها. وكذا جاءت «جيتي» وأمها. عندما رأت «جيتي» ليلى، هرعت إليها، وألقت بذراعيها النحيلتين حولها، وأعطت ليلى حضنًا طويلًا جدًّا، وقويًّا على غير المتوقع. وعندما تراجعت، ترقرقت الدموع في عينيها. قالت:

ـ أنا آسفة جدًّا يا ليلى!

شكرتها ليلى. وجلست الفتيات الثلاث بالخارج في الباحة حتى كلفتهن إحدى النساء بمهمة غسيل الأكواب ورص الأطباق على المائدة.

بابي أيضًا ظل يدخل ويخرج من البيت بلا هدف، باحثًا، فيما يبدو، عن شيء يفعله.

ـ أبعدوه عني!

تلك كانت المرة الوحيدة التي نطقت فيها مامي طيلة الصباح.

انتهى الأمر ببابي جالسًا وحيدًا على كرسي قابل للطي في الردهة، يبدو مغتمًّا وضئيلًا. ثم نبهته إحدى النساء أنه يجلس في الطريق، فاعتذر واختفى في مكتبه.

* * *

مساء ذلك اليوم، ذهب الرجال إلى قاعة في كارته سه استأجرها بابي من أجل «الفاتحة». وجاءت النساء إلى المنزل. واتخذت ليلى موقعًا بجوار مامي، بالقرب من مدخل غرفة المعيشة حيث تجلس أسرة المتوفى. كانت المعزِّيات يخلعن أحذيتهن عند الباب، ويومئن للجالسات وهن يجتزن

القاعة، ثم يجلسن على كراسي قابلة للطي مصفوفة بطول الجدران. رأت ليلى «واجمة»، القابلة العجوز التي وُلِدت على يديها. كما رأت والدة طارق، تضع طرحة سوداء فوق الباروكة. أومأت لليلى ومنحتها ابتسامة بطيئة، حزينة، بشفتين مطبقتين.

من جهاز كاسيت، تعالى صوت قارئ قرآن. وبين آية وأخرى، كانت النساء يتنهدن ويراوحن أماكنهن ويتنشقن. وتعالت سعلات مكتومة، وهمهمات، ومن وقت إلى آخر كانت امرأة تطلق نشيجًا مسرحيًّا غارقًا في الحزن.

دخلت زوجة رشيد، مريم. كانت تضع طرحة سوداء، شردت من تحتها خصلات من شعرها على جبهتها. اتخذت مقعدًا على الحائط قبالة ليلى.

بالقرب من ليلى، ظلت مامي تهتز إلى الأمام وإلى الخلف. جذبت ليلى يد مامي إلى حِجرها واحتضنتها بيديها، لكن لم يبدُ أن مامي لاحظت.

قالت ليلى في أذنها:

ـ هل تريدين ماءً يا مامي؟ هل تشعرين بالعطش؟

لكن مامي لم تنطق، ظلت تتمايل إلى الخلف وإلى الأمام، وتحدق في الحصيرة بنظرة شاردة خالية من الروح.

بين حين وآخر، وهي تجلس بجوار مامي، تتطلع إلى النظرات الواهنة الساهمة في أنحاء الغرفة، كانت ليلى تدرك قوة المصيبة التي نزلت بأسرتها. الإمكانات التي حُرمت منها. الآمال التي تحطمت.

لكن الشعور لم يستمر. كان من الصعب أن تشعر، أن تشعر حقًّا، بما

تشعر به مامي من فَقدٍ. من الصعب أن تستدعي ليلى الحزن، أن تبكي على موت أناس لم تفكر فيهم قطُّ باعتبارهم أحياء في المقام الأول. لطالما كان أحمد ونور بالنسبة إليها مثل المعلومات العامة، مثل شخصيات خيالية في قصة خرافية، ملكين في كتاب تاريخ.

طارق هو الذي كان حقيقيًّا، من لحم ودم. طارق، الذي علَّمها الشتائم بالبشتونية، الذي يحب أوراق البرسيم المملحة، الذي يعبس ويهمهم بأصوات تذمر عندما يمضغ، الذي له وحمة وردية فاتحة أسفل ترقوته اليسرى على شكل مندولين مقلوب رأسًا على عقب.

وهكذا، جلست ليلى بجوار أمها في حداد واجب على أحمد ونور، لكن في قلبها، كان شقيقها الحقيقي حيًّا وبخير حال.

٢٠

بدأت الأوجاع التي سوف تلاحق مامي بقية أيامها: آلام صدر ونوبات صداع، آلام مفاصل وتعرقات ليلية، آلام في أذنيها تصيبها بالشلل، وأورام لا يستطيع أحد أن يتحسسها بأصابعه. أخذها بابي إلى طبيب، سحب منها عينات دم وبول، والتقط لها صورًا بالأشعة السينية، لكنه لم يجد مرضًا جسديًّا.

كانت مامي تستلقي في الفراش معظم الأيام. ترتدي الأسود. تنتف شعرها وتقرض الشامة أسفل شفتها. وعندما تكون مامي مستيقظة، تراها ليلى تترنح في أرجاء المنزل. ودائمًا ما ينتهي بها الأمر في غرفة ليلى، كما لو كانت ستلتقي بالولدين آجلًا أو عاجلًا إذا ظلت تمشي في الغرفة التي ناموا فيها يومًا وضرطوا وتعاركوا بالوسائد. لكنها لم تقابل سوى غيابهما، وليلى. وباتت ليلى تعتقد أنهما الشيء نفسه بالنسبة إلى مامي.

الواجب الوحيد الذي لم تتجاهله مامي قطُّ هو الصلوات الخمس. كانت تنهي كل صلاة ورأسها منكّس، ويداها مبسوطتان أمام وجهها، تتمتم بدعاء إلى الله أن ينصر المجاهدين. وأصبح على ليلى أن تحمل

مزيدًا ومزيدًا من الأعباء المنزلية. فلو لم ترعَ شؤون المنزل، لوجدت الملابس، والأحذية، وأكياس الأرز المفتوحة، وصفائح الفول، والأطباق المتسخة مبعثرة في كل مكان. صارت ليلى تغسل ملابس مامي وتغير ملاءاتها. تلاطفها حتى تخرج من الفراش للاستحمام أو لتناول الطعام. وأصبحت هي من يكوي قمصان بابي ويطوي بنطلوناته. ويومًا بعد يوم، صارت هي الطباخة.

أحيانًا، بعد أن تنتهي ليلى من أشغالها، تندس في الفراش إلى جوار مامي. تلف ذراعيها حولها، وتشبك أصابعها بأصابع والدتها، وتدفن وجهها في شعرها. تتقلب مامي، تغمغم بشيء ما، قبل أن تشرع أخيرًا في سرد قصة عن الولدين.

ذات يوم، وهما راقدتان بتلك الطريقة، قالت مامي:

ـ أحمد كان سيصبح زعيمًا، فهو يمتلك «الكاريزما». كان أناس في ثلاثة أضعاف عمره ينصتون إليه باحترام يا ليلى. كان لا بد أن تري ذلك. ونور. آه يا نوري! كان يحب رسم «سكيتشات» لبنايات وجسور. كان سيصبح مهندسًا معماريًّا. كان سيغير كابل بتصميماته. والآن أصبحا من الشهداء.

رقدت ليلى مكانها وراحت تنصت، راجية أن تلاحظ مامي أنها هي، ليلى، لم تُستشهد، أنها ما زالت حية، هنا، في الفراش معها، أن لديها آمالًا ومستقبلًا. لكن ليلى تعرف أن مستقبلها لا يرقى إلى ماضي شقيقيها. لقد ألقيا بظلالهما عليها في حياتهما، وسوف يطمسانها في موتهما. الآن، أصبحت مامي أمينة متحف حياتهما، بينما هي، ليلى، مجرد زائرة، مستمعة إلى أسطورتهما، رق جلدي تريد مامي أن تسطر عليه حكايتهما.

- الرسول الذي جاء بالأخبار، قال إنهم عندما عادوا بالولدين إلى المعسكر، أشرف أحمد شاه مسعود بنفسه على دفنهما، وصلى عليهما الجنازة. هذان هما شقيقاك الشجاعان يا ليلى، القائد مسعود، أسد بنجشير بنفسه، يشرف على دفنهما، باركه الله!

تقلبت مامي على ظهرها، وتململت ليلى، وأراحت رأسها على صدر مامي.

قالت مامي بصوت مبحوح:

- في بعض الأيام، أنصت إلى دقات الساعة في الردهة، ثم أفكر في كل الدقات، في كل الدقائق، في كل الساعات والأيام والأسابيع والشهور والسنين التي تنتظرني، كلها من دونهما. ولا أستطيع أن أتنفس ساعِتها، وكأن شخصًا يدوس على قلبي يا ليلى. أُصبحُ ضعيفة جدًّا، ضعيفة جدًّا حتى إنني أريد أن أتهاوى في مكان ما.

قالت ليلى:

- أتمنى لو أن بيدي شيئًا.

كانت تعني ذلك، لكن كلماتها خرجت مُرسلة، غير مكترثة، كما لو كانت تعزية عابرة من غريب طيب.

قالت مامي، بعد تنهيدة عميقة:

- أنت ابنة بارة. وأنا لم أكن لك أمًّا كما ينبغي.

- لا تقولي هذا.

- آه، هذا حقيقي. أعرف هذا وآسف لهذا يا حبيبتي.

ـ مامي؟

ـ مم.

نهضت ليلى جالسة، تنظر إلى مامي من أعلى. كانت ثمة خيوط رمادية في شعر مامي. وفزعت ليلى للوزن الذي فقدته مامي، التي طالما كانت مكتنزة. كان خداها شاحبين وممطوطين، والبلوزة التي ترتديها متهدلة على كتفيها، وظهر فراغ واسع بين رقبتها وبين الياقة. وأكثر من مرة، رأت ليلى الدبلة تنزلق من إصبع مامي.

ـ كنت أريد أن أسألك شيئًا.

ـ ما هو؟

شرعت ليلى تقول:

ـ لن تـ...

كانت قد تكلمت في الأمر مع حسينة. وباقتراح من حسينة، أفرغتا زجاجة الأسبرين في المصرف، وأخفتا سكاكين المطبخ وأسياخ الكباب الحادة تحت البساط أسفل الكنبة. وكانت حسينة قد عثرت على حبل في الباحة. وعندما لم يجد بابي شفرات حلاقته، اضطرت ليلى لإخباره بمخاوفها. هوى على طرف الأريكة، ويداه بين ركبتيه. انتظرت ليلى منه أن يطمئنها. لكن كل ما نالته كان نظرة حائرة خاوية.

ـ لن تـ... مامي، أخاف أن...

قالت مامي:

ـ لقد فكرت في الأمر ليلة عرفنا الخبر. لن أكذب عليك. وفكرت

في الأمر بعدها أيضًا. لكن، لا. لا تخافي يا ليلى. أريد أن أرى حلم ولديَّ يتحقق. أريد أن أرى اليوم الذي يرحل فيه السوفييت مكللين بالعار، اليوم الذي يدخل فيه «المجاهدين» كابل منتصرين. أريد أن أكون هناك عندما يحدث ذلك، عندما تتحرر أفغانستان، حتى يراها الولدان أيضًا. سوف يريان بعينيَّ.

وسرعان ما نامت مامي، تاركة ليلى بمشاعر متناقضة: الاطمئنان إلى أن مامي تنوي أن تعيش، والألم لأنها لم تكن هي السبب. لن تترك أبدًا بصمتها على قلب مامي كما فعل شقيقاها، لأن قلب مامي مثل شاطئ شاحب سوف تظل آثار أقدام ليلى تمَّحي عن رماله بأمواج من الحزن تتمدد وتتكسر، تتمدد وتتكسر.

٢١

أوقف السائق التاكسي جانبًا ليفسح الطريق لرتل طويل آخر من المدرعات وسيارات الجيب السوفييتية. مال طارق على المقعد الأمامي، فوق السائق، وصرخ:

- «بجالوستا»! «بجالوستا»!

أطلقت سيارة «جيب» بوقها وردَّ عليها طارق بالصفير، مشرقًا وملوحًا بمرح. صرخ:

- بنادق جميلة! سيارات «جيب» مذهلة! جيش مذهل! إنه لمؤسف أن تنهزموا أمام حفنة من الفلاحين حملة المقاليع!

مر الرتل. وعاد السائق إلى الطريق.

سألت ليلى:

- كم تبقَّى أمامنا؟

قال السائق:

ـ ساعة على الأكثر. ما لم تقابلنا أية أرتال أو نقاط تفتيش أخرى.

كانوا في رحلة يوم واحد، ليلى وبابي وطارق. وقد أرادت حسينة أن تأتي معهم، وتوسلت إلى والدها، لكنه لم يسمح لها. كانت الرحلة فكرة بابي، الذي استأجر سائقًا، مع أن راتبه لا يحتمل. لم يكشف عن وجهتهم لليلى، فقط قال إنه، بتلك الرحلة، يساهم في تعليمها.

ظلوا على الطريق منذ الخامسة صباحًا. عبر نافذة ليلى، راح المنظر الطبيعي يتغير من القمم المغطاة بالثلوج إلى الصحاري إلى الخيران والنتوءات الصخرية التي أحرقتها الشمس. وعلى طول الطريق، يمرون ببيوت طينية لها أسقف من القش وحقول تتناثر فيها حزم القمح. ولاحظت ليلى الخيام السوداء لبدو «الكوتشي» مبعثرة هنا وهناك في الحقول المتربة. وكثير من هياكل الدبابات السوفييتية المحترقة وحطام المروحيات. وفكرت أن هذه هي أفغانستان أحمد ونور. هذه، هنا في الأقاليم، حيث تجري الحرب. ليس في كابل، كابل تنعم بقدر كبير من السلام. في كابل، لولا فرقعات الألعاب النارية من وقت إلى آخر، والجنود السوفييت الذين يدخنون على الأرصفة، وسيارات الجيب السوفييتية التي تتصادم في الشوارع دائمًا، لكانت الحرب أقرب إلى شائعة.

كان الصباح قد انتصف، بعدما مروا بنقطتي تفتيش أخريين، عندما دخلوا إلى أحد الوديان. جعل بابي ليلى تنحني فوق المقعد وأشار إلى سلسلة من جدران بادية القدم بلون أحمر أيبسته الشمس في البعيد:

ـ هذه شهر ضُحاك، المدينة الحمراء. كانت قلعة فيما مضى. شيدت قبل نحو تسعمائة سنة لحماية الوادي من الغزاة. وقد هاجمها حفيد

«جنكيز خان» في القرن الثالث عشر، لكنه قُتل. ولاحقًا، دمرها «جنكيز خان» بنفسه.

قال السائق، وهو ينفض رماد السيجارة من النافذة:

ـ وتلك، يا صديقيَّ الصغيرين، هي قصة بلادنا، غزو يتلوه غزو. المقدونيون، الساسانيون، العرب، المغول، والآن السوفييت، لكننا مثل تلك الجدران المنتصبة هناك. محطمون ومنظرنا لا يسرُّ العين، لكننا واقفون على أقدامنا. أليست تلك هي الحقيقة يا «بِدَر»؟

رد بابي:

ـ هي كذلك.

* * *

بعدها بنصف ساعة، أوقف السائق السيارة على جانب الطريق.

قال بابي:

ـ هيا، أنتما الاثنان. اخرجا وألقيا نظرة.

خرجا من التاكسي، وأشار بابي:

ـ ها هما هناك. انظرا.

شهق طارق. وشهقت ليلى، وقد عرفت ساعتها أنها لن ترى شيئًا بهذه الروعة حتى لو عاشت مائة سنة.

كان تمثالا «بوذا» هائلين، يتطاولان لأعلى مما تخيلت من الصور التي رأتها لهما، منحوتين في جرف صخري حال لونه من الشمس،

يطلان عليهم من علٍ، كما تخيلتهما ليلى يطلان، قبل نحو ألفي عام، على القوافل التي تقطع الوادي سالكة طريق الحرير. على جانبيهما، وبطول التجويفين اللذين يسكن فيهما التمثالان، كان الجرف مُنقَّرًا بكهوف يفوق عددها الحصر.

قال طارق:

ـ أشعر أنني ضئيل جدًّا.

قال بابي:

ـ هل تريدان الصعود إلى أعلى؟

سألت ليلى:

ـ فوق التمثالين؟ هل هذا ممكن؟

ابتسم بابي ومد يده.

ـ هيا!

* * *

كان الصعود شاقًّا على طارق، حيث كان عليه أن يستند على ليلى وبابي وهم يصعدون ببطء درجًا ملتويًا، ضيقًا، معتمًا. رأوا كهوفًا ظليلة بطول الطريق، وأنفاقًا تُغربل الجرف في كل اتجاه.

قال بابي:

ـ احذرا لخطاكما.

وتردد صوته في صدى عالٍ:

ـ الأرض خدَّاعة.

في بعض الأجزاء، يفتح السلم على التجويف الذي يسكنه تمثال «بوذا».

ـ لا تنظرا إلى أسفل. استمرا في النظر أمامكما.

وهم يتسلقون، أخبرهم بابي أن باميان كانت ذات يوم مركزًا بوذيًّا مفعمًا بالنشاط حتى سقطت تحت الحكم العربي الإسلامي في القرن التاسع. كان الجرف المكون من الأحجار الرملية موطنًا للرهبان البوذيين الذين شقوا الكهوف فيه لاستخدامها كمقار للمعيشة وملاجئ للحجيج المسافرين المتعبين. قال بابي إن الرهبان رسموا رسومات جميلة بالألوان المائية على جدران كهوفهم وأسقفها.

ـ وقد وصل عددهم في وقت من الأوقات إلى خمسة آلاف راهب يعيشون حياة النسَّاك في هذه الكهوف.

عندما وصلوا إلى القمة، كان طارق منقطع الأنفاس تمامًا. وكان بابي يلهث هو الآخر، لكن عينيه تلتمعان من الإثارة.

قال، وهو يمسح جبينه بمنديل:

ـ نحن نقف على قمة رأسه. هناك كوة بالأعلى يمكننا النظر منها.

اقتربوا من البروز الجرفي المعلَّق ووقفوا جنبًا إلى جنب، بابي في المنتصف، ينظرون إلى الوادي بالأسفل.

قالت ليلى:

ـ انظرا إلى هذا!

وابتسم بابي.

كان وادي باميان بالأسفل مفروشًا بحقول ناضرة. قال بابي إنه قمح الشتاء الأخضر والبرسيم الحجازي، والبطاطس أيضًا. الحقول مسيجة بأشجار الحور ومقسمة بجداول ومصارف للري، على ضفافها هيئات نسائية ضئيلة مقرفصة تغسل الملابس. أشار بابي إلى غيطان أرز وحقول شعير تغطي المنحدرات. كان فصل الخريف، واستطاعت ليلى أن تميز أناسًا في سترات زاهية على أسقف مساكن من الطوب اللبن يفرشون الحصاد حتى يجف. كان الطريق الرئيسي الذي يشق البلدة محفوفًا بأشجار الحور أيضًا. وثمة دكاكين ومقاهٍ صغيرة وحلاقون على الأرصفة. ووراء القرية، وراء النهر والجداول، رأت ليلى تلالًا، جرداء وبُنية متربة، ووراءها، ووراء كل شيء آخر في أفغانستان، جبال «هندوكُش» المكللة بالثلوج.

والسماء فوق كل هذا ناصعة، زرقاء صافية.

همست ليلى:

ـ يا له من هدوء!

كانت ترى أغنامًا وجيادًا ضئيلة لكنها لا تسمع لها ثغاء ولا صهيلًا.

قال بابي:

ـ هذا ما أتذكره دائمًا عن هذا المكان. الصمت. السكينة. أردتكما أن تجرباه. وأردتكما أيضًا أن تطلعا على تراث بلادكما، أن تعرفا جزءًا من ماضيها الثري. هل تفهمان؟ بعض الأشياء يمكن أن أعلمكما إياها، وبعض الأشياء تتعلمانها من الكتب، لكن هناك أشياء يجب أن تُرى وأن تُحس.

قال طارق:

ـ انظرا.

رأوا صقرًا، ينزلق في دوائر فوق القرية.

سألت ليلى:

ـ هل صعدت بأمي إلى هنا من قبل؟

ـ آه، كثيرًا. قبل ولادة الولدين، وبعدها أيضًا. أمك، كانت مغامِرة حينها، و... مفعمة بالحيوية. كانت أكثر شخص حيوية وسعادة قابلته.

ابتسم للذكرى.

ـ كانت لها تلك الضحكة. أقسم إنني تزوجتها بسبب تلك الضحكة يا ليلى. ضحكة مدمرة. لا يمكنك الصمود أمامها.

اجتاحت ليلى موجة حنان. بداية من تلك اللحظة، ستتذكر بابي بهذا الشكل: وهو يتذكر مامي، مرفقاه على الصخر، ويداه تحملان ذقنه، وشعره مهوَّش من الريح، وعيناه متغضنتان في الشمس.

قال طارق:

ـ سأذهب لألقي نظرة على بعض الكهوف.

قال بابي:

ـ خذ حذرك.

تردد صدى صوت طارق:

ـ حاضر يا «كاكا جان».

تابعت ليلى ثلاثة رجال بعيدًا بالأسفل، يتكلمون قرب بقرة مربوطة إلى سور. ومن حولهم، كانت الأشجار قد بدأت تتلون بالأصفر المحمر والبرتقالي والقرمزي.

قال بابي:

ـ أنا أيضًا أفتقد الولدين، تعرفين.

كانت عيناه تطفران بالدمع، وذقنه يرتعش.

ـ ربما لا أكون مثل أمك، التي تتطرف في فرحها وحزنها، ولا يمكنها إخفاء مشاعرها، لم يمكنها ذلك قطُّ. أما أنا، فأظنني مختلفًا، أنا أميل إلى... لكن وفاة الولدين كسرتني أنا أيضًا، أنا أيضًا أفتقدهما، لا يمر يوم إلا... الأمر قاس جدًّا يا ليلى. شديد القسوة.

ضغط زاويتي عينيه الداخليتين بإبهامه وسبابته. عندما حاول الكلام، تهدَّج صوته. سحب شفتيه على أسنانه وانتظر. سحب نفسًا طويلًا عميقًا، ونظر إليها:

ـ لكنني سعيد لأنك عندي. كل يوم، أحمد الله على وجودك. كل يوم. أحيانًا، عندما تكون أمك في أسوأ أحوالها، أشعر أنك كل ما لديَّ يا ليلى.

اقتربت ليلى منه وأراحت خدها على صدره. بدا أنه أجفل قليلًا ـ على خلاف مامي، كان نادرًا ما يعبر عن مشاعره جسديًّا. طبع قبلة خاطفة على

قمة رأسها واحتضن ظهرها بحرج. وقفا هكذا برهة، ينظران على وادي باميان بالأسفل.

قال بابي:

ـ بقدر ما أحب هذه الأرض، أفكر أحيانًا في مغادرتها.

ـ إلى أين؟

ـ إلى أي مكان يسهل فيه النسيان. باكستان أولًا، أعتقد. سنة أو ربما سنتين. حتى تنتهي أوراقنا.

ـ وبعدها؟

ـ بعدها، العالم واسع. ربما أمريكا. مكان قريب من البحر، مثل كاليفورنيا.

قال بابي إن الأمريكان شعب كريم. سوف يساعدونهم بالمال والغذاء فترة، حتى يستطيعوا الوقوف على أقدامهم.

ـ سأجد عملًا، وفي غضون سنوات قليلة، عندما ندخر ما يكفي، سنفتح مطعمًا أفغانيًّا صغيرًا. لا أتحدث عن شيء فاخر، فقط مكان صغير متواضع، بضع طاولات، بعض البُسُط. ربما نعلق بعض الصور لكابل. سوف نعرِّف الأمريكان بمذاق الطعام الأفغاني. ومع طبيخ أمك، سوف يقفون بالطوابير في الشارع.

وأنت، أنت سوف تستمرين في الذهاب إلى المدرسة، بالطبع. تعرفين رأيي في هذا الموضوع. سوف تكون تلك أولويتنا القصوى، أن

تحصلي على تعليم جيد، ثانوي ثم في الكلية. لكن في وقت فراغك، إن أردتِ، بإمكانك المساعدة: تدوين الطلبات، ملء أباريق المياه، أشياء من هذا القبيل.

قال بابي إنهم سوف ينظمون حفلات أعياد الميلاد في المطعم، واحتفالات الخطوبة، وحفلات العام الجديد. سوف يتحول إلى ملتقى لغيرهم من الأفغان الذين فروا من الحرب مثلهم. وفي آخر الليل، بعدما يغادر الجميع ويُنظف المكان، سوف يجلسون لتناول الشاي وسط الطاولات الشاغرة، ثلاثتهم، متعبين وإنما شاكرون على حسن حظهم.

عندما انتهى بابي من الحديث، صمت. كلاهما صمت. كلاهما يعرف أن مامي لن تذهب إلى أي مكان. كان مجرد التفكير في مغادرة أفغانستان غير وارد بالنسبة إليها في حياة نور وأحمد. والآن، بعد استشهادهما، سيبدو لها حزم المتاع والهرب مذلة أسوأ، خيانة، جحود للتضحية التي بذلها ولداها.

بوسع ليلى أن تسمعها وهي تقول: «كيف يمكن أن تفكر في هذا؟ ألا يعني موتهما شيئًا بالنسبة إليك يا ابن عمي؟ إنني لا أجد عزاء إلا في معرفة أنني أمشي على الأرض التي خضباها بدمائهما. لا. أبدًا».

وتعرف ليلى أن بابي لن يغادر من دون مامي أبدًا، حتى وهي لم تعد زوجة بالنسبة إليه أكثر مما هي أمٌّ بالنسبة إلى ليلى. من أجل مامي، سينفض حلم يقظته كما ينفض ذرات الدقيق عن معطفه عندما يعود من العمل. وهكذا فسوف يبقون، سوف يبقون حتى نهاية الحرب، وسوف يبقون ليشهدوا أيًّا كان ما سيلي الحرب.

تذكرت ليلى مامي وهي تقول لبابي ذات مرة إنها تزوجت رجلًا ليس لديه يقين. لم تكن مامي تفهم. لم تكن تفهم أنها لو نظرت في المرآة، فسوف ترى يقينه الوحيد الذي لا يتزعزع يحدق فيها.

* * *

لاحقًا، بعدما تناولوا غداء من البيض المسلوق والبطاطس مع الخبز، غفا طارق تحت شجرة على ضفاف جدول تنساب مياهه في خرير هادئ. نام وقد طوى معطفه بعناية واتخذه وسادة، ويداه متصالبتان على صدره. ذهب السائق إلى القرية لشراء بعض اللوز. وجلس بابي أسفل شجرة سنط غليظة الجزع يقرأ كتابًا. تعرف ليلى هذا الكتاب، فقد قرأه لها مرة. يحكي قصة صياد مُسنٍّ يدعى «سانتياجو» يصطاد سمكة هائلة، لكن عندما يصل بمركبه إلى بر الأمان، يكتشف أن سمكته الثمينة لم يبقَ منها شيء، فقد التهمتها أسماك القرش.

جلست ليلى على حافة الجدول، تغمر قدميها في الماء البارد. فوق رأسها، يطن البعوض وتتراقص بذور الحور القطني. وأزَّ يعسوب قريب، وراقبت ليلى أجنحته وهي تومض في نور الشمس إذ يطير من ورقة عشب إلى أخرى. ومضت بالأرجواني، فالأخضر، فالبرتقالي. وعلى الجانب الآخر من الجدول، راح مجموعة من الصبية الهزاره يجمعون أقراصًا من فضلات الأبقار الجافة من الأرض ويدسونها في أجولة من الخيش مربوطة إلى ظهورهم. وفي مكان ما، نهق حمار. وفَرْفَر مولد كهرباء وقد دبت فيه الحياة.

فكرت ليلى مجددًا في حلم بابي الصغير: «مكان قريب من البحر».

لم تقل لبابي، فوق «بوذا»، إنها سعيدة كونهم لا يستطيعون الرحيل، ولديها أسباب مهمة: سوف تشتاق إلى «جيتي» وجدِّيَّتها المنعكسة على وجهها المحزوق، نعم، وحسينة أيضًا، بضحكتها الخبيرة وتهريجها الطائش. مع ذلك، فهي تتذكر، أكثر من أي شيء، معاناتها في تلك الأسابيع الأربعة من دون طارق عندما ذهب إلى غزني. تتذكر تمامًا كيف كان الوقت يمر ثقيلًا من دونه، كيف كانت تروح وتجيء وهي تشعر بأنها في حالة ترصُّد، غير متوازنة. فكيف لها إذن أن تتعايش مع غيابه الدائم؟

ربما كانت لهفتها على البقاء بالقرب من شخص في بلد مزق فيه الرصاص شقيقيها إربًا أمرًا غير منطقي، لكن بمجرد أن تتذكر ليلى طارقًا وهو ينقض على خادم رافعًا ساقه، لا يبدو شيء في العالم أكثر منطقية.

* * *

بعدها بستة أشهر، في أبريل ١٩٨٨، عاد بابي إلى المنزل حاملًا أخبارًا مهمة.

قال:

ـ لقد وقَّعوا معاهدة في جنيف. معاهدة رسمية! سوف يرحلون. في غضون تسعة أشهر، لن يبقى هناك أي سوفييت في أفغانستان!

كانت مامي جالسة في الفراش، فهزت كتفيها، وقالت:

ـ لكن النظام الشيوعي باقٍ. نجيب الله هو الرئيس الدمية للسوفييت. لن يذهب إلى أي مكان. لا، الحرب ما زالت دائرة. تلك ليست النهاية.

قال بابي:

ـ نجيب الله لن يدوم.

ـ سوف يرحلون يا مامي! سوف يرحلون حقًّا!

ـ احتفلا أنتما إذا أردتما، لكنني لن أستريح حتى أرى موكب نصر للمجاهدين هنا في كابل.

وبهذه الكلمات، رقدت ثانية وسحبت البطانية عليها.

٢٢

يناير ١٩٨٩

في أحد أيام يناير الباردة الملبدة بالغيوم من عام ١٩٨٩، وقبل ثلاثة أشهر من بلوغ ليلى الحادية عشرة، ذهبت هي ووالداها وحسينة لمشاهدة واحدة من آخر القوافل السوفييتية وهي تخرج من المدينة. كان المتفرجون قد احتشدوا على جانبي الطريق أمام النادي العسكري بالقرب من وزير أكبر خان. وقفوا في الثلج الموحل يشاهدون رتل الدبابات والمدرعات وسيارات «الجيب»، بينما يتطاير ثلج خفيف في وهج مصابيح الإضاءة العابرة. تعالت صيحات التهكم والسخرية. ومنع الجنود الأفغان الناس من النزول إلى الشارع. وبين حين وآخر كانوا يضطرون لإطلاق طلقة تحذير.

كانت مامي ترفع صورة لأحمد ونور عاليًا فوق رأسها. الصورة التي يجلسان فيها ظهرًا لظهر أسفل شجرة الكمثرى. وكانت هناك نساء أخريات مثلها، يرفعن عاليًا صورًا لأزواجهن، أو أولادهن، أو إخوتهن الشهداء.

ربَّت شخص على كتفي ليلى وحسينة. كان طارقًا.

سألت حسينة متعجبة:

ـ من أين أتيت بهذه؟

قال طارق:

ـ فكرت أن آتي مرتديًا ما يتماشى مع المناسبة.

كان يضع قبعة فراء روسية هائلة، برَفْرَفي أذن أنزلهما لأسفل.

ـ كيف أبدو؟

ضحكت ليلى:

ـ سخيفًا.

ـ هذا ما قصدته.

ـ هل مشى والداك معك وأنت ترتدي هذه الملابس؟

قال:

ـ لا، إنهما في البيت.

في الخريف الماضي، تُوفِّي عم طارق في غزني بأزمة قلبية، وبعدها ببضعة أسابيع، أصيب والد طارق بأزمة قلبية هو الآخر، تركته واهنًا ومتعبًا، فريسة للقلق ونوبات الاكتئاب التي تسيطر عليه بالأسابيع. شعرت ليلى بالسعادة لرؤية طارق هكذا، مثلما كان في الماضي. لأسابيع بعد مرض والده، راحت ليلى تتابع طارقًا وهو يهيم شاردًا، مغتمًّا وعابسًا.

بينما كانت مامي وبابي يقفان لمشاهدة السوفييت، تسلل ثلاثتهم. اشترى طارق من بائع بالشارع لكل منهم طبقًا من الفول المسلوق المكلل

بصلصة الكزبرة المركَّزة. أكلوا تحت تندة دكان بُسُط مغلق، ثم ذهبت حسينة لتبحث عن أسرتها.

في طريق عودتهم في الحافلة، جلس طارق وليلى خلف والديها. كانت مامي تجلس بجوار النافذة، تحدق في الخارج، وهي تحتضن الصورة. بجوارها، ينصت بابي بلا انفعال لرجل يجادل أن السوفييت ربما رحلوا بالفعل لكنهم سوف يرسلون الأسلحة إلى نجيب الله في كابل.

ـ إنه دمية في أيديهم. ومن خلاله ستظل الحرب دائرة، تأكدوا من هذا.

وأعلن شخص آخر في كرسي على الممر اتفاقه معه.

وأخذت مامي تتمتم لنفسها بأدعية طويلة متشابكة تنساب وتنساب حتى لا يعود لديها نَفَس، فتخرج الكلمات القليلة الأخيرة بشق الأنفس في أزيز خافت وحاد.

* * *

ذهبا إلى «سينما بارك» لاحقًا في ذاك اليوم، ليلى وطارق، ولم يجدا سوى فيلم سوفييتي مدبلج بالفارسية، وهو ما أضفى عليه تأثيرًا كوميديًّا غير مقصود. كانت هناك سفينة تجارية، وضابط أول يحب ابنة القبطان، اسمها «أليونا»، ثم هبت عاصفة شديدة، وبرق، وأمطار، وأخذت أمواج البحر الهائج تتقاذف السفينة. وصرخ أحد البحارة المسعورين بشيء ما. فجاء صوت أفغاني هادئ ليترجم:

ـ سيدي العزيز، هلا تكرمت وناولتني الحبل من فضلك؟

حينئذ انفجر طارق مقهقهًا. وسرعان ما راح كلاهما ضحية لنوبة ضحك

ميؤوس منها. وحين يشعر أحدهما بالتعب، كان الآخر ينخر، فينطلقان في نوبة أخرى. حتى استدار رجل يجلس أمامهما بصفين وأسكتهما.

وجاء مشهد لحفل زفاف قرب النهاية. إذ أذعن القبطان وترك «أليونا» تتزوج من الضابط الأول. وأخذ العروسان يبتسمان كل للآخر، وراح الجميع يشربون الفودكا.

همس طارق:

ـ أنا لن أتزوج أبدًا.

ـ ولا أنا.

قالتها ليلى، لكن ليس قبل لحظة من التردد المتوتر. كانت قلقة من أن يخونها صوتها ويفضح إحباطها مما قاله. خفق قلبها بقوة، وأضافت، بحدة أكبر تلك المرة:

ـ أبدًا.

ـ حفلات الزفاف غبية.

ـ كل هذا الهرج والمرج.

ـ كل الأموال التي تنفق.

ـ على ماذا؟

ـ على ملابس لن ترتديها بعدها أبدًا.

ـ ها!

قال طارق:

ـ لو تزوجت يومًا، سيكون عليهم أن يرتبوا مكانًا لثلاثة على خشبة الزفاف. أنا، والعروس، والرجل الذي يصوب مسدسًا إلى رأسي.

رمقهما الرجل في الصف الأمامي بنظرة تحذير أخرى.

على الشاشة، التصقت شفتا «أليونا» بشفتي عريسها.

فجأة شعرت ليلى بشعور غريب وهي تشاهد القبلة، أنها مفضوحة. كانت منتبهة تمامًا لخفقان قلبها، للدم الذي يدمدم في أذنيها، لشكل طارق بجوارها، مشدودًا، وجامدًا في مكانه. طالت القبلة. وشعرت ليلى فجأة أن عليها ألا تراوح مكانها أو تصدر أي صوت. أحست أن طارقًا يراقبها ـ عينٌ على القبلة والأخرى عليها ـ كما تراقبه. وتساءلت: هل ينصت لوشيش الهواء وهو يدخل ويخرج من أنفها منتظرًا أية رعشة، أي ارتباك يفضح أفكارها؟

وكيف سيكون الأمر لو قبّلته، لو أحست بالزغب فوق شفته يداعب شفتيها؟

ثم تململ طارق في مقعده غير مرتاح. وبصوت متكلف قال:

ـ هل تعرفين أنك إذا نفضتِ المخاط في سيبيريا، يصير جليدًا قبل أن يلمس الأرض؟

ضحكا معًا، ولكن ضحكة قصيرة متوترة تلك المرة. وعندما انتهى الفيلم وخرجا، هدأ بال ليلى حين رأت السماء وقد أعتمت، وأدركت أنها لن تضطر إلى مواجهة عيني طارق في نور النهار الساطع.

٢٣
أبريل ١٩٩٢

مرت ثلاث سنوات.

في أثنائها، أصيب والد طارق بسلسلة من السكتات الدماغية. تركته بيد يسرى خرقاء وثقلٍ خفيف في لسانه. وعندما كان ينفعل، وهو ما يحدث كثيرًا، يزداد الثقل سوءًا.

كبر طارق، ومجددًا، لم تعد ساقه تناسبه، وسلم له الصليب الأحمر ساقًا جديدة، وإن اضطر للانتظار ستة أشهر ليتسلمها.

وحدث ما كانت حسينة تخاف منه، إذ أخذتها أسرتها إلى لاهور، حيث زوَّجتها من ابن العم الذي يمتلك متجرًا للسيارات. في صباح سفر حسينة، ذهبت ليلى و«جيتي» إلى منزلها لوداعها. قالت لهما حسينة إن ابن العم، الزوج المنتظر، بدأ بالفعل إجراءات انتقالهما إلى ألمانيا، حيث يعيش إخوته. وإنها تعتقد أنهما سيكونان في فرانكفورت قبل نهاية العام. بعدها بكين في عناق ثلاثي. كانت «جيتي» حزينة جدًّا. ورأت ليلى حسينة

للمرة الأخيرة حين كان أبوها يساعدها على المرور إلى المقعد الخلفي المزدحم في إحدى سيارات الأجرة.

انهار الاتحاد السوفييتي بسرعة مذهلة. وبدا لليلى أن بابي يرجع إلى البيت، كل بضعة أسابيع، بأخبار آخر جمهورية أعلنت استقلالها. ليتوانيا. إستونيا. أوكرانيا. أُنزل العلم السوفييتي عن الكريملين. ووُلدت جمهورية روسيا.

في كابل، غيَّر نجيب الله تكتيكاته وحاول تصوير نفسه على أنه مسلم متدين. قال بابي:

ـ فات الأوان. لا يمكن أنِ تكون رئيسًا للـ«خاد» يومًا وفي اليوم التالي تُصلي في جامع مع أناس عذَّبت أقاربهم وقتلتهم.

وحين شعر نجيب الله بالحصار يضيق حول كابل، حاول أن يصل إلى اتفاق مع المجاهدين، لكن المجاهدين رفضوا.

من فراشها، قالت مامي:

ـ خيرًا فعلوا!

وظلت تبتهل إلى الله أن ينصر المجاهدين وتنتظر موكبها الموعود، تنتظر سقوط أعداء ولديها.

* * *

وأخيرًا سقطوا. في أبريل عام ١٩٩٢، العام الذي بلغت فيه ليلى الرابعة عشرة. استسلم نجيب الله أخيرًا ولجأ إلى مقر للأمم المتحدة بالقرب من قصر دار الأمان، في جنوب المدينة.

انتهى الجهاد. وانهزمت مختلف الأنظمة الشيوعية التي ظلت تمسك بزمام السلطة منذ ليلة ميلاد ليلى. وانتصر أبطال مامي، إخوة أحمد ونور في الجهاد. والآن، بعد أكثر من عقد من التضحية بكل شيء، من التخلي عن أُسرهم والعيش في الجبال للنضال من أجل سيادة أفغانستان، شرع «المجاهدين» في العودة إلى كابل، بلحمهم ودمهم، وعظامهم التي أنهكتها الحرب.

وكانت مامي تعرفهم بالاسم.

كان هناك «دوستم»، القائد الأوزبكي المتأنق، زعيم حزب «جُنبِش ملي»، المشهور بتغيير ولاءاته. و«قلب الدين حكمتيار»، الفظ شديد البأس، زعيم «حزب إسلامي»، وهو بشتوني درس الهندسة، وقتل طالبًا ماويًّا في أثناء الدراسة. و«ربَّاني»، الزعيم الطاجيكي لـ«جمعيت إسلامي»، الذي كان يدرِّس الإسلام في جامعة كابل أيام الملكية. و«سيَّاف»، وهو بشتوني من مواليد بغمان، صاحب الصلات مع العرب، الإسلامي المتشدد زعيم «اتحاد إسلامي». و«عبد العلي مزاري»، زعيم حزب «وحدت»، المعروف بين أتباعه الهزاره باسم «بابا مزاري»، وصاحب العلاقات الشيعية القوية مع إيران.

وبالطبع، هناك بطل مامي، حليف ربَّاني، الزعيم الطاجيكي صاحب «الكاريزما»، المفكِّر، أحمد شاه مسعود، أسد بنجشير. كانت ماما قد علقت له ملصقًا في غرفتها. وسوف يصبح وجه مسعود المتأمل الوسيم، بحاجبه المرفوع وقبعة «البَكول» المائلة المميزة له، حاضرًا في كل مكان في كابل. سوف تطل عيناه السوداوان المفعمتان بالحياة من اللوحات الإعلانية، والجدران، وواجهات المحال الزجاجية، ومن الأعلام الصغيرة المعلقة على هوائيات سيارات التاكسي.

بالنسبة إلى مامي، كان هذا هو اليوم الذي تحرقت شوقًا إليه. الذي أثمرت فيه كل سنوات الانتظار.

أخيرًا، أصبح بإمكانها التوقف عن ابتهالاتها، وأصبح لولديها أن يرقدا في سلام.

* * *

في اليوم التالي لاستسلام نجيب الله، نهضت مامي من الفراش امرأة جديدة. للمرة الأولى في السنوات الخمس التي أعقبت استشهاد أحمد ونور، لم ترتدِ الأسود. وضعت ثوبًا أزرق داكنًا من الكتان به دوائر بيضاء. غسلت النوافذ وكنست الأرضية، وهوَّت المنزل، وأخذت حمَّامًا طويلًا. كان صوتها فرحًا ومجلجلًا.

ثم أعلنت:

ـ سنقيم حفلًا.

أرسلت ليلى لدعوة الجيران:

ـ قولي لهم إننا سنعد وليمة غداء غدًا.

في المطبخ، وقفت مامي تنظر حولها، يداها في وسطها، ثم قالت في عتاب رقيق:

ـ ماذا فعلت بمطبخي يا ليلى؟ ووي! لا شيء في مكانه.

أخذت تنقل القدور والقلايات من مكان إلى آخر، بحركات مسرحية، كما لو كانت تستردها ممن استولوا عليها، تضع يدها مجددًا على أراضيها، الآن وقد عادت. ظلت ليلى بعيدة عن طريقها، وكان ذلك أفضل، إذ كانت

مامي لا تُقهر، لا حين يتملكها الغضب، ولا حين تغمرها النشوة. بطاقة لا تهدأ، شرعت مامي في الطبخ: حساء «الآش» مع الفاصولياء والشَّبَت المجفف، كفتة، «منتو» ساخنة مشرَّبة بالزبادي الطازج ومكللة بالنعناع.

قالت مامي وهي تفتح جوالًا من الخيش مملوءًا بالأرز بجوار رف المطبخ:

ـ أنت تنتفين حاجبيك.

ـ قليلًا.

صبَّت مامي الأرز من الجوال في قدر أسود كبير من الماء. شمَّرت كُمَّيها وبدأت في التقليب:

ـ كيف حال طارق؟

قالت ليلى:

ـ والده مريض.

ـ كم عمره الآن؟

ـ لا أعرف، تجاوز الستين على ما أظن.

ـ أقصد طارق.

ـ آه. ستة عشر.

ـ إنه ولد لطيف. ألا تتفقين معي؟

هزت ليلى كتفيها.

ـ لكنه لم يعد ولدًا، أليس كذلك؟ ستة عشر. في حكم الرجال. ألا تتفقين معي؟

ـ ما الذي تريدين الوصول إليه يا مامي؟

قالت مامي وهي تبتسم ببراءة:

ـ لا شيء. لا شيء. أنتِ فقط... آه، لا شيء. الأفضل ألا أقول شيئًا.

قالت ليلى، وقد أزعجتها المداورة، والاتهامات المضمَرة:

ـ أراك تريدين أن تقولي شيئًا.

ـ طيب.

اتكأت مامي بيديها على حافة القدر. وأحست ليلى بدرجة من التكلُّف في طريقة نطقها لكلمة «طيب»، وطريقة اتكائها على القدر، وكأنها قد تمرنت عليها. وخافت أن تبدأ ذلك بإلقاء خطبة:

ـ كان الأمر مختلفًا عندما كنتما طفلين تلعبان. لم يكن من ذلك ضرر. كان أمرًا لطيفًا. لكن الآن. الآن. ألاحظ أنك ترتدين حمالة صدر يا ليلى.

أُخذت ليلى على حين غرة.

ـ وكان يمكنك أن تخبريني، بالمناسبة، بأمر حمالة الصدر. لم أكن أعرف. لقد خاب أملي كونك لم تخبريني.

شعرت مامي بتفوقها فضغطت أكثر:

ـ على أية حال، الأمر لا يتعلق بي ولا بحمالة الصدر. الأمر يتعلق بك

وبطارق. هو ولد، كما تعرفين، ولا تهمه سُمعته في شيء. لكن أنت؟ سُمعة الفتاة، خصوصًا إذا كانت جميلة مثلك، مسألة حساسة يا ليلى. مثل عصفور تمسكينه بين يديك، لو أرخيت قبضتك قليلًا، طار بعيدًا.

قالت ليلى، سعيدة بسرعة تمالكها لنفسها:

ـ وماذا عن حكاياتك عن تسلق الجدران مع بابي والتسلل معه إلى البساتين؟

ـ كنا أولاد عم. وتزوجنا. هل طلب هذا الولد يدك؟

قالت ليلى، بنبرة دفاعية، غير مقنعة تمامًا:

ـ إنه صديق. ليس بيننا تلك الأمور.

وأضافت مندفعة:

ـ إنه مثل أخي.

ثم سرعان ما أدركت، حتى قبل أن تتجهم مامي ويكفهر وجهها، أنها أخطأت.

قالت مامي ببطء:

ـ كل شيء إلا هذا. لا تقارني بين ابن النجار وحيد الساق هذا وبين أخويك. لا أحد مثل أخويك!

ـ لم أقل إنه... لم أقصد هذا.

تنهدت مامي من أنفها وأسنانها المطبقة، ثم واصلت كلامها، إنما من دون نبرة المرح التي كانت تتخلله قبل بضع دقائق:

ـ على أية حال، ما أحاول قوله هو أنك إذا لم تنتبهي فسوف يتكلم الناس.

فتحت ليلى فمها لتقول شيئًا. لا تنكر أن مامي معها بعض الحق تعرف ليلى أن أيام اللعب والمرح في الشوارع مع طارق ببراءة وبلا قيد قد ولَّت. وقد بدأت ليلى تشعر، منذ بعض الوقت، بإحساس غير معهود حين يكونان معًا أمام الأعين. إحساس لم تكن تشعر به من قبل، أن هناك من ينظر إليهما، يتفحصهما، يهمس بشأنهما. إحساس ما كانت لتشعر به الآن لولا حقيقة واحدة شديدة الأهمية: لقد وقعت في غرام طارق، من دون مهرب أو مفر، ومن دون حول أو قوة. في قربه، لا تستطيع منع نفسها من الوقوع تحت سطوة أكثر الأفكار فضائحية، عن جسده العاري النحيل متشابكًا مع جسدها. حين ترقد في فراشها ليلًا، تتصور نفسها تُقبِّل بطنه، وتتساءل عن رقة شفتيه، عن ملمس يديه على خدها، على صدرها، على ظهرها، بل أسفل من ذلك. وعندما تفكر فيه بتلك الطريقة، يتملكها الذنب، لكن يتملكها أيضًا إحساس دافئ غريب يتصاعد من بطنها وينتشر إلى أعلى حتى تشعر كأن وجهها يتوهج باللون الوردي.

لا. مامي مُحقة. بل أكثر مما تعرف. وخطر لليلى أن بعض جيرانها، إن لم يكن أغلبهم، يتخذونها هي وطارقًا بالفعل مادة للنميمة. لقد لاحظت ليلى الابتسامات الخبيثة، وعرفت أنهم يتهامسون في الحي بأنهما مرتبطَيْن. فقبل بضعة أيام، مثلًا، كانت تمشي مع طارق في الشارع ومرَّا بجوار رشيد، صانع الأحذية، تتبعه زوجته المغطاة بالبرقع، مريم. وقال رشيد بنبرة لعوب، وهو يمر بجوارهما:

ـ أليس هذان ليلى ومجنون؟

كانت مامي مُحقة.

ما حزَّ في نفس ليلى أن مامي لم يكن لها حق إثارة المسألة. كان الوضع سيختلف لو أثارها بابي. لكن مامي؟ بعد كل تلك السنوات من الجفاء، من الانعزال وعدم الاهتمام بأين تذهب ليلى ومَن ترى وفيمَ تفكر... هذا ليس عدلًا! شعرت ليلى أنها مثل تلك القدور والقلايات، شيء يمكن تجاهله، ثم استعادته، عند الرغبة، حين يأتي المزاج.

لكن اليوم كان يومًا كبيرًا، يومًا مهمًّا لهم جميعًا، ولا يجب أن تُفسده لهذا السبب. وهكذا، تماشيًا مع الروح السارية، تركت ليلى الأمر يمر.

قالت:

ـ فهمت قصدك.

وردَّت مامي:

ـ خيرًا! انتهى الموضوع إذن. الآن، أين حكيم؟ أين زوجي الحلو الصغير؟

* * *

كان يومًا مشمسًا خاليًا من السحب، مناسبًا تمامًا للاحتفال. جلس الرجال على الكراسي المتضعضعة القابلة للطي في الباحة. شربوا الشاي ودخنوا، ومازح بعضهم بعضًا بأصوات عالية عن خطة المجاهدين. كانت ليلى قد عرفت من بابي خطوطها العريضة: أصبح اسم أفغانستان هو «دولة أفغانستان الإسلامية». وتشكَّل مجلس جهاد إسلامي في بيشاور من عدة فصائل من المجاهدين، ليشرف على الأمور لمدة شهرين، بقيادة صبغة

الله مجددي. يليه مجلس قيادة يتزعمه ربَّاني، يستلم السلطة لأربعة أشهر. وخلال تلك الأشهر الستة، ينعقد «اللويَه جِركه»، مجلس أكبر للزعماء والشيوخ، ليشكل حكومة انتقالية تتسلم السلطة لسنتين، تليهما انتخابات ديمقراطية.

كان أحد الرجال يروِّح على أسياخ الضأن التي تطقطق على الشواية المرتجلة. بابي ووالد طارق يلعبان دور شطرنج في ظل شجرة كمثرى عتيقة، وقد تقطب وجهاهما من التركيز. وطارق يجلس إلى جوارهما، يتابع الدور حينًا، وينصت حينًا إلى المناقشة السياسية على الطاولة المجاورة.

تجمعت النساء في غرفة المعيشة، والردهة، والمطبخ. يتحادثن وهن يرفعن أطفالهن الرضَّع ويراوغن بخبرة، وبحركات خفيفة من أردافهن، لتفادي الأطفال الذين يطارد بعضهم بعضًا في أنحاء المنزل. وأغاني الغزل تصدح من جهاز كاسيت بصوت «أستاذ سراهنج».

كانت ليلى في المطبخ، تعد قوارير من شراب «الدوغ» مع «جيتي». وكانت «جيتي» قد تخلت عن خجلها، ولم تعد جادة كما كانت. قبل عدة أشهر، فارق العبوس الحاد جبينها، وأصبحت تضحك بأريحية تلك الأيام، وبمعدل أكبر، وبقدر من الدلال أدهش ليلى. تخلت عن تسريحة ذيل الحصان الكئيبة، وأطالت شعرها، وصبغت بعض خصلاته بالأحمر. وعلمت ليلى أخيرًا أن الدافع وراء هذا التحول كان صبيًّا في الثامنة عشرة لفتت «جيتي» انتباهه، اسمه صابر، حارس مرمى في فريق كرة القدم الذي يلعب فيه شقيق «جيتي» الأكبر.

كانت «جيتي» قد قالت لليلى:

ـ آه! لديه أجمل ابتسامة، وهذا الشعر الأسود الكثيف الكثيف!

بالطبع لم يعرف أحد بما بينهما من إعجاب متبادل. التقته «جيتي» سرًّا مرتين لشرب الشاي، خمس عشرة دقيقة في كل مرة، في مقهى صغير على الجانب الآخر من المدينة، في تايمني.

ـ سيطلب يدي يا ليلى! قريبًا جدًّا، ربما هذا الصيف. هل تصدقين؟ أقسم إنني لا أستطيع التوقف عن التفكير فيه.

سألتها ليلى:

ـ وماذا عن المدرسة؟

أمالت «جيتي» رأسها وحدجتها بنظرة «أنا أعرف وأنت تعرفين».

كانت حسينة تقول: «عندما نبلغ العشرين، ستكون كل منا، أنا و«جيتي»، أمًّا لأربعة أو خمسة أطفال. أما أنت يا ليلى، فسوف تصبحين مصدر فخر لصديقتيك العبيطتين. سوف تصبحين شخصًا مرموقًا. أعرف أنني سوف أفتح صحيفة ذات يوم لأجد صورتك على الصفحة الأولى».

وقفت «جيتي» بجوار ليلى، تقطع الخيار، وعلى وجهها نظرة حالمة شاردة.

كانت مامي بالقرب منهما، في فستانها الصيفي المتألق، تقشر بيضًا مسلوقًا مع «واجمة»، القابلة، ووالدة طارق.

ـ سوف أهدي للقائد مسعود صورة لأحمد ونور.

كانت مامي تتحدث إلى «واجمة»، فيما تومئ «واجمة»، تحاول أن تظهر الاهتمام والتعاطف:

ـ لقد صلى بنفسه في جنازتهما، ودعا لهما عند القبر. ستكون هدية شكر على لطفه.

طقّت مامي بيضة مسلوقة أخرى:

ـ سمعت أنه رجل شريف ومثقف. أعتقد أنه سيقدِّرها.

من حولهن، راحت النساء تندفع دخولًا وخروجًا من المطبخ، تحملن سلطانيات «القورمه»، وأطباق «المستاوه»، وأرغفة الخبز، وتضعنها على «السفرة» المفروشة على أرض غرفة المعيشة.

بين حين وآخر، كان طارق يتهادى داخلًا. يلتقط هذا ويقضم ذاك.

تقول «جيتي»:

ـ غير مسموح للرجال بدخول المطبخ.

وتصرخ «واجمة»:

ـ اخرج! اخرج! اخرج!

وكان طارق يبتسم على الزجر المرح للنساء. بدا أنه يستمتع بكونه غير مرحب به، بأنه يلوث هذا الجو الأنثوي باستخفافه الذكوري ونصف الابتسامة التي تعلو شفتيه.

فعلت ليلى ما بوسعها حتى لا تنظر إليه. حتى لا تمنح أولئك النساء مادة أخرى للنميمة أكثر مما لديهن بالفعل. وهكذا أبقت عينيها لأسفل ولم تقل له شيئًا، لكنها تذكرت حلمًا جاءها قبل بضع ليالٍ، رأت فيه وجهه ووجهها، معًا في مرآة، أسفل طرحة خضراء ناعمة، وكانت حبات الأرز المتساقطة من شعرها تنط وتطق على الزجاج.

مد طارق يده ليذوق قطعة من لحم العجل المطهو مع البطاطس.

ـ «هو بَتشا»!

صفعت «جيتي» ظهر يده، لكن طارقًا سرق اللقمة بأية حال، وضحك.

صار أطول من ليلى بنحو قدم. وأصبح يحلق ذقنه، فبدا وجهه نحيلًا وناتئ العظام أكثر من ذي قبل. واعرضت كتفاه. وكان يحب ارتداء البنطلونات ذات الكسرات، والأخفاف السوداء اللامعة، والقمصان قصيرة الأكمام التي تبرز عضلات ساعديه الجديدة ـ نتاج التمرين على مجموعة أثقال قديمة وصدئة يرفعها يوميًّا في الباحة. وقد ارتسم على وجهه مؤخرًا تعبير مشاكس مرح، وأصبح يرفع رأسه باعتزاز عندما يتحدث، يميله إلى الجانب قليلًا، ويقوِّس أحد حاجبيه عندما يضحك. أطلق شعره واكتسب عادة إرجاع خصلاته المرنة كثيرًا وبلا ضرورة. كذلك كانت نصف الابتسامة الخبيثة، بدورها، أمرًا جديدًا.

آخر مرة طُرد طارق من المطبخ، رأت أمُّه ليلى وهي تختلس نظرة إليه. قفز قلب ليلى، ورفرفت عيناها حرجًا. وسرعان ما تشاغلت برمي قطع الخيار في إبريق من الزبادي المملح المخفف بالماء. لكنها ظلت تشعر بعيني والدة طارق وهي تراقبها، بنصف ابتسامتها العارفة المستحسنة.

ملأ الرجال أطباقهم وأكوابهم وأخذوا طعامهم إلى الباحة. وبعدما انتهوا من اغتراف نصيبهم، استقرت النساء والأطفال على الأرض حول «السفرة» وشرعوا في الأكل.

بعد رفع «السفرة» وتكديس الصحون في المطبخ، وبعد أن بدأ صخب إعداد الشاي ومحاولة تذكُّر من طلب شايًا أخضر ومن طلب شايًا أسود، أومأ طارق برأسه وانسلَّ خارجًا من الباب.

انتظرت ليلى خمس دقائق، ثم تبعته.

وجدته على بعد ثلاثة بيوت، يستند على جدار عند مدخل زقاق ضيق بين منزلين متقاربين. كان يدندن بأغنية بشتونية قديمة، لـ«أستاذ أول مِير»:

«دا زي ما زيبا وطن

دا زي ما دادا وطن»

إنه وطننا الجميل

إنه وطننا الحبيب

وكان يدخن، وهي عادة أخرى جديدة، التقطها من شبان رأته ليلى يتسكع بصحبتهم هذه الأيام. لم تكن ليلى تتحملهم، أصدقاء طارق الجدد هؤلاء. جميعهم يرتدون بالطريقة نفسها، بنطلونات ذات كسرات، وقمصان ضيقة تبرز سواعدهم وصدورهم. جميعهم يبالغون في وضع الكولونيا، وجميعهم يدخنون. يتبخترون في أنحاء الحي في مجموعات، يتبادلون النكات، ويضحكون بصوت عالٍ، وأحيانًا يعاكسون البنات، وعلى وجوههم ابتسامات الرضا عن النفس الغبية ذاتها. وكان أحد أصدقاء طارق، وبناء على شَبهٍ عابر للغاية بـ«سيلفستر ستالون»، يصر على أن يناديه أصحابه «رامبو».

قالت ليلى وهي تلتفت يمينًا ويسارًا قبل أن تنسل إلى الزقاق:

ـ أمك سوف تقتلك إذا عرفت أنك تدخن.

قال:

ـ لكنها لا تعرف.

وتنحى جانبًا ليفسح لها مكانًا.

ـ يمكن أن تعرف.

ـ ومن سيقول لها؟ أنتِ؟

نقرت ليلى بقدمها على الأرض:

ـ إذا بحت بسرك للريح فلا تلمها حين تفشيه للشجر.

ابتسم طارق، تلك الابتسامة بالحاجب المقوس.

ـ مَن قال هذا؟

ـ خليل جبران.

ـ أنت استعراضية.

ـ أعطني سيجارة.

هز رأسه رافضًا وعقد ذراعيه. كانت تلك وضعية من مجموعة وضعياته الجديدة: مستندًا على الجدار، معقود الذراعين، والسيجارة تتدلى من زاوية فمه، وساقه السليمة منثنية بلا مبالاة.

ـ لمَ لا؟

قال:

ـ مضرة لكِ.

ـ وليست مضرة لك؟

ـ أنا أفعل ذلك من أجل البنات.

ـ أية بنات؟

ابتسم بإعجاب:

ـ البنات يرينها مثيرة.

ـ ليست مثيرة.

ـ لا؟

ـ أؤكد لك.

ـ ليست مثيرة؟

ـ تبدو مثل «الخيلا»، المخبول.

قال:

ـ أنتِ تسيئين إليَّ.

ـ أية بنات أصلًا؟

ـ أنت تغارين.

ـ أنا عندي فضول ولكني لا أبالي.

ـ لا يمكن أن تجمعي بين الاثنين.

سحب نفسًا آخر وضيَّق عينيه في الدخان:

ـ أُراهن أنهم يتكلمون عنا الآن.

في رأس ليلى، رنَّ صوت مامي: «مثل عصفور تمسكينه بين يديك. لو أرخيت قبضتك قليلًا، طار بعيدًا». وغرس الذنب أنيابه فيها. ثم أخرست

ليلى صوت مامي. وبدلًا منه، تلذذت بالطريقة التي نطق بها طارق كلمة «عنَّا». كم بدت فاتنة ومؤامراتية وهي تخرج منه! وكم طمأنها أن تسمعه يقولها هكذا ـ بصورة عابرة، وطبيعية. «عنَّا». إنها تقرُّ بالصلة بينهما، تبلورها.

ـ وماذا يقولون؟

قال:

ـ إننا نجدف في نهر الخطيئة. نأكل شريحة من كعكة الفسق.

وسارت ليلى على النهج:

ـ نركب عربة الفجور؟

ـ نطهو «قورمه» النجاسة.

ضحكا معًا. ثم أشار طارق إلى أن شعرها يزداد طولًا. قال:

ـ إنه لطيف.

وتمنت ليلى ألا يكون خداها قد تورَّدا:

ـ لقد غيرت الموضوع.

ـ أي موضوع؟

ـ موضوع البنات فارغات العقول اللاتي يعتقدن أنك مثير.

ـ أنت تعرفين.

ـ أعرف ماذا؟

ـ أن عيني لا تريان سواكِ.

شعرت ليلى بدوخة. حاولت أن تقرأ وجهه، لكنها قوبلت بنظرة عجزت عن فكِّ شفرتها: الابتسامة المبتهجة المهلوسة المتنافرة مع النظرة الضيقة نصف الملهوفة في عينيه. نظرة ماهرة، محسوبة لكي تقع بالتحديد في منتصف المسافة بين الهزل والجد.

سحق طارق سيجارته في كعب قدمه السليمة:

ـ إذن ما رأيك في كل هذا؟

ـ الحفلة؟

ـ مَن المخبول الآن؟ أقصد المجاهدين يا ليلى. دخولهم إلى كابل.

ـ آه.

شرعت تخبره بشيء كان بابي قد قاله، بشأن مشكلة التزاوج بين البنادق وبين الإحساس المفرط بالذات، عندما سمعت جلبة تأتي من البيت. أصوات عالية، وصراخ.

انطلقت ليلى تجري، وحجل طارق وراءها.

كانت هناك معمعة في الباحة، وسطها يشتبك رجلان. أخذا يتدحرجان على الأرض، وبينهما سكين. وتعرفت ليلى على أحدهما، وهو الرجل الذي كان يتناقش في السياسة سابقًا. أما الثاني فهو الرجل الذي كان يروِّح على أسياخ الكباب. وراح عدة رجال يحاولون الفصل بينهما. لم يكن بابي من بينهم. كان يقف إلى جوار الحائط، على مسافة آمنة من المعركة، مع والد طارق، الذي أخذ يبكي.

من الأصوات المنفعلة حولها، التقطت ليلى نثارًا لملمته معًا: الرجل

الذي كان على طاولة السياسة، وهو بشتوني، وصف أحمد شاه مسعود بأنه خائن لأنه «عقد صفقة» مع السوفييت في الثمانينيات. وهو ما اعتبره رجل الكباب، الطاجيكي، إهانة وطلب منه أن يسحب كلامه. ورفض البشتوني. وقال الطاجيكي إنه لولا مسعود لكانت أخت الرجل لا تزال «تعطيه» حتى الآن للجنود السوفييت. فوصل الأمر لتبادل اللطمات. ثم رفع أحدهما سكينًا ولوح به، وتضاربت الروايات حول من منهما فعل ذلك.

مرعوبة، رأت ليلى طارقًا يلقي بنفسه وسط الشجار. ورأت بعض المخلِّصين الآن وقد راحوا يكيلون اللكمات بدورهم. وظنَّت أنها رأت سكينًا ثانية.

لاحقًا ذلك المساء، فكرت ليلى كيف انقلب الجميع في المعركة، كيف سقط الرجال بعضهم فوق بعض، وسط صرخات وصيحات وزعقات ولكمات متطايرة. ووسط هذا، كان طارق، وقد التوى وجهه من الألم، وأشعث شعره، وانخلعت ساقه، يحاول أن يزحف خارجًا.

* * *

انتهى كل شيء بسرعة أمادت الرؤوس.

تم تشكيل مجلس القيادة بصورة غير ناضجة، واختار رباني رئيسًا. واحتجت الفصائل الأخرى واصفة ما حدث بأنه محاباة. ودعا مسعود للسلام والصبر.

كان «حكمتيار»، الذي استُبعد، ساخطًا. وكان الهزاره، بكل تاريخهم الطويل من القمع والاستهانة بهم، يتميزون غيظًا.

انهالت الشتائم. وارتفعت السبابات متوعدة، وتراشق الجميع بالاتهامات. وأُلغيت الاجتماعات غضبًا وصُفعت الأبواب. وكتمت المدينة أنفاسها. وفي الجبال، طقطقت خزنات الطلقات في بنادق الكلاشينكوف.

كان «المجاهدين»، المدججون بالسلاح، ولكنهم يفتقرون الآن إلى عدو مشترك، قد وجد بعضهم في بعض عدوًّا. وحلَّ يوم الحساب أخيرًا على كابل.

وعندما بدأت الصواريخ تنهمر على كابل، راح الناس يركضون بحثًا عن ساتر. وبحثت مامي بدورها عن ساتر، بالمعنى الحرفي للكلمة، فعادت لارتداء الأسود، ودخلت إلى غرفتها، وأسدلت الستائر، وسحبت البطانية على رأسها.

٢٤

قالت ليلى لطارق:

ـ إنه الصفير. الصفير اللعين هو أكثر ما أكرهه.

أومأ طارق متفهمًا.

لكن ليلى فكرت لاحقًا أنه لم يكن الصفير بحد ذاته، وإنما الثواني التي تمر بين بدايته وبين الارتطام. الزمن القصير المتمدد بلا نهاية حيث يشعر المرء بأنه معلق. اللامعرفة. الانتظار. مثل متهم يوشك على سماع الحكم.

غالبًا ما كان ذلك يحدث على العشاء، وهي جالسة مع بابي على المائدة. عندما تبدأ، يرتفع رأساهما فجأة، يُنصتان للصفير، والشوكات في منتصف الطريق، والطعام غير الممضوغ في الفم. ترى ليلى انعكاس وجهيهما نصف المضيئين في النافذة الحالكة الظلمة، ظليهما الساكنين على الحائط. الصفير. ثم الانفجار، الذي يقع، لحسن الحظ، في مكان آخر، يعقبه إطلاق زفير وإدراك أن النجاة قد كُتبت لهما تلك المرة، بينما في مكان آخر، وسط الصراخ وسحب الدخان الخانقة، ثمة هرج ومرج،

أيدي عارية محمومة تحفر، لتسحب من بين الأنقاض ما بقي من أخت أو أخ أو حفيد.

لكن الوجه الآخر للنجاة كان آلام التساؤل عمن لم تُكتب له النجاة. فبعد انفجار كل صاروخ، تهرع ليلى إلى الشارع، وهي تلهج بالدعاء، واثقة أن طارقًا، تلك المرة، بالتأكيد تلك المرة، هو من سيخرجونه من تحت الركام والدخان.

في الليل، ترقد ليلى في فراشها وتراقب الومضات البيضاء المفاجئة المنعكسة على نافذتها. تنصت إلى دوي البنادق الآلية، وتعد الصواريخ التي تئز فوق الرؤوس فيما يهتز البيت وتنهمر عليها ندف من طلاء السقف. في بعض الليالي، حين تتوهج نيران الصواريخ حتى يصبح بالإمكان قراءة كتاب عليها، لا يأتيها النوم، وإن جاءها، تمتلئ أحلامها بالنيران والأطراف المبتورة وأنات الجرحى.

ولا يجلب الصبح راحة. يصدح صوت المؤذن، فيضع «المجاهدين» بنادقهم جانبًا، ويولون وجوههم شطر الغرب، ويصلون الفجر. ثم تُطوى سجاجيد الصلاة، وتُحشى البنادق، وتطلق الجبال النار على كابل، وتطلق كابل النار على الجبال، فيما تراقب ليلى وبقية المدينة بعجز كعجز «سانتياجو» وهو يرى القروش تلتهم سمكته الغالية.

* * *

حيثما ذهبت ليلى، كانت ترى رجال مسعود. تراهم يجولون في الشوارع ويوقفون السيارات كل بضع مئات من الأمتار للاستجواب. يجلسون ويدخنون فوق الدبابات، في بدلات الأشغال وقبعات «البَكول»

واسعة الانتشار. يختلسون النظر إلى المارة من خلف أجولة الرمال المكدسة عند تقاطعات الطرق.

لا يعني ذلك أن ليلى كانت تخرج أصلًا. وعندما تخرج فبصحبة طارق، الذي كان يتلذذ، فيما يبدو، بمهمة الفرسان تلك.

قال يومًا:

ـ اشتريت مسدسًا.

كانا يجلسان بالخارج، على الأرض أسفل شجرة الكمثرى في باحة ليلى. عرضه على ليلى. قال إنه نصف آلي، «بيريتا». أما ليلى فقد رأته مجرد شيء أسود وقاتل.

قالت:

ـ لا يعجبني. المسدسات تخيفني.

أسقط طارق خزنة الطلقات في يده، وقال:

ـ لقد عثروا على ثلاث جثث في بيت في كارته سه الأسبوع الماضي. هل سمعتِ؟ أخوات. الثلاثة اغتُصبن وذُبحن. وقضم شخص أصابعهن ليسرق الخواتم. اتضح ذلك من أثر الأسنان...

ـ لا أريد أن أسمع هذا.

قال طارق:

ـ لا أقصد أن أزعجك. لكني فقط... أشعر بمزيد من الاطمئنان وأنا أحمل هذا.

كان طارق قد أصبح خط الإمدادات الذي يربطها بالشوارع. يسمع الكلمة ويمررها إليها. هو مَن أخبرها، مثلًا، أن رجال الميليشيات المتمركزين في الجبال يطورون مهاراتهم في الرماية ـ ويتراهنون عليها ـ بإطلاق النار على المدنيين بالأسفل، رجال، ونساء، وأطفال، يقع عليهم الاختيار بشكل عشوائي. وقال لها إنهم يطلقون الصواريخ على السيارات ولكن، لسبب ما، يتركون سيارات التاكسي وحالها ـ وهو ما فسَّر لليلى لماذا أصبح الناس مؤخرًا يطلون سياراتهم بالأصفر.

وفسر طارق لها الحدود المتغيرة والغدَّارة داخل كابل. عرفت ليلى منه، مثلًا، أن هذا الطريق، حتى ثاني شجرة سنط على اليسار، يتبع أحد أمراء الحرب، وأن «البلوكات» الأربعة التالية، التي تنتهي بالمخبز المجاور للصيدلية المتهدمة، تقع في حيز أمير حرب آخر، وأنها إذا عبرت ذاك الشارع وسارت لمسافة نصف ميل إلى الغرب، ستجد نفسها في منطقة أمير حرب ثالث، ومن ثَمَّ، فريسة مستحقة لنيران القناصة. وكان هذا هو الاسم الجديد لأبطال مامي الآن. أمراء الحرب. وسمعتهم ليلى يطلقون عليهم أيضًا «تفنجدار»، حاملو البنادق. فيما لا يزال آخرون يسمونهم «المجاهدين»، ولكنهم حين يقولونها، تتلوى وجوههم ـ في ازدراء واشمئزاز ـ وتفوح الكلمة بكراهية شديدة واحتقار عميق. كما لو كانت سبَّة.

أعاد طارق تركيب الخزنة في مسدسه.

قالت ليلى:

ـ هل لديك نية؟

ـ نية لماذا؟

ـ لاستخدام هذا الشيء. للقتل به.

دس طارق المسدس في بنطاله الجينز. ثم قال شيئًا محببًا وفظيعًا في الوقت نفسه. قال:

ـ من أجلك، سأقتل به من أجلك يا ليلى.

اقترب منها أكثر وتلامست يداهما، مرة، ثم ثانية. وعندما بدأت أصابع طارق تنزلق بتردد بين أصابعها، تركتها ليلى. وعندما مال إلى الأمام فجأة وضغط شفتيه على شفتيها، تركته ثانية.

في تلك اللحظة، بدا كل كلام مامي عن الشُّمعة والعصفور بلا معنى بالنسبة إلى ليلى، بل عبثي. في خضمِّ كل هذا القتل والسلب والنهب، كل هذا القبح، كان أمرًا غير مؤذٍ أن تجلس هنا تحت شجرة وتقبل طارقًا. شيء صغير. زلّة تُغتفر. لذا تركته يُقبلها، وعندما تراجع مالت هي وقبّلته، وقلبها يخفق بعنف، ووجهها يتخدَّر، وحريق يندلع في معدتها.

* * *

في يونيو من ذلك العام، ١٩٩٢، جرى قتال عنيف في غرب كابل بين قوات البشتون التابعة لأمير الحرب سياف وقوات الهزاره التابعة لحزب «وحدت». وانهمر القصف على خطوط الطاقة، وهُدمت «بلوكات» كاملة من المتاجر والمنازل. وسمعت ليلى أن ميليشيات البشتون تهاجم منازل الهزاره، تقتحمها وتطلق النار على عائلات بأكملها، إعدام جماعي، وأن الهزاره يثأرون باختطاف مدنيين من البشتون، واغتصاب فتيات بشتونيات، وقصف أحياء بشتونية، والقتل العشوائي. كل يوم، كان يُعثر على جثث

مقيدة إلى أشجار، وأحيانًا محترقة بحيث لا يعود التعرف عليها ممكنًا. وغالبًا، تكون لأناس أُطلق الرصاص على رؤوسهم، وسُملت عيونهم، وقُطعت ألسنتهم.

حاول بابي ثانية أن يقنع مامي بمغادرة كابل.

قالت مامي:

ـ سيجدون حلًّا. هذا القتال مؤقت. سيجلسون ويتوصلون إلى حل.

قال بابي:

ـ «فريبا»، إن هؤلاء الناس لا يعرفون إلا الحرب. لقد تعلموا المشي بزجاجة لبن في يد وبندقية في الأخرى.

لكن مامي ردت بحدة:

ـ ومن أنت لكي تتكلم هكذا؟ هل جاهدت؟ هل تخليت عن كل ما تملكه وجازفت بحياتك؟ لولا «المجاهدين» لكنا لا نزال خُدَّامًا للسوفييت، تذكَّر هذا. والآن تريدنا أن نخونهم!

ـ لسنا نحن من نخون يا «فريبا»!

ـ اذهب أنت إذن. خذ ابنتك واهربا. أرسل إليَّ بطاقة بريدية. لكن السلام سيعم، وأنا، عن نفسي، سوف أنتظره.

أصبحت الشوارع خطيرة لدرجة أن بابي فعل شيئًا لا يمكن تصوره: أخرج ليلى من المدرسة.

تولى مهمة تعليمها بنفسه. كانت ليلى تذهب إلى مكتبه كل يوم بعد

الغروب، وبينما يطلق «حكمتيار» صواريخه على مسعود من الضواحي الجنوبية للمدينة، كانت هي وبابي يناقشان غزليات حافظ وأعمال الشاعر الأفغاني المحبوب أستاذ خليل الله خليلي. علَّمها بابي حل المعادلات من الدرجة الثانية، وأوضح لها كيفية استخلاص المعادلات متعددة الحدود وإيجاد معادلات المنحنى. كان بابي يصبح شخصًا آخر عندما يدرِّس. في ميدانه، وسط كتبه، كان يبدو أطول في عيني ليلى. صوته كأنما ينبع من مكان أهدأ وأعمق، ولا يعود يرمش بالقدر نفسه. وتصورته ليلى، كما كان ذات يوم لا محالة، وهو يمسح سبُّورته بحركات رشيقة، ويتطلع من فوق كتف تلميذ، برعاية أبوية وانتباه.

لكن الانتباه ليس سهلًا. وليلى كثيرة الشرود.

كان بابي يسأل:

ـ ما مساحة الهرم؟

فلا تفكر ليلى إلا في امتلاء شفتي طارق، حرارة أنفاسه على فمها، انعكاس صورتها في عينيه العسليتين. كانت قد قبَّلته مرتين أخريين منذ المرة أسفل الشجرة، لمدة أطول، وبشغف أكبر، وبرعونة أقل كما تقول لنفسها. في كلتا المرتين، التقته سرًّا في الزقاق المعتم حيث دخن سيجارته يوم حفل غداء مامي. في المرة الثانية، تركته يلمس صدرها.

ـ ليلى؟

ـ نعم يا بابي.

ـ الهرم. المساحة. أين ذهبت؟

ـ آسفة، بابي! لقد كنت، آه... لنرى. الهرم. الهرم. ثلث مساحة القاعدة مضروبًا في الارتفاع.

أومأ بابي متشككًا، وعيناه تتلكآن على عينيها، وفكرت ليلى في يدي طارق، وهما تعتصران صدرها، وتنزلقان حتى أسفل ظهرها، فيما يتبادلان القُبل مرة بعد مرة.

* * *

في أحد أيام شهر يونيو ذاك نفسه، كانت «جيتي» تسير عائدة إلى بيتها من المدرسة بصحبة اثنتين من زميلاتها. وعلى بُعد ثلاثة «بلوكات» فقط من منزل «جيتي»، ضرب البناتَ صاروخٌ طائشٌ. لاحقًا في ذلك اليوم الفظيع، علمت ليلى أن «نيلا»، والدة «جيتي»، ظلت تجري ذهابًا وإيابًا في الشارع حيث لقيت «جيتي» مصرعها، تجمع أشلاء ابنتها في مريلة، وهي تصرخ صراخًا هستيريًّا. وسوف يُعثر على قدم «جيتي» المتحللة، في جوربها النايلون وحذائها الأرجواني، فوق سطح أحد البيوت بعد أسبوعين.

في عزاء «جيتي»، اليوم التالي لمصرعها، جلست ليلى ذاهلة في غرفة مليئة بالنساء الباكيات. كانت تلك هي المرة الأولى التي يموت فيها لليلى شخص تعرفه عن قرب، تحبه. لم تستطع تقبُّل الحقيقة التي لا يمكن تصورها، أن «جيتي» لم تعد حية. «جيتي»، التي كانت هي وليلى تتبادلان رسائل سرية في غرفة الدرس، التي طلت لها ليلى أظافرها، وانتزعت شعرات ذقنها بالملقط. «جيتي»، التي كانت ستتزوج صابرًا حارس المرمى. «جيتي» الآن ميتة. ميتة. ممزقة إربًا. أخيرًا، أخذت ليلى تبكي صديقتها، وكل الدموع التي لم تستطع أن تذرفها في جنازة شقيقيها راحت تنهمر.

٢٥

تكاد ليلى تعجز عن الحركة، كما لو أن أسمنتًا قد جف في كل مفصل من مفاصلها. تسمع حوارًا، وتعرف أنه موجه إليها، لكنها تشعر أنها انعزلت عنه، وكأنما هي مجرد متنصت عليه. وبينما راح طارق يتكلم، راحت ليلى تتصور حياتها مثل حبل بالٍ، متقصِّف، تتفكك جديلته، تتمزق أليافه، يسقط.

كان عصر يوم حار لزج من أيام أغسطس عام ١٩٩٢، وكانا في غرفة المعيشة في منزل ليلى. منذ الصباح ومامي تشعر بألم في معدتها، وقبل دقائق أخذها بابي، على الرغم من الصواريخ التي يطلقها «حكمتيار» من الجنوب، إلى الطبيب. وها هو طارق يجلس على الأريكة بجوار ليلى، ناظرًا في الأرض، ويداه بين ركبتيه.

يقول إنه راحل.

لا عن الحي. لا عن كابل. ولكن عن أفغانستان كلها.

راحل.

كادت الصدمة تغشي بصر ليلى.

ـ إلى أين؟ إلى أين ستذهب؟

ـ باكستان أولًا. بيشاور. ثم لا أعرف. ربما هندوستان. إيران.

ـ متى عرفت؟

ـ قبل أيام قليلة. كنت سأخبرك يا ليلى. أقسم لك، لكنني لم أستطع. كنت أعرف كم ستحزنين لذلك.

ـ متى؟

ـ غدًا.

ـ غدًا؟

ـ ليلى، انظري إليَّ!

ـ غدًا!

ـ إنه أبي. قلبه لم يعد يتحمل كل الحرب والقتل.

دفنت ليلى وجهها في يديها، وفقاعة من الجزع تملأ صدرها.

فكرت أنها كان ينبغي أن تتوقع ذلك. كل من تعرفهم تقريبًا حزموا أمتعتهم ورحلوا. وخلا الحي من الوجوه المألوفة. والآن، بعد أربعة أشهر فحسب من اندلاع القتال بين فصائل المجاهدين، لا تكاد ليلى تعرف أحدًا في الشوارع. فرت أسرة حسينة، في مايو، إلى طهران. وغادرت «واجمة» وذويها إلى إسلام آباد في الشهر نفسه. ورحل والدا «جيتي» وأشقاؤها في يونيو، بعد وقت قصير من مصرعها. لم تعرف ليلى إلى أين ذهبوا ـ

سمعت شائعة أنهم توجهوا إلى مشهد، في إيران. بعد أن يغادر الناس، تظل منازلهم خاوية بضعة أيام، ثم يستولي عليها المسلحون أو ينتقل غرباء للعيش فيها.

الجميع يغادرون. والآن جاء الدور على طارق!

كان يقول:

ـ وأمي لم تعد شابة. إنهما يعيشان في خوف دائم. ليلى، انظري إليَّ!

ـ كان يجب أن تخبرني!

ـ أرجوكِ انظري إليَّ!

خرجت زفرة من ليلى، ثم نحيب، ثم راحت تبكي. وعندما مد يده ليمسح خدها ببطن إبهامه أطاحت بيده بعيدًا. كان تصرفًا أنانيًّا وغير منطقي، لكنها غاضبة منه لتخليه عنها. طارق، الذي يشبه امتدادًا لها، الذي ينتصب ظله إلى جوار ظلها في كل ذكرى من ذكرياتها، كيف يمكنه أن يتركها؟ صفعته. ثم صفعته مجددًا وشدت شعره، واضطر إلى أن يمسكها من معصميها، وأخذ يقول شيئًا لم تستطع أن تتبينه، يقوله برقة، ومنطقية، وبشكل ما، انتهيا جبينًا على جبين، وأنفًا على أنف، وأحست حرارة أنفاسه على شفتيها ثانية.

وعندما مال عليها فجأة، مالت عليه.

* * *

في الأيام والأسابيع التالية، سوف تجاهد ليلى لتحفظ في ذاكرتها تفاصيل ما حدث بعدها. مثل عاشق للفن يهرب من متحف يحترق، راحت تخطف

ما تستطيع ـ نظرة، همسة، آهة ـ لكي تنقذها من الذوبان، لكي تحافظ عليها. لكن الزمن نار لا ترحم. ولم تتمكن، في النهاية، من الاحتفاظ بكل شيء. مع ذلك، فهناك الآتي: أولًا، ضربة ألم رهيبة بالأسفل. ميل شعاع الشمس على السجادة. كعبها يُكشط في ساقه الصلبة الباردة، الممددة بجوارهما، وقد حُلَّت على عجل. يداها تحيطان مرفقيه. الوحمة على شكل ماندولين مقلوب أسفل ترقوته، حمراء متوهجة. وجهه يحلق فوق وجهها. خصلاته السوداء مدلاة، تدغدغ شفتيها، وذقنها. الرعب من أن يراهما أحد. عدم تصديق جرأتهما، شجاعتهما. المتعة الغريبة التي لا توصف، المختلطة بالألم. ونظرة طارق، بل نظراته المتنوعة: التوجس، الرقة، الاعتذار، الإحراج، ولكن الأهم، الأهم، الشوق.

* * *

ثم كان هناك اهتياج. القمصان تُزرَّر على عجل، الأحزمة تُربط، الشعر يُمشَّط بالأصابع. جلسا بعدها، جلسا متجاورين وكلٌّ يشم رائحة الآخر، وجهاهما متوردان، كلاهما مذهول، كلاهما مشدوه أمام هول ما حدث للتوِّ. ما قد فعلاه.

رأت ليلى ثلاث نقط من الدماء على السجادة، دماؤها، وتصورت والديها يجلسان على تلك الأريكة لاحقًا، غافلين عن الخطيئة التي ارتكبتها، فاستقر الإحساس بالعار، بالذنب. وفي الطابق العلوي، تكتكت الساعة، وبدا صوتها غير محتمل في أذني ليلى، مثل مطرقة قاضٍ تضرب مرة بعد مرة، وتحكم عليها بالإدانة.

ثم قال طارق:

ـ تعالي معي.

لوهلة، كادت ليلى تصدق أن ذلك يمكن أن يحدث. أن يغادروا معًا، هي وطارق ووالداه. يحزمون حقائبهم، ويستقلون حافلة، ويتركون كل ذلك العنف وراءهم، ويذهبون إلى حيث تنتظرهم أفراح أو أتراح، يواجهون معًا ما سيأتي أيًّا كان. ليست العزلة الموحشة التي تنتظرها قدرًا محتومًا، ولا الوحدة القاتلة.

بإمكانها أن تذهب. بإمكانهما أن يذهبا معًا.

ستكون لهما أصائل أخرى مثل هذه.

ـ أريد أن أتزوجك يا ليلى.

للمرة الأولى منذ نهوضهما من فوق الأرض، رفعت عينيها لتلتقيا بعينيه. تفحصت وجهه. لم ترَ فيه مرحًا هذه المرة، بل نظرة اقتناع، نظرة جد بسيطة وحازمة.

ـ طارق...

ـ دعيني أتزوجك يا ليلى. اليوم. يمكننا أن نتزوج اليوم.

راح يستطرد عن الذهاب إلى الجامع، والعثور على ملا وشاهدين، وحفل «نكاح» سريع...

لكن ليلى كانت تفكر في مامي، العنيدة المتزمتة مثل المجاهدين، التي تملأ الأجواء من حولها حقدًا ويأسًا. وفي بابي، الذي استسلم منذ زمن طويل، وأصبح لمامي أشبه بخصم حزين مثير للشفقة.

«أحيانًا... أشعر أنكِ كل ما لديَّ يا ليلى».

تلك كانت ظروف حياتها، حقائقها التي لا مهرب منها.

ـ سأطلب يدك من «كاكا حكيم». سيباركنا يا ليلى. أعرف هذا.

كان محقًّا. سيبارك بابي الزواج، لكن ذلك سيتركه حطامًا.

كان طارق لا يزال يتحدث، يرتفع صوته ثم ينخفض، يتضرع ثم يلجأ للإقناع، يشرق وجهه بالأمل ثم ينكسر.

قالت ليلى:

ـ لا أستطيع.

ـ لا تقولي هذا. أنا أحبكِ!

ـ آسفة...

ـ أنا أحبكِ!

كم انتظرتْ لتسمع هاتين الكلمتين منه؟ كم مرة حلمت به ينطقهما؟ وها هو ينطق بهما أخيرًا، ومحقتها المفارقة.

قالت ليلى:

ـ لا أستطيع أن أهجر أبي. أنا كل ما تبقَّى له. قلبه لن يتحمل.

كان طارق يعرف هذا. يعرف أنها مثله، لن تتخلى عن التزاماتها، مع ذلك فقد توالت توسلاته واعتراضاتها، مقترحاته واعتذاراتها، دموعه ودموعها.

وأخيرًا، اضطرت ليلى إلى أن تدفعه دفعًا إلى الانصراف.

عند الباب، جعلته يعدها بأن يرحل بلا وداع. أغلقت الباب خلفه. أسندت ظهرها عليه، جسدها يهتز مع دقات قبضتيه، تقبض على بطنها بذراع وتكتم فمها بيد. بينما يتحدث هو من وراء الباب، يعِد أنه سيرجع. سيرجع من أجلها. ظلت مكانها حتى أصابه التعب، حتى استسلم، ثم أنصتت لوقع خطاه غير المنتظمة حتى خبت. وعمَّ الصمت، إلا من نيران بنادق تدوي في التلال، ومن قلبها الذي يدمدم في بطنها وعينيها وعظامها.

٢٦

كانت أكثر أيام العام حرارة على الإطلاق. حبست الجبال الحرارة التي تلهب العظام، حرارة كثيفة مثل دخان يخنق المدينة. انقطعت الكهرباء قبل أيام. وفي كل أرجاء كابل، قبعت المراوح الكهربائية ساكنة، تكاد تسخر من أصحابها.

لا تزال ليلى راقدة على أريكة غرفة المعيشة، تتعرق في بلوزتها. وكل نَفَس خارج يحرق قمة أنفها. كانت تعرف أن والديها يتحدثان في غرفة مامي. أول أمس، وأمس، استيقظت وظنت أنها تسمع صوتيهما في الطابق السفلي. أصبحا يتكلمان الآن يوميًّا، منذ الرصاصة، منذ الثقب الجديد في البوابة.

بالخارج، هدير المدفعية البعيدة، ثم، من مسافة أقرب، جلجلة سلسلة طويلة من الرصاصات، تلتها أخرى.

وبداخل ليلى أيضًا، اندلعت معركة: الذنب في ناحية، يسانده العار. وفي الناحية الأخرى الاقتناع بأن ما فعلته هي وطارق ليس إثمًا، وإنما أمر طبيعي، طيب وجميل، بل حتمي، اندفعا إليه حين عرفا أنهما قد لا يلتقيان ثانية.

تقلبت ليلى على جنبها فوق الأريكة، وحاولت تذكر شيء ما: في لحظة معينة، وهما على الأرض، أراح طارق جبينه على جبينها، ثم همس بشيء وهو يلهث: إما «هل أؤلمكِ؟» وإما «هل هذا مؤلم؟».

لم تستطع ليلى أن تحدد ما قاله.

«هل أؤلمكِ؟»

«هل هذا مؤلم؟»

لم يمر على رحيله أكثر من أسبوعين، وها هو المحظور يقع. ها هو الزمن يكسر حواف تلك الذكريات الحادة. أجهدت ليلى نفسها لتتذكر كلماته، وبدا لها الأمر، فجأة، مسألة حيوية.

أغمضت ليلى عينيها، وركزت.

مع مرور الوقت، سوف تتعب من هذا التمرين. يومًا بعد يوم، سوف يصبح استحضار ما مات منذ زمن، ونفض التراب عنه، وبعث الحياة فيه، أكثر إرهاقًا. بل سوف يأتي يوم، بعد سنوات، حيث لا تعود ليلى تبكي لفقده، ليس بالقوة نفسها على الأقل، أو بدرجة قريبة، سوف يأتي يوم حيث تبدأ تفاصيل وجهه في الانفلات من قبضة الذاكرة، لن تعود تسرح فيه حين تسمع في الشارع أمًّا تنادي طفلها باسم طارق، لن تفتقده مثلما تفتقده الآن، حيث يرافقها وجع غيابه ولا يتركها لحظة ـ مثل ألم شبحي لشخص بُترت إحدى أطرافه.

فقط على فترات شديدة البُعد، بعدما أصبحت ليلى امرأة ناضجة، وهي تكوي قميصًا أو تدفع طفليها على أرجوحة، كان شيئًا تافهًا، ربما دفء سجادة تحت قدمها في يوم حار أو انحناءة جبين شخص غريب، يطلق

ذكرى عصر ذلك اليوم. ويندفع كل شيء عائدًا إليها: التلقائية التي جرى بها الأمر، طيشهما المذهل، رعونتهما، ألم الفِعل، ومتعته، وحزنه، وحرارة جسديهما المتشابكين.

تغمرها الذكرى وتسرق أنفاسها.

لكنها تمر. اللحظة تمر. تتركها خاوية، لا تشعر إلا باضطراب غامض.

قررت أنه قال «هل أؤلمكِ؟». نعم. هو كذلك. وشعرت ليلى بالسعادة كونها تذكرت.

ثم كان بابي في الردهة، ينادي عليها من أعلى السلم، يطلب منها الصعود على الفور.

قال، وصوته يرتعش من فرط الإثارة المكبوتة:

ـ لقد وافَقَت. سنرحل يا ليلى. نحن الثلاثة. سنرحل عن كابل.

* * *

في غرفة مامي، جلس ثلاثتهم على الفراش. بالخارج، كانت الصواريخ تئز عبر السماء بينما قوات «حكمتيار» وقوات مسعود تتقاتل وتتقاتل. عرفت ليلى أن شخصًا مات في مكان ما بالمدينة، وأن غلالة من الدخان الأسود تحوم فوق بعض المباني التي تهدَّمت وسط كتلة منتفخة من التراب. في الصباح ستكون جثث ينبغي على السائرين تجنبها، بعضها سيجد من يجمعه، والبعض لا. ثم ستأتي كلاب كابل، التي أصبحت تحب اللحم البشري، لتنعم بالوليمة.

على الرغم من ذلك كله، انتابت ليلى رغبة ملحة أن تجري في تلك

الشوارع. لم تسعها الفرحة، وبذلت جهدًا لكي تجلس، بدلًا من أن تصرخ من الفرحة. قال بابي إنهم سيذهبون إلى باكستان أولًا، ليتقدموا بطلبات التأشيرات. باكستان، حيث كان طارق! لقد غادر طارق منذ سبعة عشر يومًا فقط، حسبتها ليلى بانفعال. لو أن مامي اتخذت قرارها قبل سبعة عشر يومًا، لرحلوا معًا. لكانت مع طارق الآن! لكن ذلك لم يعد مهمًّا. إنهم ذاهبون إلى بيشاور ـ هي، ومامي، وبابي، وسيعثرون على طارق ووالديه هناك. بالتأكيد سيعثرون عليهم. سيستكملون أوراقهم معًا. ثم، مَن يعلم؟ مَن يعلم؟ أوروبا؟ أمريكا؟ ربما، كما كان بابي يقول دومًا، مكان قريب من البحر...

كانت مامي نصف راقدة، نصف جالسة مستندة على اللوح الخلفي للفراش. عيناها منتفختان. تنتف شعرها.

قبل ثلاثة أيام، خرجت ليلى لتشم الهواء. كانت تقف عند البوابة الأمامية، مستندة عليها، عندما سمعت قرقعة عالية وشيئًا يئز بجوار أذنها اليمنى، مرسلًا شظايا ضئيلة من الخشب تطايرت أمام عينيها. بعد موت «جيتي»، وإطلاق الآلاف من خزنات الطلقات وسقوط عدد لا يُحصى من الصواريخ على كابل، كانت رؤية هذه الفتحة المستديرة الوحيدة في البوابة، على بُعد أقل من ثلاث أصابع من الموقع الذي كان فيه رأس ليلى، هو الذي أيقظ مامي من غفوتها، هو الذي جعلها ترى أن الحرب السابقة كلَّفتها اثنين من أبنائها، وأن تلك الحرب قد تُكلِّفها الثالثة.

من فوق جدران الغرفة، كان أحمد ونور يبتسمان. أخذت ليلى تراقب عيني مامي وهما يقفزان من صورة إلى أخرى، يلوح فيهما إحساس بالذنب. كما لو كانت تلتمس رضاهما. مباركتهما. كما لو كانت تسألهما المغفرة.

قال بابي:

-لم يبقَ لنا شيء هنا. لقد رحل ولدانا، لكن لا تزال لدينا ليلى. لا يزال لدى كل منا الآخر يا «فريبا». يمكننا أن نبدأ حياة جديدة.

مد بابي يده فوق الفراش. وعندما مال ليمسك بيد مامي، تركته يفعل. وعلى وجهها نظرة امتثال، استسلام. تشابكت يداهما بخفة، ثم راحا يتمايلان في عناق هادئ. دفنت مامي وجهها في رقبته. وقبضت على قميصه.

تلك الليلة، وطوال ساعات، سرق الانفعال النوم من عيني ليلى. رقدت في الفراش تراقب الأفق وهو يضاء بدرجات مبهرجة من البرتقالي والأصفر. مع ذلك، وعلى الرغم من البهجة التي تعتمل بداخلها ونيران المدفعية التي تقرقع بالخارج، راحت في النوم أخيرًا.

وحلمت.

إنهما على شاطئ، يجلسان على كثيب رملي. اليوم بارد وملبد بالغيوم، لكن هناك دفء بجوار طارق تحت البطانية المسحوبة حتى أكتافهما. ترى سيارات مصفوفة خلف سور واطئ مدهون بطلاء أبيض مقشّر أسفل صف من أشجار نخيل تتمايل مع الريح. الريح تجعل عينيها تدمعان وتدفن حذاءيهما في الرمال، تطوّح كتلًا من العشب الميت من حواف أحد الكثبان إلى كثيب آخر. يراقبان المراكب الشراعية تتأرجح في البعيد. وحولهما، تزعق النوارس وترتجف في الريح. تدفع الريح عصفة ثانية من الرمال عن المنحدرات، ثم يعلو صوت أشبه بترنيمة، وتقول له شيئًا كان بابي قد علّمها إياه قبل سنوات عن غناء الرمال.

يمسح حاجبها، ينفض حبات الرمال عنه. تلمح التماعة الدبلة حول إصبعه. إنها مطابقة لدبلتها ـ دبلة ذهبية يلفها بأكملها نقش يشبه المتاهة.

تقول له: «بجد! إنه صوت الحبة تحتك بالحبة. أنصت!». وينصت. يعقد حاجبيه. ينتظران. يسمعانه مجددًا، صوت زفير عندما تكون الريح خفيفة، وعندما تهب بقوة، يتحول إلى صوت مواء، وكأنما يصدر عن جوقة من المغنين ذوي الأصوات الحادة.

* * *

قال بابي إن عليهم ألا يأخذوا معهم إلا ما كان ضروريًّا جدًّا. أما الباقي، فسيبيعونه.

ـ سيكفينا هذا لشهر في بيشاور، حتى أجد عملًا.

على مدار اليومين التاليين، ظلوا يجمعون الأشياء التي ستُباع، ووضعوها في كومات كبيرة.

في غرفتها، نحت ليلى جانبًا البلوزات القديمة، والأحذية القديمة، والكتب، والألعاب. ونظرت أسفل فراشها، فوجدت بقرة زجاجية صفراء صغيرة أهدتها لها حسينة في أثناء الفُسحة في الصف الخامس. وسلسلة مفاتيح على شكل كرة قدم، هدية من «جيتي». وحمارًا وحشيًّا خشبيًّا صغيرًا على عجلات. ورائد فضاء من الخزف عثرت عليه هي وطارق يومًا في مصرف مياه. كانت في السادسة وهو في الثامنة. وتذكرت ليلى الشجار الصغير الذي نشب بينهما، حول من منهما عثر عليه.

مامي أيضًا جمعت أشياءها. كانت هناك مسحة ممانعة في حركاتها،

ونظرة ناعسة شاردة في عينيها. استغنت عن صحونها الجميلة، ومناديلها، ومجوهراتها ـ إلا دبلة زواجها ـ ومعظم ملابسها القديمة.

قالت ليلى، وهي ترفع فستان زفاف مامي:

ـ لن تبيعي هذا، أليس كذلك؟

انسكب منفردًا في حجرها. تحسست «الدانتيل» والشريط الدائر حول الرقبة، واللآلئ المنمنمة المطرزة يدويًا على الأكمام.

هزت مامي كتفيها وتناولته منها. رمت به بفظاظة على كومة من الملابس، كما لو كانت تتخلص من لاصقة جروح بشَدَّة واحدة، هكذا فكرت ليلى.

أما بابي، فكانت مهمته هي الأكثر إيلامًا.

رأته ليلى واقفًا في مكتبه، تعلو وجهه الحسرة وهو يستعرض رفوفه. كان يضع «تيشيرتًا» مستعملًا عليه صورة لجسر سان فرانسيسكو الأحمر، والضباب الكثيف يتصاعد من المياه المتوجة بالأبيض، ويغمر أبراج الجسر.

قال:

ـ تعرفين السؤال القديم: أنتِ على جزيرة مهجورة، ولا يحق لكِ أن تأخذي سوى خمسة كتب، فأيها تختارين؟ لم أظن قطُّ أنني سأضطر للإجابة عن هذا السؤال!

ـ سيكون علينا أن نكوِّن مكتبة جديدة لك يا بابي.

ابتسم بحزن:

ـ ممم، لا أستطيع أن أصدق أنني راحل عن كابل. لقد دخلت المدرسة هنا، حصلت على وظيفتي الأولى هنا، أصبحت أبًا في هذه المدينة. أمر غريب أن أفكر في أنني سأنام تحت سماء مدينة أخرى عما قريب!

ـ أمر غريب عليَّ أنا أيضًا!

ـ طوال اليوم، ظلت تلك القصيدة عن كابل تتقافز في رأسي. كتبها «صائب تبريزي» في القرن السابع عشر على ما أظن. كنت أحفظ القصيدة كلها، الآن لا أتذكر منها سوى هذين البيتين:

لا يستطيع المرء أن يحصي الأقمار التي ترتعش في أسقفها

ولا ألف الشمس الساطعة التي تختبئ خلف جدرانها

رفعت ليلى رأسها، فرأته يبكي. وضعت ذراعًا حول وسطه:

ـ آه يا بابي! سوف نعود. عندما تنتهي تلك الحرب. سوف نعود إلى كابل إن شاء الله. سوف ترى.

* * *

في الصباح الثالث، بدأت ليلى نقل أكوام الأغراض إلى الباحة ووضعها بجوار الباب الأمامي. سيستوقفون تاكسيًا ويأخذون كل شيء إلى محل الرهونات.

ظلت ليلى في حركة مكوكية بين البيت والباحة، ذهابًا وإيابًا، تحمل أكداسًا من الملابس والصحون وصندوقًا بعد صندوق من كتب بابي. كان الطبيعي أن يهدها التعب في الظهيرة، عندما ارتفع تل الأغراض بجوار

الباب الأمامي حتى وسطها، لكنها كانت تعرف أنها، مع كل رحلة، تقترب من رؤية طارق ثانية، وهكذا، كانت ساقاها، مع كل رحلة، تصيران أكثر خفة، وذراعاها أكثر ثباتًا.

ـ سنحتاج إلى سيارة تاكسي كبيرة.

رفعت ليلى رأسها. كانت مامي تُكلمها من غرفة نومها بالطابق العلوي. كانت تميل على النافذة، تريح مرفقيها على حافتها. وسقط شعاع الشمس، الساطعة والدافئة، على شعرها الرمادي، والتمع على وجهها النحيل. كانت مامي تضع الفستان الأزرق الداكن الذي ارتدته يوم حفلة الغداء قبل أربعة أشهر، فستان شبابي صُمم لامرأة شابة، ولكن، لوهلة، بدت مامي لليلى عجوزًا. عجوزًا بذراعين عجفاوين وصدغين غائرين وعينين بطيئتين تحيط بهما حلقات إجهاد داكنة، مخلوقة مختلفة كليًّا عن المرأة المكتنزة المتألقة ذات الوجه المستدير في صور الزفاف القديمة.

قالت ليلى:

ـ سيارتين كبيرتين.

رأت بابي في غرفة المعيشة، بدوره، يكدس صناديق الكتب بعضها فوق بعض.

قالت مامي:

ـ اصعدي عندما تنتهين. سنتغدى. بيض مسلوق وبقية الفول.

قالت ليلى:

ـ غدائي المفضل.

فكرت فجأة في حلمها. هي وطارق على لحاف. المحيط. الريح. الكثبان الرملية.

راحت تتساءل: كيف كان الصوت، صوت غناء الرمال؟

توقفت ليلى. رأت سحلية رمادية تزحف خارجة من شق في الأرض. انطلق رأسها من جانب إلى جانب. طرفت، ثم اندفعت تحت صخرة.

تصورت ليلى الشاطئ ثانية. غير أن الغناء كان في كل مكان الآن. يتزايد. يعلو ويعلو من لحظة إلى أخرى، أعلى وأعلى. كان يغمر أذنيها، يغرق كل شيء عاداه. كانت النوارس الآن مثل فناني «مايم» ذوي ريش، تفتح وتغلق مناقيرها بلا صوت، والأمواج تتحطم بزبدها ورذاذها ولكن بلا هدير. وظلت الرمال تغني، بل راحت تصرخ. صوت مثل... رنين؟

ليس رنينًا. لا! صفير.

أسقطت ليلى الكتب عند قدميها. نظرت إلى السماء. حمت عينيها بيد واحدة.

ثم هدير عملاق.

من خلفها، بريق من الأبيض.

جنحت الأرض تحت قدميها.

شيء ساخن وقوي ارتطم بها من الخلف. أطاح بها خارج صندلها. رفعها عاليًا. هي الآن تطير، تتلوى وتدور حول نفسها في الهواء، ترى السماء، ثم الأرض، ثم السماء، ثم الأرض. ومرقت من أمامها قطعة خشب كبيرة محترقة، وآلاف الشظايا الزجاجية، وبدا لليلى أنها ترى كل

واحدة منها، تطير حولها، تنقلب ببطء من طرف إلى طرف، ونور الشمس ينعكس على كل منها. أقواس قزح جميلة ضئيلة.

ثم ارتطمت ليلى بالجدار. سقطت واصطدمت بالأرض. وانهمر على وجهها وذراعيها وابل من التراب والحصى والزجاج. آخر ما وعت له رؤيتها لشيء يضرب الأرض بالقرب منها. كتلة دامية، وعليها جسر أحمر تبرز قمته وسط ضباب كثيف.

* * *

أشكال تتحرك هنا وهناك. نور فلورسنت يسطع من السقف بالأعلى. يظهر وجه امرأة، ينظر إليها من أعلى.

تغيب ليلى في الظلام من جديد.

* * *

وجه آخر. تلك المرة وجه رجل. قسماته كبيرة ومرتخية. شفتاه تتحركان بلا صوت. لا تسمع ليلى إلا طنينًا.

يلوح الرجل بيده لها. يعقد حاجبيه. تتحرك شفتاه ثانية.

ألم. ألم عند التنفس. ألم في كل مكان.

كوب ماء. حبة وردية.

عودة إلى الظلام.

* * *

المرأة ثانية. وجه مستطيل، عينان ضيقتان. تقول شيئًا. لا تستطيع ليلى

سماع أي شيء سوى الطنين، لكنها تستطيع رؤية الكلمات تنسكب من فم المرأة، مثل شراب أسود غليظ.

صدرها يؤلمها. ذراعاها وساقاها تؤلمها.

في كل مكان، أشكال تتحرك.

أين طارق؟

لماذا ليس هنا؟

ظلام. سرب من النجوم.

* * *

بابي وهي، قابعان معًا في مكان عالٍ. هو يشير إلى حقل شعير. ويشغل مولِّدٌ للكهرباء.

المرأة ذات الوجه المستطيل تنظر إليها من أعلى.

ألم عند التنفس.

في مكان ما، يعلو صوت أكورديون.

الحبة الوردية مجددًا، الحمد لله. ثم سكون عميق. سكون عميق ينزل على كل شيء.

الجزء الثالث

٢٧

مريم

ـ هل تعرفين من أنا؟

رمشت عينا الفتاة.

ـ هل تعرفين ماذا حدث؟

ارتعش فم الفتاة. أغمضت عينيها. ابتلعت ريقها. مسحت بيدها على خدها الأيسر. نطقت بشيء.

انحنت مريم أكثر.

همست الفتاة:

ـ هذه الأذن. لا أستطيع أن أسمع.

* * *

طوال الأسبوع الأول، لم تفعل الفتاة شيئًا تقريبًا سوى النوم، بمساعدة الحبوب الوردية التي دفع رشيد ثمنها في المستشفى. كانت تغمغم في نومها.

وتنطق أحيانًا بكلام غير مفهوم، وتصيح، وتنادي على أسماء لم تعرفها مريم. كانت تبكي في نومها، تهتاج، تركل البطاطين عنها، حتى تضطر مريم إلى تثبيتها في الفراش. أحيانًا تتقيأ وتتقيأ، وتفرغ كل ما أطعمتها إياه مريم.

عندما لا تهتاج، كانت الفتاة تصبح عينين غائرتين تحدقان من أسفل البطانية، تهمس بأجوبة قليلة قصيرة عن أسئلة مريم ورشيد. في بعض الأيام كانت أشبه بطفلة، تدفع برأسها من جانب إلى جانب، عندما تحاول مريم، ثم رشيد، إطعامها. تتصلب عندما تأتي لها مريم بملعقة. لكنها تتعب بسهولة وتستسلم أخيرًا تحت إلحاحهما الدؤوب. وعقب استسلامها تأتي نوبات طويلة من البكاء.

جعل رشيد مريم تدهن مرهمًا يحتوي على مضاد حيوي على الجروح في وجه الفتاة ورقبتها، وعلى الجروح المخيطة في كتفها، وفي ساعديها وساقيها. كانت مريم تضمد تلك الجروح، ثم تغسل الضمادات وتعيد استخدامها. وكانت تسحب شعر الفتاة إلى الخلف، بعيدًا عن وجهها، عندما تشرع في التقيؤ.

سألت رشيدًا:

- إلى متى ستظل هنا؟

- حتى تتحسن. انظري إليها. لا تستطيع أن تغادر. المسكينة.

* * *

رشيد هو الذي عثر على الفتاة، هو الذي انتشلها من تحت الأنقاض.

قال للفتاة:

ـ من حسن الحظ أنني كنت بالمنزل.

كان يجلس على كرسي قابل للطي بجوار فراش مريم، حيث ترقد الفتاة:

ـ من حُسن حظك، أقصد. لقد انتشلتك بيديَّ هاتين. كانت هناك شظية معدنية بهذا الحجم...

هنا، فرد إصبعيه الإبهام والسبابة على وسعهما ليبين لها، مُضاعِفًا على الأقل، في تقدير مريم، الحجم الحقيقي:

ـ بهذا الحجم. دخلت في كتفك. كانت في الواقع مغروزة فيه. وظننت أنني سأضطر لاستخدام زرديَّة. لكنك بخير. وقريبًا جدًّا ستكونين «نو سوتشا»، سليمة معافاة.

كان رشيد هو الذي أنقذ حفنة من كتب حكيم.

ـ معظمها صار رمادًا. والبقية نُهبت. مع الأسف.

في ذلك الأسبوع الأول، ساعَدَ مريم في رعاية الفتاة. ذات يوم عاد إلى المنزل ومعه بطانية ووسادة جديدتان. وفي يوم آخر، زجاجة من الحبوب.

قال:

ـ فيتامينات.

وكان رشيد هو الذي أبلغ ليلى بخبر احتلال بيت صديقها طارق.

قال:

ـ هدية. من أحد قادة سيَّاف إلى ثلاثة من رجاله. هدية. ها!

لم يكن «الرجال» الثلاثة سوى صبية لهم وجوه شابة لوحتها الشمس.

سوف تراهم مريم عندما تمر بهم، دائمًا يرتدون بذلة الأشغال، مقرفصين بجوار الباب الأمامي لبيت طارق، يلعبون الورق ويدخنون، وبنادقهم الكلاشينكوف تستند على الحائط. الشاب مفتول العضلات، الذي تبدو من مسلكه العجرفة والسعادة بنفسه، هو الزعيم. أما الأصغر، والأكثر هدوءًا، فيبدي قدرًا من الممانعة في التشبه بصديقيه، اللذين يتصرفان كأنهما فوق المحاسبة. كان يبتسم ويهز رأسه بالتحية عندما تمر به مريم. وعندما كان يفعل ذلك، كان بعض من صلفه السطحي يتهاوى، وترصد مريم لمحة من تواضع لم يفسد بعد.

ثم ذات صباح سقطت صواريخ على المنزل. وذكرت الشائعات أن من أطلقها هم هزاره حزب «وحدت». لبعض الوقت، ظل الجيران يعثرون على أجزاء وأشلاء من الصبية.

قال رشيد:

ـ يستحقون.

* * *

فكرت مريم أن الفتاة محظوظة على نحو غير عادي، أن تنجو بمثل تلك الإصابات البسيطة، على الرغم من أن الصاروخ حوَّل منزلها إلى أنقاض يتصاعد منها الدخان. وأخذت الفتاة تتحسن ببطء. بدأت تأكل أكثر، بدأت تمشط شعرها بنفسها. بدأت تتحمم بنفسها. بدأت تتناول طعامها في الطابق الأرضي، مع مريم ورشيد.

لكن سرعان ما تستيقظ، من تلقاء نفسها، ذكرى ما، تتبعها نوبات من الصمت الحجري أو الفظاظة، حالات من الانسحاب والانهيار. نظرات شاحبة. كوابيس وهجمات فجائية من الحزن. تقيؤ.

وأحيانًا نوبات ندم.

قالت يومًا:

ـ ما كان عليَّ أن أكون هنا من الأساس.

كانت مريم تغير الملاءات. والفتاة تراقبها من الأرض، وركبتاها المكدومتان مشدودتان إلى صدرها.

ـ أراد أبي أن يخرج الصناديق. الكتب. قال إنها ثقيلة عليَّ. لكنني لم أسمح له. كنت متحمسة. كان المفروض أن أكون أنا التي في البيت عندما حصل ما حصل.

فردت مريم الملاءة النظيفة في الهواء وتركتها تهبط على الفراش. نظرت إلى الفتاة، إلى خصلاتها الشقراء، إلى جيدها الممشوق وعينيها الخضراوين، إلى عظام وجنتيها العالية وشفتيها المكتنزتين. تذكرت مريم أنها رأتها في الشوارع عندما كانت صغيرة، تتعثر خلف أمها في الطريق إلى المخبز، تعتلي كتفي أخيها، الأصغر، صاحب بقعة الشعر على أذنه. ترمي الحصى مع ابن النجار.

أخذت الفتاة تنظر إلى مريم وكأنما تنتظر منها أن تناولها كسرة من الحكمة، أن تقول لها شيئًا مشجعًا. لكن أي حكمة يمكن لمريم أن تقدمها؟ أي تشجيع؟ تذكرت مريم يوم دفنوا «نانا» والعزاء القليل الذي وجدته عندما تلا الملا فيض الله آيات من القرآن: «تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا». أو عندما حدثها عن إحساسها بالذنب قائلًا: «لا فائدة من تلك الأفكار يا مريم جو. هل تسمعين يا طفلتي؟ لا فائدة. سوف تدمرك. لم تكن غلطتك. لم تكن غلطتك. لا».

ما الذي يمكنها أن تقوله لتلك الفتاة كي تخفف من معاناتها؟

لم يكن عليها أن تقول شيئًا، لأن وجه الفتاة تلوى، وجلست على أربع وهي تقول إنها ستتقيأ.

ـ انتظري! تماسكي. سآتي بقدْر. ليس على الأرض. لقد نظفتها لتوي... أوه. أوه. «خدايا»! يا إلهي!

* * *

ثم ذات يوم، بعد نحو شهر من التفجير الذي قتل والدي الفتاة، جاء رجل يطرق الباب. فتحت مريم. وأخبرها الرجل بسبب مجيئه.

قالت مريم:

ـ رجل بالباب يريد أن يراكِ.

رفعت الفتاة رأسها من فوق الوسادة.

ـ يقول إن اسمه عبد الشريف.

ـ لا أعرف أي عبد الشريف.

ـ طيب. هو يسأل عنكِ. انزلي وتكلمي معه.

٢٨
ليلى

جلست ليلى قبالة عبد الشريف، وهو رجل نحيل، صغير الرأس، له أنف مكور مجدور بندوب غائرة مثل تلك التي تشوه خديه. شعره القصير البُني يقف على فروة رأسه مثل إبر مغروسة في وسادة دبابيس.

قال، وهو يعدل من ياقته المفكوكة ويجفف جبهته بمنديله:

ـ اعذريني يا «همشيره»، فأنا لم أتعافَ بعد. ما زالت أمامي خمسة أيام أخرى من تلك الـ... ماذا يسمونها... حبوب «السلفا».

عدَّلت ليلى جلستها بحيث تكون أذنها اليمنى، السليمة، هي الأقرب إليه:

ـ هل كنت صديقًا لوالديَّ؟

أسرع عبد الشريف يقول:

ـ لا، لا. معذرة.

رفع إصبعًا، ورشف رشفة طويلة من المياه التي وضعتها مريم أمامه:

ـ كان يجب أن أبدأ من البداية.

جفف شفتيه، وجبهته ثانية:

ـ أنا رجل أعمال. أملك محلات ملابس، معظمها ملابس رجال: قفاطين «شابان»، وقبعات، وسراويل «تمبان»، وبدلات، وأربطة عنق، وكل ما يخطر ببالك. محلان هنا في كابل، في تايمني وشَهر نو، لكنني بعتهما مؤخرًا. واثنان في باكستان، في بيشاور، حيث يقع المخزن أيضًا. وهكذا، أسافر كثيرًا، ذهابًا وعودة. وهي عملية أصبحت...

هز رأسه وأطلق ضحكة قصيرة مجهَدة:

ـ دعينا نقُل إنها مغامرة.. كنت في بيشاور مؤخرًا، في عمل، آخذ الطلبات، وأقوم بالجرد، وأشياء من هذا القبيل. وأيضًا لكي أزور أسرتي. لدينا ثلاث بنات، الحمد لله. نقلتهن مع زوجتي إلى بيشاور بعدما انقلب «المجاهدين» وبدأوا يذبح بعضهم بعضًا. لم أكن لأسمح أن تضاف أسماؤهن إلى قائمة الشهداء. ولا اسمي، للأمانة. وسوف ألتحق بهن قريبًا جدًّا، إن شاء الله.

على أية حال، كان من المفترض أن أرجع إلى كابل يوم الأربعاء قبل الماضي، لكن مرضًا أقعدني. لن أزعجك بالتفاصيل يا «همشيره»، يكفي أن أقول إنني عندما كنت أذهب لقضاء حاجتي، الخفيفة، كنت أشعر بأنني أتبول شظايا زجاج. ألم لا أتمناه لأحد، حتى لـ«حكمتيار» نفسه. وقد رجتني زوجتي، ناديا جان، بارك الله فيها، أن أرى طبيبًا. لكنني ظننت أنني سأتغلب على المرض بالأسبرين وكثير من الماء. ناديا جان تصر وأنا أقول لا، وظللنا هكذا. تعرفين

المثل القائل «البغل العنيد يلزمه راكب عنيد». تلك المرة، مع الأسف، فاز البغل. وهو أنا.

شرب بقية المياه ومد الكوب إلى مريم:

ـ ما لم يكن في ذلك إزعاج.

تناولت مريم منه الكوب وذهبت لتملأه.

ـ غني عن القول أنني كان يجب أن أسمع كلامها. فلطالما كانت هي الأكثر عقلانية، أطال الله في عمرها. وعندما ذهبت أخيرًا إلى المستشفى، كنت أحترق من الحمى وأرتجف مثل شجرة «بيد» في الريح. كنت أستطيع الوقوف بالكاد. وقالت الطبيبة إنني أصبت بتسمم في الدم. قالت يومين أو ثلاثة وكنت سأترك زوجتي أرملة. وضعوني في وحدة خاصة، محجوزة لذوي الأمراض الخطيرة، على ما أظن. آه، «تَشَكُّر»!

تناول الكوب من مريم وأخرج من جيب معطفه حبة بيضاء كبيرة:

ـ يا لحجم الحبوب.

راقبته ليلى وهو يبتلع الحبة. كانت واعية بتسارع أنفاسها. وشعرت كما لو أن أثقالًا قد رُبطت إلى ساقيها. قالت لنفسها إنه لم ينتهِ، إنه لم يخبرها بأي شيء بعد، ولكنه سيكمل كلامه بعد ثانية، وقاومت رغبة ملحة لأن تنهض وتغادر، تغادر قبل أن يقول لها أشياء لم تكن تريد سماعها.

وضع عبد الشريف كوبه على الطاولة:

ـ وهناك قابلت صديقك؛ محمد طارق واليضاي.

تسارع قلب ليلى. طارق في مستشفى؟ في وحدة خاصة؟ لذوي الأمراض الخطيرة؟

ابتلعت ريقها الجاف. راوحت مكانها على الكرسي. كان عليها أن تشد جسدها. خافت أن تتفسخ مفصلاتها لو لم تفعل. حولت أفكارها من المستشفيات والوحدات الخاصة وفكرت بدلًا من ذلك في كونها لم تسمع أحدًا ينطق باسم طارق الكامل منذ التحقا معًا بفصل شتوي لتعلم الفارسية قبل سنوات. كان المدرس ينادي قائمة الأسماء بعد الجرس ويقول اسمه هكذا ـ «محمد طارق واليضاي». وقد صدمها سماع اسمه الكامل وقتها، إذ رأته متكلفًا بطريقة مضحكة.

واصل عبد الشريف، وهو يخبط بإحدى قبضتيه على صدره كما لو ليسهِّل مرور الحبة:

ـ ما حدث له سمعته من إحدى الممرضات. فمع كل الوقت الذي قضيته في بيشاور، أصبحت بارعًا في اللغة الأردية. على أية حال، ما فهمته أن صديقك كان في شاحنة مليئة باللاجئين، ثلاثة وعشرين لاجئًا، جميعهم متجهون إلى بيشاور. قرب الحدود، علقوا في تبادل لإطلاق النيران، وضرب صاروخ الشاحنة. كان صاروخًا طائشًا على الأرجح، لكنك لا تعرفين أبدًا مع أولئك الناس، لا تعرفين أبدًا. لم ينجُ سوى ستة أشخاص، جميعهم دخلوا الوحدة نفسها. تُوفي ثلاثة منهم في خلال أربعة وعشرين ساعة، ونجت اثنتان ـ شقيقتان كما فهمت ـ وخرجتا من المستشفى، وكان صديقك السيد «واليضاي» هو الأخير. كان قد قضى هناك نحو ثلاثة أسابيع عندما وصلت.

إذن، فقد كان حيًّا. ولكن ما مدى خطورة إصابته؟ تساءلت ليلى

مسعورة. ما خطورتها؟ خطرة لدرجة وضعه في وحدة خاصة، كما هو واضح. أدركت ليلى أنها بدأت تتعرق، وشعرت بسخونة في وجهها. حاولت التفكير في شيء آخر، شيء سار، مثل الرحلة إلى باميان لرؤية تمثالي بوذا مع طارق وبابي. ولكن صورة والدي طارق ظهرت بدلًا من ذلك: والدة طارق محشورة في الشاحنة المقلوبة، تصرخ باسم طارق عبر الدخان، وقد شبَّت النار في ذراعيها وصدرها، وأخذت «باروكتها» تذوب على فروة رأسها.

اضطرت ليلى لسحب سلسلة من الأنفاس السريعة.

ـ كان في الفراش المجاور لي. لم تكن هناك جدران، فقط ستارة تفصل بيننا. لذا كنت أراه جيدًا.

وجد عبد الشريف ضرورة مفاجئة للعبث بدبلته. وأخذ يتحدث بصورة أبطأ:

ـ صديقكِ أصيب بجراح خطيرة ـ شديدة الخطورة، تفهمين! كانت الأنابيب المطاطية تخرج من كل مكان فيه. في البداية...

تنحنح:

ـ في البداية، ظننته فقد ساقيه في الهجوم، لكن ممرضة قالت لا، اليسرى فقط، فاليمنى فقدها في إصابة سابقة. كانت هناك إصابات داخلية أيضًا. كانوا قد أجروا له ثلاث عمليات جراحية بالفعل. استأصلوا أجزاء من الأمعاء، لا أتذكر ماذا أيضًا. وكان محروقًا، حروقًا بالغة. وسأكتفي بقول هذا. أنا متأكد أن لديك ما يكفي من الكوابيس يا «همشيره» ولا لزوم أن أضيف إليها.

طارق الآن بلا ساقين. جذع بجعدين. بلا ساقين. ظنت ليلى أنها ستنهار. وبجهد متعمد، يائس، أرسلت أفكارها تزحف كاللبلاب خارج الغرفة، خارج النافذة، بعيدًا عن هذا الرجل، فوق الشارع، فوق المدينة ومنازلها وأسواقها ذات الأسقف المسطحة، وقد تحولت متاهتها المؤلفة من شوارع ضيقة إلى قلاع من الرمال.

ـ كان تحت تأثير العقاقير معظم الوقت. بسبب الألم، تفهمين! لكن في بعض اللحظات، عندما تنسحب العقاقير، كان يصبح صافيًا. متألمًا لكن ذهنه صاف. كنت أتكلم معه من سريري. قلت له من أنا، ومن أين أتيت. وكان سعيدًا، أظن، لأن أحد بني وطنه يتمدد بجانبه.

كنت أقوم أنا بمعظم الكلام. كان الأمر صعبًا عليه. كان صوته مبحوحًا، وأظن أن تحريك شفتيه كان يؤلمه. لذا أخبرته عن بناتي، وعن بيتنا في بيشاور والشرفة التي نبنيها أنا ونسيبي في الباحة الخلفية. أخبرته أنني بعت المتجرين في كابل وأنني بصدد العودة لإنهاء الأوراق. لم يكن ذلك كثيرًا، لكنه شغله. على الأقل هذا ما أحب أن أعتقده.

أحيانًا كان يتكلم هو أيضًا. نصف الوقت، لم أكن أتبين ما يقوله، لكنني التقطت ما يكفي. وصف لي أين عاش. تكلم عن عمه في غزني، وعن طبيخ أمه ونجارة أبيه، وعن نفْسِه وهو يلعب الأكورديون.

لكن معظم الوقت، كان يتكلم عنك يا «همشيره». قال إنك ـ كيف قالها ـ أول ذكرياته. أظن أن هذا صحيح، نعم. يمكنني أن أقول إنه كان يهتم بأمرك كثيرًا. كان هذا واضحًا. لكنه قال إنه سعيد لأنك لست هناك. قال إنه لا يريدك أن تريه هكذا.

شعرت ليلى بثقل قدميها مجددًا، بأنهما مثبتتان في الأرض، كما لو أن

دمها كله قد انساب إلى هناك فجأة. لكن عقلها كان بعيدًا جدًّا، حُرًّا وخفيف الحركة، يندفع مثل قذيفة سريعة إلى ما وراء كابل، فوق تلال بُنية جرفية، وفوق صحاري تتناثر فيها عناقيد من شجيرات المريمية، فوق خيران من الصخر الأحمر المسنن، وفوق جبال مكللة بالثلوج...

- عندما قلت له إنني عائد إلى كابل، طلب مني أن أبحث عنك، أن أقول لكِ إنه يفكر فيكِ، إنه يشتاق إليكِ. ووعدته أن أفعل. لقد أحببته، كما ترين. كان صبيًّا لطيفًا.

مسح عبد الشريف جبينه بالمنديل.

ثم استطرد وقد تجدد اهتمامه بدبلته:

- استيقظت ذات ليلة. هذا ما أظنه على أية حال، فمن الصعب تحديد الليل من النهار في تلك الأماكن. لا توجد أية شبابيك، ولا ترين شروقًا أو غروبًا، لكنني استيقظت وكانت هناك جلبة حول الفراش المجاور لي. عليك أن تفهمي بأنني أيضًا كنت مليئًا بالعقاقير، دائم الإغفاء والإفاقة، لدرجة بات يصعب عليَّ معها التمييز بين الحقيقة والحلم. كل ما أتذكره هو أطباء منكبُّون حول السرير، يطلبون هذا وذاك، وأجراس إنذار، ومحاقن في كل مكان على الأرض.

في الصباح، كان الفراش شاغرًا. سألت ممرضة. قالت إنه قاوم ببسالة.

كانت ليلى شبه غائبة عن الوعي وكانت تومئ برأسها. لقد عرفت. بالطبع عرفت. عرفت في اللحظة التي جلست فيها أمام هذا الرجل لماذا جاء إلى هنا، وأية أخبار جاء بها.

وها هو يقول:

ـ في البداية، تفهمين، في البداية ظننتك غير موجودة أصلًا. ظننت أن المورفين هو الذي يتكلم. ربما تمنيت أيضًا ألا تكوني موجودة. لطالما كنت أجزع من حمل الأخبار السيئة. لكنني وعدته. وكما قلت، لقد أحببته كثيرًا. لذا جئت إلى هنا قبل بضعة أيام. سألت عنك في الجوار، وتكلمت مع بعض الجيران. أشاروا إلى هذا البيت. وأخبروني أيضًا بما حدث لوالديك. عندما سمعت بالأمر، استدرت وغادرت. لم أكن سأخبرك. قررت أن ذلك سيكون أكثر مما تحتملين. أكثر مما يحتمل أي شخص.

مد عبد الشريف يده فوق الطاولة ووضع يدًا على ركبتها:

ـ لكنني عُدت. لأنني، في النهاية، أظنه كان يريدك أن تعرفي. أظن هذا. أنا آسف جدًّا. أتمنى لو أن...

لكن ليلى لم تعد تسمع. كانت تتذكر يوم جاء الرجل من بنجشير لينقل خبر موت أحمد ونور. تذكرت بابي، شاحب الوجه، وهو يتهاوى على الأريكة، ومامي، يدها تطير إلى فمها عندما سمعت. لقد راقبت ليلى مامي وهي تنهار ذاك اليوم، وأرعبها ذلك، لكنها لم تشعر بأي حزن حقيقي. لم تفهم بشاعة الفقد الذي أصاب أمها. الآن غريب آخر يحمل خبر موت آخر. الآن هي من يجلس على الكرسي. هل هو جزاؤها، إذن؟ عقوبتها على استعلائها على معاناة أمها؟

تذكرت ليلى كيف سقطت مامي على الأرض، كيف صرخت، ومزقت شعرها. لكن حتى ذلك لم تستطع ليلى فعله. لا تكاد تقوى على الحركة. لا تكاد تقوى على تحريك عضلة.

بدلًا من ذلك، جلست في مقعدها، يداها مرتخيتان في حِجرها، عيناها تحدقان في الفراغ، وتركت عقلها يحلق. تركته يحلق حتى وجد الملاذ، الملاذ الطيب والآمن، حيث حقول الشعير خضراء، والمياه تنساب صافية، والآلاف من بذور الحور القطني تتراقص في الهواء. حيث يقرأ بابي كتابًا أسفل شجرة سنط ويغفو طارق ويداه متشابكتان فوق صدره، وحيث يمكنها أن تغمر قدميها في الجدول وتحلم أحلامًا طيبة، تحت الأنظار الحارسة لآلهة جُبلت من صخور عتيقة لوحتها الشمس.

٢٩

مريم

قال رشيد للفتاة، وهو يتناول سلطانية «المستوه» وكرات اللحم من مريم من دون أن ينظر إليها:

- آسف جدًّا! أعرف أنكما كنتما مقربين... كصديقين... أنت وهو. دائمًا معًا، منذ الطفولة. ما حدث أمر فظيع. كثير من الشبان الأفغان يموتون بتلك الطريقة.

أشار بيده بنفاد صبر، من دون أن يرفع عينه عن الفتاة، فناولته مريم منديلًا.

لسنوات، ظلت مريم تراقبه وهو يأكل، عضلات صدغيه تمخضان، يد تضغط الأرز في كرات صغيرة، وظهر اليد الأخرى يمسح الدهن، وينفض الحبات الشاردة، عن زاويتي فمه. لسنوات، ظل يأكل من دون أن يرفع رأسه، من دون أن يتحدث، صمته ساخط، كما لو أن حُكمًا ما في طريقه للصدور، ثم لا يكسر الصمت إلا همهمة لوامة، طقطقة ناقمة من لسانه، أمر من كلمة واحدة بجلب مزيد من الخبز، أو مزيد من الماء.

الآن، يأكل بالملعقة. يستخدم منديلًا. يقول «لطفًا» عندما يطلب مياهًا. ويتكلم بحماسة وبلا توقف.

ـ إذا سألتِني، أقول إن الأمريكان سلَّحوا الرجل الخطأ، «حكمتيار». كل البنادق التي سلَّمتها له المخابرات الأمريكية في الثمانينيات ليحارب السوفييت. وقد رحل السوفييت، لكنه لا يزال يملك البنادق، والآن يديرها صوب الأبرياء مثل والديك. ويسمي ذلك جهادًا. يا لها من مهزلة! ما للجهاد وقتل النساء والأطفال؟ كان أجدر بالمخابرات الأمريكية أن تسلِّح القائد مسعود.

ارتفع حاجبا مريم. «القائد» مسعود؟ تذكرت كيف كان رشيد يتبجح ضد مسعود، كيف كان يصفه بالخائن والشيوعي. لكن، بالطبع، مسعود طاجيكي. مثل ليلى.

ـ هذا رجل عقلاني. أفغاني شريف. رجل مهتم حقًّا بالتوصل إلى حل سلمي.

هز رشيد كتفيه وتنهد:

ـ لكنهم لا يبالون في أمريكا، اسمحي لي. لماذا يشغلهم أن يقتل البشتون والهزاره والطاجيك والأوزبك بعضهم بعضًا؟ كم أمريكي يستطيع أن يفرق أحدهم عن الآخر؟ لا تتوقعي عونًا منهم. أقول لك. الآن وقد انهار الاتحاد السوفييتي، لم تعد لنا فائدة. لا نخدم مصالح أحد سوانا. أفغانستان بالنسبة إليهم مجرد «كيناراب»، حفرة للتغوط. معذرة على ألفاظي، لكنها الحقيقة. ما رأيك يا ليلى جان؟

غمغمت الفتاة بشيء مبهم ودوَّرت كرة لحم في سلطانيتها.

أومأ رشيد متفكرًا، كما لو أنها قد نطقت بأذكى تحليل سمعه في حياته. وكان على مريم أن تشيح بوجهها.

ـ تعرفين، والدك، رحمة الله عليه، والدك وأنا كنا ندخل في مناقشات مثل هذه. كان هذا قبل ولادتك، بالطبع. كنا نتكلم ونتكلم في السياسة، وفي الكتب أيضًا. أليس كذلك يا مريمِ؟ هل تتذكرين؟

شغلت مريم نفسها بتناول رشفة ماء.

ـ على أية حال، أتمنى ألا أكون قد أزعجتك بكل هذا الكلام في السياسة.

لاحقًا، كانت مريم في المطبخ، تغطس الأطباق في ماء مصبَّن، وتشعر باضطراب في معدتها.

لم يكن الأمر يتعلق بما قاله، بذلك الكذب السافر، أو التعاطف المصطنع، أو حتى بكونه لم يرفع يده عليها، منذ انتشل الفتاة من تحت تلك الأنقاض.

كان الأمر يتعلق بأدائه الاستعراضي، وكأنه يقدم عرضًا مسرحيًّا، محاولة، ماكرة وبائسة، لكي يخلف انطباعًا إيجابيًّا لديها، لكي يجذبها إليه.

وفجأة اتضحت لمريم صحة شكوكها. فهمت بهلع أشبه بصفعة قوية على جانب رأسها أن ما رأته لم يكن سوى مغازلة.

* * *

عندما استجمعت مريم شجاعتها أخيرًا، ذهبت إلى غرفته.

أشعل رشيد سيجارة، وقال:

ـ ولِمَ لا؟

عرفت مريم حينئذ أنها قد هُزمت. كانت قد توقعت، نصف توقع، ونصف أمل، أن ينكر كل شيء، أن يتظاهر بالاندهاش، بل ربما يثور غضبًا، على ما كانت تلمح إليه. ووقتها، لربما كان لها اليد الطولى. لربما نجحت في جعله يشعر بالخجل، لكن اعترافه الهادئ، ونبرته الواقعية، جرَّداها من ثباتها.

قال:

ـ اجلسي.

كان راقدًا على الفراش، ظهره للجدار، وساقاه الغليظتان الطويلتان منفرجتان على المرتبة.

ـ اجلسي قبل أن يغمى عليك فتسقطي وينكسر رأسك.

شعرت مريم بنفسها تسقط على الكرسي القابل للطي بجوار السرير.

قال:

ـ ناوليني منفضة السجائر، لو سمحت.

ناولته إياها طائعة.

لا بد أن رشيدًا الآن في الستين أو أكثر ـ على الرغم من أن مريم لا تعرف عمره بالضبط، بل لا يعرفه هو نفسه. شاب شعره، لكنه ظل كثيفًا وخشنًا كعهده. وظهر تهدل في جفنيه وفي جلد رقبته، الذي أصبح مكرمشًا وجافًّا.

وارتخت وجنتاه أكثر قليلًا. في الصباح، كان ظهره يحدودب بعض الشيء. لكنه ما زال محتفظًا بالكتفين العفيَّتين، والجذع الغليظ، واليدين القويتين، والبطن الممتلئ الذي يدخل الغرفة قبل سائر أعضائه.

إجمالًا، فكرت مريم أن السنين خلفت أثرها عليه أقل مما فعلت معها.

ـ علينا أن نضفي الشرعية على هذا الوضع.

كان يقول ذلك، وهو يوازن منفضة السجائر على كرشه، ويزم شفتيه مشاكسًا.

ـ سوف يتكلم الناس، فالوضع يبدو غير شريف، امرأة شابة عازبة تعيش هنا. إنه أمر مُضر بسُمعتي، وبسُمعتها، وبسُمعتك أنت أيضًا.

قالت مريم:

ـ ثماني عشرة عامًا، ولم أطلب منك أي شيء. ولا شيء واحد. والآن ها أنا أطلب منك.

سحب الدخان وأخرجه بطيئًا:

ـ لا يمكنها أن تمكث معنا وحسب، إذا كان هذا ما تقترحينه. لا يمكن أن أظل أطعمها وأكسوها وأمنحها مكانًا للنوم. أنا لست الصليب الأحمر يا مريم!

ـ لكن هذا؟

ـ وماذا في هذا؟ ماذا؟ هل تظنين أنها صغيرة جدًّا؟ إنها في الرابعة عشرة، لم تعد طفلة. أنتِ كنت في الخامسة عشرة، هل تذكرين؟ وأمي كانت في الرابعة عشرة عندما أنجبتني. في الثالثة عشرة عندما تزوجتْ.

قالت مريم، وقد سرى الخدر في جسدها من فرط شعورها بالاحتقار والعجز:

ـ أنا... أنا لا أريد هذا!

ـ هذا ليس قرارك. هو قراري أنا وهي.

ـ أنا كبيرة جدًّا...

ـ هي صغيرة جدًّا، وأنت كبيرة جدًّا، هذا هراء!

ـ أنا كبيرة جدًّا... كبيرة على أن تفعل ذلك بي!

قالتها مريم وهي تقبض على قماش فستانها بقوة حتى إن يديها أخذتا في الارتعاش.

ـ أن تجعل لي ضرَّة بعد كل تلك السنين.

ـ لا تحوليها إلى مأساة. إنه أمر شائع وأنت تعرفين هذا. لي أصدقاء لديهم زوجتان، وثلاث، وأربع. والدك نفسه كانت له ثلاث زوجات. ثم إن ما أفعله الآن كان معظم معارفي الرجال يفعلونه منذ زمن طويل. تعرفين أن ذلك صحيح.

ـ لن أسمح بهذا!

عندها، ابتسم رشيد بحزن.

قال وهو يحك باطن إحدى قدميه بالكعب الخشن لقدمه الأخرى:

ـ هناك خيار آخر: يمكنها أن ترحل، لن أقف في طريقها، لكنني أظنها لن تذهب بعيدًا، فلا طعام، ولا ماء، ولا روبية واحدة في جيوبها،

والرصاص والصواريخ تنهمر في كل مكان. كم يومًا ستعيش في رأيك قبل أن تُختطف، أو تُغتصب، أو يُرمى بها مذبوحة في مصرف على جانب الطريق؟ أو الثلاثة معًا؟

سعل وعدَّل الوسادة خلف رأسه:

ـ الشوارع بالخارج لا ترحم يا مريم، صدقيني. القتلة وقطاع الطرق عند كل ناصية. فرصها في النجاة محدودة للغاية. لكن لنقل إنها استطاعت بمعجزة الوصول إلى بيشاور. ماذا بعد؟ هل لديك أية فكرة عن حال تلك المخيمات؟

حدق فيها من خلف عمود من الدخان:

ـ الناس يعيشون تحت أسقف من الورق المقوى. السُّل، والدوسنتاريا، والمجاعة، والجريمة. وكل هذا قبل الشتاء. ثم هناك موسم الصقيع. الالتهاب الرئوي. أناس يتحولون إلى جليد. تلك المخيمات تصبح مقابر متجمدة.

برم يده بحركة لعوب:

ـ بالطبع، يمكنها أن تظل دافئة في واحدة من مباغي بيشاور. فالعمل ينتعش هناك، بحد علمي. ولا بد أن فتاة جميلة مثلها تستطيع الحصول على ثروة صغيرة، ألا تعتقدين؟

وضع المنفضة على طاولة الفراش وأنزل ساقيه عن السرير.

قال، وقد باتت نبرته الآن أكثر تصالحية، بقدر ما يحق للمنتصر:

ـ اسمعي! أعرف أنك لن تستقبلي الأمر بصدر رحب، ولا ألومك على

هذا. لكن هذا ما تقتضيه المصلحة. سوف ترين. فكري في الأمر من تلك الزاوية يا مريم. أنا أوفر لك مساعدة في الأعباء المنزلية، وأوفر لها الملجأ. بيت وزوج. ففي أيامنا هذه، والأحوال هكذا، تحتاج المرأة إلى زوج. ألم تلاحظي كل تلك الأرامل اللاتي ينمن في الشوارع؟ إنهن مستعدات للقتل من أجل فرصة كتلك. في الواقع، إن هذا... حسنًا، سأقول إن هذا إحسان مباشر من جانبي.

ابتسم:

ـ ومن وجهة نظري، فأنا أستحق وسامًا.

* * *

لاحقًا، في الظلام، أخبرت مريم الفتاة.

ظلت الفتاة صامتة وقتًا طويلًا.

قالت مريم:

ـ إنه يريد جوابًا في الصباح.

ردت الفتاة:

ـ يمكنه الحصول عليه الآن. أوافق.

٣٠
ليلى

في اليوم التالي، ظلت ليلى في الفراش. كانت تحت البطانية في الصباح عندما دس رشيد رأسه وقال إنه ذاهب إلى الحلاق. وكانت لا تزال في الفراش عندما عاد في وقت لاحق بعد الظهر، عندما عرض عليها قصة شعره الجديدة، وحلته المستعملة الجديدة، ررقاء مضلَّعة بخطوط رفيعة بلون الزبدة، والدبلة التي اشتراها لها.

جلس رشيد على الفراش بجانبها، وبحركات استعراضية مبالغ فيها فك الشريط ببطء، وفتح العلبة، وأخرج الدبلة برقة. وكشف لها أنه قايضها بدبلة مريم القديمة:

ـ هي لا تهتم. صدقيني. إنها حتى لم تلاحظ.

انسحبت ليلى إلى الطرف البعيد من الفراش. كان بوسعها أن تسمع مريم بالأسفل، أن تسمع هسيس مكواتها.

قال رشيد:

ـ هي لم تكن تضعها قطُّ على أية حال.

قالت ليلى بوهن:

ـ لا أريدها. ليس بتلك الطريقة. عليك أن تعيدها.

ـ أعيدها؟

التمعت نظرة نافذة الصبر على وجهه ثم غابت. ابتسم:

ـ لقد أضفت إليها بعض النقود أيضًا ـ مبلغًا كبيرًا في الحقيقة. فهذه دبلة أفضل، ذهب عيار اثنين وعشرين قيراطًا. انظري كم هي ثقيلة؟ هيا، تحسسيها، لا؟

أغلق العلبة:

ـ ماذا عن الزهور؟ ستكون لطيفة. هل تحبين الزهور؟ هل لديك زهرة مفضلة؟ الأقحوان؟ «التيوليب»؟ الزنبق؟ الليلك؟ لا زهور؟ يا إلهي! أنا لا أفهم. لقد ظننت... الآن، أنا أعرف خيَّاطًا هنا في دِه مزنج. كنت أفكر في أن نصحبك إلى هناك غدًا، ليأخذ قياسك من أجل فستان مناسب.

هزت ليلى رأسها.

رفع رشيد حاجبيه.

شرعت ليلى تقول:

ـ أفضِّل...

وضع يدًا على رقبتها. لم يسع ليلى إلا أن تجفل وتنقبض. كانت لمسته تشبه الوخز الذي يسببه ارتداء بلوفر صوفي قديم مبلل بلا ملابس داخلية.

ـ نعم؟

ـ أفضِّل أن نتم الأمر بسرعة.

انفتح فم رشيد، ثم اتسع في ابتسامة صفراء كشفت عن أسنان ناشزة، وقال:

ـ مُتعجلة!

* * *

قبل زيارة عبد الشريف. كانت ليلى قد قررت المغادرة إلى باكستان. بل، تفكر ليلى الآن، ربما كانت ستغادر بعد أن جاء عبد الشريف حاملًا تلك الأخبار. تذهب إلى مكان بعيد عن هنا. تعتزل تلك المدينة حيث ثمة فخ عند كل ناصية، وثمة شبح يختبئ في كل زقاق ليقفز عليها مثل عفريت العلبة. ربما كانت ستجازف.

لكن، فجأة، لم يعد الرحيل خيارًا مطروحًا.

ليس مع تلك الانقباضات اليومية.

ذلك الامتلاء الجديد لثدييها.

والإدراك، بشكل ما، ووسط كل تلك الفوضى، أن الدورة الشهرية لم تأتِ.

تصورت ليلى نفسها في مخيم للاجئين، حقل أجرد ممتلئ بآلاف الألواح البلاستيكية المربوطة بأعمدة نُصبت كيفما اتُّفِق، ترفرف في ريح قارسة البرودة. وتحت إحدى تلك الخيام المؤقتة، رأت طفلها، طفل طارق، صدغاه نحيلان، فكاه مرتخيان، جلده مبقع بلون رمادي مزرق.

تصورت جسده الضئيل يُغسَّل بأيدي غرباء، يُكفَّن في قماش مُصفرٍّ، يوضع في حفرة حُفرت في بقعة أرض كنستها الريح تحت أنظار النسور المحبَطة.

كيف تهرب الآن؟

استعرضت ليلى عابسة مَن عرفتهم في حياتها: أحمد ونور، ماتا. حسينة، غادرت. «جيتي»، ماتت. مامي، ماتت. بابي، مات. والآن طارق...

لكن، بمعجزة ما، ظل جزء من حياته السابقة حيًّا، آخر ما يربطها بالشخص الذي كانت عليه قبل أن تصبح وحيدة تمامًا. ما زال جزء من طارق حيًّا بداخلها، ذراعان ضئيلتان نابتتان، يدان ناميتان بجلد رقيق. كيف تخاطر بالشيء الوحيد الباقي لها منه، من حياتها القديمة؟

واتخذت قرارها بسرعة. لقد مرت ستة أسابيع منذ لقائها بطارق. وإذا تأخرت أكثر من ذلك سيبدأ رشيد في الشك.

كانت تعرف أن ما تفعله مشين. أنه غش وخداع وخزي. أنه ظلم صارخ لمريم. مع ذلك، ومع أن الطفل بداخلها لم يتجاوز بعد حجم ثمرة توت، عرفت ليلى التضحيات التي على الأم أن تبذلها. وأولها التضحية بالفضيلة.

وضعت يدًا على بطنها، وأغمضت عينيها.

* * *

سوف تتذكر ليلى الاحتفال الصامت في أجزاء ومشاهد متفرقة. الخطوط بلون الزبد على بدلة رشيد. الرائحة الحادة لمثبِّت الشعر الذي وضعه. جرح الحلاقة الصغير أعلى تفاحة آدم. باطن أصابعه الخشنة المصبوغة بالتبغ وهو يدخل الدبلة في إصبعها. القلم، لا يكتب، البحث

عن قلم جديد. العقد. التوقيع، يده الواثقة، ويدها المرتعشة. الأدعية. النظر في المرآة وملاحظة أن رشيدًا قد شذَّب حاجبيه.

ثم، في مكان ما في الغرفة، مريم وهي تنظر. ورفضُها الذي جعل الهواء خانقًا.

لم تكن ليلى لتدع عينيها تلتقيان بالنظرة المحدقة للمرأة الكبيرة.

* * *

راقدة أسفل أغطيته الباردة في تلك الليلة، راقبته وهو يسدل الستائر. أخذت ترتعد حتى قبل أن تعمل أصابعه على أزرار قميصها، وتشد رباط سروالها. كان مضطربًا، وتلعثمت أصابعه بلا نهاية في فك أزرار قميصه، وفي خلع حزامه. وحظيت ليلى بنظرة واضحة لثدييه المتهدلين، وسرته البارزة، والوريد الأزرق الصغير في وسطها، وهوشات الشعر الأبيض الكثيف على صدره، وكتفيه، وساعديه. شعرت بعينيه تزحفان على جسدها.

قال:

ـ ليكن الله في عوني. أظنني أحبكِ.

عبر أسنان مصطكة، طلبت منه أن يطفئ النور.

لاحقًا، عندما تأكدت أنه قد نام، مدت ليلى يدها بهدوء أسفل المرتبة وسحبت السكين الذي خبأته هناك. وبه، وخزت باطن سبابتها، ثم رفعت البطانية وتركت إصبعها ينزف على الملاءات حيث تضاجعا.

٣١

مريم

في النهار، لم تعد الفتاة سوى نوابض فراش تصر، دقدقة أقدام فوق الرأس. كانت ماءً يطرطش في الحمَّام، أو ملعقة شاي تطقطق على الزجاج في غرفة النوم بالطابق العلوي. ومن وقت إلى آخر، كانت تظهر في بعض اللقطات: طيف فستان يتموج تراه مريم بطرف العين، يصعد الدرج على عجل، ذراعان معقودتان على الصدر، وصندل يخبط في كعبين.

لكن لم يكن ثمة مفر من أن تتقابلا. كانت مريم تمر بالفتاة على السلالم، في الردهة الضيقة، في المطبخ، أو عند الباب وهي عائدة من الباحة. عندما تلتقيان هكذا، يندفع توتر مرتبك في المسافة بينهما. تلملم الفتاة تنورتها وتهمس بكلمة اعتذار أو كلمتين، وبينما تهرع لمواصلة طريقها، تستغل مريم الفرصة وتلقي نظرة جانبية فتلتقط توردًا في الخد. أحيانًا تشم رائحة رشيد عليها، تشم عرقه، وتبغه، وشهيته، على جلد الفتاة. لحسن الحظ، كان الجنس فصلًا وانتهى من حياتها. انتهى منذ بعض الوقت، والآن أصبح مجرد التفكير في تلك اللقاءات المضنية حيث ترقد أسفل رشيد يجعل أمعاء مريم تضطرب.

مع ذلك، ففي الليل، لم تكن رقصة التحاشي المتناغمة تلك بينها وبين الفتاة ممكنة، فرشيد كان يقول إنهم عائلة. يصر على كونهم كذلك، وعلى أن العائلات يجب أن تأكل معًا.

قال وأصابعه تنزع اللحم عن العظم ـ وقد تخلى عن تمثيلية الملعقة والشوكة بعد أسبوع من زواجه بالفتاة:

ـ ما هذا؟ هل تزوجت تمثالين؟ هيا يا مريم، «جَب بِزَن»، قولي لها شيئًا. أين أخلاقك؟

وقال للفتاة، وهو يمص النخاع من عظمة:

ـ لكن يجب ألا تلقي باللوم عليها، فهي هادئة، وتلك رحمة من الله. فعندما لا يكون لدى الشخص ما يقوله، يُستحسن أن يمسك لسانه. نحن أبناء مدينة، أنا وأنت، لكنها «دِهَتي»، قروية. ليست قروية حتى. لا. لقد نشأت في «كُلبه» طينية خارج القرية. وقد وضعها والدها هناك. هل قلتِ لها يا مريم؟ هل قلت لها إنك «حرامي»؟ نعم، هي كذلك. لكنها لا تخلو من مميزات، حين نضع كل الأمور في الاعتبار. سوف ترين بنفسك يا ليلى جان. فهي مثلًا صلبة، تعمل بجد، ومن دون احتجاج. سأقولها بهذه الطريقة: لو كانت سيارة لكانت «فولجا».

كانت مريم في الثالثة والثلاثين الآن، لكن تلك الكلمة، «حرامي»، لا تزال توخزها. ما زال سماعها يجعلها تشعر أنها حشرة، صرصور. تذكرت «نانا» وهي تشدها من رسغيها: «أنت «حرامي» صغيرة خرقاء. هذا هو جزائي على كل ما تحملته. «حرامي» صغيرة خرقاء تحطم إرثي».

قال رشيد للفتاة:

ـ أما أنتِ، على الجانب الآخر، فستكونين «بينز». «بينز» جديدة، درجة أولى، لامعة. «واه واه!». لكن...

رفع سبابته الملوثة بالدهن:

ـ يجب على المرء أن... ينتبه... مع «البينز». كنوع من الاحترام لجمالها ودقة صنعها، كما ترين. آه، لا بد أنكما تقولان عني مجنونًا، «ديوانه»، مع كل هذا الحديث عن السيارات. لا أقول إنكما سيارتان. فقط أحاول أن أوضح وجهة نظري.

بعدها، أعاد رشيد كرة الأرز التي كورها بيده إلى الصحن، وتدلت يداه بسكون فوق وجبته، وهو ينظر إلى أسفل بتعبير تأملي جاد:

ـ لا يصح أن نذكر الموتى بسوء، وخصوصًا الشهداء منهم. وأنا لا أقصد أي نوع من عدم الاحترام عندما أقول هذا، أريدك أن تفهمي، لكني لديَّ بعض... التحفظات... بشأن والديك ـ رحمهما الله وأسكنهما فسيح جناته ـ بشأن الطريقة الـ... حسنًا، المتساهلة التي تعاملا بها معك. أنا آسف!

لم تغفل مريم عن النظرة الباردة الكارهة التي رمقت بها الفتاة رشيدًا لدى قوله هذا، لكنه كان ينظر إلى أسفل فلم يلاحظها.

ـ لا يهم. المسألة هي أنني زوجك الآن، وأنا المسؤول لا عن حماية شرفك وحسب، وإنما عن حماية شرفنا، نعم، ما لنا من «ننج» و«ناموس». تلك مسؤولية الزوج. دعيني أهتم بهذا. من فضلك. أما بالنسبة إليك، فأنت الملكة، وهذا البيت هو قصرك. كل ما تريدينه اطلبيه من مريم وستفعله

لك. أليس كذلك يا مريم؟ وإذا حلمت بشيء، سأجلبه لك. هل ترين، هذا هو الزوج الذي أنا عليه.

كل ما أطلبه في المقابل أمر بسيط. أطلب منك ألا تخرجي من البيت من دون صحبتي، هذا هو كل شيء، أمر بسيط، أليس كذلك؟ لو كنت بعيدًا واحتجتِ شيئًا على نحو عاجل، أقصد أنك احتجت إلى شيء حتمي ولا يمكن أن ينتظر عودتي، ساعتها يمكنك أن ترسلي مريم وستخرج وتجلبه لك. لا بد أنك لاحظت تفرقة هنا. أمر طبيعي، فالرجل لا يقود «الفولجا» و«البينز» بالطريقة نفسها. ستكون تلك حماقة، أليس كذلك؟ آه، كذلك أطلب منك، عندما نخرج معًا، أن تضعي البرقع، من أجل حمايتك، بالطبع، هذا هو الأفضل. لقد أصبحت البلدة مليئة بالرجال الفاسقين، ذوي النوايا الخبيثة، الذين يتلهفون على سلب شرف النساء، حتى المتزوجات منهن. إذن. هذا هو كل شيء.

سعل:

ـ يجب أن أقول إن مريم ستكون عينيَّ وأذنيَّ في غيبتي.

هنا، ألقى نظرة خاطفة على مريم، نظرة قاسية كما ركلة بحذاء حديدي على الصدغ.

ـ لا أقول إنني لا أثق فيك، على العكس. بصراحة، يدهشني كونك أكثر حكمة من سنك بكثير، لكنك ما زلت شابة يا ليلى جان، «دُختَر جوان»، والشابات قد يخطئن الاختيار، قد يرتكبن شقاوة ما، بأية حال، ستكون مريم هي المسؤولة. وإذا حدثت زلة...

وظل يتكلم ويتكلم. جلست مريم تراقب الفتاة من زاوية عينها بينما انهمرت طلبات رشيد وأحكامه عليهما مثلما تنهمر الصواريخ على كابل.

* * *

ذات يوم، كانت مريم في غرفة المعيشة تطوي بعض قمصان رشيد بعدما لملمتها من فوق حبل الغسيل في الباحة. لم تعرف منذ متى والفتاة هنا، لكنها عندما التقطت قميصًا واستدارت، وجدتها تقف بجوار الباب، يداها مكورتان حول كوب من الشاي.

قالت الفتاة:

ـ لم أقصد إزعاجك. أنا آسفة!

اكتفت مريم بالنظر إليها.

سقطت الشمس على وجه الفتاة، على عينيها الخضراوين الواسعتين، وعلى جبينها الناعم، على عظمتي الخد البارزتين، والحاجبين الكثين الأخَّاذين، اللذين لا يشبهان حاجبي مريم الرفيعين غير المميزين. وكان شعرها الأصفر، المشعث هذا الصباح، مفروقًا من المنتصف.

رأت مريم من وقفة الفتاة والكوب بيدها، وكتفاها مشدودتان، أنها متوترة. وتخيلتها جالسة على الفراش تحاول تمالك أعصابها.

قالت الفتاة بود:

ـ لون الأوراق يتغير. هل لاحظتِ؟ أنا أحب الخريف، أحب رائحته، عندما يحرق الناس أوراق الشجر في الحدائق. أمي كانت تحب الربيع أكثر. هل كنت تعرفين أمي؟

ـ ليس حقًّا.

كورت الفتاة يدًا خلف أذنها:

ـ معذرة؟

رفعت مريم صوتها:

ـ قلت لا. لم أكن أعرف أمك.

ـ آه!

ـ هل تريدين شيئًا؟

ـ مريم جان، أريد أن... بخصوص ما قاله تلك الليلة...

قاطعتها مريم:

ـ كنت أنوي أن أكلمك في هذا.

ـ نعم، من فضلك.

قالتها الفتاة بجدية، بحماسة تقريبًا. تقدمت خطوة إلى الأمام، وبدت عليها الراحة.

بالخارج، غرد طائر صفَّار. وسحب شخص عربة يد، سمعت مريم طقطقة مفصلاتها، ونطَّات دواليبها الحديدية وخشخشتها. وعلا دوي إطلاق نار من مكان ليس بعيدًا، طلقة واحدة تبعتها ثلاث أخريات، ثم لا شيء.

قالت مريم:

ـ لن أكون خادمتك، هذا لن يحدث.

أجفلت الفتاة:

ـ لا. بالطبع لا!

ـ ربما تكونين ملكة القصر وأنا «دِهَتي»، لكنني لن أتلقى الأوامر منكِ. يمكنك أن تشكي له ويمكنه أن يذبحني، لكنني لن أفعل ذلك. هل تسمعينني؟ لن أكون خادمتكِ!

ـ لا! أنا لا أنتظر...

ـ وإن كنت تظنين أن بوسعك استغلال حُسنك كي تتخلصي مني، فأنت مخطئة. لقد جئتُ هنا أولًا، ولن يُلقى بي إلى الخارج. لن أدعك تطرديني من هنا.

قالت الفتاة بوهن:

ـ ليس ذلك ما أريده.

ـ وأرى أن جروحك قد التأمت. لذا يمكنك البدء في الحصول على نصيبك من العمل في هذا المنزل...

كانت الفتاة تومئ برأسها بسرعة. واندلق بعض من الشاي الذي تحمله، لكنها لم تلاحظ.

ـ نعم، هذا هو السبب الآخر لنزولي، لكي أشكرك على الاعتناء بي...

اندفعت مريم قائلة:

ـ حسنًا، لم أكن لأعتني بكِ. لم أكن لأطعمك وأنظفك وأرعاك لو كنت أعرف أنك ستدورين من وراء ظهري وتسرقين زوجي.

ـ أسرق...

ـ سأظل أطهو الطعام وأغسل الصحون، وأنت ستقومين بالغسيل والكنس، وسنتبادل بقية الأشغال يومًا بيوم. وأمر آخر، رفقتك لا تفيدني في شيء. لا أريدها. أريد أن أظل وحدي. دعيني وحدي وسأرد لك المعروف. هكذا ستكون الأمور بيننا. تلك هي القواعد.

عندما انتهت من الحديث، كان قلبها يدق وشعرت بجفاف حلقها. لم تتكلم مريم قطُّ بتلك الطريقة، لم تعبر عن إرادتها قطُّ بتلك القوة. كان ذلك سيطربها، لولا أن عيني الفتاة كانتا تدمعان ووجهها كان بائسًا، وهكذا فإن الرضا الذي تحقق لمريم من انفعالها، أيًّا كان، بدا شحيحًا، بل غير مشروع بطريقة ما.

مدت يدها بالقمصان باتجاه الفتاة:

ـ ضعيها في أدراج «الماري»، لا في دولاب الملابس. القمصان البيضاء في الدرج العلوي، والبقية في الأوسط، مع الجوارب.

وضعت الفتاة الفنجان على الأرض وفردت يديها لاستلام القمصان. قالت بصوت متحشرج:

ـ آسفة على كل هذا!

ردت مريم:

ـ واجب عليك. الأسف واجب عليك.

٣٢
ليلى

تذكرت ليلى اجتماعًا حدث ذات مرة، قبل سنوات في المنزل، في أحد الأيام حيث كانت مامي في مزاج طيب. جلست النساء في الحديقة، يأكلن من صينية بها توت طازج، كانت «واجمة» قد قطفته من الشجرة في باحتها. كانت التوتات الممتلئة بيضاء ووردية، وبعضها باللون القرمزي الداكن كما انفجارات الأوردة الدقيقة في أنف «واجمة».

قالت «واجمة»، وهي تتناول بنشاط قبضة أخرى من التوت وتلقي بها في فمها الغائر:

ـ هل سمعتن كيف مات ابنه؟

قالت «نيلا»، والدة «جيتي»:

ـ لقد غرق، أليس كذلك؟ في بحيرة غارغا، صح؟

ـ ولكن هل تعرفن، هل تعرفن أن رشيدًا...

رفعت «واجمة» إصبعًا، وظلت تومئ برأسها وهي تمضغ لتجعلهن ينتظرنها حتى تبلع:

ـ هل تعرفن أنه كان يشرب ساعتها، أنه كان سكران سُكرًا بيِّنًا ذلك اليوم؟ هذا صحيح. سكران تمامًا، هذا ما سمعته. وكان هذا في الصباح. وبحلول الظهيرة، أُغشي عليه على مقعد من مقاعد الاستراحة. لو ضرب مدفع الظهيرة بجوار أذنه لما طرف له جفن.

تذكرت ليلى كيف غطت «واجمة» فمها، وتجشأت، كيف انطلق لسانها يستكشف ما بين أسنانها القليلة المتبقية.

ـ يمكنكن تخيل البقية. نزل الصبي إلى الماء بلا مراقب. وعثروا عليه بعدها بفترة، طافيًا ووجهه إلى أسفل. سارع الناس للمساعدة، نصفهم يحاول إيقاظ الصبي، والنصف الآخر يحاول إيقاظ الأب. انحنى أحدهم على الصبي، وفعل... هذا الشيء الذي يجب أن يفعل بين الفم والفم، لكن من دون جدوى. كان الأمر واضحًا أمامهم جميعًا. لقد مات الصبي.

تذكرت ليلى «واجمة» وهي ترفع إصبعًا وصوتها يرتعش من التقوى:

ـ من أجل هذا حرَّم القرآن الكريم الشرب، لأن الواعي هو الذي يسدد فاتورة ذنوب السكران.

دارت تلك القصة في رأس ليلى بعدما زفت إلى رشيد خبر الطفل. قفز فورًا على دراجته، وانطلق إلى أحد الجوامع، وصلى داعيًا الله أن يمنحه الولد.

تلك الليلة، على «السفرة»، راقبت ليلى مريم وهي تدفع قطعة لحم في صحنها. كانت ليلى هناك عندما ألقى رشيد الخبر على مريم بصوت

عالٍ ودرامي ـ لم ترَ ليلى قطُّ مثل تلك القسوة المبتهجة. رفَّت رموش مريم عندما سمعت، واحمرَّ وجهها. جلست واجمة، وبدا عليها الغم.

بعدها، صعد رشيد إلى الطابق العلوي لكي يستمع إلى الراديو، وساعدت ليلى مريم في تنظيف «السفرة».

قالت مريم، وهي تجمع حبات الأرز وفتات الخبز:

ـ لا أستطيع أن أتخيل ما أنت الآن، إذا كنتِ سيارة «بينز» قبلها.

جربت ليلى تكتيكًا أكثر خفة:

ـ قطار؟ ربما طائرة «جامبو» نفاثة.

انتصبت مريم:

ـ أرجو ألا تظني أن ذلك يعفيك من الأشغال المنزلية.

فتحت ليلى فمها، ثم فكرت. ذكَّرت نفسها بأن مريم هي الطرف الوحيد البريء وسط كل ذلك الترتيب. مريم والطفل.

لاحقًا، في الفراش، انفجرت ليلى باكية.

ما الأمر؟ أراد رشيد أن يعرف، وهو يرفع ذقنها. هل هي مريضة؟ هل هو الطفل؟ هل أصاب الطفل مكروه؟ لا؟ هل أساءت مريم معاملتها؟

ـ هو ذلك، صح؟

ـ لا.

ـ والله بالله، سأنزل وألقنها درسًا. مَن تظن نفسها، تلك «الحرامي»، كيف تعاملك...

ـ لا!

كان ينهض بالفعل، وكان عليها أن تمسك ذراعه، وتشده إلى أسفل ثانية:

ـ لا تفعل! لا! إنها لطيفة معي. دقيقة واحدة، هذا هو كل شيء، سأكون على ما يرام.

جلس بجانبها، يمسد رقبتها، ويغمغم. زحفت يده ببطء إلى أسفل ظهرها، ثم إلى أعلى ثانية. مال إلى الأمام، والتمعت أسنانه المتزاحمة.

قال بهرير:

ـ لنر إذن، إذا ما كان بوسعي أن أواسيكِ.

* * *

أولًا، طرحت الأشجار ـ تلك التي لم تُقطع من أجل الحطب ـ أوراقها المبقعة بالأصفر والنحاسي. ثم جاءت الرياح، باردة ورطبة، تشق المدينة. أطاحت بآخر الأوراق المتشبثة بأغصانها، وخلَّفت الأشجار مثل أشباح فوق التلال البُنية الساكنة. كان أول سقوط للثلج في الموسم خفيفًا، ندف كانت تذوب فور سقوطها. ثم تجمدت الطرق، وتجمَّع الثلج في أكوام على الأسطح، تراكم حتى منتصف النوافذ التي حجَّرها الجليد. ومع الثلج ظهرت الطائرات الورقية، تلك التي كانت ذات يوم صاحبة السيادة في سماوات كابل الشتوية، وقد صارت الآن أشبه بدخلاء عابرين في أراضٍ تسيطر عليها الصواريخ والطائرات المقاتلة.

ظل رشيد يرجع إلى المنزل بأخبار الحرب، وكانت ليلى تحتار وهي

تسمع التحالفات التي يحاول رشيد شرحها لها. قال إن سيَّافًا يحارب الهزاره. والهزاره يحاربون مسعودًا:

ـ وهو يحارب «حكمتيار»، بالطبع، الذي يحظى بدعم الباكستانيين. هذان الاثنان، مسعود و«حكمتيار»، عدوان لدودان. أما سياف، فهو يأخذ جانب مسعود. و«حكمتيار» يدعم الهزاره الآن.

أما بالنسبة إلى «دوستم»، قائد الأوزبك، صاحب القرارات غير المتوقعة، فقد قال رشيد إن أحدًا لا يعرف إلى أي فريق سينضم. لقد حارب «دوستم» السوفييت في الثمانينيات جنبًا إلى جنب مع المجاهدين، لكنه ارتد وانضم إلى نظام نجيب الله الشيوعي العميل بعدما غادر السوفييت. بل نال وسامًا، قدمه له نجيب الله بنفسه، قبل أن يرتد ثانية ويعود إلى صف المجاهدين. في الوقت الحالي، بحسب رشيد، كان «دوستم» يدعم مسعودًا.

في كابل، وخصوصًا في غرب كابل، اندلعت النيران، وتصاعدت غلالات سوداء من الدخان وانتشرت فوق البنايات المكسوة بالثلوج. أُغلقت السفارات. وانهارت المدارس. وقال رشيد إن الجرحى ينزفون حتى الموت في غرف الانتظار بالمستشفيات. وفي غرف العمليات، كانت الأطراف تُبتر من دون مخدر.

قال:

ـ لكن لا تقلقي. أنت في أمان معي، يا زهرتي، يا «جُل». إن حاول أحدهم أن يؤذيك، سأنزع كبده وأجعله يأكلها.

في ذلك الشتاء رأت ليلى، حيثما نظرت، جدرانًا تسد طريقها.

فكرت بحنين في سماوات الطفولة المفتوحة على وسعها، أيام كانت تذهب إلى مباريات «البُزكشي» مع بابي وتتسوق في «مَندايي» مع مامي، أيام كانت تركض حرة في الشوارع وتتبادل النميمة عن الصبيان مع «جيتي» وحسينة. أيام كانت تجلس مع طارق مفترشين البرسيم على ضفاف غدير في مكان ما، يتبادلان الفوازير والحلوى، ويراقبان الشمس وقت الغروب.

لكن التفكير في طارق كان غدارًا، لأنها، وقبل أن تتمكن من التوقف، كانت تراه راقدًا على فراش، بعيدًا عن الديار، والأنابيب مغروزة في جسده المحترق. ومثل العصارة التي ظلت تحرق حلق ليلى تلك الأيام، كان حزن عميق وكاسح يتصاعد في صدرها. كانت ساقاها تتحولان إلى ماء. وتضطر لأن تتشبث بشيء ما.

قضت ليلى شتاء عام ١٩٩٢ وهي تكنس الدار، تحك جدران غرفة النوم التي تتقاسمها مع رشيد، والتي كانت بلون القرع، وتغسل الملابس بالخارج في «لَجَن» نحاسي كبير. وأحيانًا ترى نفسها وكأنها تحلِّق فوق جسدها نفسه، ترى نفسها تقرفص عند حافة «اللجَن»، كمَّاها مشمَّران حتى المرفقين، ويداها الورديتان تعصران الماء المصبَّن عن أحد ملابس رشيد الداخلية. كانت تشعر بالضياع، تنجرف مع التيار، مثل ناجٍ من سفينة غارقة، لا يرى في الأفق شاطئًا، فقط أميال وأميال من المياه.

وعندما يشتد البرد في الخارج، كانت ليلى تروح وتجيء في الدار. تمشي، تجرجر ظفرًا على الحائط، في الردهة، ثم ترجع، نزولًا على الدرج، ثم صعودًا، وجهها غير مغسول، وشعرها أشعث. تمشي حتى تجد مريم أمامها، فترمقها هذه بنظرة صارمة قبل أن تعود لنزع قلب

حبة فلفل رومي، وفصل الدهن عن اللحم. كان صمت مؤذٍ يخيم على الغرفة، وتكاد ليلى ترى العداوة الصامتة تشع من مريم مثل صهد ينبعث من أسفلت. وحينئذ تنسحب إلى غرفتها، تجلس على الفراش، وتراقب سقوط الثلج.

* * *

ذات يوم، اصطحبها رشيد إلى دكانه لصناعة الأحذية.

عندما يخرجان معًا، يمشي إلى جوارها، إحدى يديه تمسك بمرفقها. بالنسبة إلى ليلى، أصبح الخروج إلى الشارع تمرينًا على تجنب الأذى. كانت عيناها لا تزالان تتكيفان مع إمكانات الرؤية المحدودة، الغربالية، التي يتيحها البرقع، وقدماها لا تزالان تتعثران في ذيل ثوبها. راحت تمشي والخوف يسيطر عليها أن تزلَّ وتقع، أو أن تدوس في نقرة فتكسر كاحلًا. مع ذلك، فقد وجدت بعض الراحة في المجهولية التي يوفرها لها البرقع. بتلك الطريقة لن يتعرف عليها أحد. إذا قابلت أحدًا من معارفها فلن تضطر إلى رؤية الدهشة في عينيه، أو الشفقة أو الفرح، تجاه ما انتهت إليه من سقوط، تجاه ما هوت إليه طموحاتها العالية.

كان دكان رشيد أكبر، وإضاءته أسطع مما تخيلت ليلى. أجلسها خلف طاولة العمل المكدسة، وقد تبعثرت عليها نعال قديمة وبقايا جلود ممزقة. عرض عليها مطارِقه، وأوضح لها طريقة عمل دولاب الصنفرة، وكان صوته رنانًا من فرط الاعتزاز.

تحسس بطنها، لا من فوق القميص، بل من تحته، أنامله باردة وخشنة مثل لحاء الشجر على جلدها المشدود. تذكرت ليلى يدي طارق، ناعمتين

إنما قويتين، الأوردة المتعرجة المنتفخة على ظهرهما، التي طالما اعتبرتها علامة رجولة جذابة.

قال رشيد:

ـ إنها تكبر بسرعة. سيكون صبيًّا. سيكون ابني «بهلوانًا» مثل أبيه.

أنزلت ليلى قميصها. كان الخوف يتملكها عندما يتحدث هكذا.

ـ كيف الأحوال مع مريم؟

قالت إنهما بخير.

ـ عظيم، عظيم.

لم تخبره أنهما خاضا أول شجار حقيقي.

حدث ذلك قبل بضعة أيام. ذهبت ليلى إلى المطبخ ووجدت مريم تشد الأدراج ثم تدفعها لتغلق بقوة. قالت مريم إنها تبحث عن الملعقة الخشبية الطويلة التي تستخدمها في تقليب الأرز.

قالت، وهي تستدير لتواجه ليلى:

ـ أين وضعتِها؟

قالت ليلى:

ـ أنا؟ لم آخذها. أنا نادرًا ما أدخل هنا.

ـ لقد لاحظت.

ـ هل هو اتهام؟ تلك كانت رغبتك، هل تذكرين؟ قلتِ إنكِ ستعدين الوجبات. لكن إذا أردت أن نبدِّل الأدوار...

ـ إذن تقولين إن الملعقة نبتت لها أرجل وخرجت وحدها. «تيب، تيب، تيب، تيب». هل هذا هو ما حدث، يا «ديجه»؟

ـ أنا أقول...

حاولت ليلى السيطرة على أعصابها. عادة كانت تجبر نفسها على امتصاص استهزاء مريم وأصابعها المتهِمة، لكن كاحليها كانا متورمين، ورأسها كانت تؤلمها، وكانت حرقة الفؤاد شديدة ذلك اليوم.

ـ أقول إنك ربما وضعتها في غير موضعها.

ـ في غير موضعها؟

سحبت مريم درجًا. وبالداخل، طقطقت القواطع الخشبية والسكاكين.

ـ كم لك هنا؟ بضعة أشهر؟ لقد عشت في هذا البيت تسعة عشر عامًا يا «دُختَر جو». وقد احتفظت بتلك الملعقة في هذا الدرج منذ كنت تتبرزين في حفاظاتك.

قالت ليلى، وقد صارت على الحافة الآن، وأسنانها تصطك:

ـ مع ذلك، فهناك احتمال أنك وضعتِها في مكان ما ونسيتِ.

ـ وهناك احتمال أنك أنتِ وضعتِها في مكان ما لكي تجننيني.

قالت ليلى:

ـ أنت امرأة حزينة بائسة.

أجفلت مريم، ثم أفاقت، وزمت شفتيها:

ـ وأنت عاهرة. عاهرة و«دُزد». عاهرة لصة، هذا هو أنتِ.

ثم تعالى الصراخ، وارتفعت القدور، وإن لم تُلقَ، وتبادلتا السباب، سبابًا جعل ليلى تحمرُّ خجلًا الآن. ومن وقتها لم تتحدثا معًا. كانت ليلى لا تزال مصدومة كيف فقدت أعصابها بتلك السهولة، لكن الحقيقة أن جزءًا منها أحب الأمر، أحب شعورها وهي تصرخ في مريم، تسبها، شعورها بأن يكون لديها هدف تصب عليه جام غضبها، وحزنها.

وتساءلت ليلى، وكأنما في لحظة استنارة، أليس ذلك هو شعور مريم أيضًا؟

بعدها، صعدت الدرج ركضًا وألقت بنفسها على فراش رشيد. بينما كانت مريم لا تزال تصرخ بالأسفل:

ـ وسَخ على رأسك! وسَخ على رأسك!

استلقت ليلى على الفراش، تتأوه في الوسادة، وقد شعرت فجأة أنها تفتقد والديها، وبقوة كاسحة لم تشعر بها منذ تلك الأيام الفظيعة التي أعقبت الهجوم. رقدت هناك، تقبض على الملاءة، حتى انحبست أنفاسها فجأة. هبت منتصبة في جلستها، وانطلقت يداها إلى بطنها.

لقد رفس الطفل أولى رفساته.

٣٣
مريم

ذات صباح باكر في الربيع التالي، عام ١٩٩٣، وقفت مريم إلى جوار نافذة غرفة النوم تتابع رشيدًا وهو يصحب الفتاة خارجين من المنزل. كانت الفتاة تترنح في مشيها، وقد انحنت بوسطها إلى الأمام، وذراعها مرتخية تحمي طبلة بطنها المشدودة، التي ظهر تكوُّرها من أسفل البرقع. كان رشيد قلقًا ومبالغًا في الحرص، يمسك بمرفقها، ويقودها عبر الباحة مثل شرطي مرور. أومأ لها أن تنتظر مكانها، وهرع إلى البوابة الأمامية، ثم أشار إلى الفتاة أن تتقدم، وهو يسند البوابة بإحدى قدميه ليبقيها مفتوحة. عندما وصلت إليه، تناول يدها، وساعدها على عبور البوابة. وكادت مريم أن تسمع صوته وهو يقول:

ـ حذار، الآن، يا زهرتي، يا «جُل».

عادا في أول المساء.

رأت مريم رشيدًا وهو يدخل الباحة أولًا. دفع البوابة وتركها فور

عبوره، فكادت تصدم الفتاة في وجهها. اجتاز الباحة بخطى قليلة وسريعة. أبصرت مريم ظلًّا على وجهه، ظلمة تبطِّن ضوء الغسق النحاسي. في المنزل، خلع معطفه، وألقى به على الأريكة. وهو يمر بمريم، قال لها بصوت فظ:

ـ أنا جائع. حضري العشاء.

انفتح باب البيت الأمامي. من الردهة، رأت مريم الفتاة، وعلى ذِراعها اليسرى حِملًا ملفوفًا بقماط. كانت إحدى قدميها بالخارج، والأخرى بالداخل، تسند الباب لتمنعه من الانغلاق. كانت منحنية إلى الأمام، تتنهد، وهي تحاول الوصول إلى حقيبة متعلقاتها الورقية التي وضعتها على الأرض لتتمكن من فتح الباب. ووجهها يتلوى من الإجهاد. رفعت رأسها فرأت مريم.

استدارت مريم وذهبت إلى المطبخ كي تسخن عشاء رشيد.

* * *

قال رشيد وهو يدعك عينيه:

ـ كما لو أن شخصًا يغرز مثقابًا في أذني.

كان يقف بباب مريم، عيناه منتفختان، لا يرتدي سوى سروال «تمبان» معقود برباط حول وسطه. شعره الأبيض مبعثر في كل اتجاه.

ـ هذا البكاء لا أحتمله.

بالأسفل، كانت الفتاة تساعد الطفلة على المشي، وتحاول أن تغني لها.

قال رشيد:

ـ لم أنم جيدًا في الليل منذ شهرين. ورائحة الغرفة أشبه ببالوعة. الملابس ملوثة بالخراء في كل مكان. لقد دست على إحداها قبل بضعة أيام.

ابتسمت مريم بشماتة في داخلها.

صرخ رشيد من فوق كتفه:

ـ خذيها إلى الخارج! ألا يمكن أن تأخذيها إلى الخارج؟

انقطع الغناء لبرهة.

ـ ستصاب بالتهاب رئوي.

ـ نحن في الصيف!

ـ ماذا؟

ضغط رشيد على أسنانه ورفع صوته:

ـ أقول إن الجو دافئ بالخارج.

ـ لن آخذها إلى الخارج.

استؤنف الغناء.

ـ أحيانًا، أقسم بالله، تنتابني رغبة أن أضع «تلك الشيء» في صندوق وأتركها تطفو مع تيار نهر كابل. مثل موسى الطفل.

لم تسمعه مريم قطُّ ينادي ابنته بالاسم الذي أسمته لها الفتاة، عزيزة. كانت دائمًا «الطفلة»، أو، عندما يشتد غيظه، «تلك الشيء».

في بعض الليالي، تسمعهما مريم يتشاجران. تسير على أطراف أصابعها

حتى باب غرفتهما، تنصت له وهو يشكو من الطفلة ـ دائمًا الطفلة ـ البكاء الذي لا ينقطع، الروائح، الألعاب التي تجعله يتعثر، كيف شغلت ليلى عنه، باحتياجها الدائم إلى من يرضعها ويُجشئها ويغيِّر لها، ويمشِّيها، ويحملها. أما الفتاة، من جانبها، فتوبخه على التدخين في الغرفة، وعلى رفضه أن تنام الطفلة معهما.

وكانت هناك مشادات أخرى بأصوات خافتة.

ـ الطبيب قال ستة أسابيع.

ـ ليس بعد يا رشيد. لا. اتركني. هيا. لا تفعل ذلك.

ـ لقد مر شهران.

ـ ششش! أرأيت؟ لقد أيقظت الطفلة.

ثم بحدة أكبر:

ـ «خوش شودي»؟ هل أنت سعيد الآن؟

وكانت مريم تتسلل عائدة إلى غرفتها.

الآن، يقول لها رشيد:

ـ ألا تستطيعين المساعدة؟ لا بد أن هناك ما يمكن فعله.

قالت مريم:

ـ وماذا أعرف أنا عن الأطفال؟

ـ رشيد! هل يمكن أن تحضر الرَّضاعة؟ ستجدها على «الماري». إنها لا تريد أن ترضع. سأحاول ثانية بالرضاعة.

وأخذ صراخ الطفلة يعلو ويهبط مثل ساطور يضرب قطعة لحم.

أغمض رشيد عينيه:

ـ إنها أميرة حرب. إنها «حكمتيار». أقول لكِ، لقد ولدت لي ليلى «قلب الدين حكمتيار».

* * *

أخذت مريم تشاهد، بينما كانت دورات الرضاعة، والطبطبة، والهَدهَدة، والمشي بالطفلة، تلتهم أيام الفتاة. حتى عندما تغفو الطفلة، فهناك حفاظات ملوثة يجب دعكها وتركها مغمورة في دلو من المطهر الذي أصرت الفتاة أن يشتريه رشيد. وهناك أظافر يجب تشذيبها بورق الصنفرة، ومآزر وبيجاما ت يجب غسلها وتعليقها لكي تجف. وقد أصبحت تلك الملابس، مثل بقية متعلقات الطفلة، مادة للنزاع.

قال رشيد:

ـ ماذا يعيبها؟

ـ إنها ملابس صبي. ملابس «بَتشه».

ـ وهل تظنين أنها تعرف الفرق؟ لقد دفعت مبلغًا كبيرًا في تلك الملابس. وشيء آخر، أنا لا أحب هذه النبرة. اعتبري هذا تحذيرًا.

كل أسبوع، ومن غير إخلاف، كانت الفتاة تسخن مجمرة معدنية سوداء على النار، وترمي فيها بقبصة من بذور الحرمل البرية، وتترك دخان «الإسباندي» يهفو باتجاه طفلتها ليبعد عنها الشر.

شعرت مريم بالإرهاق وهي تتابع الجهد المحموم الذي تبذله الفتاة،

ولم تستطع أن تمنع نفسها من الإعجاب بها. تعجبت كيف تشرق عينا الفتاة بالحب، حتى عندما تصحو ووجهها متهدل وبشرتها شاحبة بعد ليلة كاملة من المشي بالطفلة. كانت الفتاة تنفجر ضاحكة عندما تخرج الطفلة ريحًا. وكان أي تغير يطرأ على الطفلة، مهما كان ضئيلًا، يدخل عليها السرور، وكل ما تفعله الطفلة تراه مذهلًا.

ـ انظر! إنها تمد يدها إلى «الشخشيخة». كم هي ماهرة!

قال رشيد:

ـ سأتصل بالصحافة.

في كل ليلة، هناك ما يستحق الفرجة. وعندما تلح الفتاة على رشيد كي يرى شيئًا، يرفع ذقنه إلى أعلى ويلقي نظرة جانبية ملول من فوق أنفه المقوس المعرَّق بأوردة زرقاء.

ـ انظر. انظر كيف تضحك عندما أطرقع أصابعي. ها هي. أرأيت؟ هل رأيت؟

يتنهد رشيد، ويعود إلى صحنه. تذكرت مريم كيف كان وجود الفتاة ذاته يغمره بالمشاعر. كل ما تقوله كان يسعده، يثير اهتمامه، يجعله يرفع رأسه عن صحنه ويومئ موافقًا.

الغريب أن فقدانه الاهتمام بالفتاة كان يُفترض أن يسرَّ مريم، أن يشعرها بأن العيب ليس فيها، لكنه لم يشعرها بذلك، بل اندهشت مريم وهي ترى نفسها تشعر بالشفقة على الفتاة.

على العشاء أيضًا، كانت الفتاة تعرب عن تيار متدفق من المخاوف:

أولها الالتهاب الرئوي، الذي تشتبه فيه عند كل سعلة صغيرة. ثم هناك الدوسنتاريا، التي يظهر طيفها مع كل براز ليِّن. كما كان كل طفح جلدي إما جدري أو حصبة.

قال رشيد ذات ليلة:

ـ لا يجب عليك أن تتعلقي لتلك الدرجة.

ـ ماذا تقصد؟

ـ كنت أستمع إلى الراديو تلك الليلة، «صوت أمريكا». سمعت إحصائية مثيرة. قالوا إن طفلًا من بين كل أربعة أطفال في أفغانستان سوف يموت قبل سن الخامسة. هذا ما قالوه الآن، هم ـ ماذا؟ ماذا؟ إلى أين تذهبين؟ ارجعي إلى هنا. ارجعي إلى هنا حالًا!

رمق مريم بنظرة خبيثة:

ـ ماذا جرى لها؟

تلك الليلة، كانت مريم راقدة في فراشها عندما بدأت المشاحنات ثانية. كانت ليلة حارة وجافة، كما هو حال شهر «السرطان» في كابل. فتحت مريم نافذتها، ثم أغلقتها عندما لم يدخل نسيم ليخفف الحر، وإنما بعوض فقط. كانت تحس بالحرارة وهي ترتفع من الأرض بالخارج، عبر الألواح الخشبية المتفلِّقة قمحية اللون لبيت الخلاء في الباحة، صعودًا إلى الجدران، ثم إلى داخل غرفتها.

عادة، تأخذ المشاحنات وقتها وتنتهي بعد بضع دقائق. لكن نصف ساعة مرت والشجار لا يزال دائرًا، بل أخذت حدته تتصاعد. وها هي

مريم تسمع رشيدًا وهو يصرخ، والفتاة ترد عليه بصوتها الحذر الحاد، وسرعان ما بدأت الطفلة في النواح.

ثم سمعت مريم بابهما ينفتح بعنف. في الصباح، سترى أثر أكرة الباب الدائرية على حائط الردهة. كانت تجلس منتصبة في فراشها عندما انفتح باب غرفتها بعنف واندفع رشيد داخلًا.

كان يرتدي سروالًا داخليًّا أبيض وقميصًا داخليًّا باللون نفسه، اصفرَّ إبطيه من العرق، وينتعل شبشبًا، ويمسك بحزام في يده، ذلك الحزام الجلدي البني الذي اشتراه لحفل «النكاح» مع الفتاة، يلفُّ الطرف المثقَّب حول قبضته.

كشر عن أنيابه وقال هو يقترب منها:

ـ أنت السبب. أنا أعرف.

انزلقت مريم خارجة من الفراش وأخذت تتراجع. تصالبت ذراعها غريزيًّا على صدرها حيث يسدد أولى ضرباته غالبًا.

تلعثمت:

ـ عمَّ تتحدث؟

ـ عن هجرها لي. أنت التي تحرضينها على ذلك.

على مر الأعوام، تعلمت مريم أن تتحمل إهانته وتقريعه لها، واستهزاءه بها وتوبيخه إياها، لكنها لم تستطع السيطرة على الخوف. كل تلك السنوات وما زالت ترتعش من الخوف عندما تراه على تلك الحال، مكشِّرًا، والحزام ملفوف على قبضته، طقطقة الجِلد، اللمعة في عينيه

الداميتين. كان خوف عنزة أُطلقت في قفص النمر، وقد رفع النمر الرابض رأسه إليها، وبدأ يهرُّ.

ثم دخلت الفتاة الغرفة، عيناها واسعتان، ووجهها منقبض.

زعق رشيد في مريم:

ـ كان يجب أن أعرف أنكِ أفسدتِها.

هزَّ الحزام، مختبرًا إياه على فخذه. فصلصلت الحلقة المعدنية.

قالت الفتاة:

ـ توقف، «بَسْ»! لا يمكنك فعل ذلك يا رشيد!

ـ ارجعي إلى الغرفة.

تراجعت مريم ثانية.

ـ لا! لا تفعل هذا!

ـ الآن!

رفع رشيد الحزام ثانية، وتلك المرة هجم على مريم.

ثم حدث شيء مذهل: انقضت الفتاة عليه. تعلقت بذراعه بكلتا يديها وحاولت أن تشده إلى أسفل، لكنها ظلت تتدلى منها. مع ذلك فقد نجحت في إبطاء تقدم رشيد نحو مريم.

صرخ رشيد:

ـ اتركيني!

ـ أنت الفائز. أنت الفائز. لا تفعل هذا. أرجوك يا رشيد، من دون ضرب! أرجوك لا تفعل هذا!

تصارعا هكذا، الفتاة معلَّقة به، تتوسل إليه، ورشيد يحاول أن ينفضها عنه، من دون أن تتحول عيناه عن مريم، التي جمدها الذهول فلم تحرك ساكنًا.

في النهاية، عرفت مريم أنه لن يضرب تلك الليلة. لقد أوضح مراده. ظل على حاله لحظات، ذراعه مرفوعة، وصدره يعلو ويهبط، وطبقة رقيقة من العرق تلتمع على جبينه. ببطء، أنزل رشيد ذراعه. لمست قدما الفتاة الأرض لكنها لم تتركه، وكأنما لا تثق به، حتى اضطر إلى أن ينتِش ذراعه ليحررها من قبضتها.

قال، وهو يرمي الحزام فوق كتفه:

ـ عيناي عليكما، عيناي على كليكما. لن تجعلاني أحمق في بيتي.

رمق مريم بنظرة رهيبة، ولكز الفتاة في ظهرها وهو يخرج.

عندما سمعت مريم الباب يغلق، عادت إلى فراشها، ودفنت رأسها تحت الوسادة، وانتظرت أن تنتهي الرجفة.

* * *

استيقظت مريم من نومها ثلاث مرات تلك الليلة: الأولى مع هدير الصواريخ في الغرب، القادم من ناحية كارته جهار. والثانية مع بكاء الطفلة بالطابق السفلي، وصوت الفتاة وهي تهدهدها، وطقطقة الملعقة على زجاجة اللبن. أما المرة الأخيرة، فقد استيقظت بفعل العطش.

بالأسفل، كانت غرفة المعيشة مظلمة، إلا من حزمة من أشعة القمر تنسكب من النافذة. وسمعت مريم طنين ذبابة في مكان ما، وتبينت الحدود الخارجية للموقد الحديدي في الزاوية، وماسورته تنفر لأعلى، ثم تتخذ زاوية حادة قبيل التقائها بالسقف.

في طريقها للمطبخ، كادت مريم أن تتعثر في شيء. ورأت شيئًا عند قدميها. وعندما تكيفت عيناها، تبينت الفتاة وطفلتها راقدتين على الأرضية فوق لحاف.

الفتاة نائمة على جنبها، تغطُّ، والطفلة مستيقظة. أشعلت مريم مصباح الكيروسين على الطاولة وقرفصت جالسة. وعلى ذلك الضوء، حظيت بأول نظرة مقربة للطفلة، هوشة الشعر الداكنة، العينان العسليتان كثيفتا الرموش، الوجنتان الورديتان، والشفتان بلون الرمان الناضج.

وشعرت مريم أن الطفلة بدورها تتفحصها. كانت ممددة على ظهرها، رأسها مائل إلى الجانب، تمعن النظر في مريم بمزيج من الانبساط والحيرة والشك. وتساءلت مريم ما إذا كان وجهها يخيفها، إلا أن الطفلة صرخت بسعادة في تلك اللحظة وعرفت مريم أن حكمًا صدر في صالحها.

همست مريم:

ـ ششش! ستوقظين أمك، مع أنها نصف صماء.

ضمت الطفلة قبضتها. ارتفعت القبضة، سقطت، انتقلت متشنجة إلى فمها. ومن حول الفم المحشو بيدها منحت الطفلة ابتسامة لمريم، وتلألأت على شفتيها فقاعات صغيرة من اللعاب.

ـ انظري إلى نفسك. منظرك بائس وأنت ترتدين ملابس صبي لعين.

وملفَّعة هكذا في هذا الحر. لا عجب، أنك ما زلت مستيقظة.

سحبت مريم البطانية عن الطفلة، وهلعت لرؤية واحدة أخرى تحتها، طقطقت بلسانها، وسحبتها هي الأخرى عنها. قرقرت الطفلة في راحة. ورفرفت بذراعيها مثل طائر.

ـ أفضل هكذا، أليس كذلك؟

حين شرعت مريم تتراجع، أمسكت الطفلة بخنصرها. التفَّت الأصابع الضئيلة وقبضت عليه. كانت دافئة وناعمة ومبللة باللعاب.

قالت الطفلة:

ـ «جونوه»!

ـ «بَسْ»! اتركيها.

لكن الطفلة تشبثت بها، ورفست بساقيها.

حررت مريم إصبعها. ابتسمت الطفلة وأخرجت سلسلة من القرقرات. وعادت قبضتها إلى فمها.

ـ ما الذي يسعدك هكذا؟ هه؟ لماذا تبتسمين؟ أنت لست ذكية مثلما تقول أمك. لديك أب قاس وأم حمقاء. لن تبتسمي كثيرًا لو عرفت. لا، لن تبتسمي. نامي، الآن. هيا.

وقفت مريم على قدميها وسارت بضع خطوات قبل أن تبدأ الطفلة في إصدار أصوات الـ«إيه، إيه، إيه» التي تعرف مريم أنها نذير بانطلاق بكاء حار، فارتدَّت على عقبيها.

ـ ما الأمر؟ ماذا تريدين مني؟

ابتسمت الفتاة ابتسامة هتماء.

تنهدت مريم. جلست وتركتها تقبض على إصبعها، أخذت تنظر إلى الطفلة وهي تزقزق وتثني ساقيها الممتلئتين عند الردفين وترفس الهواء. جلست مريم تراقب الطفلة، حتى كفت عن الحركة وبدأت تغط بنعومة.

بالخارج، كانت عصافير المُحاكي تغرد بمرح، وبين حين وآخر، تنطلق عصافير الشادي طائرة، فتلمح مريم أجنحتها وهي تومض بالأزرق الفسفوري في ضوء القمر المشع عبر السحب. وعلى الرغم من شعور مريم بجفاف في حلقها وتنميل في قدميها، فقد طالت جلستها قبل أن تحرر إصبعها بلطف من قبضة الطفلة وتنهض على قدميها.

٣٤
ليلى

من بين كل المتع الدنيوية، كانت المتعة المفضلة لدى ليلى هي التمدد إلى جانب عزيزة، حيث يكون وجه طفلتها قريبًا حتى يصير بإمكانها مراقبة بؤبؤي عينيها الكبيرين وهما يتسعان ويضيقان. أحبت ليلى المرور بإصبعها على جلد عزيزة الناعم المحبب، على براجم قبضتها وما بينها من نقرات، على طيات الدهن عند مرفقيها. أحيانًا كانت تمدد عزيزة على صدرها وتهمس في تاج رأسها الناعم بأشياء عن طارق، الأب الذي سيظل غريبًا على عزيزة، الذي لن تعرف عزيزة وجهه أبدًا. أخبرتها ليلى عن مهارته في حل الألغاز، عن حيله وشقاوته، وضحكته التلقائية:

ـ لديه أجمل رموش، كثيفة مثل رموشك. ذقن جميل، وأنف صغير، وجبهة مقوسة. آه، كان والدك وسيمًا يا عزيزة. كان كامل الأوصاف. كامل الأوصاف مثلك.

لكنها حرصت على ألا تذكره بالاسم.

أحيانًا كانت تضبط رشيدًا وهو ينظر إلى عزيزة بطريقة شديدة الغرابة. قبل أيام، وهو جالس على أرضية غرفة النوم، ينزع زائدة جلدية عن قدمه، قال بطريقة عابرة:

ـ إذن، كيف كانت الأمور بينكما؟

رمقته ليلى بنظرة حائرة، وكأنها لم تفهم.

ـ ليلى ومجنون. أنت و«اليكلنجا»، الكسيح. ما الذي كان بينكما؟

قالت، حريصة على ألا تتغير نبرة صوتها:

ـ كان صديقي.

شغلت نفسها بإعداد زجاجة حليب، وتابعت:

ـ وأنت تعرف هذا.

ـ أنا لا أعرف ماذا أعرف.

وضع رشيد القصاصات الجلدية على حافة النافذة وارتمى على الفراش. احتجت النوابض بصرير عالٍ. فرج ساقيه، ومد يديه لملتقى فخذيه.

ـ وباعتباركما... صديقين، هل فعلتما أي شيء خارج عن المألوف؟

ـ خارج عن المألوف؟!

ابتسم رشيد بمرح، لكن ليلى شعرت بنظرته، باردة ومدققة.

ـ دعيني أرَ، الآن. طيب، هل قبَّلك؟ ربما وضع يده في مكان لا يخصه؟

أجفلت ليلى في إيماءة أرادت أن تكون ساخطة. وشعرت بقلبها يدق في حلقها:

ـ لقد كان لي مثل الأخ.

ـ إذن، أكان صديقًا أم أخًا.

ـ كلاهما، كان...

ـ أيهما؟

ـ كان كليهما.

ـ لكن الإخوة والأخوات يتمتعون بالفضول. نعم، أحيانًا يسمح الأخ لأخته أن ترى قضيبه، والأخت تسمح لـ...

قالت ليلى:

ـ أنت تثير اشمئزازي!

ـ إذن لم يكن هناك شيء.

ـ لا أريد الاستمرار في هذا الحديث.

مال رشيد برأسه، وزم شفتيه، وأومأ:

ـ تعرفين أن الناس يحبون النميمة. أتذكر أنهما قالوا عنكما كل شيء، لكنك تقولين إن شيئًا لم يحدث.

رمته بنظرة حادة.

ثبّت عينيه أمام نظرتها لوقت ممضٍّ من دون أن يطرف، حتى شحبت قبضتها حول زجاجة الحليب، واضطرت ليلى إلى استخدام كل ما تملكه من بأس كي لا ترتبك.

لكنها ارتعدت لدى التفكير فيما قد يفعله إذا اكتشف أنها تسرقه. كل

أسبوع، منذ ميلاد عزيزة، تفتح محفظته في أثناء نومه أو حين يذهب إلى بيت الخلاء وتأخذ ورقة واحدة. في بعض الأسابيع، حين تكون المحفظة خفيفة، تكتفي بورقة من فئة خمسة أفغاني، أو لا تأخذ شيئًا على الإطلاق، خشية أن يلاحظ. وحين تكون المحفظة مكتظة، تطلق لنفسها العنان فتأخذ ورقة بعشرة أو عشرين، بل غامرت ذات مرة وسحبت ورقتين من فئة العشرين. كانت تخبئ النقود في جيبٍ خاطته في بطانة معطفها الشتوي ذي المربعات الملونة.

تساءلت ماذا سيفعل إذا عرف أنها تخطط للهرب في الربيع القادم. في الصيف القادم على أبعد تقدير. كانت ليلى تأمل أن تصل خبيئتها إلى ألف أفغاني أو أكثر، يخصص نصفها لأجرة الحافلة من كابل إلى بيشاور. عندما يقترب الموعد سوف ترهن دبلتها، وكذا بقية المجوهرات التي أهداها لها رشيد في العام الماضي عندما كانت لا تزال «ملكة» على قصره.

أخيرًا قال، وأصابعه تطبِّل على بطنه:

ـ على أية حال، لا يمكنك لومي. أنا زوج. تلك هي الأشياء التي يسأل عنها الزوج. لكنه محظوظ أنه مات بهذه الطريقة، لأنه لو كان هنا الآن، لو وضعت يدي عليه...

شفط الهواء عبر أسنانه وهز رأسه.

ـ كنت أظنك لا تحب ذكر مساوئ الموتى.

قال:

ـ أظن أن بعض الناس لا يموتون بما فيه الكفاية.

* * *

بعدها بيومين، استيقظت ليلى صباحًا لتجد كومة من ملابس الأطفال، مطوية بعناية، أمام باب غرفة النوم. كان هناك فستان مدوَّر من أسفل خيطت حول صدره أسماك وردية صغيرة، وفستان صوف أزرق عليه أزهار، مع جوارب وقفازات أطفال عليها الرسمة نفسها، وبيجاما صفراء عليها دوائر صغيرة بلون الجزر، وبنطال قطني أخضر بكشكشة منقطة عند الكُم.

تلك الليلة، قال رشيد على العشاء، وهو يلعق شفتيه، من دون أن يلاحظ عزيزة أو البيجاما التي ألبستها ليلى إياها:

- سمعت شائعة تقول إن «دوستم» سيغير تحالفاته وينضم إلى «حكمتيار». ساعتها سينشغل مسعود بمحاربة الاثنين. ولا يجب أن ننسى الهزاره.

تناول قضمة من الباذنجان الذي خلَّلته مريم ذلك الصيف، ثم أشاح بيد مدهَّنة وهو يقول:

- دعونا نأمل أن تكون مجرد شائعة، لأن ذلك لو حدث، ستكون الحرب الحالية مثل نزهة إلى بغمان يوم الجمعة.

لاحقًا، اعتلاها وقضى وطره منها بتعجل ومن دون كلمة واحدة، بملابسه كاملة إلا سروال «التمبان»، الذي لم يُخلع تمامًا وإنما سُحب إلى الكاحلين. عندما انتهى من ارتجاجه المحموم، تدحرج من فوقها وراح في النوم بعد دقائق.

انزلقت ليلى خارجة من الفراش ووجدت مريم في المطبخ تجلس القرفصاء، تنظف سمكتي سالمون مرقط، بجانبها بعض الأرز المغمور بالماء. ومن المطبخ، تفوح رائحة الكمون والدخان، والبصل المحمر والسمك.

جلست ليلى في زاوية وغطت ركبتيها بذيل ثوبها.

قالت:

ـ شكرًا لكِ.

لم يبدُ على مريم أنها لاحظتها. أنهت تقطيع السمكة الأولى وأمسكت بالثانية. بسكين مشرشر قطعت الزعانف، ثم قلبت السمكة، حتى أصبحت بطنها تواجهها، وشقتها بحِرَفية من الذيل إلى الخياشيم. راقبتها ليلى وهي تضع إبهامها في الفم، فوق الفك السفلي مباشرة، وتدفعه بقوة، وبضربة واحدة للداخل، تنزع الخياشيم والأحشاء.

ـ الملابس جميلة.

غمغمت مريم:

ـ ليس لها استخدام عندي.

أسقطت السمكة على جريدة ملطخة بعصير رمادي لزج وقطعت رأسها:

ـ إما ابنتك وإما العثة.

ـ أين تعلمتِ تنظيف السمك هكذا؟

ـ عندما كنت فتاة صغيرة، كنت أعيش إلى جوار غدير. كنت أصطاد السمك بنفسي.

ـ أنا لم أجرب الصيد قطُّ.

ـ ليس صعبًا. أهم ما فيه الانتظار.

راقبتها ليلى وهي تقطع سمكة السالمون منزوعة الأحشاء إلى ثلاث قطع:

ـ هل خطتِ الملابس بنفسك؟

أومأت مريم.

ـ متى؟

شطفت مريم قطع السمك في سلطانية ماء:

ـ عندما كنتُ حُبلى للمرة الأولى، أو ربما الثانية، قبل ثماني عشرة أو تسع عشرة سنة. منذ زمن طويل بأية حال. مثلما قلتُ، لم أستخدمها قطٌّ.

ـ أنت خياطة ماهرة بحق. ربما يمكنكِ أن تعلميني.

وضعت مريم قطع السالمون المشطوفة في سلطانية نظيفة. وبينما يقطر الماء من أناملها، رفعت رأسها ونظرت إلى ليلى، نظرت إليها كما لو للمرة الأولى.

قالت:

ـ تلك الليلة، عندما جاء... لم يقف أحد من قبل ليدافع عني.

عاينت ليلى وجنتي مريم المتهدلتين، وجفنيها المسدَلَيْن في طيَّات مجهَدة، الخطوط الغائرة التي تحيط بفمها ـ رأت تلك الأشياء وكأنها، بدورها، تنظر إليها للمرة الأولى. وللمرة الأولى، لم ترَ ليلى في الوجه الماثل أمامها وجه غريم، بل وجه أحزان مضت بلا شكوى، وجه أعباء حُملت بلا احتجاج، وجه قدر قوبل بالاستسلام والصبر. وتساءلت ليلى: أهكذا يصبح وجهها إن بقيت هنا لعشرين عامًا أخرى؟

قالت ليلى:

ـ لم يسعني أن أتركه. لم أنشأ في بيت يرتكب أهله هذه الأفعال.

ـ هذا البيت هو بيتك الآن. عليك أن تعتادي عليه.

ـ ليس على هذا. لن أعتاد عليه.

قالت مريم، وهي تمسح يديها لتجففهما بمزقة قماش:

ـ سوف ينقلب عليك أنت الأخرى، تعرفين. قريبًا جدًّا. وقد ولدتِ له ابنة. إذن، فإثمك أكبر حتى من إثمي.

نهضت ليلى على قدميها:

ـ أعرف أن الجو بارد بالخارج، لكن ما قولك في أن نتناول نحن الآثمات فنجان شاي في الباحة؟

بدت الدهشة على مريم.

ـ لا أستطيع. ما زال عليَّ أن أقطع الفاصولياء وأغسلها.

ـ سأساعدك على ذلك في الصباح.

ـ وعليَّ أن أنظف الطابق العلوي.

ـ سنفعل ذلك معًا. إذا لم أكن مخطئة، هناك بعض الحلوى المتبقية، ما أجملها مع الشاي.

وضعت مريم مزقة القماش على الرف. واستشعرت ليلى قلقًا في الطريقة التي كانت تفرد بها كُمَّيها، وتعدل من وضع طرحتها، وترجع خصلة شعر إلى مكانها.

ـ يقول الصينيون إن الحرمان من الطعام ثلاثة أيام أفضل من الحرمان من الشاي ليوم واحد.

ابتسمت مريم نصف ابتسامة:

ـ مقولة حكيمة.

ـ هي كذلك.

ـ لكنني لا أستطيع أن أبقى طويلًا.

ـ فنجان واحد.

جلستا على اثنين من الكراسي القابلة للطي بالخارج وتناولتا الحلوى بأصابعهما من سلطانية واحدة. تناولتا فنجانًا آخر، وعندما سألتها ليلى إذا كانت تريد فنجانًا ثالثًا ردت مريم بالإيجاب. وبينما كانت الطلقات النارية تقرقع في التلال، أخذتا تراقبان السحابات وهي تنزلق لتخفي القمر وآخر الحباحب المضيئة في الموسم وهي ترسم في طيرانها أقواسًا صفراء ساطعة في الظلام. وعندما استيقظت عزيزة باكية وزعق رشيد مناديًا ليلى لكي تصعد وتخرسها، تبادلت ليلى ومريم نظرة متفهمة وأريحية. في تلك اللمحة العابرة والصامتة بينها وبين مريم، أدركت ليلى أنهما لم تعودا غريمتين.

٣٥

مريم

منذ تلك الليلة أصبحت مريم وليلى تنجزان الأشغال المنزلية معًا، تجلسان في المطبخ تعجنان العجين، وتقطِّعان البصل الأخضر، وتفرمان الثوم، وتقدمان قطعًا من الخيار إلى عزيزة، التي تجلس بالقرب منهما، تدق بالملاعق وتلعب بالجزر. في الباحة، ترقد عزيزة في مهدها المصنوع من سلة غسيل، ترتدي طبقات من الملابس، ولفاعًا شتويًّا ملفوفًا بإحكام حول عنقها. تراقبها أعين مريم وليلى وهما تغسلان الغسيل وتصطدم قبضاتهما وهما تدعكان القمصان والبنطلونات والحفاظات.

تدريجيًّا، اعتادت مريم على تلك الصحبة التجريبية، واللطيفة في آن. أصبحت تتحمس لفناجين الشاي الثلاثة التي ستشربها مع ليلى في الباحة، والتي أصبحت طقسًا ليليًّا. وفي الصباحات، وجدت مريم نفسها تتطلع إلى صوت شبشب ليلى يدق على الدرج وهي تنزل لتناول الإفطار، إلى رنين ضحكة عزيزة المجلجلة، وإلى منظر أسنانها الثماني الصغيرة، ورائحة الحليب المنبعثة من جلدها. وإن تأخرت ليلى وعزيزة

في الاستيقاظ، لا تقوى مريم على الانتظار، فتشغل نفسها بغسل الصحون التي لا تحتاج غسيلًا، وإعادة ترتيب الوسائد في غرفة المعيشة، ونفض التراب عن حواف الشبابيك النظيفة. تظل تشغل نفسها حتى تدخل ليلى المطبخ، وقد رفعت عزيزة إلى ردفها.

في الصباح، عندما ترى عزيزة مريم، تنفتح عيناها على وسعهما، وتبدأ في المواء والتملص من قبضة والدتها. تمد ذراعيها ناحية مريم، طالبة منها أن تحملها، ويداها الصغيرتان تنفردان وتنطبقان بلهفة، وعلى وجهها نظرة تولُّه ورجفة قلق.

تطلق ليلى سراحها حتى تزحف باتجاه مريم وهي تقول:

- يا له من منظر ذلك الذي تقومين به. يا له من منظر. اهدئي. الخالة مريم لن تذهب لأي مكان. ها هي خالتك. هل ترين؟ هيا، الآن.

وفور أن تصل عزيزة إلى ذراعي مريم، ينطلق إبهامها إلى داخل فمها وتدفن وجهها في رقبة مريم.

تهدهدها مريم بثبات، وعلى شفتيها ابتسامة تجمع بين الارتباك والعرفان. لم تشعر مريم قطُّ أنها مرغوبة بهذا القدر. لم يعلن أحد حبه لها بهذا النقاء، بهذه الأريحية.

كانت عزيزة تجعل مريم ترغب في البكاء.

وكانت مريم تغمغم في شعر عزيزة:

- لماذا تربطين قلبك الصغير بعجوز حيزبون مثلي؟ هه؟ أنا لا أحد. ألا ترين؟ أنا «دِهَتي». ماذا عندي لأعطيكِ؟

لكن عزيزة كانت تهمهم في حبور وتدفن وجهها أكثر. وعندها، تنتشي مريم، تدمع عيناها، ويطير قلبها، وتندهش، كيف أنها بعد كل تلك السنوات من اللف والدوران بلا طائل، وجدت في تلك المخلوقة الصغيرة أول رابطة حقيقية في حياتها المليئة بالروابط الزائفة الفاشلة.

* * *

في أوائل العام التالي، يناير ١٩٩٤، غيَّر «دوستم» تحالفاته بالفعل. انضم إلى «قلب الدين حكمتيار»، وتمركز بالقرب من «بالاحصار»، أسوار القلعة القديمة التي تطل على المدينة من جبل «شير دروازه». معًا، أخذوا يقصفون قوات مسعود ورباني في وزارة الدفاع والقصر الرئاسي. من جانبي نهر كابل، راحوا يطلقون نيران المدفعية بعضهم على بعض. امتلأت الشوارع بالجثث، وشظايا الزجاج، والكتل المعدنية المنبعجة. انتشر النهب والسلب والقتل، وتزايدت وتيرة الاغتصاب، الذي استخدم لترويع المدنيين ومكافأة المقاتلين. سمعت مريم عن نساء يقتلن أنفسهن خوفًا من الاغتصاب، وعن رجال يقتلون، بدعوى الشرف، زوجاتهم أو بناتهم اللاتي اغتصبهن المقاتلون.

صرخت عزيزة لدى سماع دوي قذائف الهاون. ولكي تشتت مريم انتباهها، رصَّت حبات أرز على الأرض، على شكل منزل، وديك، ونجمة، وتركت عزيزة تبعثرها. رسمت أفيالًا لأجل عزيزة كما تعلمت من جليل، بخط واحد، ومن دون أن ترفع سن القلم.

قال رشيد إن المدنيين يُقتلون يوميًا، بالعشرات. المستشفيات والمتاجر التي تحوي إمدادات طبية تتعرض للقصف. قال إن العربات التي تحمل الإمدادات الغذائية الطارئة تُمنع من دخول المدينة، وتتعرض للغارات

وإطلاق النيران. تساءلت مريم إذا كانت هِرات هي الأخرى تشهد قتالًا مثل هذا، وإذا كان الحال كذلك، فكيف يعيش الملا فيض الله، إذا كان على قيد الحياة، و«بيبي جو» أيضًا، مع كل أبنائها، والعرائس، والأحفاد. وجليل، بالطبع، هل يختبئ، كما تختبئ هي؟ أم إنه اصطحب زوجاته وأطفاله وفر من البلاد؟ تمنت أن يكون جليل في مكان آمن، أن يكون قد استطاع الهرب من كل هذا القتل.

لأسبوع، أجبر القتال الجميع على التزام منازلهم. حتى رشيد، أوصد الباب المطل على الباحة، ونصب فخاخًا للدخلاء، وأوصد الباب الأمامي أيضًا وحصَّنه بالأريكة. أخذ يذرع البيت وهو يدخن وينظر من النافذة، ينظف مسدسه، يحشوه ويعيد حشوه. ومرتين، أطلق النار في الشارع زاعمًا أنه رأى شخصًا يحاول تسلق السور.

قال:

ـ «المجاهدين» يجبرون الصبية الصغار على الانضمام إليهم. في ضوء النهار الساطع، وتحت تهديد البنادق، يجرجرون الصبية من الشوارع. وعندما يقبض جنود الميليشيات المعادية على هؤلاء الصبية، يعذبونهم. لقد سمعت أنهم يصعقونهم بالكهرباء ـ هذا ما سمعته ـ أنهم يسحقون خصياتهم بالزرديات. يجعلون الصبية يقودونهم إلى بيوتهم، ثم يقتحمون البيوت، ويقتلون آباءهم، ويغتصبون أخواتهم وأمهاتهم.

لوح بمسدسه فوق رأسه:

ـ فليحاولوا اقتحام بيتي، لكي أسحق أنا خصياتهم، لكي أفجر رؤوسهم.

هل تعرفان كم أنتما محظوظتان لوجود رجل معكما لا يخاف من الشيطان نفسه؟

نظر إلى أسفل ولاحظ عزيزة عند قدميه، فصرخ فيها، وهو يتظاهر بإطلاق الرصاص عليها من مسدسه:

ـ اتركي كاحلي! كفي عن اللحاق بي! ويمكنك أن تكفي عن تدوير رسغيك هكذا، لن أحملك. هيا! هيا قبل أن يُداس عليك.

أجفلت عزيزة. زحفت عائدة إلى مريم، وقد بدا عليها أنها مجروحة ومرتبكة. في حجر مريم، أخذت تمص إبهامها من دون مرح، وتتأمل رشيدًا بوجه عابس. ومن وقت إلى آخر، كانت ترفع رأسها وكأنما تريد من يطمئنها، كما ظنت مريم.

لكن فيما يخص الأب، لم تكن لدى مريم أية طمأنات.

* * *

شعرت مريم بانفراجة عندما تراجع القتال مجددًا، لأسباب أهمها أنهما لم تعودا محبوستين مع رشيد، بطبعه الحاد الذي يعدي البيت بأكمله. وكان قد أرعبها حين لوح بمسدسه المحشو بالقرب من عزيزة.

في أحد أيام ذلك الشتاء، طلبت ليلى أن تضفر شعر مريم.

جلست مريم ساكنة وراقبت أصابع ليلى النحيلة في المرآة وهي تحكم عقد الضفائر، ووجه ليلى تعلوه تكشيرة تركيز. كانت عزيزة نائمة على الأرض، متكورة على نفسها، وقد دست تحت ذراعها دمية خاطتها مريم لها بيديها، حشتها مريم بالفول، وصنعت لها فستانًا

من القماش المصبوغ بالشاي وقلادة من بكرات خيط صغيرة فارغة أدخلت فيها خيطًا.

ثم أخرجت عزيزة ريحًا في نومها، وشرعت ليلى تضحك، وانضمت لها مريم. ضحكتا هكذا، كلٌّ لصورة الأخرى في المرآة، ودمعت أعينهما، وكانت اللحظة طبيعية للغاية، بلا أي جهد، حتى إن مريم شرعت فجأة تحكي لها عن جليل، و«نانا»، والجن. وقفت ليلى ويداها ساكنتان على كتفي مريم، عيناها مثبتتان على وجه مريم في المرآة. أخذت الكلمات تتدفق مثل دم ينبجس من شريان مقطوع. حكت لها مريم عن «بيبي جو»، والملا فيض الله، والرحلة المهينة إلى بيت جليل، وانتحار «نانا». حكت لها عن زوجات جليل، و«النكاح» المتعجل مع رشيد، والرحلة إلى كابل، ومرات حملها، تلك الدورات السرمدية من الأمل والإحباط، وتحوُّل رشيد عنها.

بعدها، جلست ليلى عند قدمي كرسي مريم. وأزالت شاردة نسالة اشتبكت بشعر عزيزة. ثم عم الصمت.

قالت ليلى:

ـ أنا أيضًا عندي ما أقوله لكِ.

* * *

لم تنم مريم تلك الليلة. جلست في الفراش تراقب الثلج يسقط من دون صوت.

كانت فصول قد جاءت وولت، ونُصِّب رؤساء في كابل ثم قُتلوا، هُزمت إمبراطورية، وانتهت حروب قديمة واندلعت أخرى جديدة. لكن

مريم لم تكد تلاحظ شيئًا، لم تكد تهتم. قضت تلك السنوات في ركن قصي من عقلها. حقل جاف أجرد، بعيد عن التمني والحسرة، بعيد عن الحلم والإحباط. هناك، لم يكن المستقبل مهمًّا. ولم يكن الماضي يحمل إلا تلك الحكمة: إن الحب خطأ مدمر، وصنوه الأمل وهمٌ خَؤون. وحيثما تنبت هاتان الزهرتان المسمومتان في أرض هذا الحقل القاحلة، كانت مريم تنزعهما من جذورهما. تنزعهما وتلقي بهما قبل أن يشتد عودهما.

لكن بشكل ما، في تلك الأشهر الأخيرة، صارت ليلى وعزيزة ـ وهي «حرامي» مثلها كما عرفت ـ امتدادًا لها، والآن، باتت الحياة التي احتملتها مريم طويلًا جدًّا غير محتملة من دونهما.

«سنغادر هذا الربيع، أنا وعزيزة. تعالي معنا يا مريم».

لم تكن السنون رفيقة بمريم، لكنها فكرت أن سنوات أخرى أكثر رفقًا ربما تنتظرها. حياة جديدة، حياة تجد فيها النعم التي قالت «نانا» إن «حرامي» مثلها لن تُرزق بها أبدًا. زهرتان جديدتان نبتتا على غير توقع في حياتها. وبينما كانت مريم تراقب الثلج وهو يهطل، تصورت الملا فيض الله وهو يدوِّر حبات سبحاته، وينحني إلى الأمام ويهمس لها بصوته المرتعش الناعم: «لكن الله هو من زرعهما يا مريم جو، ومشيئته أن تعتني بهما. إنها مشيئته يا ابنتي».

٣٦
ليلى

في ذلك الصباح الربيعي من صباحات عام ١٩٩٤، وبينما يغسل ضوء النهار السماء فيقلب ظلمتها بياضًا، كانت ليلى قد تأكدت أن رشيدًا يعرف. أنه، في أية لحظة، سيجرجرها من فراشها ويسألها هل ظنت فعلًا أنه «خَر» لهذه الدرجة، أنه حمار ولن يعرف شيئًا. لكن الأذان ارتفع، وألقت الشمس أشعتها على أسطح البيوت، وراحت الديكة تصيح، ولم يحدث شيء غير مألوف.

كانت تسمعه الآن في الحمَّام، تسمع ضربات شفرته على حافة المغسلة، ثم حركته بالأسفل، وتسخين الشاي، جلجلة المفاتيح. ها هو يجتاز الباحة وهو يدفع دراجته.

اختلست ليلى النظر عبر شق في ستائر غرفة النوم. راقبته وهو ينطلق بعيدًا، رجل كبير على دراجة صغيرة، وشمس الصباح تتوهج على المقود.

ـ ليلى؟

كانت مريم عند الباب. ورأت ليلى أنها لم تنم هي الأخرى. تساءلت إذا كانت مريم أيضًا قد ظلت طوال الليل فريسة لنوبات النشوة وهجمات القلق الذي يجفف الحلق.

قالت ليلى:

ـ سنغادر بعد نصف ساعة.

* * *

في المقعد الخلفي للتاكسي، لم تنطقا بكلمة. جلست عزيزة على حجر مريم، حاضنة دميتها، تحدق مشدوهة في المدينة التي تمر سريعًا من أمامها.

صرخت قائلة، وهي تشير إلى مجموعة من فتيات صغيرات ينططن الحبل:

ـ «أونا»، مريم! «أونا».

أينما نظرت ليلى، كانت ترى رشيدًا. رأته يخرج من محلات حلاقة لها واجهات بلون غبار الفحم، من كبائن صغيرة تبيع طيور الحجل، من متاجر محطمة، مفتوحة الواجهات مكدسة بإطارات قديمة متراكمة من الأرض إلى السقف.

غاصت أكثر في مقعدها.

خلفها، أخذت مريم تتمتم بدعاء، وتمنت ليلى لو رأت وجهها، لكن مريم تضع برقعًا ـ كلتاهما تضع برقعًا ـ فلا ترى سوى لمعة عينيها من وراء الشبكة.

كانت تلك أول مرة تخرج فيها ليلى من المنزل منذ أسابيع، باستثناء الرحلة القصيرة إلى محل الرهونات قبل أيام ـ حيث وضعت دبلتها على

الرف الزجاجي، حيث خرجت مأخوذة بانتهاء العملية، وهي تعرف أن التراجع لم يعد ممكنًا.

الآن، ترى ليلى في كل مكان حولها آثار الاقتتال الأخير الذي سمعت صوته من المنزل. منازل صارت أطلالًا بلا أسقف، من طوب وحجارة مسننة، بنايات مثقوبة تبرز أشعة الشمس من فتحاتها، حطام سيارات متفحمة، مقلوبة، وأحيانًا مكدسة بعضها فوق بعض، جدران مثقوبة بحفر من كل مقاس، زجاج مهشم في كل مكان. رأت جنازة تسير باتجاه جامع، في آخرها امرأة عجوز متشحة بالسواد تشد شعرها. مروا من أمام مقبرة تتناثر فيها قبور ترامت فوقها الحجارة، ورايات «شهيد» البالية ترفرف في النسيم.

مدت نيلى يدها فوق حقيبة السفر، ولفت أصابعها حول ذراع ابنتها الناعمة.

* * *

في محطة حافلات لاهور، قرب «بُل محمود خان» في شرق كابل، كان صف من الحافلات يقف بطول الموقف. رجال معمَّمون مشغولون بتحميل البُقج والسلال فوق أسقف الحافلات، وربط الحقائب بالحبال لتأمينها. داخل المحطة، رجال يقفون في طابور طويل عند شباك التذاكر. نساء مستورات بالبرقع يتحادثن في مجموعات، ومتاعهن مكوم عند أقدامهن، يهدهدن أطفالهن الرضع، وينهرن الأولاد الصغار حين يبتعدون عنهن.

كانت دورية من المجاهدين المسلحين تراقب المحطة والموقف، يزعقون بأوامر جافة هنا وهناك. يرتدون أحذية برقبة، وقبعات «بَكول»، وبدلات أشغال خضراء متربة. وجميعهم يحملون بنادق الكلاشينكوف.

شعرت ليلى أنها مراقبة. لم تنظر إلى أحد في وجهه، لكنها شعرت كما لو أن كل من بالمكان يعرفون، كما لو أنهم ينظرون بعين الرفض لما تفعله هي ومريم.

سألت ليلى:

ـ هل ترين أحدًا؟

نقلت مريم عزيزة على الذراع الأخرى:

ـ ما زلت أبحث.

تعرف ليلى أن تلك هي المخاطرة الأولى، العثور على رجل مناسب يقدم نفسه باعتباره من العائلة. لقد أصبحت الحريات والفرص التي تمتعت بها النساء بين عامي ١٩٧٨ و١٩٩٢ من الماضي ـ ما زالت ليلى تتذكر بابي وهو يصف سنوات الحكم الشيوعي بأنها «زمن مناسب للمرء أن يكون امرأة في أفغانستان يا ليلى». فمنذ استيلاء المجاهدين على السلطة في أبريل ١٩٩٢، تغير اسم أفغانستان إلى «دولة أفغانستان الإسلامية». وأصبحت المحكمة العليا تحت حكم ربَّاني تعج بأولئك الملالي المتشددين الذين أطاحوا بقوانين الحقبة الشيوعية التي مكَّنت النساء، وأصدروا بدلًا منها أحكامًا قائمة على الشريعة الإسلامية تأمر النساء بالاحتجاب، وتحرم عليهن السفر من دون محرم، وتعاقب الزناة بالرجم، وإن ظل التطبيق الفعلي لتلك القوانين متقطعًا في أفضل أحواله. فكما قالت ليلى لمريم من قبل:

ـ كانوا سيتشددون في تطبيقها ما لم ينشغلوا إلى ذلك الحد بقتل بعضهم بعضًا، وقتلنا.

المخاطرة الثانية في تلك الرحلة ستبدأ مع وصولهن إلى باكستان.

إذ أغلقت باكستان، المحملة بأعباء نحو مليوني لاجئ أفغاني، حدودها مع أفغانستان في يناير من تلك السنة. وقد سمعت ليلى أنها لا تسمح بالدخول إلا لحاملي التأشيرات. لكن الحدود مليئة بالثغرات ـ طالما كانت كذلك ـ وليلى تعرف أن آلاف الأفغان ما زالوا يدخلون باكستان إما بالرشوة أو بإثبات حالات إنسانية ـ كما أن هناك دائمًا مهربين يمكن استئجارهم. كانت قد قالت لمريم: «سنجد طريقة عندما نصل إلى هناك».

قالت مريم، وهي تشير بذقنها:

ـ ماذا عنه؟

ـ لا يبدو موضع ثقة.

ـ وهذا؟

ـ سنه أكبر من اللازم، ومعه رجلان آخران.

أخيرًا، وجدته مريم جالسًا بالخارج على مقعد من مقاعد المتنزهات، بصحبة امرأة منتقبة بجانبه وصبي صغير يضع طاقية على رأسه، في عمر عزيزة تقريبًا، ينطط على ركبتيه. كان طويلًا ونحيفًا، ملتحيًا، يرتدي قميصًا مفتوح الياقة ومعطفًا رماديًّا متواضعًا بأزرار مفقودة.

قالت لمريم:

ـ انتظري هنا.

مضت باتجاهه، وهي تسمع مريم تتمتم بالدعاء ثانية.

عندما اقتربت ليلى من الشاب، رفع رأسه، وحمى عينيه من الشمس بإحدى يديه.

ـ اعذرني يا أخي، لكن هل ستذهبون إلى بيشاور؟

قال وهو يضيِّق عينيه:

ـ نعم.

ـ أتساءل إذا كان يمكنك أن تساعدنا. هل يمكن أن تؤدي لنا معروفًا؟

أعطى الصبي لزوجته، وابتعد هو وليلى بضع خطوات:

ـ ما الأمر يا «همشيره»؟

شجعتها عيناه الناعمتان، ووجهه الطيب.

حكت له القصة التي اتفقت عليها مع مريم. قالت إنها «بيوه»، مطلَّقة، ولم يعد لها هي وأمها وابنتها أحد في كابل، وإنهن ذاهبات إلى بيشاور للعيش مع خالها.

قال الشاب:

ـ تريدين السفر مع عائلتي.

ـ أعرف أنني أتطفل عليك، لكن يبدو عليك أنك أخ صالح، وأنا...

ـ لا تقلقي يا «همشيره». أنا أفهم. لا توجد مشكلة. دعيني أذهب وأشترِ التذاكر.

ـ شكرًا يا أخي. إنه معروف أجره عند الله.

أخرجت ظرفًا من جيبها أسفل البرقع وناولته له. كان به ألف ومائة أفغاني، تقريبًا نصف ما ادخرته من نقود على مدار عام ويزيد، إضافة إلى ثمن بيع الدبلة. دس الظرف في جيب بنطاله:

ـ انتظري هنا.

تابعته وهو يدخل المحطة. عاد بعد نصف ساعة.

قال:

ـ الأفضل أن أحتفظ بتذكرتيكما معي. ستتحرك الحافلة بعد ساعة، في الحادية عشرة. سنصعد جميعًا معًا. اسمي وكيل. إذا سألوا ـ وغالبًا لن يسألوا ـ سأقول لهم إنك ابنة عمي.

أخبرته ليلى بأسمائهن، وقال إنه سيتذكرها.

وأضاف:

ـ لا تبتعدا.

جلستا على المقعد المجاور لوكيل وأسرته. كان صباحًا دافئًا مشمسًا، السماء صافية إلا من بضع سحابات خفيفة تحلق بعيدًا فوق التلال. أخذت مريم تطعم عزيزة بعضًا من البسكويت الذي تذكَّرت أن تأخذه معها على تعجُّلهما في حزم المتاع. مدت واحدة لليلى.

ضحكت ليلى:

ـ سأتقيأها. أنا متوترة جدًّا.

ـ وأنا أيضًا.

ـ شكرًا يا مريم.

ـ على ماذا؟

قالت ليلى:

ـ على هذا، على المجيء معنا. لا أظن أنه كان بوسعي السفر وحيدة.

ـ لن تكوني مضطرة.

ـ سنكون على ما يرام، أليس كذلك يا مريم، حيث نذهب؟

انزلقت يد مريم على المفعد وأطبقت على يدها.

ـ يقول الله في كتابه: «وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ».

صرخت عزيزة وهي تشير إلى الحافلة:

ـ «بوف»! مريم «بوف»!

قالت مريم:

ـ أراها يا عزيزة جو. صحيح، «بوف». بعد قليل سنصعد إلى «البوف». آه، يا للأشياء التي سوف ترينها.

ابتسمت ليلى. راقبت النجار في دكانه على الرصيف المقابل وهو ينشر الخشب، ناثرًا شظاياه. راقبت السيارات التي تمر مسرعة أمامهم، نوافذها مغطاة بالسناج والسخام. راقبت الحافلات تزحف ببطء عند الموقف، مرسوم على جانبيها طواويس، وأسود، وشموس مشرقة، وسيوف متلألئة.

في دفء شمس الصباح، شعرت ليلى أنها طائشة وجريئة. أصابتها ومضة صغيرة أخرى من النشوة، وعندما مر كلب شارد بعينين صفراوين يعرج من أمامهن، انحنت ليلى وربتت على ظهره.

قبل الحادية عشرة ببضع دقائق، نادى رجل بمكبر صوت على الركاب

المتجهين إلى بيشاور ليصعدوا إلى الحافلة. انفتحت الأبواب بهسيس عالٍ. واندفع نحوها حشد من المسافرين، يتدافعون ليسبق بعضهم بعضًا وينحشروا صاعدين إلى الحافلة.

أشار وكيل باتجاه ليلى وأمسك بابنه.

قالت ليلى:

ـ لنتحرك.

قادهما وكيل. وعندما اقتربوا من الحافلة، رأت ليلى وجوهًا تظهر في النوافذ، أنوفًا وأكفًّا تضغط على الزجاج. ومن كل مكان حولهم، كانت عبارات الوداع تتعالى.

عند باب الحافلة، أحد المسلحين يفحص التذاكر.

صاحت عزيزة:

ـ «بوف»!

أعطى وكيل التذاكر للجندي، الذي قطعها نصفين وأرجعها له. أفسح وكيل المكان لزوجته كي تصعد أولًا. رأت ليلى نظرة تمرُّ بين وكيل والمسلح. صعد وكيل على درجة السلم الأولى، ثم انحنى وقال شيئًا في أذنه. أومأ المسلح برأسه.

هوى قلب ليلى.

قال الجندي:

ـ أنتما، والطفلة، تنحين جانبًا.

تظاهرت ليلى بأنها لم تسمع. واتجهت لتصعد السلم، لكنه أمسك بكتفها، وشدها بعنف خارج الطابور. ثم صاح بمريم:

ـ وأنت أيضًا. أسرعي! أنت تعطلين الطابور.

قالت ليلى بين شفتيها المنمِّلتين:

ـ ما المشكلة يا أخي؟ معنا تذاكر. ألم يرِها لك ابن عمي؟

أشار إليها بإصبعه أن تصمت، وتحدث بصوت خفيض إلى حارس آخر. أومأ الحارس الآخر، وكان ممتلئ الوجه وعلى خده الأيمن ندبة.

قال لليلى:

ـ اتبعيني.

صرخت ليلى، مدركة أن صوتها يرتجف:

ـ يجب أن نصعد إلى الحافلة. لدينا تذاكر. لماذا تفعل هذا؟

ـ لن تصعدا إلى هذه الحافلة. عليكما أن تقبلا ذلك. ستتبعانني، إلا إذا كنتما تريدان للطفلة الصغيرة أن تراكما ونحن نسحبكما بالقوة.

وهما تُساقان إلى شاحنة، نظرت ليلى من فوق كتفها فرأت ابن وكيل في مؤخرة الحافلة. رآها الطفل بدوره فلوَّح لها بفرح.

* * *

في نقطة شرطة «طره بازخان»، أُمرتا بالجلوس متباعدتين، كل منهما عند أحد طرفي ممر مزدحم طويل، وبينهما مكتب، يجلس خلفه رجل يدخن سيجارة بعد أخرى وينقر من حين إلى آخر على آلة كاتبة. مرت

ثلاث ساعات على هذه الحال. أخذت عزيزة تمشي مترنحة من ليلى إلى مريم، ثم تعود. ثم أخذت تلعب بمشبك ورق أعطاه لها الرجل الجالس خلف المكتب. ثم أتت على البسكويت. وأخيرًا، راحت في النوم في حجر مريم.

حوالي الثالثة، اقتيدت ليلى إلى غرفة تحقيق. وأُمرت مريم بالانتظار مع عزيزة في الممر.

كان الرجل الجالس خلف المكتب في غرفة التحقيق في الثلاثينيات من عمره، يرتدي زيًّا مدنيًّا ـ بدلة سوداء، ربطة عنق، وحذاء أسود ـ له لحية مهذبة، وشعر قصير، وحاجبان يلتقيان معًا. حدق في ليلى، وهو ينقر بممحاة قلم رصاص على المكتب.

شرع يقول:

ـ نحن نعرف...

ثم تنحنح وهو يغطي فمه بقبضته في تهذيب:

ـ إنكِ سبق أن كذبتِ وكذبتِ اليوم يا «همشيره». الشاب في المحطة ليس ابن عمك. لقد قال لنا هذا بنفسه. السؤال الآن هو هل ستلجئين إلى مزيد من الكذب اليوم. شخصيًّا، لا أنصحك بذلك.

قالت ليلى:

ـ كنا ذاهبين لنعيش مع خالي. هذه هي الحقيقة.

أومأ الشرطي برأسه:

ـ «الهمشيره» في الممر. هل هي أمك؟

ـ نعم.

ـ لديها لكنة أبناء هِرات. وأنتِ لا.

ـ لقد نشأت هي في هِرات. أما أنا فولدت هنا في كابل.

ـ طبعًا. وأنت أرملة؟ قلت إنكِ ترمَّلتِ. تعازيَّ. وهذا الخال، هذا «الكاكا»، أين يعيش؟

ـ في بيشاور.

ـ نعم، سبق وقلتِ ذلك.

لعق سن قلمه وقرَّبه من ورقة بيضاء:

ـ لكن أين في بيشاور؟ في أي حي، من فضلك؟ اسم الشارع، رقم القطاع

حاولت ليلى رد فقاعة الذعر التي كانت تتصاعد إلى صدرها. أعطته اسم الشارع الوحيد الذي تعرفه في بيشاور ـ سمعت به ذات مرة، في حفل أقامته مامي عندما دخل «المجاهدين» كابل أول مرة:

ـ طريق جمرود.

ـ آه، نعم. الشارع الذي يقع فيه فندق «بيرل كونتيننتال»، ربما يكون قد ذكره لكِ.

استغلت ليلى الفرصة وقالت إنه ذكره فعلًا:

ـ هو الشارع نفسه، نعم.

ـ لكن الفندق في طريق خيبر.

كان صراخ عزيزة يصل إلى ليلى من الممر.

ـ ابنتي خائفة، هي يمكن أن آتي بها يا أخي؟

ـ أفضِّل «يا حضرة الضابط». ستكونين معها قريبًا. هل لديك رقم هاتف لهذا الخال؟

ـ نعم، كان عندي. أنا...

حتى مع وجود البرقع بينهما، لم تكن ليلى في مأمن من عينيه الثاقبتين:

ـ أنا مضطربة جدًّا، يبدو أنني قد نسيته.

أطلق تنهيدة من أنفه. سأل عن اسم الخال، وعن اسم زوجته، وكم طفلًا لديه، وما أسماؤهم، وأين يعملون، وكم عمره، وقد بلبلت أسئلته ليلى.

وضع قلمه، وشبك أصابعه معًا، وانحنى إلى الأمام مثلما يفعل الأب عندما يريد أن يقول شيئًا لطفل يحبو:

ـ تعرفين يا «همشيره» أن هروب المرأة جريمة. لقد رأينا كثيرًا من تلك الحالات. نساء يسافرن وحدهن، زاعمات أن أزواجهن ماتوا. أحيانًا تكون تلك حقيقة، لكن في معظم الأحيان تكون كذبة. يمكن أن تدخلي السجن لمحاولة الهرب، أظنك تفهمين هذا، أليس كذلك؟

ـ دعنا نذهب يا حضرة الضابط...

قرأت اسمه المشبوك على صدره:

ـ يا حضرة الضابط رحمان. كن اسمًا على مسمى وارحمنا. ما المشكلة أن تخلي سبيل امرأتين؟ ماذا يضيرك أن تطلق سراحنا؟ إننا لسنا من

المجرمين!

ـ لا أستطيع.

ـ أتوسل إليك، أرجوك!

قال رحمان، وهو يضفي على صوته نبرة توحي بالأهمية والخطورة:

ـ إنه القانون يا «همشيره»، إنها مسؤوليتي أن أحافظ على النظام.

على اضطرابها، كادت ليلى أن تضحك. أدهشها استخدامه لتلك الكلمة في وجه كل ما ارتكبته فصائل المجاهدين ـ القتل، النهب، الاغتصاب، التعذيب، الإعدام، القصف بالقنابل، عشرات الآلاف من الصواريخ التي أطلقها بعضهم على بعض، من دون أن يعبأوا بكل الأبرياء الذين يموتون في تبادل إطلاق النار. «النظام». لكنها عضت على لسانها.

وبدلًا من أن تضحك قالت، ببطء:

ـ إذا أرجعتنا، تعرف ما سيفعله بنا.

أدركت الجهد الذي بذله لكي يمنع عينيه أن تتحولا عنها:

ـ ما يفعله الرجل في بيته هو شأنه الخاص.

ـ ماذا عن القانون، إذن، يا حضرة الضابط رحمان؟

كانت دموع الغضب تحرق عينيها:

ـ هل ستكون هناك للمحافظة على «النظام»؟

ـ كسياسة، نحن لا نتدخل في الشؤون العائلية الخاصة يا «همشيره».

ـ بالطبع لا تتدخلون. عندما يكون الأمر في صالح الرجل. ثم أليس هذا «شأن عائلي خاص» كما تقول؟ أليس هو كذلك؟

تراجع بمقعده عن المكتب ووقف، وعدل من سترته:

ـ أعتقد أن المقابلة انتهت. واسمحي لي أن أقول يا «همشيره» إن موقفك ضعيف جدًّا. ضعيف جدًّا بحق. الآن، إذا تفضلت بالانتظار خارجًا فسوف أتبادل بعض الكلمات مع... أيًّا كانت.

شرعت ليلى في الاحتجاج، ثم الصراخ، واضطر للاستعانة برجلين آخرين كي يسحبانها إلى خارج مكتبه.

لم تستمر مقابلة مريم أكثر من بضع دقائق. عندما خرجت، كانت ترتجف. قالت:

ـ لقد سأل أسئلة كثيرة جدًّا. أنا آسفة يا ليلى جو. أنا لست ذكية مثلك. لقد سأل أسئلة كثيرة جدًّا، ولم أعرف الإجابة. أنا آسفة.

قالت ليلى بوهن:

ـ ليس خطأك يا مريم. إنه خطئي. كله خطئي. الخطأ كله يقع عليَّ وحدي!

* * *

كانت الساعة قد تجاوزت السادسة عندما توقفت سيارة الشرطة أمام البيت. أُمرت ليلى ومريم بالانتظار في المقعد الخلفي، تحت حراسة جندي من المجاهدين في المقعد الأمامي. خرج السائق من السيارة، وطرق الباب، وتحدث إلى رشيد. وأشار إليهما كي تتقدما.

قال الرجل في المقعد الأمامي وهو يشعل سيجارة:

ـ أهلًا بكن في منزلكن.

* * *

قال لمريم:

ـ أنتِ، انتظري هنا.

جلست مريم على الأريكة في صمت.

ـ وأنتِ، إلى أعلى.

قبض رشيد على مرفق ليلى ودفعها على السلم. كان لا يزال ينتعل الحذاء الذي ذهب به إلى الشغل، لم يغيره حتى بالشبشب، لم يخلع ساعته، بل لم يخلع معطفه بعد. تصورت ليلى حالته قبل ساعة، أو ربما قبل بضع دقائق، يهرع من غرفة إلى غرفة، يغلق الأبواب بعنف، غاضبًا وقد استولى عليه الشك، يطلق اللعنات همسًا.

عند أعلى السلم، استدارت ليلى إليه.

قالت:

ـ لم تكن تريد أن ترحل. أنا دفعتها لذلك. لم تكن تريد الرحيل...

لم ترَ ليلى اللكمة وهي قادمة. كانت تتحدث، وفي لحظة واحدة وجدت نفسها على أربع، عيناها محدقتان، ووجهها أحمر، تحاول أن تأخذ نفسها. وكأن سيارة صدمتها بأقصى سرعة، في الموقع الحساس بين الحافة السفلى لعظمة الصدر وبين السُّرة. أدركت أنها أسقطت عزيزة،

أن عزيزة تصرخ. حاولت أن تتنفس ثانية فخرج صوت مبحوح مختنق، وسال اللعاب من فمها.

ثم جُرجرت من شعرها. رأت عزيزة مرفوعة، رأت صندلها ينخلع، قدميها الصغيرتين ترفسان. انتُزع شعر من فروة رأس ليلى، ودمعت عيناها من الألم. رأت قدمه تركل باب غرفة مريم فتفتحه، رأت عزيزة تطير وتسقط على الفراش. ترك شعر ليلى، وشعرت بإصبع حذائه يرتطم بردفها الأيسر. صرخت من الألم وهو يغلق الباب بعنف. وصلصل مفتاح في القفل.

كانت عزيزة لا تزال تصرخ. رقدت ليلى مقوسة على الأرض، تشهق. دفعت نفسها على يديها، زحفت إلى حيث ترقد عزيزة على الفراش. مدت يدها إلى ابنتها.

بالأسفل، بدأ الضرب. بالنسبة إلى ليلى، كانت الأصوات التي تسمعها أصوات عملية معتادة منهجية. لم تسمع سبابًا ولا صراخًا ولا توسلات ولا عويلًا مفاجئًا، فقط العملية النظامية لطرف يضرب وآخر يُضرب. «الدق». صوت شيء صلب «يدق» اللحم مرة بعد مرة، شيء، أو شخص، يدق حائطًا بصوت مكتوم، صوت قماش يتمزق. بين حين وآخر، تسمع ليلى وقع أقدام تجري، مطاردة صامتة، قطع أثاث تنقلب، زجاج يتهشم، ثم الدق مجددًا.

أخذت ليلى عزيزة بين ذراعيها، وانتشر دفء من أسفل فستانها عندما ارتخت مثانة عزيزة.

في الطابق السفلي، انتهى الجري والمطاردة أخيرًا. وأصبح الصوت الآن يشبه مطرقة خشبية تضرب قطعة لحم مرة بعد مرة.

هدهدت ليلى عزيزة حتى توقف الصوت، ثم، عندما سمعت حاجز الباب الخارجي ينفتح بصرير عالٍ ثم ينغلق بعنف، أنزلت عزيزة على الأرض واختلست النظر من النافذة. رأت رشيدًا يقتاد مريم عبر الباحة من قفاها. كانت مريم حافية وانقلبت على وجهها. وكان هناك دم على يديه، دم على وجه مريم، على شعرها، على رقبتها وظهرها. وقد تمزق قميصها من الأمام.

صرخت ليلى في الزجاج:

ـ أنا آسفة يا مريم!

راقبته وهو يدفع مريم إلى السقيفة. دخلها، وخرج منها يحمل مطرقة وعدة ألواح خشبية طويلة. أغلق باب السقيفة المزدوج، أخرج مفتاحًا من جيبه، تعامل مع القفل. اختبر الباب، ثم استدار حول السقيفة وجلب سلَّمًا.

بعد بضع دقائق، كان وجهه في نافذة ليلى، والمسامير مدسوسة في زاوية فمه. كان شعره أشعث، وعلى جبينه شريط من الدم. صرخت عزيزة عندما رأته ودفنت وجهها في إبط ليلى.

أخذ رشيد يسد النافذة بالألواح.

* * *

كان الظلام دامسًا، كاملًا وغير قابل للاختراق، ظلام تام بلا طبقات. لقد سد رشيد الشقوق بين الألواح بشيء ما، ووضع شيئًا كبيرًا لا يتزحزح عند أسفل الباب فما عاد الضوء ينفذ من تحته، وحشر شيئًا في ثقب المفتاح.

كان من المستحيل على ليلى أن تعرف الوقت بعينيها، لذا استخدمت

أذنها السليمة. الأذان وصياح الديكة إشارات على الصباح. طقطقة الأطباق في المطبخ بالطابق السفلي، والراديو، إشارات على المساء.

في اليوم الأول، تحسست كل منهما طريقها إلى الأخرى، وتخبطتا في الظلام. ولم تستطع ليلى أن ترى عزيزة عندما كانت تبكي، عندما كانت تحبو.

قالت عزيزة بصوت كالمواء:

- «إيشي»! «إيشي»!

قبَّلت ليلى ابنتها، قاصدة جبينها، لكنها أصابت قمة رأسها:

- قريبًا. سيكون عندنا حليب قريبًا. فقط اصبري. كوني فتاة صغيرة طيبة وصبور من أجل مامي، وسوف أعطيك بعض «الإيشي».

غنت لها ليلى بضع أغاني.

ارتفع الأذان للمرة الثانية من دون أن يعطيهما رشيد أي طعام، والأسوأ، أي ماء. هذا اليوم، نزل عليهما حر كثيف خانق. تحولت الغرفة إلى حلة ضغط. أخذت ليلى تحك شفتيها بلسانها الجاف، وتفكر في البئر بالخارج، في المياه الباردة المنعشة. ظلت عزيزة تبكي، ولاحظت ليلى بقلق أنها عندما تمسح خديها تعود يداها جافتين. خلعت عن عزيزة ملابسها، وحاولت أن تجد شيئًا تهوِّي به عليها، وانتهت إلى النفخ فيها حتى داخت. وبعد قليل، توقفت عزيزة عن الحبو في أرجاء الغرفة. اندست في الفراش ونامت.

لعدة مرات ذلك اليوم، راحت ليلى تضرب الجدران بقبضتيها،

واستنفدت طاقتها في الصراخ طلبًا للنجدة، آملة أن يسمعها أحد الجيران. لكن أحدًا لم يأتِ. وكل ما فعله صراخها هو إخافة عزيزة، فبدأت تبكي ثانية، بصوت متحشرج واهن. رقدت ليلى على الأرض. وشعرت بالذنب وهي تفكر في مريم، مضروبة ودامية، ومحبوسة داخل السقيفة في هذا الحر.

راحت ليلى في النوم عند لحظة ما، جسدها يُشوى في الحر. حلمت أنها وعزيزة صادفتا طارقًا. كانتا في شارع مزدحم وهو يقف على الجانب الآخر، أسفل تندة دكان خِياطة، مقرفصًا عند قفص تين يتذوق منه. وقالت ليلى: «هذا هو أبوكِ. هذا الرجل هناك، هل ترينه؟ هو بابا الحقيقي». نادت على اسمه، لكن صوتها ضاع في صخب الشارع، ولم يسمعها طارق.

استيقظت على أزيز الصواريخ وهي تمرق من فوق البيت. في مكان ما من السماء التي لا تراها، دوت انفجارات مع الطقطقة المحمومة الطويلة لنيران بنادق آلية. أغمضت ليلى عينيها. استيقظت ثانية على وقع خطوات رشيد الثقيلة في الردهة. سحبت نفسها إلى الباب، وضربت عليه بكفيها:

- كوب واحد يا رشيد. ليس لي. افعل ذلك من أجلها. أنت لا تريد دماءها على يديك.

مر من أمام الباب.

أخذت تتوسل إليه. طلبت منه العفو، وعدته. شتمته.

انغلق بابه، وعلا صوت الراديو.

رفع المؤذن الأذان للمرة الثالثة. الحَرُّ مرة أخرى. أصبحت عزيزة أكثر خمولًا. كفت عن البكاء، ولم تعد تتحرك على الإطلاق.

تضع ليلى أذنها على فم عزيزة، تخاف في كل مرة ألا تسمع وشيش أنفاسها الخفيف. محاولة النهوض وحدها كانت تجعل رأسها يدور. راحت في النوم، وراودتها أحلام لم تتذكرها. وعندما استيقظت، اختبرت عزيزة، تحسست التشققات الجافة على شفتيها، النبض الواهن عند رقبتها، ثم رقدت ثانية. ستموتان هنا، كانت ليلى متأكدة من ذلك الآن، لكن ما هالها حقًّا هو أن عزيزة، الصغيرة والهشة، ستموت قبلها. كم ستتحمل عزيزة؟ ستموت عزيزة في هذا الحر، وسيكون على ليلى أن ترقد بجانب جسدها الصغير المتيبس وتنتظر الموت بدورها. راحت في النوم ثانية. استيقظت. راحت في النوم. وتماهى الخط الفاصل بين الحلم واليقظة.

لم تكن الديكة ولا الأذان هو ما أيقظها ثانية وإنما صوت شيء ثقيل يُجرجر. سمعت صليلًا. وفجأة اكتسح النور الغرفة. صرخت عيناها احتجاجًا. رفعت ليلى رأسها، وأجفلت، وحَمَت عينيها بيدها. ومن الفتحات بين أصابعها، رأت ظلًّا كبيرًا مموهًا يقف في مثلث من الضوء. تحرك الظل. وظهرت هيئة تنحني عليها، تنظر إليها من أعلى، ورن صوت في أذنها:

ـ حاولي مرة أخرى وسوف أعثر عليكِ. أقسم بالنبي أنني سأعثر عليك. وعندما أجدك لن تحاسبني أية محكمة في هذا البلد الملعون عما سأفعله، بمريم أولًا، ثم بها، وبك في النهاية. سأجعلك تشاهدين. هل تفهمينني؟ **سأجعلك تشاهدين.**

بتلك الكلمات، غادر الغرفة. لكن ليس قبل أن يفاجئ ليلى برفسة في خاصرتها ستجعلها تتبول دمًا لأيام.

٣٧

مريم

سبتمبر ١٩٩٦

بعدها بسنتين ونصف، استيقظت مريم في صباح ٢٧ سبتمبر على أصوات صراخ وصافرات، ومفرقعات وموسيقى. ركضت إلى غرفة المعيشة، فوجدت ليلى عند النافذة، وعزيزة جالسة على كتفيها. استدارت ليلى وابتسمت.

قالت:

ـ الطالبان هنا.

* * *

سمعت مريم عن الطالبان لأول مرة قبل سنتين، في أكتوبر عام ١٩٩٤، عندما عاد رشيد إلى المنزل حاملًا الأخبار بأنهم أطاحوا بأمراء الحرب في قندهار واستولوا على المدينة. قال إنهم فصيل من الفصائل المتناحرة، مكون من شباب بشتونيين فرَّت عائلاتهم إلى باكستان في أثناء الحرب

ضد السوفييت. وقد نشأ أغلبهم ـ بل ولد بعضهم ـ في مخيمات اللاجئين على الحدود الباكستانية، ودرسوا الشريعة على أيدي الملالي في المدارس الباكستانية. يتزعمهم رجل أعور، زاهد و غامض وأميٌّ، يدعى الملا عمر، أطلق على نفسه لقب أمير المؤمنين، كما قال رشيد لاهيًا:

ـ هؤلاء الصبية بلا «ريشة»، بلا جذور.

لم يكن رشيد يوجه كلامه لا إلى مريم، ولا إلى ليلى. فمنذ محاولة الهروب الفاشلة، قبل سنتين ونصف، أدركت مريم أنها وليلى قد أصبحتا واحدًا بالنسبة إليه، ساقطتين بالقدر نفسه، وبالقدر نفسه تستحقان شكَّه فيهما، واحتقاره وإهماله لهما. عندما كان ينطق كانت مريم تشعر بأنه يتحدث مع نفسه، أو مع طيف غير مرئي في الحجرة يستحق أن يخبره بآرائه، بخلافها هي وليلى.

قال وهو يدخن وينظر إلى السقف:

ـ ربما لا يمتلكون ماضيًا. ربما لا يعرفون شيئًا عن العالم أو عن تاريخ هذا البلد. صحيح. ومريم بالمقارنة معهم أستاذة جامعية. ها! كل هذا صحيح. لكن حين ينظر المرء حوله فماذا يرى؟ زعماء «مجاهدين» فاسدين وطماعين، مدججين بالسلاح، حققوا ثروات من الهيروين، يعلنون الجهاد بعضهم على بعض، ويقتلون كل من يقف بينهم ـ تلك هي الحال. على الأقل الطالبان أنقياء ولن يفسدوا. على الأقل هم فتية مسلمون مهذبون، والله لسوف ينظفون هذا المكان عند وصولهم، لسوف يجلبون معهم السلام والنظام. لن يُقتل بعد أناسٌ خرجوا لشراء اللبن. لا مزيد من الصواريخ! فلنفكر في هذا.

على مدار سنتين، ظل الطالبان يشقون طريقهم باتجاه كابل، يستولون على مدن من المجاهدين، ينهون الحرب بين الفصائل أينما استقروا.

قبضوا على زعيم الهزاره عبد العلي مزاري وأعدموه. لشهور، استقروا في الضواحي الجنوبية لكابل، يطلقون النار على المدينة، يتبادلون الصواريخ مع أحمد شاه مسعود. وفي وقت سابق من شهر سبتمبر ذاك عام ١٩٩٦، كانوا قد استولوا على مدينتي جلال أباد وسروبي.

وبحسب رشيد يملك الطالبان شيئًا لا يملكه «المجاهدين»: الاتحاد.

قال:

ـ دعوهم يأتوا. أنا عن نفسي سأرمي عليهم بتلات الورد.

* * *

خرجوا ذلك اليوم، هم الأربعة، يقودهم رشيد من حافلة إلى أخرى، لاستقبال عالمهم الجديد، قادتهم الجدد. في كل حي مقصوف، وجدت مريم أناسًا يخرجون من بين الأنقاض ويمضون في الشوارع. رأت امرأة عجوزًا تضحي بقبضات من الأرز، ترميها على المارة، وعلى وجهها ابتسامة هتماء مرتخية. رجلين يتعانقان إلى جوار أطلال منزل مهدم، وفي السماء فوقهما تنطلق صافرات وهسيس وفرقعة ألعاب نارية يطلقها صبية من فوق الأسطح. وصدح النشيد الوطني من أجهزة الكاسيت، تصاحبه أبواق السيارات.

ـ انظري يا ميَّم!

أشارت عزيزة إلى صبية يجرون في جاده مَيْوَند. يلوحون بقبضاتهم في الهواء ويجرجرون صفائح صدئة مربوطة بخيوط. يصرخون قائلين إن مسعودًا وربانيًّا انسحبوا من كابل.

وفي كل مكان، يتعالى الهتاف: الله أكبر!

رأت مريم ملاءة سرير مدلاة من نافذة في جاده مَيْوَند، وعليها، رسَمَ شخص ثلاث كلمات بحروف سوداء كبيرة: «زِنْدَه باد طالبان»! يعيش الطالبان!

وهم يمشون في الشوارع، رصدت مريم لافتات أخرى ـ مرسومة على النوافذ، مسمرة على الأبواب، معلقة على هوائيات السيارات، تحمل الشعار نفسه.

* * *

رأت مريم الطالبان لأول مرة لاحقًا في ذاك اليوم، في ميدان بشتونستان، مع رشيد وليلى وعزيزة، حيث تجمع حشد من الناس. رأت مريم أناسًا يشرئبون بأعناقهم، أناسًا يتزاحمون حول الفسقية الزرقاء في منتصف الميدان، أناسًا تسلقوا سطحها الجاف. يحاولون أن يحظوا بإطلالة على طرف الميدان، بالقرب من مطعم خيبر القديم.

استخدم رشيد جِرمه ليدفع ويلكز، واستطاع المرور من بين المتفرجين، وقادهن إلى حيث يتكلم شخص في مكبر صوت.

عندما رأته عزيزة، أطلقت صرخة ودفنت وجهها في برقع أمها.

كان الصوت لشاب ملتحٍ نحيف يعتمر عمامة سوداء. يقف على ما يشبه السقالة. يمسك بيده الحرة قاذفة صواريخ. وإلى جانبه، يتدلى رجلان ملطخان بالدماء من حبلين مربوطين إلى عمودي إشارة مرور، ملابسهما ممزقة، ووجهاهما المنتفخان تحولا إلى الأزرق القرمزي.

قالت مريم:

ـ أنا أعرفه. الرجل على اليسار.

استدارت امرأة أمام مريم وقالت إنه نجيب الله. وكان الرجل الآخر شقيقه. تذكرت مريم وجه نجيب الله المكتنز ذا الشوارب، وهو يشرق من اللوحات الإعلانية وواجهات المتاجر إبان سنوات حكم السوفييت.

ستعرف لاحقًا أن الطالبان جرجروا نجيب الله من ملجئه في مقر الأمم المتحدة بالقرب من قصر دار الأمان. إنهم عذبوه ساعات، ثم ربطوا قدميه إلى شاحنة وسحلوا جثته في الشوارع.

كان الطالبان الشاب يصرخ في مكبر الصوت:

ـ لقد قَتل الكثير والكثير من المسلمين!

كان يتحدث الفارسية بلكنة بشتونية، قبل أن يتحول إلى البشتونية. ولكي يؤكد كلماته راح يشير بسلاحه إلى الجثتين:

ـ جرائمه معروفة للجميع. لقد كان شيوعيًّا كافرًا. وهذا هو ما نفعله بالكفار الذين يرتكبون جرائم ضد الإسلام!

ابتسم رشيد بإعجاب.

وبين ذراعي مريم، شرعت عزيزة في البكاء.

* * *

في اليوم التالي، اجتاحت الشاحنات كابل. في خير خانه، في شهر نو، في كارته بروان، في وزير أكبر خان، وفي تايمني، تدفقت في الشوارع شاحنات «تويوتا» حمراء. يجلس على مقاعدها رجال ملتحون مسلحون يعتمرون عمامات سوداء. ومن كل شاحنة، ينطلق بيان من مكبرات

الصوت، بالفارسية أولًا، ثم بالبشتونية. الرسالة نفسها تُتلى مرة بعد مرة في مكبرات الصوت المعلقة على المآذن، وفي الإذاعة، التي أصبحت تسمى الآن «صوت الشريعة». كذلك طُبعت الرسالة في منشورات، رميت في الشوارع. عثرت مريم على واحد منها في الباحة:

الاسم الجديد لبلادنا هو «إمارة أفغانستان الإسلامية». وتلك هي القوانين التي سوف ننفذها والتي سوف تلتزمون بها:

- يجب على جميع المواطنين أداء الصلوات الخمس في أوقاتها. فإذا حان وقت الصلاة وقُبض عليك تمارس فعلًا آخر، سوف تُضرب.
- يجب على كل الرجال إطلاق اللحى، على ألا يقل طولها عن قبضة مضمومة أسفل الذقن. إذا لم تلتزم بهذا فسوف تُضرب.
- على جميع الصبية وضع العمامات: الصبية من الصف الأول إلى الخامس يضعون عمامات سوداء، والصفوف الأعلى يضعون عمامات بيضاء. وعلى كل الصبية الالتزام بالزي الإسلامي، وإغلاق ياقات القمصان.
- الغناء ممنوع.
- الرقص ممنوع.
- لعب الورق، ولعب الشطرنج، والمقامرة، وتطيير الطائرات الورقية ممنوع.
- كتابة الكتب، ومشاهدة الأفلام، والرسم ممنوع.
- إذا وُجد عندك ببغاوات فسوف تُضرب، وسوف تُقتل الببغاوات.

ـ إذا سرقتَ، فسوف تُقطع يدك من عند الرسغ، وإذا سرقت مجددًا، فسوف تقُطع قدمك.
ـ إذا لم تكن مسلمًا، فلا تتعبد حيث يمكن لأي مسلم أن يراك. وإذا خالفت ذلك فسوف تُضرب وتُسجن. إذا قُبض عليك وأنت تحاول تبشير مسلم بدينك فسوف تُعدم.

انتباه أيتها النساء:

ـ سوف تقررن في بيوتكن في جميع الأوقات، فلا يصح أن تتسكع المرأة في الشوارع بلا هدف. ولا تخرجن إلى الشارع بغير محرم. إذا قُبض عليكِ في أثناء السير وحدك، فسوف تُضربين ثم تُرجعين إلى المنزل.
ـ يُحظر عليكِ، تحت أي ظرف، إظهار وجهك. يجب عليك الاستتار بالبرقع خارج البيت. إذا خالفت ذلك، فسوف تُضربين ضربًا مبرحًا.
ـ مساحيق التجميل ممنوعة.
ـ المجوهرات ممنوعة.
ـ يُحظر عليكِ ارتداء ملابس مثيرة.
ـ يُحظر عليكِ الكلام ما لم تؤمري بذلك.
ـ يُحظر عليكِ النظر في عيون الرجال.
ـ يُحظر عليكِ الضحك علنًا، وإذا خالفت ذلك فسوف تُضربين.
ـ يُحظر عليكِ طلاء الأظافر، وإذا خالفت ذلك تُقطع إحدى أصابعكِ.
ـ ممنوع على الفتيات الذهاب إلى المدرسة. كل مدارس الفتيات ستغلق فورًا.
ـ ممنوع على النساء العمل.

ـ في حال إدانتك بجريمة الزنا، سوف تُرجمين حتى الموت.
اسمعوا وعوا، وأطيعوا. الله أكبر.

* * *

أطفأ رشيد الراديو. كانوا يجلسون على الأرض في غرفة المعيشة، يتناولون العشاء بعد أقل من أسبوع على رؤيتهم لجثة نجيب الله تتدلى من الحبل.

قالت ليلى:

ـ لا يمكنهم إجبار نصف السكان على البقاء في المنزل من دون أن يفعلوا شيئًا.

قال رشيد:

ـ ولمَ لا؟

لأول مرة تتفق مريم معه. الواقع أن هذا ما فعله معها ومع ليلى، أليس كذلك؟ بالتأكيد رأت ليلى ذلك.

ـ نحن لسنا في قرية. إنها كابل. النساء هنا يشتغلن بالقانون والطب، ويشغلن مناصب في الحكومة...

ابتسم رشيد ابتسامة عريضة:

ـ تتحدثين بما يتناسب وفتاة مغرورة كان أبوها جامعيًا قارئًا للشعر. يا له من تحضر، يا لها من «طاجيكية» منك. هل تظنين أن الفكرة التي أتى بها الطالبان جديدة ومتشددة؟ هل سبق وعشتِ خارج قوقعتك

الصغيرة الثمينة في كابل، يا «جُل»، يا زهرتي؟ هل خطر ببالك أن تزوري أفغانستان الحقيقية، الجنوب، الشرق، منطقة القبائل بطول الحدود مع باكستان؟ لا؟ أنا زرتها. وأستطيع أن أقول لك إن هناك أماكن كثيرة في هذا البلد تعيش بتلك الطريقة، أو قريبة جدًّا من ذلك، ولكنك لا تعرفين بالطبع.

قالت ليلى:

ـ أنا لا أصدقهم. لا يمكن أن يكونوا جادين.

قال رشيد:

ـ ما فعله الطالبان بنجيب الله بدا لي جادًّا. ألا توافقين؟

ـ لقد كان شيوعيًّا! كان قائد البوليس السري.

ضحك رشيد.

سمعت مريم الجواب في ضحكته: في عيون الطالبان، كَوْن نجيب الله شيوعيًّا وقائدًا لـ«خاد» الرهيب لا يجعله مدعاة للاحتقار أكثر من المرأة إلا قليلًا.

٣٨
ليلى

عندما بدأ الطالبان العمل، شعرت ليلى بالسعادة لأن بابي ليس حيًّا ليرى ما يجري. كان ذلك سيصيبه بالشلل.

رجال يحملون الفؤوس اجتاحوا متحف كابل المتهالك وحطموا التماثيل التي تعود إلى ما قبل الإسلام ـ تلك التي لم ينهبها «المجاهدين». أُغلقت الجامعة وسُرِّح طلابها. انتُزعت الصور عن الجدران، ومُزقت بالسكاكين. رُكلت شاشات التلفزيون. كُوِّمت الكتب وأُحرقت، باستثناء المصحف، وأُغلقت المتاجر التي تبيعها. تطايرت مع الدخان قصائد خليلي، وبجواك، وأنصاري، وحجّي دهقان، وأشرقي، وبيتاب، وحافظ، وجامي، ونظامي، ورومي، وخيَّام، وبيدل، وغيرهم.

سمعت ليلى عن رجال يُجرجرون من الشوارع، بتهمة تفويت الصلاة، ويُدفعون دفعًا إلى المساجد. عرفت أن مطعم «ماركو بولو»، قرب شارع الدجاج، تحول إلى مركز للاستجواب. أحيانًا كانت الصرخات تُسمع من خلف واجهاته الزجاجية المطلية بالأسود. وفي كل مكان، راحت

دوريات اللحى تتجول في الشوارع في شاحنات «تويوتا» بحثًا عن وجوه حليقة لتدميها.

أغلقوا دور السينما أيضًا. «سينما بارك»، «أريانا»، «أريوب». خُرِّبت غرف العرض وأُحرقت بَكرات الأفلام. تذكرت ليلى كل الأوقات التي قضتها مع طارق جالسَين في تلك السينمات يشاهدان أفلامًا هندية، كل القصص الميلودرامية عن القدر الذي يفرق بين حبيبين، فيهيم أحدهما في بلاد بعيدة، ويُجبر الآخر على الزواج، البكاء، الغناء في حقول الأقحوان، الشوق للقاء. تذكرت كيف كان طارق يضحك عليها حين يراها تبكي في تلك الأفلام.

قالت لها مريم ذات يوم:

ـ ماذا تراهم فعلوا بسينما أبي؟ إن كانت لا تزال قائمة، أو إن كان لا يزال يملكها.

خيم الصمت على خَرَبات، حي الموسيقى القديم في كابل. ضُرب الموسيقيون وسجنوا، وداست الأقدام آلاتهم: الرباب والطمبورة وأرغن الهارمونيوم. وذهب الطالبان إلى قبر أحمد ظاهر، المغني المفضل لدى طارق، وأطلقوا الرصاص بداخله.

قالت ليلى لمريم:

ـ لقد مات قبل نحو عشرين عامًا. أليس الموت مرة واحدة كافيًا؟!

* * *

لم ينزعج رشيد كثيرًا من الطالبان. لم يكن عليه سوى إطالة لحيته، وقد

أطالها، والتردد على الجامع، وهو ما واظب عليه. نظر رشيد إلى الطالبان بنوع من الحيرة المصحوبة بالحب والتسامح، كما ينظر المرء إلى ابن عمٍّ غريب الأطوار ميَّال للمرح ومثير للفضائح.

كل ليلة أربعاء، ينصت رشيد لإذاعة «صوت الشريعة» حين يعلن الطالبان أسماء من سينزل بهم العقاب. ثم، في أيام الجمعة، يذهب إلى استاد غازي، يشتري بيبسي، ويتفرج على العرض. في الفراش، يجعل ليلى تنصت وهو يصف لها بنوع غريب من الإثارة الأيدي التي رآها تُقطع، والجلد، والشنق، وقطع الرؤوس.

قال ذات ليلة، وهو ينفخ هالات من الدخان:

- رأيت اليوم رجلًا يَذبح قاتل شقيقه.

قالت ليلى:

- إنهم متوحشون.

- تعتقدين؟ مقارنة بمَن؟ السوفييت قتلوا مليون إنسان. هل تعرفين كم شخصًا قتل «المجاهدين» في كابل وحدها على مدار السنوات الأربع الأخيرة؟ خمسين ألفًا. خمسين ألفًا! بالمقارنة: هل يُعد قطع أيدي بعض اللصوص عملًا وحشيًّا؟ العين بالعين، والسن بالسن. هذا مذكور في القرآن. ثم قولي لي: لو قَتل شخصٌ عزيزة، ألن ترغبي في الانتقام لها؟

رمته ليلى بنظرة اشمئزاز.

قال:

ـ أنا أضرب لك مثلًا.

ـ أنت مثلهم تمامًا.

ـ كم هو جميل لون عيني عزيزة. ألا تعتقدين؟ لا هو لون عينيكِ، ولا هو لون عينيَّ.

تقلَّب رشيد ليواجهها، وخمش فخذها بلطف بظفر سبابته المقوس.

قال:

ـ دعيني أشرح لكِ. لو تركت نفسي للظنون ـ ولا أقول إن هذا سيحدث، لكنه مجرد احتمال ـ سيكون من حقي أن أصرف عزيزة. ماذا سيكون رأيك حينئذ؟ ويمكنني أيضًا أن أذهب إلى الطالبان يومًا، أدخل عليهم فحسب، وأقول إنني أشك فيكِ. لا يحتاج الأمر أكثر من هذا. في رأيك من سيصدقون؟ في رأيك ماذا سيفعلون بكِ؟

سحبت ليلى فخذها بعيدًا عنه.

قال:

ـ لا أقول إني سأفعل ذلك. لا، هذا لن يحدث، على الأرجح. أنت تعرفينني.

قالت ليلى:

ـ أنت نذل.

قال رشيد:

ـ هذه كلمة كبيرة. لطالما كرهت هذا فيك. حتى عندما كنت صغيرة، عندما كنت تمرحين مع المعوَّق، كنت تظنين نفسك ذكية جدًّا، بكتبك وقصائدك. فماذا أفادك ذكاؤك الآن؟ ما الذي يحميك من الشوارع، ذكاؤك أم ذكائي؟ أنا نذل؟ نصف نساء المدينة على استعداد أن يقتُلن لكي ينلن زوجًا مثلي. سيقتُلن من أجل ذلك.

تقلب ثانية ونفخ الدخان باتجاه السقف:

ـ هل تحبين الكلمات الكبيرة؟ سوف أعطيك واحدة: النظرة الموضوعية. هذا ما أفعله هنا يا ليلى. أتأكد من أنك لا تفقدين النظرة الموضوعية.

ما جعل معدة ليلى تضطرب بقية الليل هو أن كل كلمة تفوه بها رشيد، كل كلمة، كانت صحيحة.

لكن، في الصباح، وعلى مدار عدة صباحات بعدها، استمرت اضطرابات معدتها، ثم ازدادت سوءًا، وأصبحت مألوفة بدرجة مرعبة.

* * *

بعدها بأيام، في عصر يوم بارد ملبد بالغيوم، رقدت ليلى على ظهرها على أرض غرفة النوم. كانت مريم غافية مع عزيزة في غرفتها.

كانت ليلى تمسك بسلك معدني قصمته باستخدام زرَّدية من عجلة دراجة مهجورة وجدتها في الزقاق نفسه حيث قبَّلت طارقًا قبل سنوات. لوقت طويل، ظلت ليلى راقدة على الأرض، تشفط الهواء من بين أسنانها، وساقاها منفرجتان.

لقد وقعت في غرام عزيزة لحظة أحسَّت بوجودها. لم تشعر بشيء

من هذا الشك، هذا اللايقين. فكرت ليلى كم هو فظيع شعور الأم، حين تخاف أن تعجز عن حب طفلها. كم هو شاذ. ومع ذلك أخذت تتساءل، وهي راقدة على الأرض، يداها المتعرقتان مرفوعتان وقابضتان على السلك، إن كان بوسعها حقًّا أن تحب طفل رشيد كما أحبت طفلة طارق.

في النهاية لم تستطع ليلى أن تفعلها.

لم يكن الخوف من النزيف حتى الموت هو ما جعلها تترك السلك، ولا حتى حرمانية الفعل ـ التي كانت تشك فيها. لقد تركت ليلى السلك لأنها لم تستطع قبول منطق المجاهدين: أن الحرب تضطرك أحيانًا لقتل الأبرياء. لقد كانت حربها ضد رشيد، ولا لوم على الطفل. ويكفي كل ما جرى من قتل. لقد رأت ليلى ما يكفي من أبرياء يسقطون في تبادل إطلاق نار بين عدوين.

٣٩

مريم

سبتمبر ١٩٩٧

صاح الحارس:

ـ هذا المستشفى لم يعد يعالج النساء.

كان يقف أعلى السلم، ينظر إلى أسفل ببرود على الحشد المتجمع أمام مستشفى «ملالي».

ارتفع أنين عالٍ من وسط الحشد، وصرخت امرأة تقف خلف مريم:

ـ لكنها مستشفى للنساء.

تعالت صيحات التأييد.

نقلت مريم عزيزة على ذراعها الأخرى. وبذراعها الحرة، سندت ليلى، التي كانت تتأوه، وذراعها مُلقاة حول رقبة رشيد.

قال الطالبان:

ـ لم تعد كذلك.

صرخ رجل بدين:

ـ زوجتي تلد! هل تريدها أن تلد في الشارع يا أخي؟

كانت مريم قد سمعت، في يناير من ذلك العام، الإعلان القائل بأن الكشف على الرجال والنساء سيُجرى في مستشفيات مختلفة، وأن جميع أطقم النساء في مستشفيات كابل ستُسرَّح وترسل للعمل في مستشفى مركزي واحد. ولم يصدق أحد، ولم ينفذ الطالبان تلك السياسة، حتى اللحظة.

صرخ رجل آخر:

ـ ماذا عن مستشفى علي آباد؟

هز الحارس رأسه.

ـ وزير أكبر خان؟

قال:

ـ للرجال فقط.

ـ وماذا يفترض بنا أن نفعل؟

قال الحارس:

ـ اذهبوا إلى «رابعة بلخي».

شقت امرأة شابة طريقها، وقالت إنها كانت هناك، وإنهم ليس لديهم ماء نظيف، ولا أكسجين، ولا أدوية، ولا كهرباء.

ـ لا شيء هناك.

قال الحارس:

ـ هذا هو المكان الذي تذهبون إليه.

تعالى مزيد من الأنين والصراخ، وسباب أو اثنين. وألقى شخص بحجر.

رفع الطالبان بندقية الكلاشينكوف وأطلق سلاسل من الطلقات في الهواء. ولوح طالبان آخر وراءه بسوط.

وتفرق الحشد سريعًا.

* * *

كانت غرفة الانتظار في «رابعة بلخي» تعج بالنساء المستترات بالبراقع وأطفالهن. والهواء معبق برائحة عرق، وأجساد وسخة، برائحة أقدام، وبول، ودخان سجائر، ومطهر. وراح الأطفال يطاردون بعضهم بعضًا تحت مروحة السقف الساكنة، يقفزون فوق السيقان الممددة لآباء غلبهم النعاس.

ساعدت مريم ليلى على الجلوس مستندة إلى حائط تقشر طلاؤه على هيئة بلدان أجنبية. راحت ليلى تهتز إلى الخلف وإلى الأمام، ويداها تضغطان على بطنها.

ـ سأجعلهم يكشفون عليك يا ليلى جو. أعدكِ.

قال رشيد:

ـ أسرعي.

أمام شباك التسجيل وقف حشد من النساء، يتدافعن ويلكز بعضهن بعضًا. بعضهن يحمل أطفالًا. والبعض انفصل عن الحشد واندفع إلى الباب المزدوج الذي يؤدي إلى غرف العلاج، فسدَّ حارس مسلح من الطالبان طريقهن، وأرجعهن إلى الخلف.

ألقت مريم بنفسها في الحشد. قاومت وشقت طريقها بين العظام الناخسة لمرافق نساء غريبات، وأردافهن وأكتافهن. لكزتها إحداهن في ضلوعها، فردت اللكز. قبضت يد يائسة على وجهها، فنفضتها عنها. لكي تدفع مريم نفسها إلى الأمام، تشبثت بالرقاب، بالأذرع، بالمرافق، بالشعور، وعندما صرخت فيها امرأة قريبة، ردت مريم الصراخ.

رأت مريم حينئذ التضحيات التي تبذلها الأم. ولم تكن التضحية بالتهذيب سوى واحدة منها. تحسرت على «نانا»، على التضحيات التي اضطرت لتقديمها هي الأخرى. «نانا»، التي كانت تستطيع أن تتخلى عنها، أن ترمي بها في مصرف مياه ما وتهرب، لكنها لم تفعل، بل تحملت عار الحمل بـ«حرامي»، وأعادت ترتيب حياتها لتتمحور حول مهمة تربية مريم وحبها، على طريقتها الخاصة. تلك المهمة التي لم تجلب لها سوى الجحود والنكران. وفي النهاية، فضلت مريم جليلًا عليها. وبينما راحت مريم تشق طريقها تجاه مقدمة الحشد بعزيمة وقحة، تمنت لو أنها كانت أكثر بِرًّا بـ«نانا»، لو أنها عرفت وقتها عن الأمومة ما باتت تعرفه الآن.

وجدت نفسها وجهًا لوجه مع ممرضة، مغطاة من رأسها إلى أصابع قدميها ببرقع رمادي قذر. كانت الممرضة تتكلم مع امرأة شابة غطاء رأسها مضمخ ببقعة من الدم المتلبد.

زعقت مريم:

ـ ابنتي سال ماؤها والطفل لا يخرج.

صرخت الشابة الملطخة بالدماء:

ـ أنا أتكلم معها. انتظري دورك!

أخذ الحشد بأكمله يتأرجح من جنب إلى جنب، مثل العشب الطويل حول «الكُلبه» عندما كان النسيم يهب في «الوَسَعاية». صرخت امرأة خلف مريم بأن ابنتها سقطت من فوق شجرة وانكسر مرفقها. وصاحت امرأة أخرى أنها تخرج دمًا مع البراز.

سألت الممرضة:

ـ هل عندها حُمى؟

مرت لحظة قبل أن تستوعب مريم أن السؤال موجه إليها، فقالت:

ـ لا.

ـ هل تنزف؟

ـ لا.

ـ أين هي؟

من فوق الرؤوس المحجبة، أشارت مريم إلى حيث تجلس ليلى مع رشيد.

قالت الممرضة:

ـ سنكشف عليها.

صرخت مريم:

ـ متى؟

كان شخص قد قبض على كتفيها وأخذ يشدها إلى الوراء.

قالت الممرضة:

ـ لا أعرف.

قالت إن لديهم طبيبتين فقط، وهما مشغولتان.

قالت مريم:

ـ إنها تتألم.

صرخت المرأة ذات الرأس الدامي:

ـ وأنا أيضًا! انتظري دورك!

كانت مريم تجرجَر إلى الخلف. وسُدَّت الطريق بينها وبين الممرضة بأكتاف وظهور ورؤوس. وشمَّت رائحة حليب في تجشؤ طفل.

زعقت الممرضة:

ـ خذيها تتمشى. وانتظرا.

* * *

كان الظلام قد حل عندما استدعتهما الممرضة أخيرًا. غرفة الولادة تضم ثمانية أسرَّة، عليها نساء تتأوه وتتلوى ترعاهن ممرضات منتقبات.

كانت اثنتان من النساء تلدن بالفعل. لا توجد ستائر بين الأسرَّة. أُعطيت ليلى سريرًا في آخر الغرفة، تحت نافذة مطلية بالأسود. بالقرب منها مغسلة، متشققة وجافة، وفوقها حبل علقت عليه قفازات جراحة متسخة. وفي وسط الغرفة رأت مريم طاولة ألمنيوم، رفُّها العلوي عليه بطانية بلون السخام، ورفُّها السفلي خالٍ.

رأت إحدى النساء مريم تنظر.

قالت متعبة:

ـ يضعون الأحياء على الرف العلوي.

كانت الطبيبة، امرأة صغيرة الجسم ترتدي برقعًا أزرق داكنًا، حركاتها مضطربة وسريعة مثل طائر، كل ما تقوله يبدو عليه التعجل ونفاد الصبر:

ـ الطفل الأول.

قالتها هكذا، ليس كسؤال، وإنما كتقرير.

قالت مريم:

ـ الثاني.

أطلقت ليلى صرخة وتقلبت على جنبها. انقبضت أصابعها على أصابع مريم.

ـ هل واجهتِ مشكلات مع الولادة الأولى؟

ـ لا.

ـ أنت الأم؟

قالت مريم:

ـ نعم.

رفعت الطبيبة النصف الأسفل من برقعها وأخرجت أداة معدنية مخروطية الشكل. رفعت برقع ليلى ووضعت الطرف الواسع من الأداة عَلى بطنها، والطرف الضيق على أذنها هي. أنصتت لنحو دقيقة، حركتها، أنصتت ثانية، حركتها ثانية:

ـ يجب أن ألمس الطفل بيدي الآن يا «همشيره».

وضعت في يدها أحد القفازات المعلقة بمشبك غسيل فوق المغسلة. دفعت بطن ليلى بإحدى يديها وأدخلت الأخرى بداخلها. أطلقت ليلى أنينًا. عندما انتهت الطبيبة، ناولت القفاز لممرضة، فشطفته وعلقته ثانية على الحبل.

ـ ابنتك تحتاج إلى ولادة قيصرية. هل تعرفين معنى هذا؟ علينا أن نفتح رحمها ونخرج منه الطفل، لأنه في وضع النزول بالمقعدة.

قالت مريم:

ـ لا أفهم.

قالت الطبيبة إن الطفل في وضع يمنعه من النزول الطبيعي:

ـ وقد مر وقت طويل. علينا أن ندخل غرفة العمليات الآن.

أومأت ليلى بوجه منقبض، وسقط رأسها على الجانب.

قالت الطبيبة:

ـ هناك شيء يجب أن أخبرك به.

اقتربت من مريم، وانحنت عليها، وتحدثت بنبرة خفيضة كأنها تقول سرًّا، وقد بدا الإحراج في صوتها.

تأوهت ليلى قائلة:

ـ ماذا تقول؟ هل حدث شيء للطفل؟

قالت مريم:

ـ لكن كيف ستتحمل ذلك؟

لا بد أن الطبيبة أحست باتهام في هذا السؤال، وهو ما تبدى في نبرة صوتها الدفاعية.

قالت:

ـ هل تظنين أنني أحب القيام بهذا الأمر؟ ماذا تريدينني أن أفعل؟ إنهم لا يعطونني ما أحتاجه. ليس لديَّ أشعة سينية أيضًا، ولا شفط، ولا أكسجين، ولا حتى المضادات الحيوية البسيطة. وعندما تقدم المنظمات غير الحكومية أموالًا، يردها الطالبان، أو يحولون الأموال إلى الأماكن التي تخدم الرجال.

سألت مريم:

ـ ولكن، يا «دكتورة صاحب»، ألا يمكن أن تعطيها شيئًا؟

زمجرت ليلى:

ـ ما الذي يحدث؟

ـ يمكنك شراء الدواء بنفسك، ولكن...

قالت مريم:

ـ اكتبي اسمه. اكتبيه وسوف آتي به.

أسفل البرقع، هزت الطبيبة رأسها بحدة، وقالت:

ـ ليس لدينا وقت. فأولًا، لن تجديه في أي من الصيدليات القريبة. وهكذا سيكون عليك التنقل في الشوارع من مكان إلى آخر، وربما تلفين البلدة بأكملها، مع احتمال ضئيل أن تعثري عليه. الساعة الآن الثامنة والنصف تقريبًا، ما يعني أنك ستُعرضين نفسك للاعتقال لخرق حظر التجوال. وحتى لو عثرت على العلاج، فالأغلب أنك لن تستطيعي دفع ثمنه، أو ستجدين نفسك في مزايدة شرسة مع شخص آخر يحتاج إليه بالقدر نفسه. ليس لدينا وقت. يجب أن يخرج هذا الطفل الآن.

قالت ليلى:

ـ أخبراني ما الذي يحدث!

كانت قد دفعت نفسها متكئة على مرفقيها.

أخذت الطبيبة نفسًا، ثم قالت لليلى إن المستشفى ليس لديها مخدر:

ـ لكن إذا تأخرنا، ستفقدين طفلك.

قالت ليلى:

ـ إذن افتحي بطني.

رمت بظهرها على السرير وسحبت ركبتيها لأعلى.

ـ افتحي بطني وأعطيني طفلي.

* * *

داخل غرفة العمليات القديمة القذرة، رقدت ليلى على سرير بعجلات بينما أخذت الطبيبة تفرك يديها في المغسلة. كانت ليلى ترتعش. وراحت تسحب الهواء من بين أسنانها في كل مرة تمسح فيها الممرضة بطنها بقماشة مضمخة بسائل أصفر بُني. ووقفت ممرضة أخرى عند الباب، تفتحه من حين إلى آخر وتختلس النظر إلى الخارج.

كانت الطبيبة قد كشفت وجهها، ورأت مريم أن لديها خصلة من الشعر الفضي، وعينين بجفنين ثقيلين، وجيوب صغيرة من أثر الإرهاق على زاويتي فمها.

شرحت الطبيبة، وهي تشير برأسها إلى 'لممرضة عند الباب:

ـ يريدوننا أن نقوم بالجراحة ونَحن بالبرقع. لذلك تراقب الطريق، فإذا رأتهم قادمين، أغطي وجهي.

قالتها بنبرة براجماتية، غير مبالية تقريبًا، وفهمت مريم أن أمامها امرأة قد تجاوزت الغضب بمراحل. ها هي امرأة أدركت أنها محظوظة لأنها تعمل من الأساس، أدركت أن لديها شيئًا، شيئًا آخر، يمكنهم أن يسلبوها إياه.

كان هناك قضيبان معدنيان رأسيانٰ على جانبي كتفي ليلى. علقت بينهما الممرضة، التي طهرت بطن ليلى، ملاءة بمشبك غسيل، مشكِّلة ستارة بين ليلى والطبيبة.

وقفت مريم خلف رأس ليلى وخفضت وجهها حتى تلامس خداهما. شعرت بأسنان ليلى تصطك. وتشابكت أيديهما.

عبر الستارة، رأت مريم ظل الطبيبة يتحرك إلى يسار ليلى، والممرضة إلى اليمين. شدت ليلى شفتيها بقوة إلى الخلف. وتشكلت فقاعات من اللعاب وفرقعت على سطح أسنانها المضغوطة. وخرجت منها هسهسات صغيرة وسريعة.

قالت الطبيبة:

ـ تماسكي، يا أختي الصغيرة.

انحنت على ليلى.

انفتحت عينا ليلى على وسعهما، ثم انفتح فمها. تماسكت هكذا، تماسكت، تماسكت، ترتعش، أوتار رقبتها مشدودة، العرق يتصبب من وجهها، أصابعها تسحق أصابع مريم.

وسوف تظل مريم تجلُّ ليلى، على الوقت الذي تحملته قبل أن تصرخ.

٤٠
ليلى
خريف ١٩٩٩

كانت فكرة مريم أن تحفرا حفرة. ذات صباح، أشارت إلى قطعة أرض خلف السقيفة، وقالت:

ـ يمكن أن نحفر هنا. هذه بقعة جيدة.

تبادلتا الأدوار في ضرب الأرض بالجاروف، ثم إزاحة الأتربة جانبًا. لم تخططا لحفرة كبيرة، أو عميقة، وهكذا لم تعتقدا أن عملية الحفر ستكون مرهقة كما اتضح. كان القحط، الذي بدأ عام ١٩٩٨، وهو الآن في عامه الثاني، يضرب كل مكان. ثلوج قليلة سقطت الشتاء الماضي، ومر الربيع كله بلا أمطار. وفي جميع أنحاء البلاد، راح المزارعون يهجرون أراضيهم الجرداء، يبيعون أمتعتهم، ويهيمون من قرية إلى أخرى بحثًا عن الماء. انتقلوا إلى باكستان وإيران. استقروا في كابل. لكن المياه الجوفية كانت منخفضة في المدينة أيضًا، والآبار الضحلة جفت. كانت الطوابير عند الآبار

العميقة طويلة جدًّا، حيث تقضي ليلى ومريم ساعات في انتظار دوريهما. ومن دون فيضانات الربيع السنوية، جفَّ نهر كابل وتيبس، وصار دورة مياه عمومية، لا شيء فيها إلا فضلات الناس والأنقاض.

وهكذا، ظلتا ترفعان الجاروف وتضربان، لكن الأرض التي أيبستها الشمس تصلبت مثل صخرة، وقسا التراب، وانضغط، حتى كاد يتحجر.

كانت مريم في الأربعين حينئذ. غزت شعرها، الملفوف فوق وجهها، بضعة خطوط رمادية. وتهدلت الجيوب أسفل عينيها، فصارت بُنية وهلالية الشكل. فقدت سنين أماميتين: إحداهما سقطت، والثانية كسرها رشيد عندما وقع منها «زلماي» بالخطأ. اخشوشن جلدها، واسمرَّ من طول بقائهما في الباحة جالستين تحت الشمس القاسية. كانتا تجلسان وتراقبان «زلماي» وهو يطارد عزيزة.

عندما انتهى الأمر، عندما حُفرت الحفرة، وقفتا فوقها ونظرتا إلى أسفل.

قالت مريم:

ـ المفترض أن يفي هذا بالغرض.

* * *

كان «زلماي» في الثانية من عمره حينئذ. طفل صغير مكتنز بشعر مموج، له عينان بُنيتان صغيرتان، وخدان ورديان، مثل رشيد، بصرف النظر عن الطقس. ورث عن أبيه جبينه أيضًا، خطه العلوي سميك وعلى شكل نصف قمر، نازلٌ على جبهته.

عندما تكون ليلى وحدها مع «زلماي»، يكون حلوًا، حسن الطباع،

ومرحًا. يحب تسلق كتفي ليلى، ولعب «الاستغماية» في الباحة معها ومع عزيزة. أحيانًا، في اللحظات الأكثر هدوءًا، يحب الجلوس على حجر ليلى لتغني له. أغنيته المفضلة هي «الملا محمد جان». كان يؤرجح قدميه الصغيرتين الممتلئتين وهي تغني في شعره المتموج، وينضم إليها عندما تصل إلى اللازمة، فيغني ما استطاع من الكلمات بصوته المبحوح:

هيا معي إلى مزار

يا ملا محمد جان

لنرى أجمل الأزهار

في حقول الزنبق

أحبت ليلى القبلات الرطبة التي يطبعها «زلماي» على خديها، أحبت مرفقيه وغمازتيهما وأصابع قدميه الصغيرة الممتلئة. أحبت أن تدغدغه، أن تبني له أنفاقًا بالمساند والوسادات كي يزحف بداخلها، أن تراقبه وهو يغفو بين ذراعيها ويده تمسك بأذنها دائمًا. كانت معدتها تنقلب عندما تفكر في عصر ذاك اليوم، وهي راقدة على الأرض ممسكة بسلك عجلة الدراجة بين ساقيها. كم كانت قريبة. الآن، لم تعد تصدق أن تلك الفكرة راودتها من الأصل. إن طفلها نعمة، وارتاحت ليلى عندما اتضح لها أن مخاوفها كانت بلا أساس، أنها تحب «زلماي» من أعمق أعماقها، تمامًا مثلما تحب عزيزة.

لكن «زلماي» كان يعشق والده، وعليه، كان يتحول عندما يكون والده قريبًا منه ليظهر شغفه به. فيروح يضحك بتحدٍّ أو يبتسم بصفاقة. في وجود والده، يتعكر مزاجه لأقل سبب. يبدو ناقمًا. يصر على الشقاوة حتى مع تعنيف ليلى له، وهو ما لا يفعله أبدًا في غير وجود رشيد.

وكان رشيد يشجعه على هذا، ويقول:

ـ تلك علامة على الذكاء.

قال الشيء نفسه عن تهور «زلماي» ـ عندما ابتلع «بلية» ثم تبرزها، وعندما أشعل ثقابًا، وعندما مضغ إحدى سجائر رشيد.

عندما ولد «زلماي»، نقله رشيد إلى الغرفة التي يتقاسمها مع ليلى. اشترى له مهدًا جديدًا رُسمت على جانبيه أسود ونمور رابضة. دفع من ماله لشراء ملابس جديدة، وجلاجل جديدة، ورضَّاعات جديدة، وحفاظات جديدة، غير عابئ بالتكلفة، ولا بكون حاجيات عزيزة لا تزال صالحة للاستعمال. ذات يوم، عاد إلى المنزل بلعبة تعمل بالبطاريات، علقها فوق مهد «زلماي». زهرة دوار الشمس تتدلى منها نحلات طنانة صغيرة صفراء وسوداء، تنكمش وتزقزق عند الضغط عليها. وعند تشغيلها يعلو لحن موسيقي.

قالت ليلى:

ـ ظننتك قلت إن عملك ليس على ما يرام.

قال لينهي الموضوع:

ـ لديَّ أصدقاء أستطيع الاقتراض منهم.

ـ وكيف سترد القرض؟

ـ سوف تتغير الأمور. هذا ما يحدث دائمًا. انظري، إنه يحبه. هل ترين؟

في معظم الأيام، كانت ليلى تُحرم من ابنها. يصطحبه رشيد إلى الدكان، ويتركه يزحف تحت طاولات عمله المزدحمة، ويلعب بالنعال المطاطية

القديمة ومزق الجلد الاحتياطية. يدق رشيد مساميره الحديدية ويدير عجلة الصنفرة، من دون أن تغفل عنه عيناه. إذا أسقط «زلماي» رفًّا من الأحذية، يعنفه رشيد بلطف، بصوت هادئ نصف باسم. وإذا فعلها مجددًا، يضع رشيد مطرقته، ويجلس على المكتب، ويتحدث إليه برقة.

كان صبره مع «زلماي» أشبه ببئر عميقة لا تجف أبدًا.

كانا يعودان إلى المنزل معًا في المساء، رأس «زلماي» ينط على كتف رشيد، تفوح من كليهما رائحة الصمغ والجلد. يبتسمان مثل صديقين يتشاركان أسرارًا، بمكر، وكأنهما جلسا في دكان الأحذية المعتم ذلك طيلة النهار لا لصناعة الأحذية وإنما لتدبير المؤامرات. كان «زلماي» يحب الجلوس إلى جوار والده على العشاء، حيث يلعبان ألعابًا خاصة، بينما تضع مريم وليلى وعزيزة الأطباق على «السفرة». ينخز أحدهما الآخر في الصدر، ويقهقهان، ويتراشقان بلباب الخبز، ويهمسان بأشياء لا يستطيع الآخرون سماعها. وإذا تحدثت ليلى إليهما، يرفع رشيد رأسه بانزعاج لهذا التدخل غير المرحب به. وإذا طلبت أن تحمل «زلماي»، أو، الأسوأ، إذا مد «زلماي» يديه ناحيتها، كان رشيد يعبس في وجهها.

وتمضي ليلى بعيدًا وهي تشعر بوخزة ألم.

* * *

ثم ذات ليلة، بعدما أتم «زلماي» عامه الثاني بأسابيع قليلة، عاد رشيد إلى المنزل بجهاز تلفزيون وفيديو. كان النهار دافئًا، ومعتدلًا، لكن المساء كان ألطف وهو يتكثف إلى ليل بارد خالٍ من النجوم.

وضعه على طاولة غرفة المعيشة. قال إنه اشتراه من السوق السوداء.

سألت ليلى:

ـ قرض آخر؟

ـ إنه «ماجنافوكس».

دخلت عزيزة الغرفة. عندما رأت التلفزيون ركضت باتجاهه.

قالت مريم:

ـ حذار يا عزيزة جو، لا تلمسيه.

صار شعر عزيزة فاتحًا مثل شعر ليلى. وكانت ليلى ترى غمازتيها على خدي ابنتها. تحولت عزيزة إلى فتاة صغيرة هادئة ومتأملة، وبدت لليلى أكبر من سنواتها الست. تعجبت ليلى من طريقة نطق ابنتها، رنة الصوت والإيقاع، الوقفات التأملية والترنيم، فتاة بالغة، لا علاقة لها بالجسد غير الناضج الذي يخرج منه الصوت. كانت عزيزة هي التي عهدت إلى نفسها، بسُلطة طفولية، بمهمة إيقاظ «زلماي» يوميًّا، وإلباسه، وإطعامه طعام الفطور، وتمشيط شعره. كانت هي من يضعه في الفراش ليغفو، من يهدئ من طبعه ويواجه أمزجته المتقلبة في رباطة جأش. في وجوده، كانت عزيزة تهز رأسها بحنق، كما البالغين.

ضغطت عزيزة زر التشغيل في التلفزيون، فتجهَّم رشيد، وشدَّ رسغها ووضعه على الطاولة، بلا أي قدر من الرقة.

قال:

ـ هذا تلفزيون «زلماي».

عادت عزيزة إلى مريم وتسلقت إلى حجرها. لقد أصبحتا لا تفترقان. ومؤخرًا، بمباركة من ليلى، شرعت مريم في تعليم عزيزة آيات من القرآن. وأصبحت عزيزة تستطيع تسميع سورة الإخلاص، وسورة الفاتحة، وأداء ركعتي الصبح.

كانت مريم قد قالت لليلى: «هذا كل ما لديَّ لأعطيه لها. تلك الآيات. إنها الشيء الوحيد الذي أملكه حقًّا».

دخل «زلماي» إلى الغرفة. وبينما كان رشيد ينظر مترقبًا، كما ينتظر الناس الخدع البسيطة من سحرة الشوارع، سحب «زلماي» سلك التلفزيون، وضغط الأزرار، وضغط بكفيه على الشاشة الخالية. عندما رفعهما، خبا أثرهما الصغير عن الزجاج. ابتسم رشيد فخرًا، وراح يراقب «زلماي» وهو يضغط بكفيه ويرفعهما، مرة بعد مرة.

منع الطالبان التلفزيون. واقتُلعت أشرطة الفيديو علنًا، ومُزقت الأشرطة وعُلقت على قضبان الأسوار، وتدلت أطباق الأقمار الصناعية من أعمدة الإنارة، لكن رشيدًا قال إن منعها لا يعني أنك لن تجدها.

قال:

ـ سأبدأ البحث عن بعض أفلام الرسوم المتحركة غدًا. لن يكون الأمر صعبًا. بإمكانك شراء أي شيء من الأسواق السوداء.

قالت ليلى:

ـ إذن، ربما تشتري لنا بئرًا جديدة.

وكان جزاؤها نظرة احتقار.

لاحقًا، بعد تناول عشاء آخر من الأرز السادة والتنازل عن الشاي مجددًا بسبب الجفاف، وبعد أن دخن رشيد سيجارة، أخبر ليلى بقراره.

قالت ليلى:

ـ لا.

قال إنه لا يسأل.

ـ لا يهمني إن كنت تسأل أم لا.

ـ سوف تهتمين إذا عرفت القصة بأكملها.

قال إنه قد اقترض من أصدقاء أكثر مما كشف عنه، وإن دخل الدكان وحده لم يعد يكفي لإعاشتهم هم الخمسة:

ـ لم أقل لكِ في وقت سابق حتى لا أقلقكِ.

وأضاف:

ـ ثم إنك ستدهشين حين تعرفين المبالغ التي يتحصلون عليها.

لم تنطق ليلى. كانا في غرفة المعيشة، وكانت مريم والطفلان في المطبخ. كانت ليلى تسمع طقطقة الأطباق، وضحكة «زلماي» الحادة، وعزيزة تقول شيئًا لمريم بصوت عاقل متزن.

قال رشيد:

ـ سيكون هناك آخرون مثلها، بل أصغر. كل من في كابل يفعلون الشيء نفسه.

قالت له ليلى إنها لا تهتم بما يفعله الآخرون بأطفالهم.

تابع رشيد، وقد أصبح أقل صبرًا:

- سأراقبها جيدًا. إنه مكان آمن. هناك جامع على الجهة المقابلة من الشارع.

ردت ليلى بعنف:

- لن أسمح لك بتحويل ابنتي إلى شحاذة في الشوارع.

أصدرت الصفعة فرقعة عالية حين لطمت كفه ذات الأصابع السميكة لحم خد ليلى. جعل رأسها يدور. أسكت الضوضاء في المطبخ. للحظة، خيم الصمت على البيت. ثم هرعت أقدام عجولة في الردهة قبل أن تظهر مريم والطفلان في غرفة المعيشة، عيونهم تتنقل بينها وبين رشيد.

ثم لكمته ليلى.

كانت أول مرة تلكم أي إنسان، باستثناء اللكمات المرحة التي كانت تتبادلها مع طارق. لكن تلك كانت مفتوحة القبضات، أشبه بتربيتات منها بلكمات، ضربات ودود، تعبيرات هادئة عن هواجس محيِّرة ومثيرة في آن. تكيلها إلى عضلة كان يسميها طارق، بصوت محترف: العضلة الدالية.

رأت ليلى قوس قبضتها المضمومة، يشق الهواء، شعرت بجلد رشيد الخشن المشعر المجعد تحت أصابعها المضمومة. أصدرت الضربة صوتًا أشبه بكيس أرز يسقط على الأرز. ضربة قوية، جعلته يتراجع خطوتين إلى الوراء.

من الجانب الآخر من الغرفة، علت شهقة، وعواء، وصرخة. لم تعرف ليلى مَن أصدر أي صوت. في تلك اللحظة، كانت أكثر ذهولًا من أن

تلاحظ أو تهتم، كانت تنتظر أن يلحق عقلها بما فعلته يدها. وعندما حدث ذلك، ظنت أنها ابتسمت. ظنت أن فمها افتر عن ابتسامة عريضة عندما، لدهشتها، خرج رشيد بهدوء من الغرفة.

فجأة، بدا لليلى أن جميع متاعب حياتهن - هي وعزيزة ومريم - قد انتهت ببساطة، تبخرت مثل أثر كفي «زلماي» عن شاشة التلفزيون. وعلى الرغم من عبثية ذلك، فقد بدا لها أن كل ما تحملنه قد أتى ثماره أخيرًا، في لحظة التتويج تلك، في هذا التحدي الذي سيضع حدًّا لكل ما عانينه من إهانات.

لم تلاحظ ليلى عودة رشيد إلى الغرفة حتى لف يده حول حلقها، حتى رفعها عن الأرض ورمى بها لترتطم بالحائط.

من موقعه بالأعلى، بدا وجهه القريب الهازئ أكبر من المعقول. لاحظت ليلى كم يزداد انتفاخًا مع العمر، كم وعاء دموي مكسور شق ممرات دقيقة على أنفه. لم ينطق رشيد بشيء. فماذا يقال، ما جدوى الكلام، وأنت تحشر ماسورة مسدسك في فم زوجتك؟

* * *

كانت المداهمات هي التي جعلتهما تخرجان لتحفرا في الباحة. مداهمات شهرية أحيانًا، أسبوعية أحيانًا، ومؤخرًا باتت يومية تقريبًا. غالبًا يصادر الطالبان بعض الأشياء، ويركلون مؤخرة شخص ما، يصفعون قفا أو اثنين. لكن أحيانًا تصبح العقوبة علنية، جَلد للأكف والأقدام.

كانت مريم تقول، وركبتاها فوق الحافة:

- بلطف.

أنزلتا جهاز التلفزيون إلى الحفرة، بأن أمسكت كل منهما بأحد طرفي الغلاف البلاستيكي الذي كان ملفوفًا فيه.

قالت مريم:

ـ المفترض أن يفي هذا بالغرض.

عندما انتهتا، ردمتا الحفرة وساوتا التراب، ورمتا بعض الطين حولها حتى لا تثير الشكوك.

قالت مريم، وهي تمسح يديها في فستانها:

ـ انتهينا.

اتفقوا على أن يُخرجوا التلفزيون، عندما يوقف الطالبان مداهماتهم، بعد شهر أو اثنين أو ستة أشهر، أو حتى بعد ذلك.

* * *

في الحلم، رأت ليلى نفسها ومريم بالخارج خلف السقيفة تحفران مجددًا، لكن تلك المرة، كانت عزيزة هي التي تُدفن في الأرض. كانت أنفاس عزيزة تغبِّش الغلاف البلاستيكي الذي لفوه حولها. ترى ليلى عينيها المذعورتين، منظر كفيها وهما تخبطان الكيس وتدفعانه. تتوسل عزيزة. لا تستطيع ليلى سماع صراخها، لكنها تقول لها: «لبعض الوقت فقط، لبعض الوقت. إنها المداهمات، ألا تعرفين يا حبيبتي؟ عندما تتوقف المداهمات، ستخرجك مامي والخالة مريم. أعدك يا حبيبتي. ثم سنلعب. سنلعب كل ما تريدين من ألعاب». تملأ الجاروف، وعندما تصطدم أول كتلة ترابية بالبلاستيك، تستيقظ ليلى، مقطوعة الأنفاس، ومذاق التراب في فمها.

٤١
مريم

في صيف عام ٢٠٠٠، بلغ القحط عامه الثالث والأسوأ.

في هلمند، وزابل، وقندهار، تحولت قرى بأكملها إلى قطعان من المجتمعات الجوالة، في حركة دائمة، تبحث عن المياه والمراعي الخضراء من أجل ماشيتها. وعندما لا يجدون لا هذه ولا تلك، عندما تنفق معزهم وخرافهم وأبقارهم، يأتون إلى كابل. يتجهون إلى سفح تلال كاره أريانا، يعيشون في عشوائيات، في أكواخ مكدسة، خمسة عشر أو عشرين في الكوخ الواحد.

وكان ذلك أيضًا صيف «تيتانيك»، وفيه كانت مريم وعزيزة تلعبان لعبتهما المفضلة، تتقلبان على الأرض، حتى تبدوان للناظر شبكة من الأذرع والسيقان، تقهقهان، بينما تصر عزيزة على أن تكون «جاك».

ـ اهدئي يا عزيزة جو.

ـ «جاك»! قولي اسمي يا خالة مريم. قوليه. «جاك»!

ـ سيغضب والدك إذا أيقظتِه.

ـ «جاك»! وأنت «روز».

وينتهي الأمر بمريم على ظهرها، مستسلمة، موافقة على أن تكون «روز» مجددًا. تذعن وتقول:

ـ طيب، أنتِ «جاك». أنت تموتين شابة، وأنا أعيش حتى أصبح عجوزًا.

قالت عزيزة:

ـ نعم، لكنني أموت بطلًا، بينما أنت يا «روز» تقضين حياتك البائسة بأكملها في اشتياق إليَّ.

ثم تركب على صدر مريم، وتعلن:

ـ الآن، جاء وقت القُبلة!

تنفض مريم رأسها من جنب إلى جنب، بينما تقرقر عزيزة، وهي فرحة بسلوكها الفضائحي، من بين شفتين مضمومتين.

أحيانًا، يقترب «زلماي» ببطء ويراقب اللعبة. ويسأل، أي دور يلعبه هو؟

تقول عزيزة:

ـ يمكن أن تكون جبل الجليد.

في ذاك الصيف، استبدت حمى «تيتانيك» بكابل. راح الناس يهرِّبون نسخًا مقرصنة من الفيلم من باكستان ـ أحيانًا في ملابسهم الداخلية. وبعد حظر التجوال، يوصد الجميع أبوابهم، ويطفئون الأنوار، ويُخفضون الصوت، ويذرفون الدمع على «جاك» و«روز» وركاب السفينة المتجهة إلى مصيرها

المحتوم. وحين تتوفر الكهرباء، كانت مريم وليلى والطفلان يشاهدونه أيضًا. أخرجوا التلفزيون من تحت الأرض خلف السقيفة عشر مرات أو أكثر، في وقت متأخر من الليل، والمصابيح مطفأة، والنوافذ مغطاة بألحفة.

عند نهر كابل، انتقل الباعة إلى مجرى النهر اليابس. وسرعان ما أصبح متاحًا، في تجويف النهر الذي أيبسته الشمس، شراء سجاجيد «تيتانيك»، وقماش «تيتانيك»، من أثواب مصفوفة على عربات يد. كان هناك مزيل عرق «تيتانيك»، معجون أسنان «تيتانيك»، عطر «تيتانيك»، «بَكورا» «تيتانيك»، وحتى برقع «تيتانيك». وأطلق شحاذ لجوج على نفسه اسم «شحاذ تيتانيك».

لقد وُلِدَت «مدينة تيتانيك».

قالوا «إنها الأغنية».

«لا، البحر. البذخ. السفينة».

همسوا «إنه الجنس».

وقالت عزيزة بخجل:

ـ إنه ليو. الموضوع كله في ليو.

أما ليلى فقالت لمريم:

ـ كلهم يريدون «جاك». هذا هو الموضوع. كلهم يريدون «جاك» لكي ينقذهم من الكارثة. لكن «جاك» غير موجود. «جاك» لن يعود. لقد مات «جاك».

* * *

ثم، في وقت لاحق من ذاك الصيف، غفا تاجر أقمشة ونسي إطفاء سيجارته. نجا من الحريق، لكن متجره لم ينجُ. التهمت النيران متجر الأقمشة المجاور أيضًا، ودكانًا للملابس المستعملة، ومحل أثاث صغير، ومخبزًا.

قالوا لرشيد لاحقًا إن دكانه، الذي يقع على الناصية، كان سينجو، لو هبت الريح شرقًا لا غربًا.

* * *

باعوا كل شيء.

أول ما بيع حاجيات مريم، ثم ليلى، ثم ملابس عزيزة حين كانت رضيعة، واللعب القليلة التي تعاركت ليلى مع رشيد لكي يشتريها لها. تابعت عزيزة الإجراءات بنظرة إذعان. بيعت ساعة رشيد أيضًا، والراديو الترانزستور الصغير، وربطتا العنق التي كان يمتلكهما، وحذاؤه، ودبلته. بيعت الأريكة، والطاولة، والبساط، والكراسي أيضًا. وانتابت «زلماي» نوبة هياج عندما باع رشيد التلفزيون.

بعد الحريق، أصبح رشيد يلازم المنزل يوميًّا تقريبًا. يصفع عزيزة. يركل مريم. يرمي هذا وذاك. كان يجد عيبًا ما في ليلى، رائحتها، ملابسها، تصفيفة شعرها، أسنانها المصفرَّة.

يقول:

ـ ماذا بك؟ لقد تزوجت «بَري»، والآن أنفق على حيزبون. أنت تتحولين إلى مريم أخرى.

فُصل من مطعم الكباب قرب جامع حجي يعقوب لأنه تعارك مع زبون. اشتكى الزبون أن رشيدًا رمى الخبز على طاولته بوقاحة. تبادلا كلمات عنيفة. نعت رشيد الزبون بـ«الأوزبيكي وجه القرد». ورُفع مسدس، فرُفع أمامه سيخ. في نسخة رشيد كان هو من يمسك بالسيخ، لكن مريم انتابتها شكوك حول ذلك.

ثم فصل من مطعم في تايمني لأن الزبائن اشتكوا من طول الانتظار، وقال رشيد إن الطاهي بطيء وكسول.

قالت ليلى:

ـ الأرجح أنك غفوت في الباحة الخلفية.

قالت مريم:

ـ لا تستفزيه يا ليلى جو.

وقال هو:

ـ أنا أحذرك يا امرأة.

ـ إما هذا وإما أنك كنت تدخن.

ـ أقسم بالله.

ـ لا تستطيع أن تتغير.

عندها، قفز على ليلى، أوسعها ضربًا بقبضتيه على صدرها، على رأسها، على بطنها، مزق شعرها، رماها على الحائط. كانت عزيزة تصرخ، وتشده من قميصه، وكان «زلماي» يصرخ أيضًا، يحاول أن يبعده عن أمه. أزاح

رشيد الطفلين جانبًا، ثم طرح ليلى أرضًا، وبدأ يركلها. رمت مريم بنفسها على ليلى. فواصَل الركل. راح يركل مريم، والزبد يتطاير من فمه، وعيناه تقدحان بنوايا دموية، وظل يركل حتى تعب.

قال لاهثًا:

ـ أقسم إنك ستجعلينني أقتلك يا ليلى.

ثم اندفع خارجًا من البيت.

* * *

عندما انتهت النقود، بدأ الجوع يلقي بظلاله على حياتهم. ذُهلت مريم: كيف أصبحت محاولات سد الجوع هي محور وجودهم بتلك السرعة؟

أصبح الأرز، الأبيض السادة المسلوق، بلا لحم أو صلصة، متعة شحيحة. أصبحوا يفوِّتون وجبات بمعدلات متزايدة وخطيرة. أحيانًا كان رشيد يعود إلى المنزل ومعه سردين في صفيحة وخبز جاف ناشف طعمه أشبه بنشارة الخشب. أحيانًا بكيس تفاح مسروق، مغامرًا بأن تقطع يده. في محلات البقالة، يدس في جيبه بحرص مكرونة الرافيولي المعلبة، يقسمونها بينهم هم الخمسة، ويحظى «زلماي» بنصيب الأسد. وعلى العشاء صاروا يأكلون لفتًا نيئًا مرشوشًا بالملح، وأوراق خس ذابلة وموزًا مسودًّا.

فجأة أصبح الموت جوعًا احتمالًا قائمًا. البعض اختار ألا ينتظره. سمعت مريم عن أرملة في الحي طحنت بعض الخبز الجاف، وخلطته بسم الفئران، وأطعمته لأولادها السبعة، بعد أن احتفظت بالنصيب الأكبر لنفسها.

بدأت ضلوع عزيزة تبرز من جلدها، واختفى الدهن من وجنتيها. نحلت ربلتا ساقيها، وتحولت بشرتها إلى لون الشاي الخفيف. عندما كانت مريم ترفعها كانت تحس بعظمة فخذها تنفر من الجلد الهزيل. أما «زلماي» فأصبح يرقد هنا وهناك، عيناه بليدتان ونصف مغمضتين، أو يتمدد متهدلًا في حجر والده كمزقة قماش. أصبح يبكي حتى يروح في النوم، عندما لا تعود لديه طاقة، لكن نومه كان يأتي في نوبات متقطعة. أما مريم فكانت ترى نقاطًا بيضاء تنط أمام عينيها عندما تستيقظ. ويدور رأسها، وتطن أذنها طوال الوقت. تذكرت شيئًا كان الملا فيض الله يقوله عن الجوع عندما يحل شهر رمضان: «حتى من يعضه ثعبان ينام، إلا الجائع».

قالت ليلى:

ـ سيموت طفلاي أمام عيني

وقالت مريم:

ـ لن يموتا. لن أسمح بذلك. سينصلح الحال يا ليلى جو. أعرف ما العمل.

* * *

ذات يوم شديد الحرارة، ارتدت مريم برقعها، وسارت هي ورشيد حتى فندق «إنتركونتيننتال». كانت أجرة الحافلة ترفًا لا يقدران عليه حينئذ، وعندما وصلا إلى قمة التل شديد الانحدار، كان الإعياء قد استبد بمريم. في أثناء صعودها التل أصابتها نوبات من الدوخة، واضطرت إلى أن تتوقف مرتين، وأن تنتظر حتى تمر.

في مدخل الفندق، حيا رشيد أحد البوابين وعانقه، كان يرتدي بدلة خمرية اللون وكابًا واقيًا من الشمس. دار حديث بينهما بدا وديًّا. رشيد يتحدث ويده على مرفق البواب. وفي أثناء الحديث أشار باتجاه مريم، وألقى كلاهما نظرة سريعة عليها. فكرت مريم أن هناك شيئًا مألوفًا في البواب على نحو غامض.

عندما دخل البواب، انتظرت مريم ورشيد. من هذا الموقع المميز، كانت مريم تطل على معهد العلوم التطبيقية، ومن ورائه حي خير خانه القديم والطريق إلى مزار. إلى الجنوب، كانت ترى المخبز الآلي، «سيلو»، المهجور منذ زمن، وقد أحدث القصف فتحات واسعة في واجهته الصفراء الشاحبة. وإلى الجنوب منه، تبينت الأطلال المهجورة لقصر دار الأمان، حيث اصطحبها رشيد في نزهة قبل سنوات طويلة. كانت ذكرى ذلك اليوم أثرًا من ماضٍ ما عاد يشبه ماضيها.

ركزت مريم على تلك الأشياء، تلك العلامات. خافت أن تفقد أعصابها إذا تركت ذهنها يشرد.

كل بضع دقائق، كانت سيارات جيب وعربات أجرة تدخل مدخل الفندق. يهرع البوابون لتحية الركاب، جميعهم رجال، ومسلحون، وملتحون، يعتمرون العمامات، وجميعهم يخرجون بالدرجة نفسها من الثقة، والإحساس بالأهمية. سمعت مريم مقتطعات من كلامهم وهم يختفون وراء أبواب الفندق. سمعت البشتونية والفارسية، وأيضًا الأردية والعربية.

قال رشيد في صوت خفيض:

ـ قابلي أسيادنا الحقيقيين، الإسلاميين الباكستانيين والعرب. الطالبان مجرد دمى. هؤلاء هم اللاعبون الكبار وأفغانستان هي ملعبهم.

قال رشيد إنه سمع شائعات بأن الطالبان يسمحون لهؤلاء الناس بإقامة معسكرات سرية في جميع أنحاء البلاد، حيث يتدرب شبان على التفجيرات الانتحارية والجهاد.

قالت مريم:

ـ ما الذي يؤخره هكذا؟

بصق رشيد، وركل التراب فوق بصقته.

بعد ساعة كانت مريم ورشيد بالداخل، يتبعان البواب. أخذت كعوبهما تدق على الأرضية المبلطة وهما يُقادان عبر البهو البارد اللطيف. رأت مريم رجلين يجلسان على مقاعد جلدية، ومسدساهما على طاولة القهوة بينهما، يرتشفان الشاي الأسود ويأكلان طبقًا من «الجلبي» المغطّى بالشربات، زلابية مرشوشة بسكر البودرة. فكرت في عزيزة، التي تحب «الجلبي»، ثم أشاحت ببصرها.

قادهما البواب إلى شرفة بالخارج. من جيبه، أخرج هاتفًا لاسلكيًّا أسود صغيرًا وقطعة ورق مكتوب عليها رقم. قال لرشيد إنه هاتف الثريا الخاص برئيسه.

قال:

ـ حصلت لك على خمس دقائق، لا أكثر.

قال رشيد:

ـ «تَشَكُّر». لن أنسى لك ذلك.

أومأ البواب ومضى. طلب رشيد الرقم. وأعطى الهاتف إلى مريم.

وهي تسمع الجرس المشوش، شرد ذهنها بعيدًا. شرد إلى آخر مرة رأت فيها جليلًا، قبل ثلاثة عشر عامًا، في ربيع عام ١٩٨٧ كان يقف في الشارع أمام بيتها، يتكئ على عصا، بجانب سيارة «بينز» زرقاء بلوحة أرقام هِرات وشريط أبيض يشقها نصفين، السقف والمقدمة والمؤخرة. كان واقفًا منذ ساعات، ينتظرها، وبين حين وآخر ينادي اسمها، كما نادت هي اسمه ذات مرة خارج منزله. وقد فتحت مريم الستارة مرة واحدة، فتحة صغيرة، وألقت نظرة عليه. مجرد نظرة، لكنها كانت كافية لترى شعره وقد تحول إلى الأبيض المفلفل، وظهره وقد بدأ في الانحناء. كان يضع نظارة، وربطة عنق حمراء، كحاله دائمًا، يبرز من جيب صدريته القمة المثلثة لمنديل أبيض. لكن الأكثر إدهاشًا أنه صار نحيلًا، أكثر بكثير مما تتذكر، تتهدل سترة بدلته البُنية الداكنة على كتفيه، ويتسع البنطال عند كاحليه.

وقد رآها جليل أيضًا، ولو لحظة. التقت أعينهما لثانية عبر فرجة في الستارة، كما التقت قبل سنوات طويلة عبر فرجة في ستارة أخرى. لكن مريم سرعان ما أغلقت الستارة. جلست على الفراش، وانتظرت رحيله.

ثم أخذت تفكر في الخطاب الذي تركه لها جليل أخيرًا على الباب. احتفظت به أيامًا، أسفل وسادتها، تخرجه بين حين وآخر، تقلبه بين يديها. وفي النهاية مزقته من دون أن تفتحه.

والآن ها هي، بعد كل تلك السنوات، تطلب رقمه.

شعرت مريم بالندم على كبرياء الشباب الأحمق. تمنت لو أنها أدخلته.

أي أذى كان سيحدث لو أدخلته، وجلست معه، وتركته يقول ما جاء لقوله؟ إنه أبوها. لم يكن أبًا جيدًا، صحيح، لكن كم تبدو أخطاؤه الآن عادية، قابلة للغفران، مقارنة بخبث رشيد، أو بالوحشية والعنف اللذين رأت الرجال يعاملون بها بعضهم بعضًا.

تمنت لو لم تمزق خطابه.

تحدث صوت عميق لرجل في أذنها وأخبرها أنها تتصل بمكتب العمدة في هِرات.

تنحنحت مريم:

ـ السلام عليكم يا أخي، أنا أبحث عن شخص يعيش في هِرات. أو كان يعيش فيها قبل سنوات. اسمه جليل خان. كان يعيش في شهر نو ويمتلك سينما. هل لديك أية معلومات عن مكانه؟

سمعت التوتر في صوت الرجل:

ـ ألهذا تتصلين بمكتب العمدة؟

قالت مريم إنها لا تعرف بمن تتصل.

ـ سامحني يا أخي. أعرف أن لديكم مشاغل مهمة، لكنها مسألة حياة أو موت، أنا أتصل بك في مسألة حياة أو موت.

ـ لا أعرفه. والسينما أغلقت منذ سنوات طويلة.

ـ ربما يعرفه أحد، شخص...

ـ لا يوجد أحد.

أغمضت مريم عينيها:

ـ أرجوك يا أخي. الأمر متعلق بأطفال. أطفال صغار.

تنهيدة طويلة.

ـ ربما يعرفه أحد...

ـ عندنا بستاني. أظن أنه عاش هنا طيلة حياته.

ـ نعم، اسأله، أرجوك.

ـ كلميني غدًا.

قالت مريم إنها لا تستطيع.

ـ معي هذا الهاتف لخمس دقائق فقط، أنا لا

سمعت نقرة في الطرف الآخر، وظنت مريم أنه أغلق الخط. لكنها سمعت وقع أقدام، وأصواتًا، بوق سيارة بعيدة، وبعض الهمهمة الميكانيكية التي تقطعها نقرات، ربما مروحة كهربية. نقلت التلفون إلى أذنها الأخرى، وأغمضت عينيها.

تصورت جليلًا يبتسم، ويمد يده في جيبه.

«آه طبعًا. حاضر. ها هي الآن، من دون مزيد من التأخير...

قلادة على شكل ورقة شجر، تتدلى منها عملات فضية صغيرة منقوش عليها أقمار ونجوم.

جربيها يا مريم جو.

ما رأيك؟

رأيي أنك تبدين مثل ملكة».

مرت بضع دقائق. ثم وقع أقدام، صوت طقطقة ثم نقرة:

ـ إنه يعرفه.

ـ يعرفه؟

ـ هذا ما يقوله.

قالت مريم:

ـ أين هو؟ هل يعرف هذا الرجل مكان جليل خان؟

مرت لحظة صمت.

ـ يقول إنه مات قبل سنوات، عام ١٩٨٧

وقع قلب مريم. بالطبع كانت قد وضعت في حسبانها هذا الاحتمال. فجليل لو كان حيًّا سيكون بين منتصف وأواخر السبعينيات، لكن...

١٩٨٧

«لقد كان يحتضر. لقد قطع كل هذا الطريق من هِرات ليودعني».

تحركت نحو حافة الشرفة. من موقعها بالأعلى، رأت حمَّام سباحة الفندق الذي كان شهيرًا يومًا، وقد صار فارغًا ومشحَّمًا، تشوهه فتحات الرصاص والبلاط المتداعي. وملعب التنس الخرب، الشبكة الممزقة ترقد متهدلة في منتصفه مثل جلد ميت طرحه ثعبان.

قال الصوت على الطرف الآخر:

ـ يجب أن أذهب الآن.

قالت مريم، وهي تبكي بصمت في الهاتف:

ـ آسفة على إزعاجك.

رأت جليلًا يلوح لها، ينط من حجر إلى حجر وهو يعبر الغدير، جيوبه محشوة بالهدايا. كل تلك المرات التي حبست فيها أنفاسها من أجله، من أجل أن يمنحها الله مزيدًا من الوقت معه.

بدأت مريم تقول:

ـ شكرًا لك.

لكن الرجل على الطرف الآخر كان قد أغلق الخط.

أخذ رشيد ينظر إليها، فهزت مريم رأسها.

قال، وهو يخطف منها الهاتف:

ـ بلا فائدة. شأنك شأن أبيك.

في طريق الخروج من البهو، هرول رشيد باتجاه طاولة القهوة، التي كانت شاغرة الآن، ووضع آخر حلقة من «الجلبي» في جيبه. عاد بها إلى البيت، وأعطاها لـ«زلماي».

٤٢
ليلى

في حقيبة ورقية، حزمت عزيزة تلك الأشياء: قميصها المنقوش بالورود وجوربها الوحيد، قفازًا صوفيًّا فردتاه غير متطابقتين، بطانية قديمة بلون القرع منقوش عليها نجوم وشهب، فنجانًا بلاستيكيًّا مكسورًا، موزة، ومجموعتها من النرد.

كان يومًا باردًا من أيام أبريل ٢٠٠١، قبيل عيد ميلاد ليلى الثالث والعشرين. السماء اصطبغت بلون رمادي شفاف، وراح حاجز الباب يقرقع، تدفعه رياح باردة رطبة.

قبلها ببضعة أيام، سمعت ليلى أن أحمد شاه مسعود سافر إلى فرنسا وتحدث إلى البرلمان الأوروبي. الآن مسعود في الشمال، مسقط رأسه، يقود تحالف الشمال، الفصيل المعارض الوحيد الذي لا يزال يحارب الطالبان. في أوروبا، حذر مسعود الغرب من معسكرات الإرهابيين في أفغانستان، وناشد الولايات المتحدة أن تساعده في محاربة الطالبان.

قال:

- إذا لم يساعدنا الرئيس «بوش»، فسوف ينفذ هؤلاء الإرهابيون عمليات تخريب في الولايات المتحدة وأوروبا قريبًا جدًّا.

قبلها بشهر، كانت ليلى قد علمت أن الطالبان دسوا مادة «تي إن تي» في شقوق تمثالي «بوذا» العملاقين في باميان ونسفوهما، بعد أن أسموهما أصنامًا واعتبروهما من مظاهر الكفر. احتج العالم من الولايات المتحدة إلى الصين. حكومات ومؤرخون وعلماء آثار من جميع أنحاء العالم سوَّدوا خطابات، يتوسلون إلى الطالبان ألا ينسفوا أعظم تحفة تاريخية صنعتها يد البشر في أفغانستان. لكن الطالبان مضوا في طريقهم وأشعلوا فتيل متفجراتهم داخل التمثالين البالغين من العمر ألفي سنة. وهتفوا «الله أكبر» مع كل تفجير، وهنأ بعضهم بعضًا كلما سقطت ذراع أو ساق وسط سحابة من غبار الانفجار. تذكرت ليلى حين وقفت فوق قمة التمثال الأكبر بين تمثالي «بوذا» مع بابي وطارق، عام ١٩٨٧، والنسيم يهب على وجوههم المضاءة بنور الشمس، يراقبون الصقور وهي تنزلق في دوائر فوق الوادي المنبسط بالأسفل. لكن عندما سمعت ليلى خبر تدمير التمثالين، لم تبالِ. بدا لها الأمر غير مهم. فكيف تهتم بأمر تمثالين وحياتها نفسها خراب؟

حتى قال لها رشيد إن الوقت قد حان، ظلت ليلى جالسة على الأرض في ركن من أركان غرفة المعيشة، لا تتحدث، وجهها جامد كالحجر، وخصلات شعرها مبعثرة حول وجهها. ومهما حاولت التنفس بعمق، ظلت تشعر أنها لا تستطيع ملء رئتيها بما يكفي من الهواء.

* * *

في الطريق إلى كارته سه، أخذ «زلماي» ينط بين ذراعي رشيد، وأمسكت عزيزة بيد مريم وهي تهرول إلى جانبها. عصفت الريح بالوشاح المتسخ المربوط أسفل ذقن عزيزة وموَّجت ذيل فستانها. أصبحت عزيزة الآن أكثر عبوسًا، كما لو أنها بدأت تحس، مع كل خطوة، أنها يُغرَّر بها. لم تجد ليلى القوة لإخبار عزيزة بالحقيقة. قالت لها إنها ذاهبة إلى مدرسة، مدرسة خاصة يأكل فيها الأطفال وينامون ولا يعودون إلى البيت بعد اليوم الدراسي. الآن، تمطر عزيزة ليلى بالأسئلة نفسها التي ظلت تسألها على مدار أيام: هل ينام التلاميذ في حجرات منفصلة أم ينامون جميعًا في حجرة واحدة كبيرة؟ هل ستكوِّن أصدقاء؟ هل ليلى متأكدة أن المدرسين طيبون؟

كذلك، سألتها أكثر من مرة: «إلى متى سأظل هناك؟».

توقفوا قبل شارعين من البناية المقصودة، وهي بناية قصيرة على طراز الثكنات.

قال رشيد:

ـ سننتظر أنا و«زلماي» هنا. آه، قبل أن أنسى...

أخرج قطعة لبان من جيبه، هدية وداع، ومدها إلى عزيزة بإيماءة تفضُّل. أخذتها عزيزة وغمغمت بكلمة شكر. تعجبت ليلى من رقة عزيزة، من قدرتها الهائلة على الغفران، وترقرقت عيناها بالدموع. انقبض قلبها، وأعياها الأسى حين فكرت أن عزيزة لن تغفو إلى جوارها عصر ذاك اليوم، أنها لن تحس بثقل ذراع عزيزة الرقيقة على صدرها، بانحناءة رأس عزيزة الضاغطة على ضلوعها، بأنفاس عزيزة تدفئ رقبتها، بكعبي عزيزة وهما يلكزان بطنها.

عندما اقتيدت عزيزة بعيدًا، بدأ «زلماي» ينتحب، ويصرخ: «زيزا! زيزا!».

أخذ يتلوى ويرفس بين ذراعي والده، وينادي على أخته، حتى جذب انتباهه قرد يدير بيانولا على الرصيف المقابل.

سِرن وحدهن آخر شارعين، مريم وليلى وعزيزة. وفي أثناء اقترابهن من البناية رأت ليلى واجهتها المتفلِّقة، السقف المتهدم، الألواح الخشبية المسمَّرة على شبابيك بلا زجاج، قمة أرجوحة مستندة على حائط متداع.

توقفن بجوار الباب، وكررت ليلى على عزيزة ما سبق ولقنتها إياه:

ـ وإذا سألوك عن أبوك، ماذا تقولين؟

قالت ليلى، وفمها يرتعش من الحذر:

ـ قتله «المجاهدين».

ـ شاطرة. هل تفهمين يا عزيزة؟

قالت عزيزة:

ـ لأن هذه مدرسة من نوع خاص.

الآن وقد صرن هنا، وأصبحت البناية واقعًا، بدت عليها الصدمة. راحت شفتها السفلى ترتعش وتلألأت دموع في عينيها، ورأت ليلى كم تجاهد لتبدو شجاعة. قالت عزيزة، في صوت ضعيف متقطع الأنفاس:

ـ لو قلنا الحقيقة، لن يقبلوني. إنها مدرسة من نوع خاص. أريد أن أذهب إلى المنزل.

جاهدت ليلى لتقول:

ـ سأزورك كثيرًا. أعدك.

وقالت مريم:

ـ وأنا أيضًا. سنأتي لزيارتك يا عزيزة جو، وسنلعب معًا، مثلما نلعب دائمًا. لن يطول الأمر، حتى يعثر والدك على عمل.

قالت ليلى وهي ترتجف:

ـ لديهم طعام هنا.

كانت سعيدة لأنها ترتدي البرقع، لأن عزيزة لا تستطيع رؤيتها وهي تتحطم بداخله.

ـ هنا لن تجوعي. لديهم أرز وخبز وماء، وربما فاكهة أيضًا.

ـ لكنك لن تكوني هنا. والخالة مريم لن تكون معي.

قالت ليلى:

ـ سآتي لرؤيتك. كثيرًا. انظري إليَّ يا عزيزة. سآتي لرؤيتك. أنا أمك. سآتي لرؤيتك حتى لو قتلوني.

* * *

كان مدير دار الأيتام رجلًا محدودب الظهر ضيق الكتفين لطيف الملامح، أصلع، وله لحية مشعثة، وعينان مثل حبتي بازلاء، اسمه زمان، يضع طاقية، والعدسة اليسرى من نظارته مكسورة.

سأل ليلى ومريم وهو يقودهن إلى مكتبه عن اسمهما، سأل عن اسم عزيزة أيضًا، وعمرها. ساروا في ردهات خافتة الإضاءة وسط أطفال حفاة يتنحون عن طريقهم ويراقبونهم. أطفال شعرهم أشعث وآخرون رؤوسهم حليقة. يرتدون كنزات بأكمام منسَّلة، بنطلونات جينز ممزقة بليت ركبها

وصارت خيوطًا متفرقة، معاطف مرقَّعة بشريط لاصق. شمَّت ليلى رائحة صابون و«تَلْك»، نشادر وبول، ورائحة توجس تتصاعد من عزيزة، التي بدأت تجهش بالبكاء.

ألقت ليلى نظرة على الفناء: قطعة أرض مغطاة بالعشب، أرجوحة متضعضعة، إطارات سيارات قديمة، كرة سلة فارغة من الهواء. كانت الغرف التي مروا من أمامها جرداء، النوافذ مغطاة بألواح من البلاستيك. اندفع صبي من إحدى الغرف وقبض على مرفق ليلى، وحاول أن يتسلق إلى ذراعيها. فسارعت مشرفة، كانت تنظف ما بدا أنه بركة بول صغيرة، بوضع ممسحتها وجذب الصبي عنها.

بدا زمان مهذبًا ولطيفًا مع الأيتام. كان يربت على رؤوس بعضهم، وهو يمر بهم، ويقول لهم كلمة أو كلمتين بودٍّ، ينكش شعرهم، ولكن من دون أن يفقد وقاره معهم. وكان الأطفال يرحبون بلمساته. وفكرت ليلى أنهم جميعًا يتطلعون إليه آملين أن ينالوا رضاه.

قادهن إلى مكتبه، غرفة ليس بها غير ثلاثة كراسي قابلة للطي، ومكتب تناثرت عليه أكوام من الأوراق.

قال زمان موجهًا حديثه إلى مريم:

ـ أنتِ من هِرات. أستطيع أن أعرف من لهجتك.

مال إلى الأمام في مقعده وشبك يديه على بطنه، وقال إن أحد أصهاره يعيش هناك. حتى في تلك الإيماءة العادية لاحظت ليلى قدرًا من المشقة في حركاته. وعلى الرغم من ابتسامته الخفيفة، شعرت ليلى باضطراب وجرح وراءها، بإحباط وهزيمة مخفية تحت قشرة من خفة الظل.

قال زمان:

ـ كان صانع زجاج. يصنع تلك البجعات الخضراء الجميلة بلون اليشم. ترفعينها في نور الشمس فتلتمع من الداخل، كما لو كان الزجاج محشوًّا بمجوهرات صغيرة جدًّا. هل رجعتِ إلى هناك؟

قالت مريم إنها لم ترجع.

ـ أنا من قندهار. هل ذهبتِ إلى قندهار من قبل يا «همشيره»؟ لا؟ إنها جميلة. يا لحدائقها! يا لأعنابها! آه، العنب، طعمه خلاب.

كان بضعة أطفال قد تجمعوا عند الباب وأخذوا يختلسون النظر. نهرهم زمان بلطف بالبشتونية.

ـ بالطبع أحب هِرات أيضًا. مدينة الفنانين والكتاب، الزهَّاد والمتصوفة. هل تعرفين المقولة القديمة، إنك لا تستطيعين أن تمدي ساقك في هِرات من دون أن تلكزي شاعرًا في مؤخرته؟

إلى جوار ليلى، نخرت عزيزة.

تنهد زمان تنهيدة طويلة، ممازحًا:

ـ آه، أخيرًا. جعلتك تضحكين يا أختي الصغيرة. عادة ما يكون هذا هو أصعب جزء. لقد راودني القلق لحظة. ظننت أنني سأضطر أن أوقوق مثل الدجاج أو أنهق مثل الحمار. لكن، ها أنت. وكم جميلة أنت.

استدعى مشرفة لتأخذ عزيزة لحظات. قفزت عزيزة على حجر مريم وتشبثت بها.

قالت ليلى:

ـ سنتحدث فقط يا حبيبتي. لن أتحرك من هنا. اتفقنا؟ لن أتحرك.

قالت مريم:

ـ لماذا لا نخرج دقيقة يا عزيزة جو. أمك تريد أن تتكلم مع «كاكا زمان». فقط دقيقة. هيا بنا.

عندما أصبحا وحدهما، سأل زمان عن تاريخ ميلاد عزيزة، تاريخها المرضي، إذا كانت تعاني من حساسية. سأل عن والد عزيزة، فشعرت ليلى بشعور غريب وهي تقول كذبة هي، في واقع الأمر، عين الحقيقة. أنصت زمان، من دون أن تكشف ملامحه عن تصديقه أو تشككه. قال إنه يدير دار الأيتام بكلمة الشرف. إذا قالت إحدى الأخوات إن زوجها قد مات ولا تستطيع رعاية طفلها، لا يكذِّبها.

بدأت ليلى تبكي.

وضع زمان قلمه.

قالت ليلى بصوت مبحوح، وكفها تضغط على فمها:

ـ أشعر بالعار.

ـ انظري إليَّ يا «همشيره».

ـ أي أم تلك التي تتخلى عن طفلتها؟

ـ انظري إليَّ.

رفعت ليلى بصرها.

ـ إنه ليس خطأك! هل تسمعينني؟ ليس خطأك! اللوم يقع على هؤلاء

المتوحشين. هم الذين جلبوا العار عليَّ كبشتونيٍّ. هم الذين لطخوا اسم شعبي. وأنت لست وحدك يا «همشيره». طوال الوقت نستقبل أمهات مثلك ـ طوال الوقت ـ أمهات يأتين هنا لأنهن لا يستطعن إطعام أطفالهن لأن الطالبان لا يسمحون لهن بالخروج وكسب العيش. لذا لا تلومي نفسك. لا أحد هنا ملام. أنا أفهم.

انحنى إلى الأمام:

ـ «همشيره»، أنا أفهم.

مسحت ليلى عينيها بقماش برقعها.

تنهد زمان وهو يشير بيده:

ـ أما بخصوص هذا المكان، فأنت ترين أنه في حالة يرثى لها. دائمًا يعوزنا التمويل، دائمًا نتخبط ونرتجل. لا نحصل إلا على دعم قليل من الطالبان، أو لا دعم على الإطلاق. لكننا نحيا. نحن مثلك، نفعل ما يتوجب علينا فعله. الله رؤوف رحيم. الله يرزقنا، وطالما أن الله يرزقنا، سأحرص على أن تحصل عزيزة على الطعام والملبس. هذا الحد أعدك به.

أومأت ليلى برأسها.

ـ اتفقنا؟

ابتسم بمودة.

ـ لا تبكي يا «همشيره». لا تدعيها تراك وأنت تبكين.

مسحت ليلى عينيها مجددًا، وغمغمت:

ـ بارك الله فيك. بارك الله فيك يا أخي.

* * *

لكن عندما حان وقت الوداع، حدث ما كانت تخشاه ليلى بالضبط:

استولى الفزع على عزيزة.

طوال الطريق إلى المنزل، وهي مستندة على مريم، ظلت ليلى تسمع صرخات عزيزة الحادة. في رأسها، رأت يدي زمان السميكتين المتشققتين تطبقان على ذراعي عزيزة، رأتهما تسحبان، بلطف أولًا، ثم بشدة أكثر، ثم بقوة لكي تفصل عزيزة عنها. رأت عزيزة ترفس بقدميها بين ذراعي زمان وهو يسارع بالدوران حول الزاوية. سمعت عزيزة تصرخ كما لو كانت على وشك الاختفاء من فوق وجه الأرض. ورأت ليلى نفسها تجري في الردهة، ورأسها منكَّس، ونحيب يصعد من حلقها.

قالت لمريم في المنزل:

ـ رائحتها تفوح مني.

سَرَح نظرها، من دون أن ترى، عابرًا كتف مريم، الباحة، السور، الجبال البنية مثل بصقة مدخِّن.

ـ رائحة نومها تفوح مني. هل تشمين؟ هل تشمين الرائحة؟

قالت مريم:

ـ آه يا ليلى جو. رفقًا بنفسك. ما جدوى ذلك؟ ما جدواه؟

* * *

في البداية، خفف رشيد على ليلى، واصطحبهم ـ هي ومريم و«زلماي» ـ إلى دار الأيتام، وإن ظل حريصًا، وهم يسيرون، على أن ترى جيدًا ما يبدو عليه من بؤس، وأن تسمع جيدًا شكواه من المشقة التي تجعله يتحملها، وإلى أي حد تؤلمه ساقاه وظهره وقدماه وهو يمشي إلى دار الأيتام وعائدًا منها. حرص على أنها تعرف أية إهانة بالغة يشعر بها.

يقول:

ـ لم أعد صغيرًا. لا أقول إنك تهتمين. فأنت ستمسحين بي البلاط إن سنحت الفرصة. لكن الفرصة ليست سانحة يا ليلى. ليست سانحة.

يفترقون قبل دار الأيتام بشارعين، ولم يسمح لهم قطُّ بأكثر من خمس عشرة دقيقة. يقول:

ـ تأخروا دقيقة وسأبدأ في العودة. أنا أعني ما أقول.

تضطر ليلى إلى أن تلح عليه، إلى أن تستجديه، كي يطيل الدقائق المخصصة لعزيزة أكثر من ذلك. لأجل خاطرها، ولأجل خاطر مريم التي انفطر قلبها لغياب عزيزة، وإن ظلت، كعادتها، تكتم معاناتها وتحتفظ بها سرًّا. ومن أجل خاطر «زلماي» أيضًا، الذي يسأل عن أخته كل يوم، وينفجر في سورات غضب تنتهي أحيانًا بنوبات بكاء لا يجدي معها عزاء.

أحيانًا، في الطريق إلى دار الأيتام، كان رشيد يقف ويشكو أن ساقه متقرحة، ثم يستدير عائدًا ويبدأ المشي باتجاه المنزل في خطى طويلة ثابتة، من دون أن يعرج على الإطلاق. أو يطقطق بلسانه ويقول:

ـ إنها رئتاي يا ليلى. أنا مخنوق. ربما أتحسن غدًا، أو بعد غد. سنرى.

لم يكلف نفسه قطُّ اصطناع نفس متحشرج واحد، بل كثيرًا ما كان يشعل سيجارة وهو يستدير ويمشي عائدًا إلى المنزل. وتضطر ليلى إلى السير وراءه إلى المنزل، عاجزة، ترتعش من فرط الكراهية والغضب المكبوت.

ثم، ذات يوم، قال لليلى إنه لن يصحبها بعد الآن. قال:

ـ أنا متعب جدًّا من المشي في الشوارع طوال النهار بحثًا عن عمل.

قالت ليلى:

ـ سأذهب وحدي إذن. لا تستطيع أن تمنعني يا رشيد. هل تسمعني؟ يمكنك أن تضربني كما تريد، لكنني سأظل أذهب إلى هناك.

ـ افعلي ما تريدين، لكنك لن تفلتي من الطالبان. لا تقولي إنني لم أحذركِ.

قالت مريم:

ـ سآتي معكِ.

لكن ليلى لم تسمح بذلك:

ـ عليكِ البقاء مع «زلماي». إذا قبضوا علينا... لا أريده أن يرى ما سيحدث.

وهكذا صارت حياة ليلى فجأة تتمحور حول إيجاد طرق لرؤية عزيزة. في نصف المرات، لم تستطع الوصول إلى دار الأيتام. كان أحد الطالبان يرصدها وهي تقطع الشارع، ويمطرها بالأسئلة ـ «ما اسمك؟ إلى أين تذهبين؟ لماذا أنت وحيدة؟ أين محرمك؟» ـ قبل أن تُرسل إلى المنزل.

إذا كانت محظوظة، تعاقب بتعنيف لفظي أو ضربة واحدة على المؤخرة، أو لكزة في الظهر. في أحيان أخرى، كانت تقابَل بتشكيلة من الهراوات الخشبية، فروع الشجر المقطوعة حديثًا، الأسواط القصيرة، الصفعات، وكثيرًا القبضات.

ذات يوم، ضرب طالبان شاب ليلى بهوائي راديو. وعندما انتهى، أعطاها صفعة أخيرة على قفاها قائلًا:

ـ إذا رأيتك ثانية، سأضربك حتى يخرج حليب أمك من عظامك.

تلك المرة، عادت ليلى إلى المنزل. رقدت على بطنها، وهي تشعر أنها حيوان غبي مثير للشفقة، راحت تنشج فيما تضع مريم كمادات على ظهرها وركبتيها الداميتين. لكن، عادة، كانت ليلى ترفض الانصياع، فتتظاهر بأنها عائدة إلى المنزل، ثم تسلك طريقًا آخر من شوارع جانبية. أحيانًا يُقبض عليها، وتُستجوب، وتعنَّف ـ مرتين، أو ثلاث، أو حتى أربع مرات في يوم واحد. ثم تنزل الأسواط وتشق الهوائيات الهواء، فتعود إلى المنزل بخطى متثاقلة، دامية، من دون أن تنعم برؤية عزيزة. ثم أصبحت ليلى ترتدي طبقات إضافية من الملابس، حتى في الحر، كنزتين أو ثلاث تحت البرقع، كبطانة للحماية من الضربات.

لكن بالنسبة إلى ليلى، كانت المكافأة تستحق العناء، إذا استطاعت تجاوز الطالبان. إذ يصير بإمكانها البقاء مع عزيزة مثلما تريد، بالساعات حتى. تجلسان في الفناء، قرب الأرجوحة، بين أطفال آخرين وأمهات زائرات، وتتحدثان عما تعلمته عزيزة ذلك الأسبوع.

قالت عزيزة إن «كاكا زمان» يعلمهم شيئًا كل يوم، معظم الأحيان

يعلمهم القراءة والكتابة، أحيانًا الجغرافيا، وقليلًا من التاريخ أو العلوم، وأحيانًا يحكي لهم عن النباتات والحيوانات.

قالت عزيزة:

ـ لكن علينا أن ننزل الستائر، حتى لا يرانا الطالبان.

قالت إن «كاكا زمان» لديه دائمًا إبرات حياكة وكرات من الخيط جاهزة، تحسبًا لأن يأتي الطالبان للتفتيش:

ـ فنخفي الكتب ونتظاهر بأننا نخيط الملابس.

ذات يوم، في أثناء زيارتها لعزيزة، رأت ليلى امرأة في منتصف العمر، برقعها مرفوع، تزور ثلاث صبية وفتاة. لاحظت ليلى الوجه الحاد، الحاجبين الثقيلين، وربما الفم الغائر والشعر الرمادي. تذكرت الشيلان، والتنانير السوداء، الصوت الغليظ، وكيف كانت تعقص شعرها الأسود الفاحم، مشدودًا بقوة، حتى إن الشعر الخشن كان يظهر على قفاها. تذكرت ليلى هذه المرأة ذات مرة وهي تمنع الطالبات من الاحتجاب، وتقول إن النساء والرجال سواسية، وإنه ما من سبب يدعو النساء إلى الاحتجاب ما لم يحتجب الرجال.

عند لحظة معينة، رفعت «الخالة رَنجمال» رأسها والتقت عيونهما، لكن ليلى لم تلحظ في عيني مدرستها القديمة ما يدل على أنها عرفتها.

* * *

قالت عزيزة:

ـ في قشرة الأرض كسور تسمى صدوع.

كان عصر يوم دافئ، يوم جمعة، من شهر يونيو عام ٢٠٠١. كانوا يجلسون في الباحة الخلفية لدار الأيتام، هم الأربعة، ليلى و«زلماي» ومريم وعزيزة. استجاب رشيد تلك المرة ـ كما كان يحدث على مرات متباعدة ـ واصطحبهم هم الأربعة. كان ينتظر في الشارع، عند موقف الحافلة.

أخذ أطفال حفاة يتراكضون حولهم، يركلون كرة قدم فارغة من الهواء، ويطاردون بعضهم بعضًا من دون كلل.

كانت عزيزة تقول:

ـ وعلى جانبي الصدوع، هناك تلك الطبقات من الصخور التي تكوِّن قشرة الأرض.

كان شخص قد شدَّ شعر عزيزة إلى الخلف بعيدًا عن وجهها، وضفره، وثبَّته جيدًا فوق رأسها. حسدت ليلى هذا الذي أتيحت له فرصة الجلوس خلف ابنتها، يزيح خصلات شعرها واحدة بعد أخرى، ويطلب منها أن تجلس ساكنة.

كانت عزيزة تشرح وهي تفتح يديها، وكفاها إلى أعلى، وتحكهما معًا. وأخذ «زلماي» يراقبها بانتباه بالغ:

ـ اسمها الصفائح الككتونية؟

قالت ليلى:

ـ التكتونية.

فكاها لا يزالان متقرحان، وتشعر بألم في ظهرها ورقبتها. شفتها منتفخة، ولسانها لا يني يلكز الجيب الفارغ وسط القواطع السفلية حيث

كسر رشيد سنَّها قبل يومين. قبل وفاة مامي وبابي وانقلاب حياتها رأسًا على عقب، لم تكن ليلى تصدق قطُّ أن الإنسان يمكن أن يتحمل هذا القدر من الضرب، بهذه السفالة، وبهذا التكرار، ويظل قادرًا على أداء وظائفه.

ـ مضبوط. وعندما تتحرك بعضها أمام بعض، تلتقي وتنزلق ـ هل ترين يا مامي؟ ـ فتخرج طاقة، تنتقل إلى سطح الأرض وتجعلها تهتز.

قالت مريم:

ـ أنت تزدادين ذكاء. أصبحت أذكى كثيرًا من خالتك الغبية.

أشرق وجه عزيزة، وانبسط:

ـ أنت لست غبية يا خالة مريم. و«كاكا زمان» يقول إن حركة الصخور تتم، أحيانًا، على أعماق بعيدة جدًّا، وتكون قوية ومرعبة، لكن كل ما نشعر به على السطح هو هزة خفيفة. مجرد هزة خفيفة.

في الزيارة السابقة على تلك، كانت ذرات الأكسجين في الغلاف الجوي تشتت الضوء الأزرق من الشمس. وقالت عزيزة بقدر من الانفعال: «لو لم يكن للأرض غلاف جوي، لما ظهرت السماء زرقاء على الإطلاق وإنما بحر حالك السواد، والشمس نجم كبير ساطع في الظلام».

قال «زلماي»:

ـ هل سترجع عزيزة معنا إلى المنزل هذه المرة؟

قالت ليلى:

ـ قريبًا يا حبيبي. قريبًا.

راقبته ليلى وهو يتمشى، يمشي مثل والده، منحنيًا إلى الأمام، أصابع قدميه للداخل. مضى إلى الأرجوحة، دفع مقعدًا خاليًا، وانتهى به الأمر جالسًا على الأسمنت، ينتزع العشب من أحد الشقوق.

«يتبخر الماء من فوق أوراق الشجر ـ هل تعرفين يا مامي؟ ـ كما يتبخر من الغسيل المعلق على الحبل. ويدفع هذا تيار الماء إلى أعلى الشجرة. من الأرض وعبر الجذور، ثم بطول جذع الشجرة، عبر الفروع وحتى الأوراق. تلك العملية اسمها النتح».

أكثر من مرة، تساءلت ليلى عما سيفعله الطالبان إذا اكتشفوا دروس «كاكا زمان» السرية.

في أثناء الزيارات، لا تسمح عزيزة بكثير من الصمت، بل تملأ كل الفراغات بكلام متدفق، يخرج بصوت عالٍ مجلجل. كانت موضوعاتها تتشعب، يداها تلوحان بجموح، تنطلقان بعصبية لا تشبهها على الإطلاق. أصبحت لعزيزة ضحكة جديدة. ليست ضحكة بالضبط، وإنما أقرب إلى فواصل متوترة، غرضها الطمأنة، كما ظنت ليلى.

وظهرت تغيرات أخرى، إذ ستلاحظ ليلى القذارة أسفل أظافر عزيزة، وستلاحظ عزيزة ملاحظتها فتدس يديها تحت فخذيها. وكلما رأت عزيزة طفلًا يبكي وينز المخاط من أنفه، أو طفلًا يمشي عاري المؤخرة، وشعره ملبد بالطين، كان جفناها يرتعشان وتسارع بتبرير الأمر. كانت مثل مضيفة تشعر بالحرج أمام ضيوفها بسبب وساخة منزلها، ورثاثة هيئة أطفالها.

وكانت ترد على الأسئلة الخاصة بمدى تأقلمها بإجابات غامضة وإنما مرحة.

«أبلي بلاء حسنًا يا خالة، أنا بخير».

هل يشاكسك الأطفال؟

«لا يا مامي. الجميع هنا طيبون».

هل تأكلين؟ هل تنامين جيدًا؟

«آكل، وأنام أيضًا. نعم. أكلنا لحم الضأن ليلة أمس. أو ربما الأسبوع الماضي».

عندما تتكلم عزيزة بتلك الطريقة، ترى فيها ليلى كثيرًا من مريم.

الآن، كانت عزيزة تتهته. لاحظتها مريم أولًا. تهتهة خفيفة إنما ملحوظة، وتظهر أكثر مع الكلمات التي تبدأ بحرف التاء. سألت ليلى زمان عن الأمر، فعبس وقال:

ـ ظننتها هكذا منذ زمن.

غادروا دار الأيتام بصحبة عزيزة بعد ظهر يوم الجمعة هذا لخروجة قصيرة وقابلوا رشيدًا، الذي كان ينتظرهم عند موقف الحافلات. عندما أبصر «زلماي» والده، أصدر صيحة انفعال وتلوَّى بنفاد صبر من بين ذراعي ليلى. أما تحية عزيزة لرشيد فكانت جامدة إنما ليست عدائية.

طلب منهم رشيد أن يسرعوا، فأمامه ساعتان فقط قبل أن يعود إلى العمل. كان أسبوعه الأول كبواب لفندق «الإنتركونتيننتال». من الظهر وحتى الثامنة، لستة أيام في الأسبوع، يفتح رشيد أبواب السيارات، ويحمل الحقائب، ويمسح ما قد ينسكب على الأرض. أحيانًا، في نهاية اليوم، يسمح الطباخ لرشيد بأن يعود إلى البيت ببعض بقايا الطعام الفائض من

«البوفيه» ـ طالما ظل الأمر سرًّا ـ كرات لحم باردة مغمورة في الزيت، أجنحة دجاج مقلية قَسَت قشرتها وجفت، مكرونة صدف محشوَّة فقدت طراوتها، أرز ناشف خشن. وقد وعد رشيد ليلى بأن تعود عزيزة إلى المنزل بمجرد أن يدخر بعض النقود.

كان رشيد يرتدي زي العمل: بدلة بوليستر خمرية، وقميصًا أبيض، وربطة عنق بمشبك، وكابًا مضغوطًا على شعره الأبيض. في هذا الزي الرسمي، كان رشيد يتحول. يبدو بلا حول ولا قوة، مرتبك على نحو يُرثى له، لا يكاد يملك لأحد ضرًّا. أشبه بشخص قَبِل، من دون تنهيدة احتجاج، الإهانات التي اختصته بها الحياة. شخص يثير انصياعه الشفقة والإعجاب على حد سواء.

استقلوا الحافلة إلى «مدينة تيتانيك». وتمشوا في مجرى النهر، المحفوف على الجانبين بأكشاك مرتجلة ملتصقة بالضفتين الجافتين. قرب الجسر، وهم ينزلون الدرج، رأوا رجلًا حافيًا يتدلى صريعًا من رافعة، وقد قُطعت أذناه والتوت رقبته عند طرف الحبل. في النهر، ذابوا وسط حشد المتبضعين الذي لا ينقطع، تجار العملة وموظفي المنظمات غير الحكومية الملولين، باعة السجائر، النساء المنتقبات اللاتي يدفعن في وجوه الناس وصفة طبيب مزورة مكتوب عليها أسماء مضادات حيوية ويتسولون نقودًا لشرائها. الطالبان الذين يؤرجحون الأسواط ويمضغون «النسوار» ويتجولون في دوريات في «مدينة تيتانيك» باحثين عن ضحكة خليعة أو وجه مكشوف.

من كشك ألعاب، بين بائع معاطف من «البوستين» وطاولة أزهار صناعية، اختار «زلماي» كرة سلة مطاطية عليها دوامات صفراء وزرقاء.

قال رشيد لعزيزة:

ـ اختاري شيئًا.

أحجمت عزيزة، وقد تجمدت من الحرج.

ـ أسرعي. يجب أن أكون في العمل خلال ساعة.

اختارت عزيزة ماكينة كُرَات لبان ـ توضع فيها عملة فتخرج الحلوى، ثم تُستعاد العملة من باب دوار بالأسفل.

ارتفع حاجبا رشيد عندما أخبره البائع بالثمن. وتبع ذلك جولة من المساومة، انتهت برشيد يتجهم ويقول لعزيزة، وكأنها هي من ساومه:

ـ أرجعيها. لا أتحمل ثمنها.

في طريق العودة، أخذت واجهة الروح المعنوية المرتفعة لعزيزة تتلاشى كلما اقتربوا من دار الأيتام. كفت عن التلويح بيديها. وعلت الكآبة وجهها. هذا هو ما يحدث كل مرة. وجاء الدور على ليلى، بدعم من مريم، لتتولى الثرثرة، لتطلق ضحكًا متوترًا، لتملأ الصمت الحزين بدعابات لاهثة لا معنى لها.

لاحقًا، بعدما أوصلهم رشيد واستقل حافلة إلى العمل، تابعت ليلى عزيزة وهي تلوح مودعة وتجرجر قدميها بحذاء السور في الباحة الخلفية لدار الأيتام. فكرت في تهتهة عزيزة، وفيما قالته عزيزة من قبل عن قوة التشققات وارتطام الصخور في أعماق الأرض، وكيف أننا، في بعض الأحيان، لا نرى إلا هزة بسيطة.

* * *

صاح «زلماي»:

ـ ابتعد، أنت!

قالت مريم:

ـ ششش. فيمن تصرخ؟

أشار:

ـ هناك. هذا الرجل.

تبعت ليلى إصبعه. كان هناك رجل عند الباب الأمامي للمنزل، يستند عليه. استدارت رأسه عندما رآهما يقتربان. فك ذراعيه المعقودتين. تقدم نحوهما بخطى قليلة وهو يعرج.

توقفت ليلى.

خرج من حلقها صوت اختناق صاخب. خارت ركبتاها. انتابت ليلى فجأة رغبة، بل احتياج، أن تلمس ذراع مريم، كتفها، رسغها، شيء ما، أي شيء تستند عليه، لكنها لم تفعل، لم تجرؤ، لم تجرؤ على تحريك عضلة واحدة، لم تجرؤ على التنفس، أو الرمش بعينيها، خوفًا ألا يكون سوى سراب يرتعش من بعيد، وهم هش سيختفي مع أقل حركة. وقفت ليلى لا تحرك ساكنًا، ونظرت إلى طارق حتى صرخ صدرها طلبًا للهواء واحترقت عيناها كي تطرفان. وبطريقة ما، بمعجزة ما، بعد أن سحبت نَفَسها، أغمضت عينيها وفتحتهما، فرأته لا يزال واقفًا هناك. طارق لا يزال هناك!

سمحت ليلى لنفسها بأن تأخذ خطوة تجاهه، ثم أخرى، ثم أخرى، ثم أخذت تجري.

٤٣

مريم

في الطابق العلوي، في غرفة مريم، كان «زلماي» متوترًا ومشدودًا. أخذ ينطط كرة السلة المطاطية الجديدة في أرجاء الغرفة بعض الوقت، على الأرض، على الحوائط، طلبت منه مريم أن يتوقف، لكنه يعرف أنها لا تملك سلطة عليه، وهكذا ظل ينطط كرته، وعيناه مثبتتان على عينيها في تحدٍّ. لبرهة، أخذا يدفعان سيارته اللعبة، سيارة إسعاف بحروف حمراء سميكة على الجانبين، يدفعانها من واحد إلى آخر عبر الغرفة.

قبلها، عندما قابلا طارقًا عند الباب، ضم «زلماي» الكرة إلى صدره ودس إبهامه في فمه ـ وهو شيء لم يعد يفعله إلا حين تراوده الهواجس ـ ورمق طارقًا بنظرة متشككة.

الآن كان يقول:

ـ مَن هذا الرجل؟ أنا لا أحبه!

تأهبت مريم لأن تفسر له، لأن تخبره كيف أنه وليلى قد نشآ معًا، لكن

«زلماي» قاطعها وقال لها أن تدير سيارة الإسعاف حتى تصبح شبكتها الأمامية في مواجهته، وعندما أدارتها، قال إنه يريد استعادة كرته.

ـ أين هي؟ أين الكرة التي أحضرها لي بابا جان؟ أين هي؟ أريدها! أريدها!

وأخذ صوته يعلو ويجلجل أكثر مع كل كلمة.

قالت مريم:

ـ لقد كانت هنا حالًا.

وصرخ هو باكيًا:

ـ لا، اقد ضاعت، أنا أعرف. أعرف أنها ضاعت! أين هي؟ أين هي؟

قالت، وهي تجلب الكرة من دولاب الملابس حيث تدحرجت:

ـ ها هي.

لكن «زلماي» أخذ ينتحب ويضرب بقبضتيه، وهو يصرخ أنها ليست الكرة نفسها، لا يمكن أن تكون الكرة نفسها، لأن كرته ضاعت، وهذه كرة مزيفة، أين ذهبت كرته الحقيقية؟ أين؟ أين أين أين؟

أخذ يصرخ حتى اضطرت ليلى إلى الصعود وحملته، وراحت تهدهده وتمرر أصابعها في خصلات شعره المتموجة الداكنة، تجفف خديه المبللين وتطقطق بلسانها في أذنه.

انتظرت مريم خارج الغرفة. من أعلى السلم، كان كل ما تراه من طارق هو ساقيه الطويلتين، الحقيقية والصناعية، في بنطال كاكي، مفرودتين على

أرضية غرفة المعيشة الجرداء. وأدركت لحظتها لماذا بدا بواب فندق «الإنتركونتيننتال» مألوفًا يوم ذهبت هي ورشيد إلى هناك لمهاتفة جليل. كان يضع كابًا واقيًا من الشمس، وهو ما جعلها لا تفكر في الأمر قبل ذلك. لكن مريم تتذكر الآن ما حدث قبل تسع سنوات، تتذكره وهو جالس بالطابق السفلي، يجفف جبينه بمنديل ويطلب كوب ماء. الآن، تسابقت إلى عقلها أسئلة من كل نوع: هل كانت حبوب السلفا هي الأخرى جزءًا من الخدعة؟ مَن منهما حَبَك الكذبة، وألف التفاصيل المقنعة؟ وكم دفع رشيد لعبد الشريف - إن كان هذا هو اسمه أصلًا - كي يأتي ويحطم ليلى بقصة موت طارق؟

٤٤

ليلى

قال طارق إن أحد الرجال الذين شاركوه زنزانته كان له ابن عم جُلِد علنًا ذات مرة لأنه رسم طيور البشروش. أما ابن العم، فلديه الولع نفسه بتلك الطيور، ذلك الولع الذي لا يشفى:

ـ كراسات رسم بأكملها، وعشرات اللوحات الزيتية لها، تخوض في الأهوار، تتشمس في المستنقعات. أو ترحل في المغيب.

قالت ليلى:

ـ بشروش.

نظرت إليه وهو يجلس مستندًا على الحائط، ساقه السليمة مثنية عند الركبة. انتابتها رغبة أن تلمسه ثانية، كما لمسته من قبل عند البوابة الأمامية عندما ركضت نحوه. وقد شعرت بالحرج الآن وهي تتذكر كيف ألقت بذراعيها حول رقبته وبكت في صدره، كيف راحت تغمغم باسمه مرة بعد مرة بصوت مدغم. هل تصرفت باندفاع، بلهفة زائدة؟ ربما. لكن الأمر

لم يكن بيدها. وها هي تشتاق إلى لمسه ثانية، لتثبت لنفسها مجددًا أنه هنا حقًّا، أنه ليس حلمًا، ليس طيفًا.

قال:

ـ نعم، بشروش.

قال طارق إن الطالبان عندما اكتشفوا الرسومات، ساءتهم سيقان الطيور الطويلة العارية. وبعد أن ربطوا قدمي ابن العم وجلدوه على باطن قدميه حتى أُدميتا، خيروه بين أمرين: إما أن يطمس الرسومات أو أن يجعل البشروش محتشمة. وهكذا التقط ابن العم فرشاته ورسم لكل طائر سروالًا:

ـ وهكذا أصبحت لدينا طيور بشروش إسلامية.

تعالت ضحكة كتمتها ليلى سريعًا. خجلت من أسنانها المصفرَّة، من السنِّ المفقودة. خجلت من نظراتها الذابلة وشفتها المنتفخة. تمنت لو سنحت لها فرصة غسيل وجهها، أو تمشيط شعرها على الأقل.

قال طارق:

ـ لكن ابن العم سيضحك أخيرًا. لقد رسم تلك السراويل بألوان الماء. وعندما غادر الطالبان، غسلها.

ابتسم ـ لاحظت ليلى أنه فقد سنًّا هو الآخر ـ وطأطأ برأسه:

ـ أي نعم.

كان يعتمر قبعة «بكول»، وينتعل حذاء للتريض، ويرتدي كنزة صوفية سوداء مدسوسة في بنطاله الكاكي. كان يبتسم ويومئ برأسه ببطء. لم تتذكر ليلى أنها سمعته يقولها من قبل، «أي نعم» تلك، وكذا الإيماءة التأملية،

والأصابع التي تشكل خيمة في حجره، وطأطأة رأسه، كلها جديدة عليه. كلمة من كلام الكبار، إيماءة من إيماءات الكبار، ولكن ما العجب في هذا؟ طارق كبير الآن، رجل في الخامسة والعشرين، حركاته بطيئة وابتسامته مرهَقة. طويل، ملتحٍ، أكثر نحولًا عمن تراه في أحلامها، لكنه يملك يدين ذواتي مظهر قوي، يدي عامل شغِّيل، تظهر عليها أوردة منتفخة متعرجة. وجهه لا يزال نحيفًا ووسيمًا، لكن بشرته لم تعد ناعمة، يبدو جبينه ذاويًا، محروقًا من الشمس، مثل عنقه، جبين مسافر في نهاية رحلة شاقة طويلة. قبعته «البَكول» انزلقت إلى الخلف، فرأت ليلى أنه بدأ يفقد شعره. وقد انطفأ اللون العسلي في عينيه عما نتذكر، أصبح أكثر شحوبًا، أو ربما إضاءة الغرفة هي السبب.

تذكرت ليلى والدة طارق، حركاتها المتمهلة، الابتسامات الذكية، الباروكة الأرجوانية الباهتة. ووالده، حين يحدق وهو يضيِّق عينيه، ودعاباته اللاذعة. كانت قد أخبرت طارقًا، عندما استقبلته على الباب، بصوت ممتلئ بالدموع، وهي تتعثر في كلماتها، بما ظنته حلَّ به ولوالديه، وهز هو رأسه. وها هي تسأله الآن كيف حال والديه. لكنها ندمت على السؤال عندما طأطأ طارق برأسه وقال، وقد شرد قليلًا:

ـ توفيا!

ـ آسفة!

ـ نعم، وأنا أيضًا.

أخرج حقيبة ورقية صغيرة من جيبه وناولها لها:

ـ تفضلي. مع تحيات «أليونا».

بداخلها كانت قطعة جبن ملفوفة في بلاستيك.

ـ «أليونا». اسم جميل.

حاولت أن تكمل من دون أن يرتعش صوتها:

ـ زوجتك؟

ـ عنزتي.

نظر إليها متوقعًا، وكأنما ينتظر منها أن تسترجع ذكرى معينة.

ثم تذكرت ليلى. الفيلم السوفييتي. «أليونا» هي ابنة القبطان، الفتاة التي تحب الضابط الأول. كان هذا هو اليوم الذي وقفت فيه هي وطارق وحسينة يشاهدون الدبابات وعربات الجيب السوفييتية وهي تغادر كابل، اليوم الذي وضع فيه طارق قبعة الفراء الروسية السخيفة تلك.

كان طارق يقول:

ـ اضطررت إلى ربطها إلى وتد، وإلى بناء سور، بسبب الذئاب. على سفح التلال، حيث أعيش، هناك غابة قريبة، على بعد ربع ميل ربما، معظمها من أشجار الصنوبر، وبعض التنوب، وأرز الهيمالايا. في الغالب لا تخرج من الغابة، الذئاب، لكن مع وجود عنزة لا تتوقف عن الثغاء، وتحب التسكع، قد يخرجها ذلك. لذا كان السور، والوتد.

سألته ليلى:

ـ أية تلال؟

قال:

ـ بير بنجال. باكستان. المنطقة التي أعيش فيها اسمها مُرِّي، مصيف،

على بعد ساعة من إسلام آباد. وهي منطقة تلال وخضرة، أشجار كثيرة، وترتفع كثيرًا عن سطح البحر. لهذا فالجو لطيف في الصيف. مناسب للسُّياح.

قال إن البريطانيين أنشأوها كمحطة تلال قرب مقر قيادتهم العسكرية في راولبندي، حتى يهرب الفيكتوريون من الحر. وقال إنك تستطيع حتى الآن مشاهدة بعض آثار العصر الاستعماري، غرف الشاي هنا وهناك، الشاليهات المسقوفة بالصفيح، والتي تسمى أكواخًا، ومثل هذه الأشياء. البلدة نفسها صغيرة ولطيفة. شارعها الرئيسي يسمى «المول»، به مكتب للبريد، وسوق، وبضعة مطاعم، ومحلات تبيع الزجاج الملون والسجاجيد اليدوية للسُّياح بأسعار مبالغ فيها. المثير أن المرور في شارع «المول» يسير في اتجاه واحد، ذهابًا في أسبوع، وإيابًا في الأسبوع التالي.

قال طارق:

ـ يقول السكان إنه يشبه المرور في بعض مناطق أيرلندا. لكني لا أعرف. على أية حال، هي حياة بسيطة، لكنني أحبها. أحب العيش هناك.

ـ مع عنزتك. مع «أليونا».

لم تقصد ليلى المزاح قدر ما قصدت مدخلًا مستترًا ينقلهما إلى خيط آخر من خيوط الحوار، من قبيل: مَن يعيش معه أيضًا ويخاف على العنزة أن تأكلها الذئاب. لكن طارقًا اكتفى بإيماءة.

قال:

ـ أنا أيضًا آسف بشأن والديكِ.

ـ هل عرفت؟

ـ تحدثت مع بعض الجيران.

فترة صمت، تساءلت فيها ليلى عما قاله له الجيران أيضًا.

ـ لا أعرف أي أحد. أقصد من أيام زمان.

ـ جميعهم رحلوا. لم يبقَ أحد ممن تعرف.

ـ لم أعد أعرف كابل.

قالت ليلى:

ـ ولا أنا. مع أنني لم أغادرها قطُّ.

* * *

تلك الليلة، بعد رحيل طارق، وبعد العشاء، قال «زلماي»:

ـ مامي لديها صديق جديد. رجل.

رفع رشيد رأسه:

ـ فعلًا؟

* * *

سأل طارق إن كان له أن يدخن.

قال، وهو ينفض الرماد في صحن فنجان، إنهم مكثوا بعض الوقت في مخيم «ناصرِ باغ» للاجئين قرب بيشاور. كان يعيش هناك بالفعل ستون ألف أفغاني عند وصوله مع والديه:

ـ لم يكن سيئًا مثل بعض المخيمات الأخرى، مثل جالوزاي، أعوذ بالله. بل أظنه كان، ذات يوم، مخيمًا نموذجيًّا من بعض الجوانب، أيام الحرب الباردة، مكان يمكن أن يشير إليه الغرب ويثبت للعالم أنهم لا يكتفون بتوجيه السلاح إلى أفغانستان.

لكن ذلك كان في أثناء الحرب السوفييتية كما قال طارق، أيام الجهاد والاهتمام العالمي والتمويل السخي وزيارات «مارجريت تاتشر».

ـ تعرفين الباقي يا ليلى. بعد الحرب، سقط الاتحاد السوفييتي، ومضى الغرب في طريقه. لم يعد يهمهم شيء في أفغانستان، وجفت منابع التمويل. الآن أصبح «ناصر باغ» خيامًا وترابًا وبالوعات مفتوحة. عندما وصلنا إلى هناك، سلموا لنا عصا وقماش تخييم، وقالوا لنا أن ننصب خيمتنا.

قال طارق إن أكثر ما يتذكره في «ناصر باغ»، حيث عاشوا مدة سنة، هو اللون البُني.

ـ خيام بُنية. أناس ذوو بشرة بُنية. كلاب بُنية. عصيدة بُنية.

كانت ثمة شجرة جرداء يتسلقها كل يوم، يركب على فرع منها ويتفرج على اللاجئين الممددين في الشمس، أطرافهم المجدوعة والمتقرحة مكشوفة للعيان. يتفرج على صبية صغار هزيلين يحملون الماء في «جريكانات»، يجمعون فضلات الكلاب لإشعال النار، ينحتون بنادق «AK-47» من الخشب بسكاكين كليلة، يجرجرون أجولة دقيق القمح التي لا تصلح لعمل الخبز. تهب الريح، فترفرف الخيام في جميع أنحاء بلدة اللاجئين. تدفع جذامات من العشب في كل مكان، ترفع الطائرات الورقية لتطيرها من فوق أسطح العشش الطينية.

ـ مات كثير من الأطفال. الدوسنتاريا، السل، الجوع ـ قولي ما تشائين. غالبًا ما تكون الدوسنتاريا اللعينة. يا إلهي يا ليلى. لقد رأيت كثيرًا من الأطفال يُدفنون. لا يمكن للمرء أن يرى شيئًا أسوأ من ذلك.

عقد ساقيه. وعم الصمت بينهما مجددًا برهة.

قال:

ـ لم ينجُ والدي من الشتاء الأول. مات في أثناء نومه. لا أظنه تألم.

قال إن أمه، في ذاك الشتاء نفسه، أصيبت بالتهاب رئوي وكادت تموت، كانت ستموت، لولا طبيب في المخيم كان يعمل من عربة «ستايشان» حولها إلى عيادة متنقلة. كانت تصحو طوال الليل، محمومة، تسعل بغلظة، بَلْغَمًا بلون الصدأ. قال طارق إن الطوابير أمام الطبيب كانت طويلة. كان الجميع يرتعشون في الطابور، يتأوهون، يسعلون، بعضهم يتبرز على نفسه وهو واقف، والبعض الآخر لا يستطيع أن ينطق من فرط التعب أو الجوع.

ـ لكن الطبيب كان رجلًا مهذبًا. كشف على أمي، وأعطاها بعض الحبوب، وأنقذ حياتها ذاك الشتاء.

وفي الشتاء نفسه، ثبَّت طارق طفلًا.

اعترف قائلًا:

ـ في الثانية عشرة، أو الثالثة عشرة ربما. وضعتُ قطعة زجاج على رقبته واستوليت على بطانيته. أعطيتها لأمي.

قال طارق إنه تعهد لنفسه، بعد مرض أمه، ألا يقضيا شتاء آخر في

المخيم. سوف يعمل، ويوفر، لينتقلا إلى شقة في بيشاور بها تدفئة ومياه نظيفة. وعندما حل الربيع، بدأ يبحث عن عمل. من وقت إلى آخر، كانت شاحنة تأتي إلى المخيم في الصباح الباكر وتجمع دستتين من الصبية، وتأخذهم إلى حقل لنقل الحجارة أو إلى بستان لجمع التفاح في مقابل نقود قليلة، وأحيانًا بطانية أو حذاء. لكن طارقًا قال إنهم لم يطلبوه قطُّ.

ـ نظرة واحدة إلى ساقي وينتهي الأمر.

كانت هناك أعمال أخرى: حَفْر مصارف، بناء عشش، حمل مياه، نزح الفضلات من بيوت الخلاء. لكن الشباب كانوا يتعاركون على تلك الأعمال، ولم تكن لدى طارق أية فرصة.

ثم قابل صاحب متجر ذات يوم، في خريف عام ١٩٩٣

ـ عرض عليَّ مالًا مقابل أن أوصل معطفًا جلديًّا إلى لاهور. ليس الكثير، لكن ما يكفي. ما يكفي إيجار شقة لشهر أو ربما شهرين.

قال طارق إن صاحب المتجر أعطاه تذكرة حافلة، وعنوانًا عند ناصية بالقرب من محطة قطارات لاهور حيث سيوصل المعطف إلى أحد أصدقائه.

قال طارق:

ـ كنت أعرف. بالطبع كنت أعرف. قال إنه لو قُبض عليَّ، فأنا وحدي، إنني يجب أن أتذكر أنه يعرف مكان أمي. لكن العرض كان أفضل من أن أرفضه. والشتاء كان يقترب ثانية.

سألت ليلى:

- إلى أين وصلت؟

قال ضاحكًا، بنوع من الاعتذار والخجل:

- ليس لبعيد. لم أصل إلى الحافلة حتى. لكنني ظننت أنني محصن، تعرفين، آمن. كما لو أن هناك محاسبًا ما في مكان ما، رجل يدس قلم رصاص خلف أذنه يتعقب تلك الأشياء ويحصي الحاجيات، سينظر إلى أسفل ويقول: «نعم، نعم، يمكنه أن يحصل على هذا، سندع الأمر يمر. لقد دفع بعض المستحقات بالفعل هذا الصبي».

كان الحشيش في البطانة، وانسكب في الشارع عندما تناول الشرطي سكينًا وشق المعطف.

ضحك طارق مجددًا وهو يقول هذا، ضحكة متصاعدة ومرتجفة، وتذكرت ليلى حينئذ كيف كان يضحك هكذا عندما كانا صغيرين، ليغطي على إحراجه، ليخفف ما ارتكبه من حماقات أو فضائح.

* * *

قال «زلماي»:

- إنه يعرج.

- هل هو مَن أظن؟

قالت مريم:

- كانت مجرد زيارة.

رد رشيد بعنف وهو يرفع إصبعه:

ـ اخرسي أنتِ.

عاد ينظر إلى ليلى:

ـ ماذا تعرفين؟ عودة ليلى ومجنون. مثل الأيام الخوالي.

تحجر وجهه:

ـ إذن فقد أدخلتِه. هنا. في بيتي. أدخلتِه. كان هنا مع ابني.

قالت ليلى، وهي تصر على أسنانها:

ـ لقد خدعتني. كذبت عليَّ. جعلت هذا الرجل يجلس أمامي و... كنت تعرف أنني سأرحل لو عرفت أنه حي.

زأر رشيد:

ـ وأنتِ لم تكذبي عليَّ؟ هل تظنين أنني لم أعرف؟ لم أعرف بأمر ابنتك «الحرامي»؟ هل تظنينني أحمق أيتها العاهرة؟

* * *

كلما تحدث طارق أكثر، ارتعبت ليلى من اللحظة التي سيتوقف فيها. الصمت الذي سيتبع ذلك، الإشارة على أن دورها قد حان لتحكي، لتجيب عن لماذا؟ وكيف؟ ومتى؟ لتؤكد له ما يعرفه بالفعل. كانت تشعر بغثيان خفيف عندما يتوقف. تتحاشى نظرته. تنكس رأسها وتنظر إلى يديه، إلى الشعرات الداكنة الخشنة التي نبتت على ظهرهما في السنوات الماضية.

لم يقل طارق الكثير عن سنواته في السجن سوى أنه تعلم الحديث بالأردية هناك. عندما سألته ليلى، هز رأسه بنفاد صبر. في تلك الإيماءة،

رأت ليلى قضبانًا صدئة، وأجسادًا قذرة، ورجالًا قساة، وطرقات مزدحمة، وأسقفًا تتآكل بفعل الترسبات العفنة. قرأت في وجهه أنه مكان للوضاعة، مكان للانحطاط واليأس.

قال طارق إن أمه حاولت زيارته بعد القبض عليه:

ـ ثلاث مرات أتت، لكنني لم أرها قطُّ.

كتب لها خطابًا، ثم بضع خطابات أخرى، حتى وهو يشك في كونها تصل إليها.

ـ وكتبتُ لكِ.

ـ حقًّا؟

قال:

ـ آه، مجلدات. كان صديقك رومي سيحسدني على غزارة إنتاجي.

ثم ضحك ثانية، ضحكة هادرة تلك المرة، كما لو كان مرتبكًا من جرأته ومحرجًا مما أفصح عنه في الوقت نفسه.

وبدأ «زلماي» ينتحب بالأعلى.

* * *

قال رشيد:

ـ كما الأيام الخوالي إذن. أنتما معًا. أعتقد أنكِ تركتِه يرى وجهكِ.

قال «زلماي»:

ـ نعم تركته.

ثم توجه إلى ليلى:

ـ تركتِه يا مامي. لقد رأيتكِ.

* * *

عندما عادت ليلى إلى الطابق السفلي قال طارق:

ـ ابنك لا يهتم بي كثيرًا.

قالت:

ـ آسفة. ليس الأمر كذلك. إنه... لا تشغل بالك به.

ثم غيَّرت الموضوع سريعًا حين شعرت أنها منحرفة ومذنبة لأنها تكنُّ لـ«زلماي» هذا الشعور، وهو مجرد طفل، صبي صغير يحب والده، وكراهيته الغريزية لهذا الغريب مفهومة ومشروعة.

«وكتبتُ لكِ

مجلدات

مجلدات»

ـ منذ متى وأنت في مُرِّي؟

قال طارق:

ـ أقل من سنة.

قال إنه صادق رجلًا أكبر منه في السجن، يُدعى سليمًا، لاعب هوكي باكستاني سابق، ظل سنوات يدخل السجن ويخرج منه، وكان يقضي عقوبة عشر سنوات لطعن رجل شرطة سري. قال طارق إن هناك رجلًا

مثل سليم في كل سجن. هناك دائمًا رجل ماكر وصاحب اتصالات، يدير النظام ويجلب لك ما تريد، شخص تحتشد رفقته بالفرص والمخاطر. كان سليم هو من أُرسل يستعلم عن أم طارق، هو من أجلسه وأخبره، بصوت أبوي ناعم، أنها ماتت من البرد.

قضى طارق سبع سنوات في السجن الباكستاني. قال:

ـ عقوبة مخففة. كنت محظوظًا. اتضح أن القاضي الذي نظر قضيتي له أخ متزوج من امرأة أفغانية. ربما نظر إليَّ بعين الرحمة. لا أعرف.

عندما انقضت مدة عقوبة طارق، مع حلول شتاء عام ٢٠٠٠، أعطاه سليم عنوان أخيه ورقم هاتفه. كان اسم الأخ سعيدًا.

قال طارق:

ـ قال إن سعيدًا يمتلك فندقًا صغيرًا في مُرِّي. عشرين غرفة واستراحة، مكانًا صغيرًا لخدمة السُّياح. قال أخبره بأنني أرسلتك.

أحب طارق مُرِّي فور أن نزل من الحافلة: أشجار الصنوبر المغطاة بالثلج، الهواء البارد المنعش، الأكواخ الخشبية ذات الشبابيك الخشبية، الدخان الذي يتصاعد متموجًا من المداخن.

فكر طارق وهو يطرق باب سعيد أن هذا هو المكان المنشود، مكان لا يبعد عن البؤس الذي عرفه بُعد السماء عن الأرض فحسب، بل يجعل فكرة الشقاء والحزن نفسها فكرة فاحشة لا تخطر ببال:

ـ قلت لنفسي، هذا مكان يتيح للرجل أن يقف على قدميه.

عُيِّن طارق حارسًا وعاملًا يدويًا. قال إنه أبلى بلاء حسنًا في فترة

التدريب التي استمرت شهرًا، بنصف أجر، فثبته سعيد بالوظيفة. بينما كان طارق يتحدث، رأت ليلى سعيدًا، وتخيلته رجلًا ضيق العينين متورد الوجه، يقف عند نافذة مكتب الاستقبال يراقب طارقًا وهو يقطع الخشب ويجرف الثلج من المدخل. رأته ينحني على ساق طارق، يتفحصها، بينما طارق ممدد أسفل المغسلة يصلح ماسورةً تسرِّب المياه. تصورته يراجع السجلات ليتأكد من تمام النقود.

قال طارق إن كوخه يجاور الشاليه الصغير الذي تسكنه الطباخة، وهي أرملة عجوز وقور تدعى أديبة. الكوخان منعزلان عن الفندق نفسه، تفصلهما عن المبنى الرئيسي أشجار لوز متفرقة، ومقعد من مقاعد المتنزهات، وفسقية حجرية على شكل هرم، يقرقر فيها الماء صيفًا طوال النهار. تصورت ليلى طارقًا في الكوخ، جالسًا في فراشه، يراقب الأشجار المورقة خارج نافذته.

في نهاية فترة التمرين، رفع سعيد أجر طارق ليصبح راتبًا كاملًا، وأخبره أن وجباته مجانية، وأعطاه معطفًا من الصوف، وأخذ قياسه من أجل ساق جديدة. قال طارق إنه بكى من طيبة الرجل.

عندما وضع طارق في جيبه المرتب الكامل للشهر الأول، مضى إلى البلدة واشترى «أليونا».

قال طارق مبتسمًا:

- فراؤها شاهق البياض. في بعض الصباحات، بعد ليلة من تساقط الثلوج، تنظرين من النافذة فلا ترين منها إلا عينين وخطمًا.

أومأت ليلى برأسها. وأعقب ذلك صمت آخر. بالأعلى، كان «زلماي» قد بدأ ينطط كرته ثانية على الحائط.

قالت ليلى:

ـ ظننتك متَّ.

ـ أعرف. لقد أخبرتِني.

تهدج صوت ليلى. كان عليها أن تتنحنح، أن تلملم شتات نفسها:

ـ الرجل الذي جاء ليبلغني بالخبر، كان جادًّا جدًّا... حتى إنني صدقته يا طارق. أتمنى لو لم أصدقه، لكنني صدقته. ثم شعرت بأنني وحيدة تمامًا وخائفة. لولا ذلك، ما كنت لأوافق على الزواج من رشيد. لم أكن لأوافق...

قال بصوت ناعم، متجنبًا النظر في عينيها:

ـ لا تفعلي ذلك.

قالها من دون عتاب خفي، ولا اتهام. من دون نبرة لوم.

ـ يجب أن أقول لكَ، لأنه كان هناك سبب أكبر جعلني أتزوجه. هناك شيء لا تعرفه يا طارق. شخص يجب أن أخبرك بأمره.

* * *

سأل رشيد «زلماي»:

ـ هل جلستَ وتكلمتَ معه أنت أيضًا؟

لم يرد «زلماي». رأت ليلى لحظتها التردد والشك في عِينيه، وكأنما أدرك لتوه أن ما كشف عنه أصبح أكبر كثيرًا مما تصور.

ـ لقد سألتك سؤالًا يا ولد.

ازدرد «زلماي» ريقه. وظلت نظرته تتحرك.

ـ كنت في الطابق العلوي، ألعب مع مريم.

ـ وأمك؟

نظر «زلماي» إلى ليلى نظرة اعتذار، والدموع تكاد تطفر من عينيه.

قالت ليلى:

ـ لا بأس يا «زلماي». قل له الحقيقة.

قال في صوت رفيع يكاد يكون همسًا:

ـ كانت... كانت في الأسفل تتكلم مع الرجل.

قال رشيد:

ـ فهمت. تُقسِّمان المهام.

* * *

قال طارق وهو يغادر:

ـ أريد أن أقابلها. أريد أن أراها.

قالت ليلى:

ـ سأرتب لذلك.

ـ عزيزة. عزيزة.

ابتسم وهو يتذوق الكلمة. كانت ليلى تشعر بخطأ ما عندما ينطق رشيد اسم ابنتها، شيء من الفظاظة.

ـ عزيزة. اسم جميل.

ـ وهي أيضًا جميلة. سوف ترى.

ـ سأعد الدقائق.

لقد مرت عشر سنوات تقريبًا منذ تقابلا آخر مرة. ومضت في عقل ليلى كل الأوقات التي اجتمعا فيها في الزقاق، حيث تبادلا القبلات سرًّا. تساءلت كيف تبدو الآن في عينيه؟ ألا يزال يراها جميلة، أم تبدو له ذابلة، فقدت جمالها وأصبحت مثيرة للشفقة، مثل عجوزٍ حيزبون؟ عشر سنوات تقريبًا. لكن للحظة، وهي تقف هناك مع طارق في ضوء الشمس، شعرت كأن تلك السنين لم تمر قطُّ. موت والديها، زواجها من رشيد، القتل، الصواريخ، الطالبان، الضرب، الجوع، وحتى طفليها، كل ذلك بدا حلمًا، انحرافًا غريبًا، مجرد فاصل قصير بين آخر نهار لهما معًا وبين هذه اللحظة.

ثم تغيَّر وجه طارق، واكتسى بالجدية. كانت تعرف هذا التعبير. النظرة ذاتها التي علت وجهه ذاك اليوم، قبل تلك السنوات الطويلة عندما كانا طفلين، عندما خلع ساقه وانقض على خادم. كان الآن يمد إحدى يديه ويلمس زاوية شفتها السفلى.

قال ببرود:

ـ هو مَن فعل بكِ هذا؟

لدى لمسته، تذكرت ليلى الهياج الذي تملكهما يوم حملت بعزيزة: أنفاسه على رقبتها، عضلات ردفيه وهي تنقبض، صدره وهو يضغط على ثدييها، وأيديهما متشابكة.

قال طارق بصوت أقرب إلى الهمس:

ـ أتمنى لو أنني اصطحبتكِ معي.

اضطرت ليلى إلى أن تنكس رأسها، وحاولت ألا تبكي.

ـ أعرف أنكِ الآن امرأة متزوجة وأم. وها أنا، بعد كل تلك السنين، بعد كل ما حدث، أظهر عند عتبة بابك. أغلب الظن أنه أمر غير مقبول، غير عادل، لكنني جئت كل هذا الطريق الطويل لكي أراكِ، ولكي... آه يا ليلى، أتمنى لو أنني لم أتركك قطُّ.

قالت بصوت متحشرج:

ـ لا...

ـ كان عليَّ أن أحاول أكثر. كان عليَّ أن أتزوجك والفرصة سانحة. كان كل شيء سيختلف ساعتها.

ـ لا تتحدث هكذا. أرجوك. هذا مؤلم.

أومأ برأسه، وشرع يأخذ خطوة تجاهها، ثم أوقف نفسه:

ـ لا أريد أن أفترض أي شيء. ولا أريد أن أقلب حياتك رأسًا على عقب، وأنا أظهر هكذا من اللامكان. إذا أردتِني أن أغادر، إذا أردتني أن أعود إلى باكستان، قوليها يا ليلى. أنا أعني هذا. قوليها وسأمضي. لن أزعجك ثانية أبدًا، سوف...

ـ لا!

خرجت الكلمة من ليلى أكثر حدة مما أرادت. رأت نفسها وقد مدت يدها إلى ذراعه، وقد تشبثت بها، فأسقطت يدها.

ـ لا. لا ترحل يا طارق. لا. أرجوك ابق!

أومأ طارق برأسه.

ـ إنه يعمل من الظهر وحتى الثامنة. عد بعد ظهر غد. سآخذك إلى عزيزة.

ـ أنا لا أخاف منه، تعرفين.

ـ أعرف. عد غدًا بعد الظهر.

ـ وعندها؟

ـ عندها... لا أعرف. يجب أن أفكر. هذا...

قال طارق:

ـ أعرف. أتفهم. أنا آسف. أنا آسف على أمور كثيرة.

ـ لا تتأسف. لقد وعدت أن تعود، وقد عُدت.

ترقرقت عيناه بالدموع:

ـ سعدت برؤيتكِ يا ليلى.

راقبته وهو يمضي، وهي ترتعش في مكانها. تذكرت كلمته: «مجلدات»، فسرت بها رجفة أخرى، تيار من شيء حزين وكئيب، وفي الوقت نفسه، حماسي ومتهور، ومفعم بالأمل.

٤٥

مريم

قال «زلماي»:

ـ كنت في الطابق العلوي، ألعب مع مريم.

ـ وأمك؟

ـ كانت... كانت في الأسفل تتكلم مع الرجل.

قال رشيد:

ـ فهمت. تقسّمان المهام.

رأت مريم وجهه يسترخي، ينبسط. رأت الطيات تختفي من جبينه. الشك والريبة يومضان في عينيه. اعتدل في جلسته، ثم بدا، للحظات، وأنه يتأمل وحسب، مثل قبطان سفينة أُبلغ بتمرد وشيك فأخذ وقته في تدبر خطوته التالية.

ثم رفع رأسه.

بدأت مريم تقول شيئًا، لكنه رفع يدًا، وقال من دون أن ينظر إليها:

ـ فات الأوان يا مريم.

ولـ«زلماي» قال ببرود:

ـ اطلع فوق يا ولد.

رأت مريم الفزع على وجه «زلماي». نظر حوله إلى ثلاثتهم بتوتر، وقد أحس الآن أن لعبة النميمة التي لعبها أطلقت في الغرفة أمرًا خطيرًا، من أمور الكبار. ألقى نظرة بائسة نادمة على مريم، ثم على أمه.

في صوت متحدٍّ، قال رشيد:

ـ الآن!

قبض على مرفق «زلماي». أذعن «زلماي» وترك نفسه يُقاد إلى أعلى.

وقفتا متجمدتين، مريم وليلى، أعينهما في الأرض، كما لو كان التقاء أنظارهما سيضفي مصداقية على الطريقة التي يرى بها رشيد الأمور: أنه بينما كان يفتح الأبواب ويحمل الحقائب لأناس لا يشغلون بالهم بمجرد النظر إليه، كانت مؤامرة فاسقة تُحبَك من خلف ظهره، في بيته، في وجود ابنه الحبيب. لم تنطق إحداهما بكلمة. أخذتا تنصتان إلى وقع الخطى في الردهة بالأعلى، خطى ثقيلة تنذر بالشر، وأخرى أشبه بدبيب حيوان صغير مهتاج. أصغتا إلى كلمات ساكنة نُطقت، صوت طفولي متوسل، رد فظ، باب يُغلق، صليل مفتاح يدور، ثم وقع خطوات ترجع، وقد أصبحت أكثر تعجلًا.

رأت مريم قدميه تدقان على الدرج وهو ينزل. رأته يضع المفتاح في

جيبه، رأت حزامه، الطرف المثقَّب ملفوف بإحكام حول قبضته، والحلقة النحاسية تجرْجَر خلفه، فتنط على الدرج.

ذهبت لكي توقفه، لكنه دفعها إلى الخلف ومرق من جوارها. ومن دون كلمة، ضرب ليلى بحزامه. فعلها بسرعة بالغة حتى إنها لم تجد الوقت للتراجع أو الانحناء، أو حتى رفع ذراعها لتحمي بها نفسها. تحسست ليلى صدغها بأصابعها، ثم نظرت إلى الدم، حدقت في رشيد باندهاش. تلك النظرة غير المصدقة في عينيها لم تطل أكثر من لحظة أو لحظتين، قبل أن تحل محلها نظرة كراهية.

ضرب رشيد بحزامه ثانية.

تلك المرة، حمت ليلى نفسها بساعدها، وحاولت أن تقبض على الحزام، لم تستطع، وأنزل رشيد الحزام ثانية. أمسكت به ليلى لحظة قبل أن ينتزعه رشيد منها ويجلدها مُجددًا. ثم أخذت ليلى تركض في الغرفة، وأخذت مريم تصرخ بكلمات متداخلة، تتوسل إلى رشيد، وهو يطارد ليلى، وهو يسد طريقها ويفرقع بحزامه عليها. عند لحظة معينة، انحنت ليلى واستطاعت أن توجه لكمة إلى أذنه، فأطلق شتيمة وشرع يطاردها بإصرار أكبر. أمسكها، وألقى بها على الجدار، وضربها بالحزام مرة بعد مرة، أخذت الحلقة تضرب صدرها، وكتفها، وذراعيها المرفوعتين، وأصابعها، وأخذ الدم يسيل حيثما وقعت الضربة.

توقفت مريم عن عد المرات التي فرقع فيها الحزام، المرات التي صرخت فيها متوسلة لرشيد، المرات التي حاولت فيها التدخل وسط تلك الكتلة المتشابكة غير المتجانسة من الأسنان والقبضات والحزام، قبل أن

ترى أصابع تنشب في وجه رشيد، أظافر مقصوصة تنغرس في لغده وتشد شعره وتخمش جبهته. كم مر من الوقت قبل أن تدرك، بخليط من الذهول والتلذذ، أن الأصابع كانت أصابعها.

ترك ليلى وتحول إليها. في البداية، نظر إليها من دون أن يراها، ثم ضيَّق عينيه، وتفحص مريم ليقيِّمها، ثم تحولت نظرة عينيه من الحيرة إلى الصدمة، ثم ظهر فيهما، للحظة، الاستهجان، بل الإحباط.

تذكرت مريم أول مرة رأت فيها عينيه، تحت طرحة الزفاف، في المرآة، وجليل ينظر إليهما، كيف انزلقت نظراتهما على الزجاج والتقت، نظرته اللامبالية، ونظرتها المنصاعة، المستسلمة، بل الاعتذارية.

«اعتذارية!»

الآن ترى مريم في العينين ذاتهما كم كانت حمقاء.

سألت نفسها: هل كانت زوجة مخادعة؟ زوجة متعجرفة؟ زوجة غير شريفة؟ وضيعة؟ فظة اللسان؟ أي أذى ألحقته عن عمد بهذا الرجل لتستحق حقده وعدوانه المستمر، لتستحق التلذذ الذي يعذبها به؟ ألم ترعه وهو مريض؟ ألم تطعمه وأصدقاءه؟ وتنظف بعدهم كما يقتضي الواجب؟

ألم تُعط شبابها لرجلها؟

هل استحقت وضاعته؟

دقَّ الحزام عندما أفلته رشيد على الأرض وانقض عليها. كانت تلك الدَّقة تعني أن ثمة عملًا يجب أن يُنجز باليدين العاريتين.

لكن وهو ينقض عليها، رأت مريم ليلى خلفه تلتقط شيئًا من الأرض.

راقبت يد ليلى وهي ترتفع فوق رأسها، تتوقف، ثم تهوي على جانب وجهه. زجاج تهشم. حطام كوب أمطر الأرض. كان ثمة دم على يدي ليلى، دم يسيل من الجرح المفتوح على خد رشيد، دم على عنقه، على قميصه. استدار، وقد كشر عن أنيابه واتقدت عيناه.

سقطا على الأرض، رشيد وليلى، يتخبطان. انتهى به الأمر فوقها، يداه ملفوفتان حول عنق ليلى.

نشبت مريم أظافرها فيه. ضربت صدره. ألقت بنفسها عليه. جاهدت لكي تفك أصابعه عن رقبة ليلى. عضته. لكن الأصابع ظلت ملتفة بإحكام حول قصبة ليلى الهوائية، ورأت مريم أنه ينوي إكمال الأمر إلى النهاية.

كان ينوي خنقها، ولم يكن بيد أي منهما ما تفعله.

تراجعت مريم وتركت الغرفة. كانت تسمع صوت الخبط من الطابق العلوي، تسمع هاتين الكفين الرقيقتين وهما تطرقان الباب الموصد. جرت في الردهة. اندفعت خارجة من الباب الأمامي. اجتازت الباحة.

في سقيفة الأدوات، قبضت مريم على الجاروف.

لم يلاحظ رشيد عودتها إلى الغرفة. كان لا يزال فوق ليلى، عيناه واسعتان ومجنونتان، ويداه ملفوفتان حول عنقها. كان وجه ليلى قد تحول إلى اللون الأزرق، ودارت عيناها إلى الخلف. ورأت مريم أنها لم تعد تقاوم. فكرت: «سيقتلها، إنه ينوي ذلك حقًّا». ولم يكن بوسع مريم أن تسمح، ولن تسمح، بذلك. لقد سلبها الكثير على مدار سبعة وعشرين عامًا من الزواج. لن تتفرج عليه وهو يسلبها ليلى أيضًا.

ثبتت مريم قدميها وشددت قبضتها حول مقبض الجاروف. رفعته. نادت عليه. أرادت له أن يرى:

ـ رشيد.

نظر إلى أعلى.

وضربت مريم.

ضربته على صدغه، فأسقطته الضربة عن ليلى.

لمس رشيد رأسه بكف يده. نظر إلى الدم على أطراف أصابعه، ثم إلى مريم. ظنت أنها رأت وجهه يلين. تخيلت أن شيئًا قد مر بينهما، أنها غرست، حرفيًّا، مع الضربة بعض الفهم داخل رأسه. ظنت مريم أيضًا أنه ربما رأى شيئًا في وجهها، شيئًا جعله يراجع نفسه. ربما رأى أثرًا من كل ما قدمته من إنكار للذات، وما بذلته من تضحيات، وما عانته من ضغوط لكي تعيش معه طيلة تلك السنوات، مع غطرسته وعنفه الدائمين، مع وضاعته وميله الدائم للتفتيش عن العيوب. هل ما تراه في عينيه هو الاحترام؟ الندم؟

لكن شفته العليا التوت إلى الخلف في حقد، وعرفت مريم لحظتها أنه سيكون أمرًا عقيمًا وغير مسؤول من جانبها ألا تنهي ما بدأته، أن تتركه يمضي. فكم من الوقت سيمر قبل أن يُخرج المفتاح من جيبه ويصعد ليجلب مسدسه من أعلى في الغرفة التي أوصد بابها على «زلماي»؟ لو كانت مريم واثقة من أنه سيكتفي بإطلاق النار عليها وحدها، من أن ثمة فرصة أن يُبقي على ليلى، لربما أسقطت الجاروف، لكنها رأت في عيني رشيد مصرع كلتيهما.

وهكذا رفعت مريم الجاروف إلى أعلى، رفعته إلى أعلى ما تستطيع، وتقوست حتى لمس أسفل ظهرها. أدارته لكي تصبح الحافة الحادة رأسية، وبينما تفعل ذلك خطر ببالها أن تلك هي المرة الأولى التي تقرر فيها بنفسها مسار حياتها.

وعندها، ضربت مريم بالجاروف. تلك المرة، أودعته كل ما تملك.

٤٦

ليلى

كانت ليلى واعية بالوجه الذي ينظر إليها من أعلى، أسنان وتبغ وعينين تنذران بالشر. كما كانت واعية، على نحو معتم، بمريم، بحضور خلف الوجه، بقبضتيها تنهالان. ومن فوقهما كان السقف، وكان سقفًا انجذبت إليه ليلى، العلامات الداكنة التي خلَّفها العفن الذي انتشر في أنحائه مثل نقطة حبر على فستان، الشقُّ في الطلاء الذي يشبه ابتسامة بليدة أو تكشيرة، بحسب الناحية التي تنظر منها. فكرت ليلى في كل الأوقات التي ربطت فيها مزقة قماش حول طرف مكنسة ونظفت شباك العنكبوت من السقف. المرات الثلاث التي وضعت فيها هي ومريم طبقات من الطلاء الأبيض عليه. لم يعد الشق الآن ابتسامة، وإنما نظرة هازئة، وكانت تتراجع. كان السقف ينكمش، يعلو، يرتفع بعيدًا عنها باتجاه عتمة ضبابية. ارتفع حتى انكمش وأصبح في حجم طابع بريد، أبيض وساطع، كل ما حوله طُمس في الظلام الدامس. في الظلام، كان وجه رشيد أشبه ببقعة مشمسة.

ومضات صغيرة متقطعة من الضوء الذي يغشي الأبصار أمام عينيها

الآن، مثل نجوم فضية تنفجر. أشكال هندسية عجيبة في الضوء، ديدان، أشكال تشبه البيض، تتحرك إلى أعلى وإلى أسفل، إلى الجانبين، تذوب بعضها في بعض، تنفصل، تتشكل في أشكال أخرى، ثم تخبو، ليحل السواد محلها.

أصوات مكتومة وبعيدة.

خلف جفنيها، توهج وجها طفليها ثم تبددا. عزيزة: متيقظة وحمَّالة، عارفة وكتوم. «زلماي»: وهو يتطلع إلى وجه أبيه بلهفة واشتياق.

فكرت ليلى: هكذا سينتهي الأمر إذن. يا لها من نهاية مثيرة للشفقة.

لكن فجأة أخذ الظلام ينقشع. وراودها إحساس بأنها تعلو، تُرفع. عاد السقف ببطء إلى مكانه، وتمدد، وأصبحت ليلى تتبين الشق من جديد، الابتسامة القديمة البليدة نفسها.

كان شخص يهزها:

ـ هل أنت بخير؟ أجيبيني، هل أنت بخير؟

كان وجه مريم، المنقوش بالجروح والخدوش، المثقل والقلِق، يحلِّق فوق ليلى.

حاولت ليلى أن تتنفس، فاحترق حلقها. حاولت ثانية، فاحترق أكثر تلك المرة، لا حلقها فحسب، وإنما صدرها أيضًا. ثم سعلت، وتحشرجت. شهقت، لكنها تنفست. وتعالى رنين في أذنها السليمة.

* * *

أول ما رأته عندما اعتدلت جالسة كان رشيدًا. كان راقدًا على ظهره،

محدقًا في الفراغ، لا يطرف، فمه مفغور مثل سمكة. وقد سال قليل من الزَّبَد الوردي الخفيف من فمه على خده. كانت مقدمة سرواله مبللة. ورأت جبينه.

ثم رأت الجاروف.

وخرجت منها زفرة. قالت وهي ترتعش، وتخرج الصوت بالكاد:

ـ أواه، أواه يا مريم.

* * *

أخذت ليلى تروح وتجيء، تئن وتضرب يديها معًا، بينما جلست مريم بالقرب من رشيد، يداها في حجرها، هادئة وبلا حراك. لوقت طويل، لم تنطق مريم بشيء.

كان فم ليلى جافًّا، وكانت تتلعثم في كلامها، وجسدها بأكمله يرتعش. تجنبت النظر إلى رشيد، إلى فمه المفغور، وعينيه المفتوحتين، والدم المتجلط في تجويف ترقوته.

بالخارج، كان الضوء يخبو، والظلام ينزل. بدا وجه مريم رفيعًا وممطوطًا في ذلك الضوء، لكن لم يبدُ عليها الاضطراب أو الخوف، كانت منشغلة فحسب، متأملة، غارقة في ذاتها، حتى إنها لم تنتبه عندما وقفت ذبابة على ذقنها. فقط جلست وشفتها السفلى ممطوطة، كما تبدو حين تستغرق في التفكير.

في النهاية قالت:

ـ اجلسي يا ليلى جو.

جلست ليلى طائعة.

ـ علينا أن ننقله. لا يمكن لـ«زلماي» أن يرى هذا.

* * *

أخرجت مريم مفتاح غرفة النوم من جيب رشيد قبل أن تلفاه في ملاءة سرير. أمسكت ليلى بساقيه، خلف الركبتين، وقبضت مريم على ذراعيه من أسفل. حاولتا رفعه لكنه كان ثقيلًا جدًّا، فانتهتا إلى جرجرته. وهما تخرجان من الباب الأمامي إلى الباحة، علقت قدم رشيد بحَلْق الباب وانثنت ساقه جانبًا. وكان عليهما أن ترجعا ثم تحاولا ثانية، ثم سُمعت خبطة من أعلى وخارت ساقا ليلى. أسقطت رشيد وهوت على الأرض، تنشج وترتعش، وكان على مريم أن تقف إلى جوارها، ويداها على ردفيها، وتقول لها أن تتمالك نفسها. فما حدث قد حدث.

بعد برهة، نهضت ليلى ومسحت وجهها، وحملتا رشيد إلى الباحة من دون عوائق أخرى. أخذتاه إلى السقيفة. تركتاه خلف طاولة العمل، التي كان قد وضع عليها منشاره، وبعض المسامير، وإزميل، ومطرقة، وقطعة أسطوانية من الخشب كان ينوي نحتها لعبة لـ«زلماي»، لكن الفرصة لم تسنح له.

ثم عادتا إلى الداخل. غسلت مريم يديها، ومررتهما في شعرها، أخذت نفسًا عميقًا وأخرجته:

ـ دعيني أعالج جروحك. أنت مجروحة في كل مكان يا ليلى جو.

* * *

قالت مريم إنها ستفكر الليلة كي تتدبر الأمر. كي تلملم شتات أفكارها وتحبك خطة.

قالت:

ـ هناك طريقة. وعليَّ أن أجدها.

قالت ليلى في صوت مبحوح متهدج:

ـ يجب أن نغادر. لا يمكن أن نظل هنا.

فكرت فجأة في الصوت الذي لا بد أن الجاروف قد أصدره عند ارتطامه برأس رشيد، فارتمى جسدها إلى الأمام، واندفعت العصارة حتى صدرها.

انتظرت مريم بصبر حتى شعرت ليلى بتحسن. ثم جعلت ليلى ترقد، وأخذت تمسد شعرها في حجرها، وهي تقول لها ألا تقلق، إن كل شيء سيكون على ما يرام. قالت إنهم سيغادرون ـ هي وليلى والطفلان، وطارق أيضًا. سيغادرون هذا البيت، وهذه المدينة التي لا ترحم. قالت مريم وهي تمر بيديها في شعر ليلى إنهم سيغادرون هذا البلد البائس كلية، ويذهبون إلى مكان بعيد وآمن حيث لن يعثر عليهم أحد، حيث يمكنهم التنصل من ماضيهم والعثور على ملجأ.

قالت:

ـ مكان فيه أشجار. نعم. كثير من الأشجار.

قالت مريم إنهم سيعيشون في بيت صغير على حدود بلدة لم يسمعوا بها قطُّ، أو في قرية نائية طريقها ضيق وغير ممهد ولكن تحفه من

الجانبين كل أنواع النباتات والشجيرات. ربما يكون بها درب، درب يؤدي إلى حقل من الأعشاب حيث يمكن للطفلين أن يلعبا، أو ربما طريق من الحصى يقودهما إلى بحيرة زرقاء صافية تسبح فيها أسماك السالمون المرقط وتبرز فيها ثعابين السمك برؤوسها من تحت السطح. ستربيان أغنامًا ودجاجًا، وتصنعان الخبز معًا وتعلّمان الطفلين القراءة. ستبدآن حياة جديدة ـ حياة منعزلة هادئة ـ وسترتفع عن كاهلهما كل ما تحملتاه من أعباء، وستستحقان كل السعادة والرفاهيات البسيطة التي ستتمتعان بها.

غمغمت ليلى مشجعة. ستكون حياة مليئة بالصعوبات، لكن من النوع السار، صعوبات يمكن أن تفتخرا بها، أن تسيطرا عليها، أن تجلاها، كما يجل المرء ميراثًا عائليًّا. تواصل صوت مريم الأمومي الناعم، فجلب لها نوعًا من الراحة. قالت: ثمة طريقة، وفي الصباح، ستخبرها مريم بما يلزم عمله وسوف تعملانه، وربما مع الغد، هذه المرة، سيكونون في طريقهم إلى تلك الحياة الجديدة، حياة زاخرة بالفرص والأفراح والصعوبات المستحبة. وشعرت ليلى بالامتنان لأن مريم أمسكت بزمام الأمور، عاقلة وواضحة الرؤية، قادرة على التفكير في الأمر لأجلهما معًا. ففي عقلها هي، اختلط الحابل بالنابل.

نهضت مريم:

ـ الآن، عليك الاعتناء بابنك.

وكان على وجهها أكثر تعبير مفجع رأته ليلى على وجه إنسان.

* * *

وجدته ليلى في الظلام، مكورًا على نفسه على المرتبة، حيث ينام رشيد. انزلقت تحت الأغطية إلى جواره وسحبت البطانية فوقهما.

ـ هل نمت؟

من دون أن يستدير لمواجهتها، قال:

ـ لا أستطيع النوم. بابا جان لم يقل دعاء «البابالو» معي.

ـ ربما أستطيع أن أقوله معك الليلة.

ـ لا تستطيعين أن تقوليه مثله.

ضغطت كتفه الصغيرة. قبّلت رقبته من الخلف:

ـ يمكنني أن أحاول.

ـ أين بابا جان؟

قالت ليلى، وحلقها ينغلق ثانية:

ـ بابا جان رحل.

ها هي، تنطق للمرة الأولى الكذبة الكبرى اللعينة. تساءلت ليلى مغتمة: كم مرة ستضطر إلى قول تلك الكذبة ثانية؟ كم مرة سيكون عليها خداع «زلماي»؟ تصورت «زلماي»، وهو يجري مبتهجًا ليرحب برشيد لدى عودته إلى البيت، ورشيد يرفعه من مرفقيه ويدور به مرة بعد مرة وساقا «زلماي» تطيران مفرودتين، ثم وهما يقهقهان بعدما يترنح «زلماي» مثل السكارى. فكرت في ألعابهما الفوضوية وضحكاتهما الصاخبة، في نظراتهما المتبادلة حين يكون بينهما سر مشترك.

ونزلت على ليلى غلالة من العار والحزن من أجل ابنها.

ـ أين ذهب؟

ـ لا أعرف يا حبيبي.

ـ متى سيعود؟ هل سيحضر لي بابا جان هدية معه عندما يعود؟

قالت الدعاء مع «زلماي». «بسم الله الرحمن الرحيم» واحد وعشرون مرة ـ مرة على كل مفصل لسبعة أصابع. رأته يكور يديه أمام وجهه وينفخ فيهما، ثم يضع ظهر يديه على جبهته ويلوح بإشارة الصرف، وهو يهمس: «أيها «البابالو»، ارحل، لا تأتي إلى «زلماي»، لا شأن لك معه. يا «بابالو»، ارحل». ثم اختتما الدعاء بقول «الله أكبر» ثلاث مرات. وبعدها، بعدها بوقت طويل في تلك الليلة، أجفلت ليلى من صوت مكتوم:

ـ هل رحل بابا جان بسببي؟ بسبب ما قلته، عنك وعن الرجل في الأسفل؟

انحنت عليه، لكي تطمئنه، لكي تقول له:

ـ ليس لذلك علاقة بك يا «زلماي». لا. إنه ليس خطأك.

لكنه كان قد راح في النوم، وأخذ صدره الصغير يعلو ويهبط.

* * *

عندما ذهبت ليلى إلى الفراش، كان ذهنها مُقفلًا، غائمًا، غير قادر على التفكير المنطقي. لكن عندما استيقظت، على صوت أذان الفجر، كان كثير من التشويش قد انقشع.

جلست برهة تراقب «زلماي» في نومه، وقبضته مكوَّرة أسفل ذقنه. تصورت ليلى مريم وهي تتسلل إلى الغرفة في منتصف الليل وهي نائمة مع «زلماي»، تراقبهما، تصوغ الخطط في رأسها.

انزلقت ليلى من الفراش. بذلت جهدًا كي تقف. كانت تتألم في كل موضع: رقبتها، كتفيها، ظهرها، ذراعيها، فخذيها، كلها مليئة بجروح حلقة حزام رشيد. غادرت غرفة النوم بهدوء وهي تنقبض.

في غرفة مريم، كان الضوء أدكن من الرمادي بدرجة، ضوء يشبه ذلك الذي ظلت مريم تربطه بصياح الديكة وتدحرج الندى على أوراق العشب. كانت مريم تجلس في ركن، على سجادة صلاة تواجه النافذة. ببطء، نزلت ليلى إلى الأرض، وجلست قبالتها.

قالت مريم:

ـ يجب أن تذهبي وتزوري عزيزة هذا الصباح.

ـ أعرف ما تنوين عليه.

ـ لا تسيري، خذي الحافلة، ستختلطين بالزحام. سيارات التاكسي تثير الشكوك. وسيقبضون عليك إذا رأوك تركبين وحدكِ.

ـ ولكنك وعدتِني بالأمس...

لم تستطع ليلى إكمال كلامها. الأشجار، البحيرة، القرية التي بلا اسم. رأت ذلك وهمًا. كذبة جميلة لتهدئ من روعها. مثل الهديل في أذن طفل مكروب.

قالت مريم:

ـ لقد قصدت ذلك. قصدت ذلك لك يا ليلى جو.

تهدج صوت ليلى:

ـ لا أريد أيًّا من ذلك من غيرك.

ابتسمت مريم بوهن.

ـ أريده كما قلتِ بالضبط يا مريم، كلنا معًا، أنت وأنا والطفلين. طارق لديه مكان في باكستان. بإمكاننا الاختباء هناك بعض الوقت، حتى تهدأ الأمور...

قالت مريم بصبر، مثل أم تخاطب طفلًا حسن النية ولكنه لا يدرك الأمور:

ـ هذا غير ممكن.

قالت ليلى، وهي تختنق مع الكلمات، وعيناها تطفران بالدمع:

ـ سوف نعتني بعضنا ببعض. كما قلت. لا. سوف أعتني أنا بك من باب التغيير.

ـ أواه يا ليلى جو!

واصلت ليلى لغوها متلعثمة. عرضت صفقات. قطعت وعودًا. قالت إنها ستقوم بالتنظيف كله، والطبخ كله:

ـ لن يكون عليك فعل شيء بعد ذلك. أبدًا. أنت تستريحين، تنامين، تزرعين الحديقة. أيًّا كان ما تريدين، أنت تطلبين وأنا سأحضره لك. لا تفعلي هذا يا مريم. لا تتركيني. لا تحطمي قلب عزيزة.

قالت مريم:

ـ إنهم يقطعون يد من يسرق خبزًا، فماذا تظنينهم فاعلين عندما يكتشفون زوجًا ميتًا وزوجتين مفقودتين؟

همست ليلى:

ـ لن يعرف أحد. لن يجدنا أحد.

ـ سوف يجدوننا. آجلًا أم عاجلًا. إنهم كلاب بوليسية.

كان صوت مريم خفيضًا، محذرًا، وجعل وعود ليلى تبدو حالمة، بعيدة المنال، وحمقاء.

ـ مريم، أرجوك...

ـ وعندما يجدوننا، سوف يرونك مذنبة مثلي، وطارق أيضًا. لا أريد لكما أن تعيشا هاربين، مثل المجرمين. ماذا سيحدث لطفليك إذا قُبض عليكِ؟

دمعت عينا ليلى، وأحرقتها.

ـ مَن سيرعاهما حينئذ؟ الطالبان؟ فكري كأم يا ليلى جو. فكري كأم. أنا أفكر كأم.

ـ لا أستطيع.

ـ لا مفر.

تهدج صوت ليلى:

ـ هذا ليس عدلًا.

ـ إنه عدل. تعالي هنا. تعالي استلقي هنا.

زحفت ليلى تجاهها، وثانية وضعت رأسها على حجر مريم. تذكرت كل الأصائل التي قضتاها معًا، كل منهما تضفر شعر الأخرى، مريم تنصت بصبر لأفكارها العشوائية وقصصها العادية بنوع من العرفان، وعلى وجهها تعبير شخص أُنعم عليه بحظوة لا مثيل لها.

قالت مريم:

ـ إنه عدل. لقد قتلت زوجنا. حرمت ابنك من أبيه. ليس من الصواب أن أهرب. لا أستطيع. حتى لو لم يمسكوا بنا أبدًا، لن...

ارتعشت شفتاها.

ـ لن أهرب أبدًا من حزن ابنك. كيف أنظر إليه؟ كيف أجبر نفسي على النظر إليه يا ليلى جو؟

فتلت مريم خصلة من شعر ليلى، وفردت خصلة ملبَّدة:

ـ بالنسبة إليَّ، ينتهي الأمر هنا. لا أرغب في شيء آخر. كل ما تمنيته وأنا فتاة صغيرة أعطيتِني إياه. أنت وطفلاك جعلتموني سعيدة جدًّا جدًّا. لا بأس يا ليلى جو. لا بأس. لا تحزني.

لم تجد ليلى جوابًا عقلانيًّا لأي مما قالته مريم. لكنها ظلت تعيد وتزيد في كلامها، متخبطة، طفولية، عن أشجار الفاكهة التي تنتظر الزرع، والدجاجات التي تنتظر التربية. ظلت تتحدث عن بيوت صغيرة في بلدان لا اسم لها، وجولات إلى بحيرات مملوءة بالسالمون المرقط. وفي النهاية، عندما جف نبع الكلمات، لم يجف نبع الدموع، ولم يعد في وسع ليلى

إلا أن تستسلم وتنشج مثل طفل غلبه منطق الكبار الذي لا يقبل الجدل. لم يعد في وسعها إلا أن تتقلب وتدفن وجهها مرة أخيرة في الدفء المرحِّب لحجر مريم.

* * *

لاحقًا في هذا الصباح، لفَّت مريم غداء صغيرًا لـ«زلماي» مكونًا من الخبز والتين المجفف. ومن أجل عزيزة أيضًا لفَّت بعض التين، وقليل من قطع حلوى على شكل حيوانات. وضعتها جميعًا في كيس ورقي وأعطته لليلى.

قالت:

- قبِّلي عزيزة من أجلي. قولي لها إنها نور عيني، وسلطانة قلبي. هل تفعلين ذلك من أجلي؟

أومأت ليلى، وشفتاها مضمومتان.

- خذي الحافلة، كما قلت لك، ولا ترفعي رأسك.

- متى سأراك يا مريم؟ أريد أن أراك قبل أن أدلي بشهادتي. سأقول لهم كيف حدث الأمر. سأشرح لهم أنه لم يكن خطأك، أنك كنت مضطرة. سوف يفهمون، أليس كذلك يا مريم؟ سوف يفهمون.

رمقتها مريم بنظرة ناعمة.

انحنت حتى أصبح رأسها في مستوى رأس «زلماي». كان يرتدي «تيشيرتًا» أحمر، بنطالًا كاكيًّا ممزقًا، وينتعل حذاء رعاة بقر مستعملًا كان رشيد قد اشتراه له من «مَندايي»، ويمسك بكرة السلة الجديدة بيديه. وطبعت مريم قبلة على خده.

قالت:

ـ كن ولدًا طيبًا وقويًّا. عامل أمك جيدًا.

أمسكت وجهه بين يديها. تراجع إلى الخلف لكنها ظلت ممسكة به:

ـ أنا آسفة جدًّا يا «زلماي» جو. صدقني، آسفة جدًّا جدًّا على كل آلامك وأحزانك.

أمسكت ليلى بيد «زلماي» وهما يسيران في الطريق معًا. وقبل أن ينعطفا عند الناصية، نظرت ليلى إلى الخلف ورأت مريم عند الباب. كانت مريم تضع على رأسها وشاحًا أبيض، وترتدي كنزة زرقاء داكنة مزرَّرة من الأمام، وبنطالًا قطنيًّا أبيض. وقد سقطت على جبينها خصلة من الشعر الرمادي. وانطبعت على وجهها وكتفيها أشعة من نور الشمس. وكانت تلوِّح برقة.

انعطفا عند الناصية، ولم ترَ ليلى مريم ثانية.

٤٧

مريم

وكأنما عادت إلى «الكُلبه» بعد كل تلك السنوات.

كان سجن «ولايات» للنساء مبنى مربعًا جهمًا في شهر نو قرب شارع الدجاج. يقع في مركز مجمع كبير نضم النزلاء الرجال. وثمة باب موصد بالقفل يفصل بين مريم والنساء الأخريات وبين من حولهن من الرجال. عدت مريم خمس زنزانات مشغولة. مجرد حجرات جرداء، بجدران مقشَّرة قذرة، وشبابيك صغيرة تطل على الحوش. كانت الشبابيك مزودة بقضبان، مع أن أبواب الزنازين مفتوحة والنساء أحرار في الدخول والخروج من الحوش كما يرغبن. لم يكن للشبابيك زجاج، ولا ستائر، ما يعني أن الحراس الطالبان الذين يروحون ويجيئون في الحوش يستطيعون رؤية الزنازين من الداخل. وقد شَكَت بعض النساء من أن الحراس الذين يدخنون خارج النافذة يتلصصون عليهن، بعيونهم المتوهجة وابتساماتهم الذئبية، ويتبادلون النكات البذيئة عنهن. ولهذا، كانت معظم النساء ترتدين البرقع طوال النهار، لا ترفعنه إلا بعد الغروب، بعد أن تُوصد البوابة الرئيسية، ويغادر الحراس إلى مواقعهم.

في الليل، تظلم الزنزانة، التي تتقاسمها مريم مع خمس نساء أخريات وأربعة أطفال. وفي الليالي التي تتوفر فيها الكهرباء يرفعن نغمة، وهي فتاة قصيرة ممسوحة الصدر لها شعر أسود مجعد، إلى السقف. كان هناك سلك نزعت طبقته العازلة. وكانت نغمة تلف السلك العاري حول قاعدة المصباح لتكتمل الدائرة الكهربية.

كانت المراحيض بحجم دواليب الملابس، والأرضية الأسمنتية مشققة، وثمة حفرة صغيرة مربعة في الأرض، تراكمت الفضلات في قاعها، والذباب يطن داخلًا إلى الحفرة وخارجًا منها.

في منتصف السجن حوش مربع مفتوح، وفي منتصف الحوش بئر. البئر ليس لها مصرف، ما يعني أن الحوش يتحول إلى مستنقع في أغلب الأوقات، و أن المياه طعمها عفن. كانت حبال الغسيل، المثقلة بالجوارب والحفَّاظات المغسولة يدويًّا، تتخبط في الحوش. في هذا المكان تلتقي النزيلات بزوارهن، وفيه يسلقن الأرز الذي تحضره أسرهن ـ فالسجن لا يقدم طعامًا. كذلك كان الحوش ملعبًا للأطفال ـ عرفت مريم أن كثيرًا من الأطفال قد ولدوا في «ولايات»، ولم يروا الدنيا خارج تلك الجدران قطّ. كانت مريم تراقبهم وهم يطارد بعضهم بعضًا، تراقب أقدامهم الحافية وهي تنثر الطين. يجرون هنا وهناك طوال النهار، يبتكرون ألعابًا مرحة، غير واعين بعفن الفضلات والبول الذي يتفشى في «ولايات» وفي أجسادهم نفسها، غير منتبهين للحراس الطالبان حتى يضربهم أحد منهم.

ولم يكن لدى مريم زوار. كان هذا أول شيء، بل الشيء الوحيد الذي طلبته من مسؤولي الطالبان هنا. لا زوار.

* * *

لم تكن أي من النساء في زنزانة مريم تقضي عقوبة على جريمة عنف ـ كن جميعًا هناك بسبب الجريمة الشائعة: «الهروب من البيت». وبالتالي، نالت صيتًا بينهن، وأصبحت مشهورة نوعًا. كانت النساء ينظرن إليها بتوقير وخشوع. يقدمن لها بطاطينهن، ويتسابقن لتقاسم طعامهن معها.

وكانت نغمة أكثرهن التصاقًا بها، تعقد ساعديها وتتبع مريم حيثما ذهبت. كانت نغمة من أولئك الناس الذين يستمتعون بنقل أخبار المآسي، سواء مآسي الآخرين أم مآسيها. قالت إن والدها خطبها لخياط يكبرها بنحو ثلاثين عامًا، وصفته قائلة:

ـ رائحته مثل «الخُجه»، وأسنانه أقل عددًا من أصابعه.

حاولت الهرب إلى جَرديز مع شاب وقعت في غرامه، ابن أحد الملالي المحليين. وأوشكا على الخروج من كابل، عندما قُبض عليهما وأعيدا، حيث جُلد ابن الملا قبل أن يتوب ويقول إن نغمة هي من أغوته بسحرها الأنثوي. قال إنها «سحرت به». وتعهد بأن يهب نفسه لدراسة القرآن. وأُطلق سراح ابن الملا. وحُكم على نغمة بالسجن خمس سنوات.

قالت إن وجودها هنا في السجن ليس سيئًا. إذ أقسم والدها على أن يذبحها فور خروجها.

تذكرت مريم، وهي تنصت إلى نغمة، الوميض المعتم للنجوم الباردة والسحابات الوردية الخفيفة التي كانت تحلق فوق جبال «سفيد كوه» في ذاك الصباح البعيد عندما قالت «نانا» لها: «مثل إبرة البوصلة التي تشير إلى الشمال، فإن إصبع الرجل تجد امرأة دائمًا. دائمًا. تذكري هذا يا مريم».

* * *

جرت محاكمة مريم قبل أسبوع. لم توفر لها استشارة قانونية، ولا جلسة استماع علنية، ولا استنباط للأدلة، ولا استئناف. وتنازلت مريم عن حقها في استدعاء شهود. واستغرق الأمر برمته أقل من خمس عشرة دقيقة.

كان القاضي الأوسط، وهو طالبان تبدو عليه الهشاشة، هو الرئيس. كان هزيلًا على نحو مدهش، له جلد جاف أصفر، ولحية حمراء متموجة. يضع نظارة تكبِّر عينيه وتكشف مدى صفار بياضهما. وبدت رقبته أنحف من أن تحمل العمامة المحكومة الرباط فوق رأسه.

سألها ثانية في صوت متعَب:

ـ هل تعترفين يا «همشيره»؟

قالت مريم:

ـ أعترف.

أومأ الرجل. أو ربما لم يومئ. من الصعب معرفة ذلك، إذ إنه يعاني من ارتعاش لا تخطئه العين في يديه ورأسه ذكَّر مريم برجفة الملا فيض الله. عندما كان يرتشف الشاي لم يكن يمد يده للفنجان، بل كان يشير إلى الرجل المربوع إلى يساره، وكان هذا يرفعه باحترام إلى شفتيه. بعدها، كان الطالبان يغمض عينيه بلطف، كإيماءة امتنان ساكنة وأنيقة.

وجدت مريم فيه تأثيرًا ملطِّفًا. فحين كان يتحدث، كان يفعل ذلك بمسحة من المكر والرقة. كانت ابتسامته صبورًا. ولم ينظر إلى مريم باحتقار. لم يخاطبها بضغينة أو اتهام وإنما بنبرة اعتذارية رقيقة.

قال القاضي الأيمن، ذو الوجه حاد العظام ـ ليس الذي يناوله الشاي:

ـ هل تفهمين جيدًا ما تقولين؟

كان أصغر القضاة الثلاثة. وكان يتحدث بسرعة وبثقة بها قدر من الغرور. ضايقه أن مريم لا تتحدث البشتونية. ورأت فيه مريم شابًّا من أولئك التواقين للعراك، الذين يتلذذون بما لهم من سلطة، يرون الجرائم في كل مكان، ويظنون أنهم ولدوا ومعهم حق إصدار الأحكام.

قالت مريم:

ـ أفهم جيدًا.

قال الطالبان الشاب:

ـ إنني أتعجب. لقد خلقنا الله مختلفين، أنتن معشر النساء ونحن معشر الرجال. عقولنا مختلفة. أنتن غير قادرات على التفكير مثلنا. لقد أثبت الأطباء الغربيون بعلمهم هذا الأمر. لهذا لا نقبل الشهادة إلا من امرأتين، بينما يكفي رجل واحد.

قالت مريم:

ـ أعترف أنني فعلتها يا أخي. لكن لو لم أفعلها، كان سيقتلها. كان يخنقها.

ـ هذا قولك أنتِ، لكن النساء يقسمن على كل شيء طوال الوقت.

ـ تلك هي الحقيقة.

ـ هل لديك شهود؟ غير ضرَّتك؟

قالت مريم:

ـ لا.

رفع يديه وضحك هازئًا:

ـ طيب.

وتكلم بعده الطالبان العليل.

قال:

ـ عندي طبيب في بيشاور. شاب باكستاني مهذب. ذهبتُ إليه قبل شهر، ثم ثانية الأسبوع الماضي. قلت له، أصدقني القول يا صديقي، وقال لي: ثلاثة أشهر، يا «ملّا صاحب»، وربما ستة أشهر على أقصى تقدير ـ كله بمشيئة الله طبعًا.

أومأ بصمت تجاه الرجل المربوع عن يساره وارتشف رشفة أخرى من الشاي الذي قُدم إليه. مسح فمه بظهر يده المرتعشة:

ـ لا يخيفني أن أترك تلك الحياة التي تركها ابني الوحيد قبل خمسة أعوام، تلك الحياة التي تصر على أن نحمل حزنًا فوق حزن، أحزانًا تستمر طويلًا بعد أن نصبح غير قادرين على تحمل المزيد. لا. أعتقد أنني سأودع الحياة بسرور عندما يجيء أجلي.

ما يخيفني يا «همشيره» هو أن أقف بين يدي الله فيسألني: «لماذا لم تفعل مثلما أمرت يا ملّا؟ لماذا لم تلتزم بشريعتي؟» فكيف أشرح له يا «همشيره»؟ ماذا سيكون دفاعي عن كوني لم أمتثل لأوامره؟ كل ما أستطيع أن أفعله، كل ما يستطيع أن يفعله أي منا، في العمر الذي يمنحه الله لنا، هو أن نلتزم بالشريعة التي وضعها لنا. كلما اتضحت

رؤيتي لنهايتي يا «همشيره»، كلما اقتربت من يوم الحساب، أصبحت أكثر عزمًا على أن أطبق كلمة الله، مهما كان ذلك مؤلمًا.

راوح مكانه فوق وسادته وانقبض، ثم أكمل وهو يرمق مريم بعينيه من خلف النظارة، بنظرة صارمة ومتعاطفة في آن:

ـ أنا أصدقك وأنت تقولين إن زوجك رجل ذو طبع منفر. لكنني لا أملك إلا أن أنزعج من وحشية فعلتك يا «همشيره». لقد كدَّرني ما فعلتِه، كدَّرني أن صبيَّه الصغير كان يبكي من أجله في الطابق العلوي وأنت تفعلينها.

أنا مريض وأحتضر، وأريد أن أكون رحيمًا. أريد أن أعفو عنك. لكن عندما يناديني الله ويقول: «لكن العفو ليس من عندك يا ملا»، فماذا أقول؟

أومأ رفيقاه ونظرا إليه في إعجاب:

ـ يراودني إحساس بأنكِ لست امرأة شريرة يا «همشيره». لكنك ارتكبت فعلًا شريرًا. ويجب أن تدفعي ثمن فعلتك. الشريعة ليست ملتبسة في هذا الأمر. تقول إنني يجب أن أرسلك إلى حيث سألحق بكِ سريعًا. هل تفهمين يا «همشيره»؟

طأطأت مريم برأسها ونظرت إلى يديها. وقالت إنها تفهم.

ـ وليغفر لك الله.

قبل أن تُقاد مريم إلى الخارج، أُعطيت وثيقة، وطُلب منها أن توقع على شهادتها وعلى حكم الملا. وبينما كان الطالبان الثلاثة يراقبون، راحت

مريم تكتب اسمها ـ الميم، والراء، والياء، والميم ـ وهي تتذكر آخر مرة وقعت فيها باسمها على وثيقة، قبل سبعة وعشرين عامًا، على طاولة جليل، تحت النظرات المراقبة لملًّا آخر.

* * *

قضت مريم عشرة أيام في السجن. كانت تجلس بجوار نافذة زنزانتها، تراقب حياة السجن في الحوش. وعندما هبت رياح الصيف، راقبت قصاصات الورق وهي تركب تيارات الهواء وتدور حول نفسها في حركة مسعورة، وهي تتطوح هنا وهناك، عاليًا فوق جدران السجن. راقبت الرياح وهي تثور مقلِّبة التراب، تثيره في حركات لولبية عنيفة تشق الحوش. كان الجميع ـ الحراس، والنزيلات، والأطفال، ومريم ـ يدفنون وجوههم في ثنيات مرافقهم، لكنهم لا يستطيعون تجنب التراب. كان يسكن قنوات الأذن وفتحات الأنف، بين الرموش وفي طيات الجلد، في الفراغات بين الضروس. فقط عند الغسق كانت الريح تهدأ. وبعدها، إذا هب نسيم الليل، يكون وجلًا، وكأنما يكفِّر عن شطط شقيقه النهاري.

في آخر أيام مريم في «ولايات»، أعطتها نغمة ثمرة يوسفي. وضعتها في كف مريم وأطبقت أصابعها عليها. ثم انفجرت في البكاء.

قالت:

ـ أنتِ أفضل صديقة عرفتها في حياتي.

قضت مريم بقية اليوم بجوار النافذة ذات القضبان تراقب النزيلات بالأسفل. كانت إحداهن تطهو وجبة، وهفا من النافذة تيار من الدخان المحمل برائحة كمون وهواء دافئ. رأت مريم الأطفال يلعبون معصوبي

الأعين. كانت فتاتان صغيرتان تغنيان أغنية أطفال، تذكرتها مريم من طفولتها، تذكرت جليلًا وهو يغنيها لها وهما جالسان على صخرة، يصطادان من الغدير:

حوض العصافير

واسع وكبير

مينو جاءت تشرب

نزلت أقرب أقرب

ابتلعتها البير

رأت مريم أحلامًا مفككة تلك الليلة الأخيرة. حلمت بحصى، إحدى عشرة حصاة، مرتبة أفقيًّا. جليل، وهو صغير من جديد، بابتسامته الأخاذة والغمازة على ذقنه والعرق الذي يلطخ ملابسه، وطرف معطفه مرمي فوق كتفه، جاء أخيرًا لكي يصحب ابنته في ركوبة في سيارته «البويك رودماستر» السوداء. الملا فيض الله يدوِّر حبات مسبحته، يمشي معها بطول الغدير، ظلاهما التوأمان ينزلقان على الماء وعلى الضفتين المعشوشبتين حيث تتناثر زهور سوسن بنفسجية كانت، في الحلم، تفوح برائحة القرنفل. حلمت بـ«نانا» تقف عند باب «الكُلبه»، صوتها معتم وبعيد، تناديها للعشاء، بينما تلعب مريم في العشب المتشابك البارد حيث يزحف النمل وتندفع الخنافس وتتقافز الجنادب وسط الأخضر بدرجاته المختلفة. صرير عربة يد تُدفع بمشقة صاعدة دربًا ترابيًّا. أجراس تجلجل في رقاب الأبقار. ماعز تثغو على التل.

* * *

في الطريق إلى استاد غازي، ظل جسد مريم يرتجُّ على أرضية الشاحنة وهي تراوغ الحُفر وتنثر عجلاتها الحصى. أوجعها عُصعصها من الارتجاج. وكان يجلس قبالتها طالبان شاب مسلح ينظر إليها.

تساءلت مريم إذا كان هو مَن سينفذ الحكم، هذا الشاب ذو المظهر المحبب والعينين الغائرتين اللامعتين والوجه الممطوط قليلًا، الذي له سبابة بظفر أسود تضرب على جنب الشاحنة.

قال:

ـ هل أنتِ جائعة يا أمي؟

هزت مريم رأسها.

ـ معي بسكويت. إنه طيب. خذيه لو كنت جائعة. أنا لا أمانع.

ـ لا، «تَشَكُّر» يا أخي.

أومأ برأسه، ورمقها بنظرة رقيقة:

ـ هل أنتِ خائفة يا أمي؟

سدَّت غصةٌ حلقها. وبصوت مرتعش، قالت له مريم الحقيقة:

ـ نعم، خائفة.

قال:

ـ معي صورة لوالدي. لا أتذكره. كان يصلح الدراجات، هذا ما أعرفه. لكني لا أتذكر كيف كان يمشي، تعرفين، ضحكته أو صوته.

أشاح بوجهه، ثم عاد إلى مريم:

ـ كانت أمي تقول إنه أشجع من عرفَت من الرجال. تقول إنه مثل الأسد. لكنها أخبرتني أنه راح يبكي مثل طفل يوم أخذه الشيوعيون. أقول لك هذا كي تعرفي أن الخوف أمر طبيعي، أنه شيء لا يستدعي الخجل يا أمي.

للمرة الأولى هذا اليوم، بكت مريم قليلًا.

* * *

تطلعت إليها آلاف العيون. في المدرجات المزدحمة كانت الأعناق تشرئب من أجل إطلالة أفضل. طرقعت الألسنة، وجلجل صوت همهمة في الاستاد فيما كانت مريم تُنزل من الشاحنة. تخيلت مريم الرؤوس تهتز عندما أعلن مكبر الصوت عن جريمتها. لكنها لم ترفع رأسها لترى إن كانت تهتز استنكارًا لفعلتها أم إشفاقًا عليها، بلوم أم بعطف. أعمت مريم نفسها عنهم جميعًا.

قبلها في هذا الصباح، انتابها خوف أن تظهر بمظهر الحمقاء، أن تتوسل وتبكي وتجعل من نفسها فرجة. خافت أن تصرخ أو تتقيأ أو حتى تبلل نفسها، أن تخونها الغريزة الحيوانية أو يخزيها جسدها في آخر لحظات حياتها. لكن عندما أُنزلت مريم من الشاحنة، لم تلتوِ ساقاها، لم تتخبط ذراعها، لم تضطرهم إلى أن يسحبوها. وعندما شعرت بنفسها ترتعد فكرت في «زلماي»، الذي سلبته حب حياته، الذي ستنطبع أيامه بمأساة اختفاء والده، فانتظمت خطى مريم وعادت تسير من دون اعتراض.

اقترب منها رجل مسلح وأمرها أن تمشي باتجاه قائم المرمى الجنوبي. كانت مريم تحس بالحشد وهو يتوتر ترقُّبًا. لم تنظر إلى أعلى. ظلت تنظر إلى الأرض، إلى ظلها، إلى ظل جلادها الذي يتبع ظلها.

كانت مريم تعرف أن الحياة، على الرغم من اللحظات الجميلة، لم تكن منصفة معها. لكنها وهي تمشي آخر عشرين خطوة في حياتها، لم يسعها إلا أن تتمنى مزيدًا منها. تمنت لو ترى ليلى ثانية، تمنت لو تسمع جلجلة ضحكتها، لو تجلس معها مرة أخيرة لتتناولا إبريقًا من الشاي وما تبقى من الحلوى تحت سماء مضاءة بالنجوم. أسفت على أنها لن ترى أبدًا عزيزة وهي تكبر، لن تراها عندما تصبح شابة جميلة، لن تنقش يديها بالحناء وترمي حلوى «النُّقول» في زفافها، لن تلعب أبدًا مع أطفال عزيزة. كانت ستحب ذلك جدًّا، أن تكون عجوزًا وتلعب مع أطفال عزيزة.

بالقرب من القائم، أمرها الرجل الذي يسير خلفها أن تتوقف. توقفت مريم. عبر فتحات شبكة البرقع رأت ظل ذراعيه يرفعان ظل بندقيته الكلاشينكوف.

تمنت مريم الكثير في تلك اللحظات الأخيرة. لكن وهي تغمض عينيها، لم تعد تشعر بالندم، وإنما غمرها إحساس بالسلام. فكرت في دخولها إلى هذا العالم: طفلة «حرامي» من قرية وضيعة، غلطة، حادثة تثير الشفقة وتستدعي الندم، عشبة ضارة. وها هي تغادر العالم امرأة أَحبت وأُحبت. تغادر العالم صديقة، ورفيقة، وحامية، وأمًّا، شخصًا له وزن أخيرًا. فكرت مريم أن ميتتها بهذه الطريقة ليست بهذا السوء، ليست بهذا السوء. نهاية شرعية لحياة كانت بدايتها غير شرعية.

وكانت آخر أفكار مريم كلمات قليلة من القرآن، تمتمت بها همسًا:

«خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ».

قال الطالبان:

ـ اركعي.

«يا رب، الرحمة والمغفرة، فأنت أرحم الراحمين».

ـ اركعي هنا يا «همشيره»، واخفضي رأسكِ.

وللمرة الأخيرة، امتثلت مريم لما أُمرت به.

الجزء الرابع

٤٨

يعاني طارق من نوبات صداع الآن.

في بعض الليالي، تستيقظ ليلى وتجده على حافة فراشهما، يتأرجح إلى الأمام وإلى الخلف، قميصه الداخلي مرفوع فوق رأسه. يقول إن الصداع قد بدأ في «ناصر باغ»، ثم ازداد سوءًا في السجن. أحيانًا تجعله نوبات الصداع يتقيأ، أو تعمي إحدى عينيه. يقول إنه يشعر وكأن سكين جزار تغوص في أحد صدغيه، وتلتوي ببطء داخل مخه، ثم تبرز من الجانب الآخر:

ـ بل أشعر بمذاق المعدن عندما تبدأ النوبة.

أحيانًا تبلل ليلى قطعة قماش وتضعها على جبينه فينفع ذلك قليلًا. كذلك تساعده الحبوب البيضاء المستديرة الصغيرة التي أعطاها له طبيبُ سعيدٍ. لكن في بعض الليالي، لا يملك طارق إلا أن يمسك برأسه ويتأوه، عيناه بلون الدم، وأنفه يرشح. تجلس ليلى معه عندما تحل به نوبة كهذه، تمسد مؤخرة عنقه، تمسك بيده بين يديها، وتستشعر برودة دبلته على كفها.

تزوجا يوم وصولهما إلى مُرِّي. بدت الراحة على سعيد عندما أخبره

طارق أنهما سيتزوجان. إذ لن يكون عليه أن يفاتح طارقًا في المسألة الحساسة: أن يعيش رجل وامرأة غير متزوجين معًا في فندقه. ليس سعيد كما تصورته ليلى على الإطلاق، بوجه متورد وعينين مثل حبتي بازلاء. كان له شارب خالط سواده بياضه، يبرم طرفيه بحدة، و«شوشة» من الشعر الرمادي الطويل ممشطة للخلف. رجل هادئ الصوت، مهذب، كلامه محسوب وحركاته أنيقة.

كان سعيد هو مَن جاء بأحد أصدقائه وملًّا من أجل «النكاح» ذاك اليوم، وهو من سحب طارقًا جانبًا وأعطاه نقودًا. رفض طارق أولًا، لكن سعيدًا أصر. وهكذا ذهب طارق إلى «المول» وعاد بدبلتين رفيعتين بسيطتين. تزوجا في تلك الليلة، بعدما ذهب الطفلان إلى الفراش.

في المرآة، أسفل الطرحة الخضراء التي وضعها الملا على رأسيهما، التقت عينا ليلى بعيني طارق. لم تكن هناك دموع، ولا ابتسامات يوم الزفاف، لا عهود هامسة بحب أبدي. نظرت ليلى في صمت على انعكاس صورتيهما، على الوجهين اللذين يبدوان أكثر من سنهما، على التجاعيد والخطوط والتهدلات التي غزت وجهين كانا ذات يوم ناضرين ويافعين. فتح طارق فمه وشرع يقول شيئًا، لكن، فور أن فعل ذلك، سحب شخص الطرحة، ولم تعرف ليلى ماذا كان سيقول.

تلك الليلة تمددا على الفراش زوجًا وزوجته، بينما أخذ الطفلان يغطان على مرتبتين مفروشتين على الأرض. تذكرت ليلى كيف كانا يملآن الفراغ بينهما بالكلمات، هي وطارق، عندما كانا صغيرين، كيف كان كلامهما يتدفق بحيوية وجنون، يقاطع أحدهما الآخر طوال الوقت، ويشد أحدهما ياقة الآخر لتأكيد نقطة، الضحكات التي تأتي بسهولة، والتلهف على

الابتهاج. أحداث كثيرة وقعت منذ أيام الطفولة تلك، أحداث كثيرة يجب أن تُقال. لكن هول ما حدث أعجزها عن الكلام في تلك الليلة الأولى. تلك الليلة، كفى بها نعمة أن تكون إلى جواره. كفى بها نعمة أن تعرف أنه هنا، أن تستشعر دفأه بجانبها، أن ترقد معه، رأساهما يتلامسان، ويده اليمنى مشبوكة في يدها اليسرى.

في منتصف الليل، عندما استيقظت ليلى عطشى، وجدت يداهما لا تزالان متشابكتين، بقوة، مثل أطفال صغار يقبضون على خيوط بالوناتهم، حتى تبيضَّ قبضاتهم، خشية أن تطير.

* * *

تحب ليلى صباحات مُرِّي الباردة الضبابية والشفق الباهر، الألق المعتم للسماء في الليل، اللون الأخضر لأشجار الصنوبر والبني الفاتح للسناجب التي تندفع صعودًا وهبوطًا على جذوع الأشجار المتينة. وابل الأمطار الذي يفاجئ المتبضعين في «المول» فيهرعون للاختباء أسفل التندات. تحب دكاكين الهدايا التذكارية، والفنادق المختلفة التي تستضيف السُّياح، حتى والمحليون يندبون على حركة البناء المستمرة، وتوسع البنية التحتية الذي يقولون إنه يلتهم الجمال الطبيعي لمُرِّي. تستغرب ليلى أن يتحسر الناس على بناء المباني. في كابل، سيكون ذلك مدعاة للاحتفال.

تحب وجود حمَّام لديهم، ليس بيت خلاء وإنما حمَّام حقيقي، بمرحاض تُصرف مياهه، و«دُش»، ومغسلة أيضًا، بصنبور له مقبضين توأمين تستطيع من خلاله، بحركة من رسغها، إنزال الماء، ساخنًا أو باردًا. تحب الاستيقاظ على صوت ثغاء «أليونا» في الصباح، والطباخة العصبية بغير أذى، أديبة، التي تُعِد العجائب في المطبخ.

أحيانًا، وهي تراقب طارقًا في نومه، ويغمغم طفلاها ويتقلبان في نومهما، تشعر ليلى بغصة امتنان هائلة الحجم عالقة في حلقها، غصة تجعل عينيها تدمعان.

في الصباح، تتبع ليلى طارقًا من غرفة إلى غرفة. والمفاتيح تصلصل من حلقة مُعلقة في رسغه وزجاجة رشاش تنظيف النوافذ تتدلى من حلقات حزام بنطاله الجينز. تحضر ليلى دلوًا مملوءًا بقصاصات القماش، والمطهر، وفرشاة حمَّام، وملمع أخشاب لتلميع دواليب الملابس. تسير عزيزة في أثرها، الممسحة في إحدى يديها، وفي الأخرى الدمية المحشوة بالفول التي صنعتها مريم لأجلها. يتبعهما «زلماي» بتردد، عابسًا، ومتأخرًا ببضع خطوات دائمًا.

تنظف ليلى بالمكنسة الكهربائية، ترتب السرير، وتنفض التراب. يغسل طارق المغسلة وحوض الاستحمام في الحمَّام، يحك المرحاض ويمسح الأرضية المصنوعة من المشمع. يرص على الأرفف مناشف نظيفة، وعبوات شامبو صغيرة، ومكعبات من صابون برائحة اللوز. أما عزيزة، فقد خصت نفسها بمهمة رش النوافذ ومسحها، ومن دون أن تبعد الدمية عن مكان عملها أبدًا.

بعد «النكاح» ببضعة أيام أخبرت ليلى عزيزة بأمر طارق.

تفكر ليلى أنه أمر غريب، بل مربك نوعًا ما، ذلك الذي بين عزيزة وطارق. كانت عزيزة تكمل عباراته، ويكمل هو عباراتها، تناوله أشياء قبل أن يطلبها. تنطلق ابتسامات خاصة بينهما على مائدة العشاء وكأنهما ليسا غريبين بأية حال وإنما رفيقين اجتمعا ثانية بعد طول فراق.

نكست عزيزة رأسها ونظرت إلى يديها بتأمل عندما أخبرتها ليلى.

قالت، بعد صمت طويل:

ـ إنه يعجبني.

ـ إنه يحبك.

ـ هل قال ذلك؟

ـ ليس عليه أن يقولها يا عزيزة.

ـ احكِ لي بقية الحكاية يا مامي. احكِ لي حتى أعرف.

وحكت لها ليلى:

ـ أبوك رجل طيب. إنه أفضل رجل عرفته في حياتي.

قالت عزيزة:

ـ وماذا إذا رحل؟

ـ لن يرحل أبدًا. انظري إليَّ يا عزيزة. أبوك لن يؤذيكِ أبدًا، ولن يرحل أبدًا.

وتحطم قلب ليلى لمَّا رأت الراحة على وجه عزيزة.

* * *

اشترى طارق لـ«زلماي» حصانًا هزازًا، وصنع له عربة. كان قد تعلم من أحد زملائه في السجن صناعة حيوانات من الورق، وهكذا فقد طوى، وقص، وثنى عددًا هائلًا من صفحات الورق وصنع منها أسودًا وكانجاروات لأجل «زلماي»، صنع جيادًا وطيورًا بريش عريض

ملون، لكن «زلماي» كان يقابل محاولات التقرب تلك بلا حفاوة، بل بحقد أحيانًا.

يصرخ قائلًا:

ـ أنت حمار! لا أريد ألعابك!

تشهق ليلى:

ـ «زلماي»!

يقول طارق:

ـ لا بأس. لا بأس يا ليلى. دعيه.

ـ أنت لست بابا جان! بابا جان الحقيقي سافر في رحلة، وعندما يعود سوف يضربك! ولن تستطيع أن تهرب، لأن لديه ساقان وأنت لديك ساق واحدة فقط!

في الليل، تضم ليلى «زلماي» إلى صدرها وتقرأ دعاء «البابالو» معه. عندما يسألها، تكذب عليه ثانية، تقول له إن والده سافر بعيدًا ولا تعرف متى سيأتي. لكَم تبغض تلك المهمة، تبغض نفسها لأنها تكذب هكذا على طفل.

تعرف ليلى أنها ستضطر إلى ترديد تلك الكذبة المشينة مرة بعد مرة. ستضطر إلى ذلك لأن «زلماي» سيسأل، وهو يقفز من فوق الأرجوحة، وهو يستيقظ من قيلولة عصر، ولاحقًا، عندما يكبر ويستطيع أن يربط حذاءه بنفسه، ويمشي وحده حتى المدرسة، سوف تضطر إلى ترديد الكذبة ثانية.

تعرف ليلى أن الأسئلة سوف تنضب عند نقطة معينة. رويدًا رويدًا

سوف يكف «زلماي» عن التساؤل عما دعا والده إلى هجره. لن يعود يرى والده عند إشارات المرور، في رجال مسنين محنيي الظهور يجرجرون أقدامهم في الشوارع أو يرتشفون الشاي في المقاهي ذات الواجهات المفتوحة. وذات يوم سوف تصدمه الفكرة، وهو يمشي بحذاء نهر متعرج، أو يحدق في حقل مغطى بثلوج لم تطأها الأقدام، أن اختفاء والده لم يعد جرحًا حيًّا مفتوحًا. أنه أصبح شيئًا مختلفًا تمامًا، شيئًا أكثر ذبولًا وحوافه أكثر نعومة. مثل حكاية قديمة. شيء لا يستحق سوى الإجلال ولا يثير سوى الحيرة.

إن ليلى سعيدة هنا في مُرِّي، لكنها ليست سعادة سهلة، ليست سعادة بغير ثمن.

* * *

في يوم إجازته، يصطحب طارق ليلى والطفلين إلى شارع «المول»، حيث تصطف المتاجر التي تبيع المصوغات، تليها كنيسة أنجليكانية شيدت في منتصف القرن التاسع عشر. يشتري طارق لهم كباب «الجبْلي» الحار من باعة الشارع. يشقون طريقهم وسط زحام السكان المحليين، والأوروبيين بهواتفهم المحمولة وكاميراتهم الرقمية، والبنجاب الذين جاءوا هنا هربًا من حرارة السهوب.

بين حين وآخر، يستقلون حافلة إلى «نقطة كشمير». من هناك، يريهم طارق وادي نهر جِهلُم، السفوح المكسوَّة بالصنوبر، والتلال المغطاة بالغابات الكثيفة الوارفة، حيث يقول إنه لا يزال بالإمكان رؤية القردة وهي تقفز من فرع إلى فرع. يذهبون أيضًا إلى «نتهيا جلِّي» المكسوة بأشجار القيقب، على بعد نحو ثلاثين كيلومترًا من مُرِّي، حيث يمسك طارق بيد

ليلى وهم يسيرون بطول الطريق المظلل بالأشجار إلى بيت الوالي. يقفون إلى جوار المقبرة البريطانية القديمة، أو يستقلون تاكسيًا صعودًا إلى إحدى القمم الجبلية ليطلوا على الوادي المورق المغلف بالضباب بالأسفل.

أحيانًا في تلك الخروجات، عندما يمرون من أمام واجهة أحد المتاجر، تلمح ليلى انعكاسهم فيها: رجل وزوجة وابنة وابن. تعرف أنهم يبدون في أعين الغرباء أسرة عادية، بلا أسرار، ولا أكاذيب، ولا حسرات.

* * *

ترى عزيزة كوابيس تستيقظ منها مرتعشة. ويكون على ليلى أن تتمدد بجانبها على المرتبة، تجفف وجنتيها بكمها، وتهدئها حتى تروح في النوم ثانية.

ليلى أيضًا لديها أحلامها. فيها، تعود إلى البيت في كابل، تسير في البهو، تصعد السلم. إنها وحيدة، لكنها تسمع من وراء الأبواب الهسيس المنتظم لمكواة، ملاءات تنفرد، ثم تُطوى. أحيانًا تسمع امرأة تهمهم أغنية هِراتية قديمة بصوت خفيض، لكن عندما تدخل، تجد الغرفة خاوية. لا أحد هناك.

تلك الأحلام تجعل ليلى ترتجف. تستيقظ منها متعرقة، والدموع توخز عينيها. أحلام رهيبة. رهيبة في كل مرة.

٤٩

في يوم أحد من شهر سبتمبر ذاك، وبينما تضع ليلى «زلماي»، الذي أصابه البرد، ليغفو في فراشه، يندفع طارق داخلًا من الكوخ.

يقول وهو يلهث:

ـ هل سمعتِ؟ لقد قتلوه. أحمد شاه مسعود. لقد مات.

ـ ماذا؟

من الباب، يخبرها طارق بما عرفه:

ـ يقولون إنه سمح بمقابلة مع صحفيين زعما أنهما بلجيكيان من أصل مغربي. وبينما كانوا يتكلمون، انفجرت قنبلة مخبأة في كاميرا الفيديو، وقتلت مسعودًا وأحد الصحفيين. أطلقوا الرصاص على الصحفي الآخر وهو يحاول الفرار. يقولون الآن إن الصحفيين، على الأرجح، من رجال القاعدة.

تتذكر ليلى ملصق أحمد شاه مسعود الذي ثبتته مامي على حائط غرفة نومها. مسعود منحنٍ إلى الأمام، حاجبه مرفوع، ووجهه عابس من فرط

التركيز، كما لو كان يستمع باحترام إلى شخص ما. تتذكر ليلى كم كانت مامي ممتنة حين صلى مسعود الجنازة على ولديها، وكيف أخبرت الجميع بالأمر. حتى بعد أن اندلعت الحرب بين فصيله وبين الآخرين، رفضت مامي أن تلقي عليه باللائمة، كانت تقول: «إنه رجل طيب. إنه يريد السلام. يريد إعادة بناء أفغانستان. لكنهم لا يسمحون له. فقط لا يسمحون له».

بالنسبة إلى مامي، حتى في النهاية، حتى بعد أن اتخذت الأمور منحى رهيبًا وأصبحت كابل أطلالًا، ظل مسعود هو أسد بنجشير.

ليلى لم تغفر مثل أمها. لم تفرح لنهاية مسعود العنيفة، لكنها تتذكر أيضًا جيدًا جدًّا الأحياء التي دُمرت تحت سمعه وبصره، الجثث التي انتشلت من بين الأنقاض، أياديَ وأرجل الأطفال التي عُثر عليها فوق الأسطح أو الفروع العالية لبعض الأشجار بعد أيام من جنازاتهم. تتذكر بوضوح شديد النظرة على وجه مامي قبل لحظات من انفجار الصاروخ، وتتذكر بقدر ما حاولت أن تنسى، جذع بابي مقطوع الرأس وهو يسقط بالقرب منها، وبرج الجسر المطبوع على «التيشيرت» الذي يرتديه بارزًا من بين الضباب الكثيف والدم.

يقول طارق:

ـ ستخرج جنازة. أنا واثق من هذا. على الأرجح في راولبندي. ستكون ضخمة.

يعتدل «زلماي»، الذي كان شبه نائم، في جلسته، ويدعك عينيه بقبضتيه المكوَّرتين.

بعدها بيومين، كانوا ينظفون إحدى الغرف عندما سمعوا ضوضاء. يترك طارق الممسحة ويهرع خارجًا، وتتبعه ليلى.

الضوضاء تأتي من بهو الفندق. هناك استراحة على يمين مكتب الاستقبال، بها عدة مقاعد وأريكتان جلديتان لونهما «بيج». في الزاوية، في مواجهة الأريكتين، هناك تلفزيون، يجلس أمامه سعيد، والبواب، وعدد من النزلاء.

شق طارق وليلى طريقهما.

التلفزيون مضبوط على محطة «بي بي سي». على الشاشة مبنى، برج، يتصاعد من طوابقه العليا دخان أسود. يقول طارق شيئًا لسعيد، وبينما يرد سعيد تظهر طائرة من زاوية الشاشة، تصطدم بالبرج المجاور، تنفجر مخلفة كرة نار تتضاءل أمامها كل كرات النار التي رأتها ليلى في حياتها. ويعلو صياح كل مَن بالبهو.

في أقل من ساعتين، ينهار البرجان.

وعلى الفور، تتحدث كل محطات التلفزيون عن أفغانستان والطالبان وأسامة بن لادن.

* * *

يسأل طارق:

ـ هل سمعتِ بما قاله الطالبان؟ عن ابن لادن؟

عزيزة جالسة أمامه على الفراش، تركز في لوحة اللعب. كان طارق قد علَّمها الشطرنج. وها هي عابسة تنقر بإصبعها على شفتها السفلى، تقلد الحركة التي يقوم بها والدها وهو يقرر نقلة.

تحسن «زلماي» قليلًا من البرد الذي أصابه. هو الآن نائم، وليلى تدهن صدره بـ«الفيكس».

تقول:

ـ سمعت.

كان الطالبان قد أعلنوا أنهم لن يسلموا ابن لادن لأنه «مِهمان»، ضيف، لجأ إلى أفغانستان، وتسليم الضيوف يناقض التقاليد البشتونية. يضحك طارق بمرارة، وتسمع ليلى في ضحكته اشمئزازه من تحريف العادة البشتونية الكريمة، هذا التصوير المشوه لتقاليد شعبه.

بعد الهجمات ببضعة أيام، ليلى وطارق في بهو الفندق مجددًا. على شاشة التلفزيون يتحدث «جورج دبليو بوش»، خلفه علم أمريكي كبير، عند لحظة يلين صوته، وتظن ليلى أنه سيبكي.

يشرح لهما سعيد، الذي يتحدث الإنجليزية، أن «بوش» قد أعلن الحرب لتوه.

يقول طارق:

ـ على مَن؟

ـ على بلادكم، كبداية.

* * *

يقول طارق:

ـ ربما لا يكون الأمر بهذا السوء.

انتهيا لتوهما من ممارسة الحب. يتمدد إلى جانبها، ورأسه على صدرها، وذراعه مستريحة على بطنها. في أول مرات حاولا فيها، واجهتهما صعوبة.

كان طارق يعتذر كثيرًا، وليلى تطمئنه كثيرًا. ما زالت هناك صعوبات، ليست جسدية الآن وإنما عملية. فالكوخ الذي يعيشون فيه مع الطفلين صغير، والطفلان ينامان على مرتبتين أسفلهما ومن ثَمَّ لا يتمتع الزوجان بكثير من الخصوصية. في معظم الأوقات، تمارس ليلى وطارق الحب صامتين، بعاطفة مكتومة مقيدة، وبملابسهما الكاملة أسفل البطانية تحسبًا لأية مقاطعة مس قبل الطفلين. يحاذران طوال الوقت من خشخشة الملاءات، وصرير نوابض الفراش. لكن بالنسبة إلى ليلى، وجودها مع طارق يستحق تجاوز تلك الهواجس. عندما يمارسان الحب، تشعر ليلى بالرسوِّ، تشعر بالسكن. تقل مخاوفها من أن تكون حياتهما معًا نعمة مؤقتة، نعمة ستذهب عما قريب أدراج الرياح. تختفي مخاوفها من الانفصال.

تقول الآن:

ـ ماذا تقصد؟

ـ ما يحدث في الديار. ربما لا يكون بهذا السوء في النهاية.

في الديار، تسقط القنابل مجددًا، تلك المرة قنابل أمريكية ـ كانت ليلى تتابع صور الحرب يوميًّا في التلفزيون وهي تغير الملاءات وتكنس الأرضيات. لقد سلح الأمريكيون أمراء الحرب مرة أخرى، وأمنوا الدعم لتحالف الشمال حتى يطرد طالبان ويعثر علِى ابن لادن.

لكن ما يقوله طارق يغيظ ليلى. تدفع رأسه عن صدرها بخشونة:

ـ ليس بهذا السوء؟ أن يموت الناس؟ نساء وأطفال ومسنون؟ أن تدمر البيوت من جديد؟ ليس بهذا السوء؟

ـ ششش. ستوقظين الطفلين.

ترد بعنف:

ـ كيف تقول ذلك يا طارق؟ بعد ما سمي بـ«زلة كَرَم»؟ مائة إنسان بريء! لقد رأيت الجثث بنفسك!

يقول طارق:

ـ لا.

يرفع نفسه على مرفقيه، وينظر إلى ليلى من أعلى:

ـ لم تفهميني. ما قصدته هو...

ـ أنت لا تعرف.

تدرك ليلى أن صوتها يرتفع، أنهما يخوضان أول شجار كزوج وزوجة:

ـ لقد غادرتَ عندما بدأ «المجاهدين» القتال، هل تتذكر؟ أنا من ظلت هناك. أنا. أنا أعرف الحرب. أنا فقدت والديَّ في الحرب. والديَّ يا طارق. والآن تقول لي إن الحرب ليست بهذا السوء!

يمسك بوجهها بين يديه:

ـ أنا آسف يا ليلى. أنا آسف. أنت محقة. أنا آسف. سامحيني. ما قصدته هو أنه ربما يكون هناك أمل على الجانب الآخر من تلك الحرب، أنه ربما للمرة الأولى منذ زمن طويل...

ـ لا أريد أن أتحدث في الأمر أكثر من ذلك.

تندهش ليلى لهجومها عليه. تعرف أنه ليس عدلًا، ما قالته له ـ ألم تأخذ الحرب والديه هو أيضًا؟ ـ وأيًّا كان ما اضطرم بداخلها فقد أخذ يهدأ.

استمر طارق يتحدث بلطف، وعندما يسحبها إليه، تتركه يفعل. عندما يُقبِّل يدها، ثم جبينها، تتركه يفعل. تعرف أنه مصيب على الأرجح. تعرف ماذا كان يقصد. ربما كان الأمر ضرورة. ربما يكون هناك أمل عندما تكف قنابل «بوش» عن السقوط. لكن لا يمكنها أن تجبر نفسها على قول ذلك، ليس وما حدث لبابي ومامي يحدث لشخص ما الآن في أفغانستان، ليس وفتاة أو صبي في الوطن يفاجأ بصاروخ يُيتمه. لا يمكن لليلى أن تجبر نفسها على قول ذلك. من الصعب أن تفرح. يبدو الأمر نفاقًا وضلالًا.

تلك الليلة، يستيقظ «زلماي» وهو يسعل. قبل أن تتحرك ليلى، ينزل طارق بساقيه من فوق الفراش. يربط ساقه الصناعية ويتجه نحو «زلماي»، يرفعه بين ذراعيه. من الفراش، تراقب ليلى هيئة طارق وهي تتحرك إلى الأمام وإلى الخلف في الظلام. ترى الحدود الخارجية لرأس «زلماي» على كتفه، انعقاد يديه حول رقبة طارق، قدميه الصغيرتين تنطان على فخذ طارق.

عندما يعود طارق إلى الفراش، لا ينطق أي منهما بكلمة. تمد ليلى يدها وتلمس وجهه. وجنتا طارق مبللتان.

٥٠

الحياة في مُرِّي بالنسبة إلى ليلى حياة راحة وسكينة. فالعمل ليس مرهقًا، وفي أيام الإجازات، تصطحب هي وطارق الطفلين لركوب المقاعد المعلقة إلى تل بَترياته، أو يذهبون إلى «نقطة بندي»، حيث يمكنهم، في الأيام الصافية، الرؤية حتى إسلام آباد ووسط مدينة راولبندي. هناك، يفترشون بطانية على العشب ويأكلون ساندويتشات الكفتة مع الخيار ويشربون مشروب الزنجبيل الغازي البارد.

تقول ليلى لنفسها إنها حياة طيبة، حياة تستحق الشكر. إنها، في الواقع، بالضبط الحياة التي كانت تحلم بها في أكثر أيامها ظلمة مع رشيد. كل يوم، تذكِّر ليلى نفسها بذلك.

ثم، ذات ليلة دافئة في يوليو عام ٢٠٠٢، تمددت مع طارق في الفراش يتحدثان بأصوات خفيضة عن كل التغييرات التي تجري في الوطن. كانت تغييرات كثيرة جدًّا قد وقعت، إذ طردت قوات التحالف الطالبان من كل المدن الكبيرة، ودفعتهم عبر الحدود مع باكستان وإلى الجبال في جنوب وشرق أفغانستان، وأُرسلت إلى كابل قوات حفظ

سلام دولية، اسمها «إيساف»، وأصبح الآن لدى البلاد رئيس منتخب، هو حامد كرزاي.

وتقرر ليلى أن الوقت قد حان لإخبار طارق.

قبل عام، كانت ستسعد باليد التي تمتد إليها لتخرجها من كابل. لكن في الأشهر القليلة الأخيرة، وجدت نفسها تفتقد مدينة طفولتها. تفتقد ضجيج «شور بازار»، حدائق «بابُر»، نداء السقايين وهم يحملون قربهم المصنوعة من جلد الماعز. تفتقد مساومات باعة العباءات في شارع الدجاج وباعة البطيخ الجائلين في كارته بروان.

لكن ما جعل ليلى نفكر في كابل كثيرًا تلك الأيام ليس مجرد حنين إلى الوطن. لقد استبد بها القلق. تسمع عن مدارس تُبنى في كابل، طرق يُعاد رصفها، نساء يعدن إلى العمل، وحياتها هنا، وهي حياة طيبة تستحق العرفان، تبدو... غير كافية بالنسبة إليها. لا طائل من ورائها. بل أسوأ، مهدَرة. مؤخرًا، بدأت تسمع صوت بابي في رأسها. يقول: «يمكنك أن تكوني ما تشائين يا ليلى. أعرف هذا. كما أعرف أن أفغانستان، عندما تنتهي الحرب، سوف تحتاج إليك». وتسمع ليلى صوت مامي أيضًا. تتذكر رد فعل مامي على بابي عندما اقترح عليها أن يغادروا أفغانستان: «أريد أن أرى حلم ولديَّ يتحقق. أريد أن أكون هناك عندما تتحرر أفغانستان، حتى يراها الولدان أيضًا. سوف يريان بعينيَّ». أصبح جزء من ليلى يريد العودة إلى كابل، لأجل مامي وبابي، حتى يريانها بعينيها.

ثم هناك مريم، الدافع الأكبر بالنسبة إلى ليلى. تسأل ليلى نفسها: هل ماتت مريم لأجل ذلك؟ هل ضحت بنفسها لكي تعيش ليلى خادمة

في بلد أجنبي؟ ربما لا يهم مريم ما تفعله ليلى طالما أنها آمنة وسعيدة هي والطفلان، لكنه يهم ليلى. فجأة، أصبح يهمها كثيرًا.

تقول:

ـ أريد أن نعود.

يعتدل طارق في جلسته على الفراش وينظر إليها من أعلى.

تفاجأ ليلى ثانية بمدى جماله، التقوس المثالي لجبهته، العضلات الأسطوانية لذراعيه، عيناه الذكيتان المهمومتان. لقد مر عام، لكن ما زالت هناك لحظات مثل هذه، حيث لا تصدق ليلى أن كلًّا منهما عثر على الآخر من جديد، أنه هنا بالفعل، معها، أنه زوجها.

يسألها:

ـ نعود؟ إلى كابل؟

ـ فقط إذا أردت ذلك أنت أيضًا.

ـ ألستِ سعيدة هنا؟ تبدو عليك السعادة، والطفلان أيضًا.

تجلس ليلى. يتزحزح طارق على الفراش ليفسح لها مكانًا.

تقول ليلى:

ـ أنا سعيدة. بالطبع سعيدة. لكن... إلى أين نذهب من هنا يا طارق؟ كم سنبقى هنا؟ هذا ليس وطننا. كابل هي وطننا، وفيها يحدث الكثير، وأكثره خير. أريد أن أصبح جزءًا من هذا كله. أريد أن أفعل شيئًا. أريد أن أساهم. هل تفهمني؟

يومئ طارق ببطء:

ـ هذا ما تريدينه إذن؟ هل أنت متأكدة؟

ـ نعم هذا ما أريده، أنا متأكدة. لكن الأمر أكثر من ذلك. أشعر أنه عليَّ أن أرجع. لم أعد أشعر أن البقاء هنا أمر صائب.

ينظر طارق إلى يديه، ثم إليها من جديد:

ـ لكن فقط ـ فقط ـ إذا أردتَ أنتَ أيضًا أن نذهب.

يبتسم طارق، وينبسط جبينه، وللحظة قصيرة يعود طارق القديم ثانية، طارق الذي لا تصيبه نوبات الصداع، الذي قال ذات مرة إن المخاط في سيبيريا يصير جليدًا قبل أن يلمس الأرض. ربما كان ذلك من وحي خيالها، لكن ليلى تصدق أنها صارت ترى طارقًا القديم هذا أكثر وأكثر تلك الأيام.

قال:

ـ أنا؟ أنا سأتبعك إلى نهاية العالم يا ليلى.

تجذبه ناحيتها وتقبل شفتيه. تفكر أنها لم تحبه قطُّ قدر ما تحبه في هذه اللحظة. تقول، وجبينها مرتاح على جبينه:

ـ شكرًا.

ـ هيا نرجع إلى الوطن.

تقول:

ـ لكن أولًا، أريد أن نذهب إلى هِرات.

ـ هِرات؟

وتشرح له ليلى.

* * *

يحتاج الطفلان إلى طمأنة، كل بطريقته. على ليلى أن تجلس مع عزيزة المضطربة، التي لا تزال تراودها الكوابيس، التي ارتبكت وفاضت عيناها بالدمع الأسبوع الماضي عندما أطلق شخص ما زخات رصاص في السماء في حفل زفاف قريب. على ليلى أن تشرح لعزيزة أنهم عندما يعودون إلى كابل لن يكون الطالبان هناك، أنه لن يكون هناك أي قتال، وأنها لن ترسَل ثانية إلى دار الأيتام.

ـ سنعيش جميعًا معًا. أبوك، وأنا، و«زلماي». وأنت يا عزيزة. لن تبتعدي عني ثانية أبدًا أبدًا. أعدك.

تبتسم لابنتها.

ـ إلا عندما تقررين. عندما تقعين في حب شاب ما وترغبين في الزواج منه.

يوم مغادرتهم لمُرِّي، لم يكن بالإمكان مواساة «زلماي». طوَّق رقبة «أليونا» بذراعيه ورفض أن يتركها.

تقول عزيزة:

ـ لا أستطيع أن أفك ذراعيه من حولَها يا مامي.

وتشرح له ليلى مجددًا:

ـ «زلماي». لا نستطيع اصطحاب العنزة معنا في الحافلة.

فقط، عندما ركع طارق إلى جواره، عندما وعد «زلماي» أنه سيشتري له عنزة مثل «أليونا» في كابل، أفلت «زلماي» العنزة مترددًا.

هناك أيضًا وداع مصحوب بالدموع مع سعيد. ومن أجل الفأل الحسن، يقف عند الباب ممسكًا بمصحف، لكي يقبِّله طارق وليلى والأطفال ثلاث مرات، ثم يرفعه عاليًا لكي يمروا من تحته. يساعد طارقًا على تحميل حقيبتي السفر في صندوق سيارته. سعيد هو مَن يوصلهم إلى المحطة، وهو مَن يقف في الموقف يلوح لهم مودعًا فيما تفرفر الحافلة استعدادًا للانطلاق.

وبينما تسند ليلى ظهرها على كرسيها، وتراقب سعيدًا وهو يتراجع من النافذة الخلفية للحافلة، تسمع صوت شكٍّ يهمس في رأسها. تتساءل: أهي حماقة منهم، أن يتركوا الأمان في مُرِّي؟ أن يذهبوا إلى الأرض التي قتل فيها والداها وشقيقاها، حيث لم يبدأ دخان القنابل في الانقشاع إلا أخيرًا؟

وعندها، من دهاليز ذاكرتها المعتمة، يبرز سطران من الشعر، الأنشودة التي قالها بابي في وداع كابل:

لا يستطيع المرء أن يحصي الأقمار التي ترتعش في أسقفها

ولا ألف الشمس الساطعة التي تختبئ خلف جدرانها

تستريح ليلى في مقعدها، وتطرف بعينيها لتطرد دمعة. كابل تنتظر. كابل في احتياج. هذه الرحلة هي الفعل الصائب.

لكن ثمة وداع أخير عليها أن تقوم به أولًا.

* * *

خرَّبت الحروب في أفغانستان الطرق التي تصل بين كابل وهِرات وقندهار. الآن، أصبح أسهل الطرق إلى هِرات هو الذي يمر عبر مشهد، في إيران. قضت ليلى وأسرتها ليلة واحدة في الطريق. قضوها في فندق، وفي الصباح التالي، استقلوا حافلة أخرى.

مشهد مدينة صاخبة مزدحمة. ترى ليلى من نافذتها المتنزهات والجوامع، ومطاعم كباب «التشِلو». عندما تمر الحافلة من أمام مقام الإمام الرضا، الإمام الثامن للشيعة، تشرئب ليلى بعنقها لتحصل على إطلالة أفضل لبلاطه اللامع، المنارات، القبة الذهبية الرائعة، جميعها مصونة بعناية وفي قمة بهائها: تفكر في تمثالي «بوذا» في بلادها، وقد أصبحا الآن حبات تراب، تطيرها الرياح فوق وادي باميان.

تستغرق الرحلة بالحافلة إلى الحدود الإيرانية الأفغانية نحو عشر ساعات. وكلما اقتربوا من أفغانستان، تصبح الأرض جرداء وموحشة أكثر فأكثر. وقبيل عبورهم الحدود إلى هِرات، يمرون بمخيم للاجئين الأفغان. تراه ليلى خليطًا من التراب الأصفر والخيام السوداء والهياكل الهزيلة لعشش من الصفيح المجعد. تمد يدها على المقعد وتمسك بيد طارق.

* * *

في هِرات، معظم الشوارع مرصوفة، محفوفة بأشجار الصنوبر الفواحة. ثمة متنزهات عامة ومكتبات في طور البناء. ميادين متأنقة، ومبانٍ مطلية حديثًا. إشارات المرور تعمل، ومن دواعي مفاجأة ليلى، الكهرباء مستقرة. كانت ليلى قد سمعت أن إسماعيل خان، أمير الحرب الإقطاعي من هِرات، قد ساعد في إعادة بناء المدينة من إيرادات الجمارك الكبيرة التي يجمعها عند الحدود الأفغانية الإيرانية، وهي أموال تقول كابل إنها لا تخصه

وإنما تخص الحكومة المركزية. عندما يذكر سائق التاكسي الذي يقلهم إلى فندق «موفَّق» اسم إسماعيل خان، تبدو في صوته نبرة توقير ورهبة.

ستكلفهم الليلتان في فندق «موفَّق» تقريبًا خُمس مدخراتهم، لكن الرحلة من مشهد كانت طويلة ومنهكة، والطفلان مرهقان. يقول موظف الاستقبال المسن لطارق، وهو يجلب مفتاح الغرفة، إن معظم نزلاء الفندق من الصحفيين وموظفي الجمعيات غير الحكومية.

يتفاخر قائلًا:

ـ ابن لادن قضى ليلة هنا.

الغرفة بها سريران، وحمَّام به مياه جارية باردة. وثمة لوحة تصور الشاعر «خواجه عبد الله أنصاري» على الجدار بين السريرين. من النافذة، تستطيع ليلى أن تطل على الشارع المزدحم، وعلى متنزه على الجانب الآخر من الشارع به ممرات من الطوب الملون بألوان «باستيلية» تفصل بين عناقيد كثيفة من الأزهار. يشعر الطفلان، اللذان اعتادا على التلفزيون، بالإحباط لعدم وجود جهاز في الغرفة. لكن سرعان ما يروحان في النوم. وسرعان ما يسقط طارق وليلى أيضًا. تنام ليلى نومًا هادئًا بين ذراعي طارق، باستثناء مرة واحدة تستيقظ في منتصف الليل من حلم لا تتذكره.

* * *

في الصباح التالي، بعد إفطار من الشاي والخبز الطازج، ومربى السفرجل، والبيض المسلوق، يوقف طارق لها تاكسيًا.

يقول:

ـ هل أنتِ متأكدة أنك لا تريدينني معك؟

عزيزة ممسكة بيده. «زلماي» لا يمسك به لكنه يقف بالقرب منه، يستند بإحدى كتفيه على وسط طارق.

ـ متأكدة.

ـ أنا قلِق.

تقول ليلى:

ـ سأكون على ما يرام. أعدك. خذ الطفلين إلى السوق واشترِ لهما شيئًا.

يشرع «زلماي» في البكاء عندما ينطلق التاكسي، وعندما تنظر ليلى إلى الخلف، تراه يمد يده إلى طارق. تقبله لطارق الذي بدأ يتضح أخيرًا يهدئ من روع ليلى ويحطم قلبها في الوقت نفسه.

* * *

يقول السائق:

ـ أنتِ لستِ من هِرات.

له شعر داكن طويل يصل إلى كتفيه ـ وهو مظهر من مظاهر إغاظة الطالبان بعد طردهم، كما عرفت ليلى ـ ولديه ندبة تشق شاربه من الجانب الأيسر. ثمة صورة ملصقة على الزجاج الأمامي، من ناحية السائق. صورة لفتاة صغيرة بخدين ورديين وشعر مفروق من المنتصف بضفيرتين توأمين.

تقول له ليلى إنها قضت العام الأخير في باكستان، وأنها عائدة إلى كابل.

ـ دِه مزنج.

عبر الزجاج الأمامي، ترى النحَّاسين يلحمون مقابض نحاسية في أباريق، والسرَّاجين يفردون قصاصات الجلد الخام لتجف في الشمس.

تسأله:

ـ هل عشت هنا طويلًا؟

ـ آه، حياتي بأكملها. لقد ولدت هنا. وقد رأيت كل شيء. هل تذكرين الانتفاضة؟

وتقول ليلى إنها تتذكرها، لكنه يواصل كلامه:

ـ كان ذلك في مارس عام ١٩٧٩، قبل نحو تسعة أشهر من الغزو السوفييتي. بعض الهِراتيين الغاضبين قَتلوا بضع مستشارين سوفييت، فأرسل السوفييت دبابات ومروحيات وقصفوا هذا المكان. لثلاثة أيام يا «همشيره»، ظلوا يطلقون النيران على المدينة، هدموا بنايات، ودمروا إحدى المنارات، وقتلوا الآلاف. الآلاف. لقد فقدت شقيقتين في تلك الأيام الثلاثة، كانت إحداهما في الثانية عشرة.

نقر على الصورة الملصقة على الزجاج الأمامي:

ـ هذه هي.

تقول ليلى:

ـ أنا آسفة.

وتتعجب، إذ لا تخلو قصة أفغانية من موت وفقد وحزن يفوق الخيال.

ومع ذلك يجد الناس طريقة للحياة، للمضي قدمًا. تفكر ليلى في حياتها وفي كل ما جرى لها، وتندهش أنها هي الأخرى استطاعت النجاة، أنها حية وجالسة في هذا التاكسي تنصت إلى قصة هذا الرجل.

* * *

جُل دامَن قرية من بضع بيوت لها جدران بين «كُلبات» مسطحة مبنية بالطين والقش. خارج «الكُلبات»، ترى ليلى نساء لوحتهن الشمس يطبخن، وجوههن تتعرق في البخار المتصاعد من قدور كبيرة مسوَّدة موضوعة على شوايات يدوية من الحطب. بغال تأكل من المعالف. أطفال يكفون عن مطاردة الدجاج ويشرعون في مطاردة التاكسي. ترى ليلى رجالًا يدفعون عربات يد مملوءة بالحجارة، يتوقفون لمراقبة السيارة حين تمر من أمامهم. ينعطف السائق، فيمران من أمام مقبرة في مركزها ضريح حال لونه بفعل الزمن. يخبرها السائق أنه قبر أحد أولياء القرية.

ثمة طاحونة هواء أيضًا. في ظلال ريشاتها الساكنة الصدئة، يقرفص ثلاثة صبية صغار، يلعبون بالطين. يوَقف السائق السيارة وينحني من النافذة. يجيبه الصبي الذي يبدو الأكبر بينهم. يشير إلى بيت إلى الأمام على الطريق. يشكره السائق، وينطلق بالسيارة ثانية.

يوقف السيارة خارج البيت المحاط بالجدران والمكون من طابق واحد. ترى ليلى قمم أشجار التين فوق الجدران، بعض فروعها تنسكب على الأجناب.

تقول للسائق:

ـ لن أغيب طويلًا.

* * *

الرجل الذي يفتح الباب في منتصف العمر، قصير ونحيف وبشعر كستنائي. تخط لحيته خيوط متوازية من الرصاصي. يضع قفطان «شابان» فوق «بيرهَن تُمبان».

يتبادلان عبارة «السلام عليكم».

تسأله ليلى:

ـ هل هذا هو بيت الملا فيض الله؟

ـ نعم، أنا ابنه، حمزة. أية خدمة يا «همشيري»؟

ـ جئت إلى هنا بشأن صديقة قديمة لوالدك، مريم.

يطرف حمزة. وتلوح على وجهه نظرة مرتبكة.

ـ مريم...

ـ ابنة جليل خان.

يطرف ثانية. ثم يضع كفًّا على خده ويشرق وجهه بابتسامة تكشف عن أسنان مفقودة ومتآكلة. يقول:

ـ ياه!

فتخرج منه مثل، ياااااااه، مثل زفير طويل.

ـ ياه! مريم! هل أنت ابنتها؟ هل هي...

يلوي رقبته، ينظر خلفها بلهفة، متطلعًا.

ـ هل هي هنا؟ لقد مضى زمن طويل جدًّا! هل مريم هنا؟

ـ لقد توفيت. أنا آسفة.

تتلاشى الابتسامة عن وجه حمزة.

للحظة، يقفان هناك، عند الباب. ينظر حمزة إلى الأرض. ينهق حمار في مكان ما.

يقول حمزة:

ـ تفضلي.

يفتح الباب:

ـ تفضلي بالدخول.

* * *

يجلسان على الأرض في غرفة شحيحة الأثاث. على الأرض بساط هِراتي، ووسائد مطرزة للجلوس، وعلى الجدار عُلقت صورة للكعبة داخل إطار. يجلسان بجوار النافذة المفتوحة، على جانبي بقعة مشمسة مستطيلة. تسمع ليلى أصوات نساء يهمسن من غرفة أخرى. ويضع صبي صغير حافي القدمين أمامهما صينية عليها شاي أخضر وحلوى «الجَز» بالفستق. يومئ حمزة تجاهه:

ـ ابني.

ـ يخرج الصبي من دون صوت.

يقول حمزة بوهن:

ـ أخبريني إذن.

وتخبره ليلى. تخبره بكل شيء. يستغرق الأمر أكثر مما تخيلت. وعندما تقترب من النهاية تجاهد لكي تحافظ على رباط جأشها، لكن الكلام عن مريم ليس سهلًا، على الرغم من مرور عام كامل.

عندما تنتهي، لا يقول حمزة أي شيء وقتًا طويلًا. يدير فنجان الشاي الخاص به ببطء على صحنه، في اتجاه، ثم في الاتجاه الآخر.

يقول أخيرًا:

ـ أبي، رحمة الله عليه، كان مغرمًا بها. كان هو من أذَّن في أذنها عند مولدها، تعرفين. كان يزورها كل أسبوع، ولم يفوت الزيارة قطُّ. وكان يأخذني معه أحيانًا. كان معلمها، نعم، لكنه صديقها أيضًا. كان أبي رجلًا خيِّرًا. وكاد ينهار عندما تخلى جليل خان عنها.

ـ آسفة أن أسمع بوفاة والدك. رحمة الله عليه.

أومأ حمزة شاكرًا.

ـ لقد عاش حتى بلغ من العمر عتيًّا. جليل خان مات قبله. دفنَّاه في مدافن القرية، ليس بعيدًا عن قبر والدة مريم. كان أبي رجلًا طيب القلب، فليُسكنه الله فسيح جناته.

أنزلت ليلى فنجانها:

ـ هل لي أن أطلب منك شيئًا؟

ـ بالطبع.

تقول:

ـ هلَّا أريتني أين كانت مريم تعيش؟ هلَّا أخذتني إلى هناك؟

* * *

يوافق السائق على الانتظار مزيدًا من الوقت.

يخرج حمزة وليلى من القرية وينزلان التل على الطريق الذي يربط بين جُل دامَن وبين هِرات. بعد خمس عشرة دقيقة أو نحو ذلك، يشير إلى فتحة ضيقة في العشب الطويل الذي ينمو على جانبي الطريق.

يقول:

ـ من هنا يمكنك الوصول. ثمة درب هناك.

الدرب وعر، متعرج، ومعتم، أسفل الخضرة والحشائش. الريح تجعل العشب الطويل يصطدم بربلتي ساقي ليلى وهي تصعد الدرب مع حمزة، ينعطفان مع منعطفاته. على جانبيهما خليط من الزهور البرية التي تتمايل مع الريح، بعضها طويل له بتلات معقوفة، والآخر قصير أوراقه تشبه المروحة. هنا وهناك ثمة أزهار حوذان تتلصص من بين الشجيرات، تسمع ليلى تغريد السنونوات فوق رأسها وزقزقة الجنادب التي لا تنقطع تحت قدميها.

يصعدان التل على هذا النحو مسافة مائتي متر أو أكثر. ثم يستقيم الدرب، وينفتح على رقعة أرض منبسطة. يتوقفان، يستعيدان أنفاسهما. تجفف ليلى جبينها بكمها وتهش البعوض الذي يحوم أمام وجهها. هنا

ترى الجبال منخفضة في الأفق، قلة من أشجار الحور القطني، وبعض أشجار الحور، وعدة شجيرات برية لا تعرف لها اسمًا.

يقول حمزة، وقد انقطعت أنفاسه قليلًا:

ـ كان ثمة غدير هنا، لكنه جف منذ زمن طويل.

يشير إليها أن تعبر الغدير الجاف، وتسير باتجاه الجبال.

يجلس على صخرة أسفل شجرة حور ويقول:

ـ سأنتظر هنا. اذهبي أنتِ.

ـ لن...

ـ لا تقلقي. خذي وقتك. هيا يا «همشيري».

تشكره ليلى. تعبر مجرى الغدير، تخطو من حَجر إلى حَجر. ترى زجاجات صودا مكسورة وسط الأحجار، وصفائح صدئة، وعبوات معدنية مغطاة بالعفن لها أغطية نصف مدفونة في الأرض.

تتجه نحو الجبال، نحو أشجار الصفصاف، التي يمكنها رؤيتها الآن، الفروع الطويلة المدلاة التي تهتز مع كل هبة ريح. في صدرها، يدق قلبها. ترى أشجار الصفصاف مصفوفة كما قالت لها مريم، في خميلة مستديرة في منتصفها «وَسَعاية». تغذ ليلى السير، تكاد تجري الآن. تدير رأسها إلى الوراء وترى حمزة وقد صار بعيدًا وضئيلًا، قفطانه «الشابان» بقعة لون على خلفية من لحاء الشجر البني. تتعثر في حَجر وتكاد تسقط، ثم تستعيد خطاها. تقطع بقية الطريق هرولة وقد رفعت ساقي بنطالها إلى أعلى. تلهث حين تصل إلى الصفصاف.

«كُلبه» مريم ما زالت هنا.

عندما تقترب منها، ترى ليلى أن إطار النافذة الوحيد فارغ وأن الباب ليس موجودًا. كانت مريم قد وصفت لها عشة دجاج وتنور، وبيت خلاء خشبي أيضًا، لكن ليلى لا ترى أثرًا لأي منها. تتوقف عند مدخل «الكُلبه»، فتسمع الذباب وهو يطن بالداخل.

لكي تدخل، عليها أن تتفادى شبكة عنكبوت مرتعشة كبيرة. الجو معتم بالداخل. على ليلى أن تمنح عينيها بضع دقائق كي تتكيفان. وعندما تتكيفان، ترى أن الداخل أصغر كثيرًا مما قد تخيلت. فقط نصف لوح متفلق متعفن بقي من ألواح الأرضية. تتخيل أن البقية قد انتُزعت لتستخدم كحطب. الأرضية الآن مكسوة بأوراق جافة الحواف، وزجاجات مكسورة، وأوراق لبان مرميَّة، وفطور برية، وأعقاب سجائر قديمة مصفرَّة. لكن أكثر ما يكسوها الأعشاب، بعضها قصير، وبعضها يعلو بجرأة حتى يصل إلى منتصف الجدران.

تفكر ليلى: خمسة عشر عامًا. خمسة عشر عامًا في هذا المكان.

تجلس ليلى. ظهرها إلى الحائط. تنصت إلى الريح وهي تتخلل أشجار الصفصاف. مزيد من شباك العنكبوت تمتد في أرجاء السقف. شخص ما كتب بألوان الرش شيئًا على أحد الحوائط، لكن جزءًا كبيرًا من الكتابة تقشَّر، ولا تستطيع ليلى فك شفرتها ومعرفة ما تقول. ثم تدرك أن الحروف روسية. هناك عش طائر مهجور في أحد الأركان ووطواط معلق رأسًا على عقب في ركن آخر، حيث يلتقي الحائط بالسقف المنخفض.

تغمض ليلى عينيها وتجلس هناك برهة.

في باكستان، كان يصعب عليها أحيانًا أن تتذكر تفاصيل وجه مريم. أحيانًا كان يراوغها وجه مريم، مثل كلمة على طرف لسانها. لكن الآن، هنا في هذا المكان، من السهل استدعاء مريم خلف أجفانها: الإشعاع الناعم لنظرتها، الذقن المستطيل، الجلد الخشن لرقبتها، الابتسامة بشفتين مغلقتين. هنا، يمكن لليلى أن تضع خدها على حجر مريم الناعم من جديد، يمكن لها أن تشعر بمريم وهي تتأرجح إلى الخلف وإلى الأمام، وهي تتلو آيات من القرآن، يمكن لها أن تحس بذبذبة الكلمات في جسد مريم، حتى ركبتيها، ومنها إلى أذنيها هي.

ثم، فجأة، يبدأ العشب في التراجع، وكأن شيئًا تحت الأرض يشده من جذوره. يغوص أكثر وأكثر حتى تبتلع أرض «الكُلبه» آخر أوراقه المدببة. وبطريقة سحرية تحل شباك العنكبوت نفسها. ويفكك عش الطائر نفسه، تسقط الأغصان واحدًا بعد واحد، تدور حول نفسها وتنطلق خارج «الكُلبه». ممحاة خفية تمسح الكتابة الروسية عن الجدار.

تعود ألواح الأرضية. ترى ليلى الآن مرتبتين، طاولة خشبية، كرسيين، موقدًا حديديًّا في الزاوية، أرفف بطول الجدران، عليها قدور من الفخار وقلايات، غلاية شاي مسودَّة، فناجين وملاعق. تسمع دجاجات توقوق بالخارج، وقرقرة الغدير من بعيد.

تجلس مريم الشابة على الطاولة تصنع دُمية على وهج مصباح زيتي. تهمهم بشيء. وجهها ناعم وناضر، وشعرها مغسول، وممشط إلى الخلف. وأسنانها كاملة.

تراقب ليلى مريم وهي تلصق خيوط غزل على رأس دميتها. بعد أعوام قليلة، سوف تصبح تلك الفتاة الصغيرة امرأة لا تطلب من الحياة

إلا القليل، لا تثقل على الآخرين أبدًا، لا تكشف أبدًا أنها هي الأخرى لديها أحزانها، وإحباطاتها، وأحلامها التي استُخِفَّ بها. امرأة ستكون مثل صخرة في قاع نهر، تتحمل من دون شكوى، الهموم التي تكتسحها لا تدنس فضيلتها، وإنما تصنع تلك الفضيلة. ترى ليلى شيئًا ما وراء عيني تلك الفتاة، شيئًا عميقًا في صميمها، لن يستطيع رشيد ولا الطالبان أن يكسروه، شيئًا صلبًا ومتحجرًا مثل صخرة، شيئًا سوف يكون، في نهاية المطاف، نكبة لها وخلاصًا لليلى.

ترفع الفتاة الصغيرة رأسها. تضع الدمية. تبتسم.

«ليلى جو؟».

تنفتح عينا ليلى. تشهق، ويندفع جسدها إلى الأمام. يجفل الوطواط، فيئز منطلقًا من أحد طرفي «الكُلبه» إلى الطرف الآخر، جناحاه الضاربان مثل أوراق كتاب ترفرف، قبل أن يطير خارجًا من النافذة.

تنهض ليلى على قدميها، تنفض أوراق الشجر الميتة عن مقعدة بنطالها. تخرج من «الكُلبه». في الخارج، تغيرت الإضاءة قليلًا. ريح تهب، تجعل العشب يتموج وفروع الصفصاف تطقطق.

قبل أن تغادر ليلى «الوَسَعاية»، تلقي نظرة أخيرة على «الكُلبه» حيث كانت مريم تنام، وتأكل، وتحلم، وتحبس أنفاسها في انتظار جليل. على الجدران المائلة، تلقي أشجار الصفصاف بظلال يتبدل شكلها مع كل هبة ريح. هبط غراب على السطح المنبسط، ينقر شيئًا، ينعق، ثم يطير بعيدًا.

ـ وداعًا مريم.

وبهذا، غير واعية بكونها تبكي، تشرع ليلى في الركض على العشب.

تجد حمزة لا يزال جالسًا على الصخرة. عندما يراها، ينهض واقفًا.

يقول:

ـ هيا نرجع.

ويضيف:

ـ عندي شيء لكِ.

* * *

تنتظر ليلى حمزة في الحديقة أمام الباب الأمامي. الصبي الذي قدم لهما الشاي في وقت سابق يقف أسفل إحدى أشجار التين يمسك بدجاجة، ينظر إليها بلا انفعال. تختلس ليلى النظر إلى وجهين، امرأة عجوز وفتاة شابة، ترتديان الحجاب، تراقبانها بتوقر من إحدى النوافذ.

ينفتح باب البيت ويخرج حمزة. يحمل علبة.

يعطيها لليلى.

يقول حمزة:

ـ جليل خان أعطى هذه لوالدي قبل وفاته بشهر أو نحو ذلك. طلب من والدي الحفاظ عليها من أجل مريم حتى تأتي وتطلبها منه. وقد احتفظ بها والدي لسنتين. ثم، قبل أن يتوفاه الله، أعطاها لي، وطلب مني أن أحفظها لأجل مريم. لكنها... تعرفين، لم تأت قطُّ.

تنظر ليلى إلى العلبة الصفيح البيضوية. تبدو أشبه بعلبة شوكولاتة قديمة. لونها أخضر زيتوني، لها غطاء بمفصلات مزيَّن بنقوش مذهبة.

قليل من الصدأ على الجانبين، وانبعاجان صغيران على الحافة الأمامية للغطاء. تحاول ليلى فتح العلبة، لكن ضلفتي الأمان موصدتان.

تسأله:

ـ ماذا بداخلها؟

يضع حمزة مفتاحًا في كفها:

ـ لم يفتحها والدي قطُّ. ولم أفتحها أنا. أعتقد أنها مشيئة الله أن تفتحيها أنتِ.

* * *

تعود إلى الفندق فتجد أن طارقًا والطفلين لم يرجعا بعد.

تجلس ليلى على الفراش، العلبة في حِجرها. جزء منها يريد أن يتركها مغلقة، أن يدع أيًا كان ما أراده جليل سرًّا. لكن، في نهاية المطاف، كان الفضول أقوى. تُدخل المفتاح. وبعد محاولات تنفتح العلبة.

تجد بداخلها ثلاثة أشياء: ظرفًا، وجرابًا من الخيش، وشريط فيديو.

تتناول ليلى الشريط وتذهب إلى مكتب الاستقبال. تعرف من الموظف المسن الذي استقبلهم في اليوم السابق أن الفندق به جهاز فيديو واحد، في أكبر الأجنحة. الجناح شاغر في تلك اللحظة، ويوافق على أن يصطحبها. يترك المكتب لشاب ذي شارب يرتدي بدلة ويتحدث في هاتف محمول.

يقود الموظف المسن ليلى إلى الطابق الثاني، إلى باب في نهاية ردهة طويلة. يفتح القفل، ويدخلها. ترصد عينا ليلى جهاز التلفزيون في الزاوية. لا تريان شيئًا آخر في الجناح.

تشغِّل التلفزيون، تشغِّل الفيديو. تضع الشريط وتضغط زر العرض. تظل الشاشة خالية بضع لحظات، وتتساءل ليلى عن السبب الذي من أجله تجشم جليل عناء تسليم شريط خالٍ إلى مريم. لكن موسيقى تصدح، وتبدأ صور في الظهور على الشاشة.

تعبس ليلى. تشاهد الفيلم دقيقة أو اثنتين، ثم تضغط على زر الإيقاف، وتشغِّل الصورة بالحركة السريعة، ثم تضغط زر التشغيل ثانية، فيظهر الفيلم نفسه.

ينظر الرجل المسن إليها متحيرًا.

على الشاشة، يُعرض فيلم «بينوكيو» من إنتاج «والت ديزني». ولا تفهم ليلى شيئًا.

* * *

يرجع طارق والطفلان إلى الفندق بعد السادسة. تركض عزيزة إلى ليلى وتريها القرط الذي اشتراه لها طارق، قرط من الفضة عليه فراشة من المينا. أما «زلماي» فيمسك بدولفين قابل للنفخ، يُصفِّر عندما يُضغط على خطمه.

يسألها طارق، وهو يضع ذراعه حول كتفها:

ـ كيف حالك؟

تقول ليلى:

ـ أنا بخير. سأحكي لك لاحقًا.

يمشون إلى مطعم كباب قريب لتناول الطعام. مكان صغير، به مفارش طاولات من الفينيل ملوثة بالدهون، صاخب ومليء بالدخان. لكن اللحم

طري وندي، والخبز ساخن. يتمشون في الشوارع فترة بعدها. يشتري طارق للطفلين «آيس كريم» بماء الورد من كشك على جانب الطريق. يأكلون، يجلسون على مقعد طويل، تبدو الجبال من خلفهم ظلالًا أمام الغسق الأحمر القرمزي. الهواء دافئ، يفوح برائحة أشجار الأرز.

كانت ليلى قد فتحت الظرف عندما عادت إلى الغرفة بعدما شاهدت شريط الفيديو. وبداخله كان خطاب، مكتوب بخط اليد بحبر أزرق على ورقة صفراء مسطَّرة:

١٣ مايو ١٩٨٧

عزيزتي مريم،
أسأل الله أن تكوني بصحة جيدة.
كما تعلمين، فقد جئت إلى كابل قبل شهر لكي أتحدث معك، لكنك امتنعتِ عن رؤيتي، وقد أصابني الإحباط، لكن لم يسعني أن ألومك. لو كنت في مكانك، لربما فعلت مثلك. لقد فقدت نعمة رضاكِ عني قبل زمن طويل ولا ألوم في ذلك غير نفسي. لكن إذا كنت تقرئين هذا الخطاب، فذلك يعني أنك قرأتِ الخطاب الذي تركته عند بابك، قرأتِه وجئت لزيارة الملا فيض الله، كما طلبتُ منك. وأنا ممتن لك لأنك فعلت ذلك يا مريم جو. أنا ممتن لفرصة أن أقول لك بضع كلمات.
من أين أبدأ؟
لقد عرف والدكِ كثيرًا من الأحزان منذ تحدثنا آخر مرة يا مريم جو. زوجة أبيك «أفسون» لقيت مصرعها في أول أيام انتفاضة عام ١٩٧٩. وتسببت رصاصة طائشة في مصرع أختك «نيلوفَر» في اليوم نفسه.

ما زال بوسعي رؤيتها، صغيرتي «نيلوفَر»، وهي تقف على يديها لكي تبهر الضيوف. أما أخوك «فرهاد» فقد التحق بالجهاد عام ١٩٨٠، وقتله السوفييت عام ١٩٨٢، على أبواب هلمند. لم يُتح لي أن أرى جثمانه. لا أعرف إن كان لديك أطفال أم لا يا مريم جو، لكن إذا كان لديك أطفال فأدعو من الله أن يرعاهم وأن يجنبك الحزن الذي عرفته. لا زلت أحلم بهما. لا زلت أحلم بطفليَّ الراحلين.

أحلم بكِ أيضًا يا مريم جو. وأشتاق إليك. أشتاق إلى صوتك، إلى ضحكتك، أشتاق إلى القراءة لك، وإلى كل الأوقات التي اصطدنا فيها السمك معًا. هل تتذكرين تلك الأوقات التي كنا نصطاد فيها معًا؟ لقد كنت ابنة طيبة يا مريم جو، ولا يمكنني أن أفكر فيك أبدًا من دون أن أشعر بالعار والندم. الندم... عندما يتعلق الأمر بك، يا مريم جو، فلديَّ بحار من الندم: نادم على أنني لم أرك يوم جئتِ إلى هِرات. نادم على أنني لم أفتح الباب وأُدخلك. نادم على أنني لم أجعلك ابنة لي، على أنني تركتك تعيشين في ذاك المكان طيلة تلك السنوات. ومن أجل ماذا؟ حفظ ماء الوجه؟ الخوف من تلويث ما يُسمى بسُمعتي؟ كم باتت تلك الأشياء غير ذات بال بالنسبة إليَّ الآن بعد كل هذا الفقد، كل الأشياء الرهيبة التي رأيتها في تلك الحرب الملعونة. لكن الآن، بالطبع، فات الأوان. ربما يكون ذلك مجرد عقاب لقساة القلوب، ألا يفهموا إلا بعدما يصبح التراجع عن أفعالهم مستحيلًا. الآن لا يسعني إلا أن أقول إنك كنت ابنة طيبة، يا مريم جو، وإنني لم أستحقك قطُّ. لا يسعني الآن

إلا أن أسألك المغفرة. اغفري لي يا مريم جو. اغفري لي. اغفري لي. اغفري لي.

لم أعد الرجل الثري الذي عرفتِه يومًا. لقد صادر الشيوعيون أغلب أراضيَّ، وجميع متاجري أيضًا. لكن لا داعي للشكوى، إذ لا يزال الله ينعم عليَّ ـ لأسباب لا أفهمها ـ بأكثر مما ينعم على معظم الناس. فمنذ عودتي من كابل، استطعت بيع ما تبقى لي من أراضٍ قليلة. وقد جنَّبتُ حصتك في الميراث. وسترين أنها ليست ثروة بأي حال، لكنها شيء ما. شيء ما (ستلاحظين أيضًا أنني سمحت لنفسي بتحويل النقود إلى دولارات. أظن أن ذلك أفضل. فالله وحده يعلم مصير عُملتنا المحاصَرة).

أتمنى ألا تظني أنني أحاول شراء مغفرتك. أتمنى أن تثقي في معرفتي بأن مغفرتك ليست للبيع. ولم تكن للبيع قطًّ. أنا فقط أعطيك، وإن متأخرًا، ما كان دائمًا حقًّا لكِ. لم أكن أبًا بارًّا في حياتي، فربما أستطيع أن أصبح أبًا بارًّا في مماتي.

آه، الموت. لن أثقل عليك بالتفاصيل، لكن الموت الآن نصب عيني. قلب ضعيف، كما يقول الأطباء. أظنها طريقة مناسبة لموت رجل ضعيف.

مريم جو...

أنا أتجرأ، أتجرأ وأسمح لنفسي بالأمل أن تصبحي أنت أكثر رأفة بي مما كنت أنا بك، الآن وقد قرأتِ هذا الخطاب، أن تجدي في قلبك الرغبة، ربما، في المجيء لرؤية والدك، أن تقرعي بابي مرة أخيرة وتمنحيني الفرصة أن أفتحه هذه المرَّة، أن أرحب بك، أن آخذك

بين ذراعيَّ، يا ابنتي، كما كان عليَّ أن آخذك بين ذراعيَّ قبل كل تلك السنين. إنه أمل ضعيف مثل قلبي. هذا ما أعرفه. لكنني سأكون في الانتظار. سأصغى إلى لحظة تقرعين الباب. سيظل عندي أمل.

أدعو الله أن يمنحك حياة مديدة سعيدة يا ابنتي. أدعو الله أن يرزقك بأطفال كُثُر يتمتعون بالصحة والحسن.

أدعو لك بالسعادة، والسلام، والقبول الذي لم أمنحك إياه. كوني بخير. أتركك في رعاية الله.

والدكِ المقصر

جليل

* * *

تلك الليلة، بعد عودتهم إلى الفندق، بعدما انتهى الأطفال من اللعب ودخلوا إلى الفراش، تخبر ليلى طارقًا بأمر الخطاب. تريه النقود في الجراب الخيش. وعندما تشرع في البكاء، يقبِّل وجهها ويضمها بين ذراعيه.

٥١
أبريل ٢٠٠٣

انتهى القحط، وهطلت الثلوج أخيرًا في الشتاء الأخير، حتى أصبحت السيقان تغوص فيها إلى الرُّكبة، وها هي تمطر منذ أيام. عاد نهر كابل للتدفق، وجرفت فيضاناته «مدينة تيتانيك».

الشوارع الآن موحلة، تخوض فيها الأحذية، وتعلق عجلات السيارات، وتكابد الحمير المحملة بالتفاح في سيرها، تنثر حوافرها الطين من بركات المطر. لكن لا أحد يشكو من الوحل، ولا أحد يأسى على «مدينة تيتانيك». يقول الناس:

ـ نريد لكابل أن تخضرَّ من جديد.

بالأمس، راقبت ليلى طفليها وهما يلعبان تحت وابل المطر، يقفزان من بركة إلى أخرى في باحتهم الخلفية أسفل سماء بلون الرصاص. كانت تنظر من نافذة مطبخ المنزل الصغير ـ وبه غرفتا نوم ـ الذي استأجروه في دِه مَزنج. ثمة شجرة رمان في الباحة وأجمة من شجيرات النسرين. رمم طارق

السور وصنع للطفلين «زُحليقة»، وأرجوحة، وسوَّر منطقة صغيرة وضع داخلها عنزة «زلماي» الجديدة. راقبت ليلى المطر وهو يسيل عن رأس «زلماي» ـ كان قد طلب حلاقة شعره مثل طارق، الذي أصبح المسؤول الآن عن قراءة أدعية «البابالو». وفَرَد المطر شعر عزيزة الطويل، فبات أشبه بسيقان لبلاب مغمورة في الماء ترش «زلماي» كلما أدارت رأسها.

«زلماي» في السادسة من عمره تقريبًا. وعزيزة في العاشرة. احتفلوا بعيد ميلادها الأسبوع الماضي، اصطحبوها إلى «سينما بارك»، حيث يُعرض «تيتانيك» أخيرًا عرضًا عامًّا لأهل كابل.

* * *

تنادي ليلى، وهي تضع الغداء في كيس ورقي:

ـ هيا يا أطفال، سنتأخر.

الساعة الثامنة صباحًا. استيقظت ليلى في الخامسة. كالعادة، أيقظتها عزيزة لصلاة الصبح. تعرف ليلى أن الصلاة هي طريقة عزيزة لملازمة مريم، طريقتها للاحتفاظ بمريم وقتًا أطول قليلًا قبل أن يفعل الزمن فعله، قبل أن يقتلع مريم من حديقة ذكرياتها مثلما تُقتلع الأعشاب من جذورها.

بعد الصلاة، عادت ليلى إلى الفراش، وكانت لا تزال نائمة عندما غادر طارق البيت. تتذكر على نحو غامض وهو يقبلها على خدها. لقد وجد طارق عملًا مع منظمة غير حكومية فرنسية تمنح مصابي الألغام ومن فقدوا أطرافهم أطرافًا صناعية.

يأتي «زلماي» وهو يطارد عزيزة إلى المطبخ.

ـ هل معكما الكراسات، والأقلام، والكتب المدرسية؟

تقول عزيزة، وهي ترفع حقيبة ظهرها:

ـ كلها هنا.

ثانية، تلاحظ ليلى كيف تحسَّن تلعثمها.

ـ لنذهب إذن.

تخرج ليلى الطفلين من المنزل، توصد الباب. يخرجون إلى الصباح المنعش. لا مطر اليوم. السماء زرقاء، ولا ترى ليلى سحبًا في الأفق. يمضي الثلاثة في طريقهم متشابكي الأيدي إلى موقف الحافلة. الشوارع ازدحمت بالفعل، تتدفق فيها بلا انقطاع عربات «التوك توك» وسيارات التاكسي وشاحنات الأمم المتحدة، والحافلات، وعربات «الجيب» التابعة لقوات «إيساف». تجار بعيون ناعسة يفتحون مزاليج بوابات متاجرهم التي أنزلت في الليلة السابقة. باعة يجلسون خلف أبراج من اللبان وعلب السجائر. الأرامل اتخذن مواقعهن عند النواصي، يطلبون من المارة بعض الفكَّة.

تستغرب ليلى عودتها إلى كابل. لقد تغيرت المدينة. كل يوم ترى أناسًا يزرعون شتلات، يدهنون بيوتًا قديمة، يحملون الطوب للبيوت الجديدة، يحفرون مصارف وآبار. وعلى حواف الشبابيك ترى ليلى أزهارًا زُرعت في المقذوفات الفارغة لصواريخ المجاهدين القديمة ـ يسميها الكابليون «زهور الصواريخ». مؤخرًا، اصطحب طارق ليلى والطفلين إلى حدائق «بابُر»، التي يجري تجديدها. للمرة الأولى منذ سنوات، تسمع ليلى موسيقى عند نواصي شوارع كابل، الرباب والطبلة، الدوتار وأرغن الهارمونيوم والطمبورة، أغاني أحمد ظاهر القديمة.

تتمنى ليلى لو كانت مامي وبابي على قيد الحياة ليشهدا تلك التغيرات، لكن توبة كابل، شأنها شأن خطاب جليل، وصلت بعد فوات الأوان.

وبينما تستعد ليلى وطفلاها لعبور الشارع إلى موقف الحافلات، تمرق من أمامهم فجأة سيارة «لاند كروزر» سوداء بنوافذ داكنة. تنعطف في اللحظة الأخيرة لتتفادى ليلى بأقل من طول ذراع. ترش مياه أمطار بلون الشاي على قميصي الطفلين.

تشد ليلى طفليها إلى الرصيف، وقلبها يتشقلب في حلقها.

تهدئ «اللاند كروزر» سرعتها، وتطلق بوقها مرتين، ثم تنعطف بحدة إلى اليسار.

تقف ليلى مكانها، محاولة أن تستعيد أنفاسها، أصابعها قابضة بقوة على معصمي الطفلين.

تتألم ليلى، وكأن سكينًا يذبحها. يؤلمها أن يُسمح لأمراء الحرب بالعودة إلى كابل ثانية، أن يعيش قتلة والديها في دور فاخرة بحدائق مسورة، أن يعينوا وزراء لهذا ونواب وزراء لذاك، أن يتحصنوا في سيارات رياضية براقة ومضادة للرصاص، يقودونها عبر الأحياء التي دمروها. تتألم لذلك، وكأن سكينًا يذبحها.

لكن ليلى قررت ألا تدع الحقد يعيق مسيرتها. لم تكن مريم لتقبل بذلك. «ما الفكرة؟» هكذا كانت ستقول بابتسامة تجمع بين البراءة والحكمة. «ما الفائدة من ذلك يا ليلى جو؟» وهكذا استقرت ليلى على المضي قدمًا. من أجل نفسها، من أجل طارق، من أجل الطفلين، ومن أجل مريم، التي ما زالت تزور ليلى في أحلامها، التي لم تكن تبعد عن

وعيها أكثر من مسافة غفوة. مضت ليلى قدمًا، لأنها تعرف في النهاية أن ذلك هو كل ما تستطيعه، ذلك والأمل.

* * *

يقف زمان عند خط الرميات الحرة، يثني ركبتيه، ينطط كرة سلة، يُعلِّم مجموعة من الصبية في قمصان رياضية موحدة يجلسون في نصف دائرة على الأرض. يلمح زمان ليلى، يضع الكرة تحت إبطه، ويلوح لها. يقول شيئًا للصبية، فيلوحون بأيديهم ويصيحون:

ـ سلام يا «مُعلِّم صاحب»!

تلوح لهم ليلى.

زُرع صف من شتلات التفاح بطول الجدار الشرقي لملعب دار الأيتام. وتنوي ليلى زراعة بعضها عند السور الجنوبي أيضًا فور أن يُعاد بناؤه. هناك أرجوحة جديدة، وقضبان قرود جديدة، ولعبة أدغال.

تعود ليلى إلى الداخل عبر حاجز الباب.

لقد أعادوا طلاء دار الأيتام من الداخل والخارج. أصلح طارق وزمان جميع تسربات السقف، ورمما الجدران، واستبدلا النوافذ، وفرشا الغرف التي ينام فيها الأطفال ويلعبون بالسجاد. وفي الشتاء الماضي، اشترت ليلى بضعة أسرة لمهاجع الأطفال، ووسائد أيضًا، وبطاطين صوف جديدة. وثبتت مواقد من الحديد الزهر لأجل الشتاء.

نشرت صحيفة «أنيس»، إحدى صحف كابل، الشهر الماضي قصة عن تجديد دار الأيتام. والتقطوا صورة لزمان وطارق وليلى وأحد المشرفين

وهم يقفون في صف خلف الأطفال. عندما رأت ليلى الموضوع الصحفي، فكرت في صديقتي طفولتها «جيتي» وحسينة، وفي قول حسينة: «عندما نبلغ العشرين، ستكون كل منا، أنا و«جيتي»، أمًّا لأربعة أو خمسة أطفال. أما أنت يا ليلى، فسوف تصبحين مصدر فخر لصديقتيك العبيطتين. سوف تصبحين شخصًا مرموقًا. أعرف أنني سوف أفتح صحيفة ذات يوم لأجد صورتك على الصفحة الأولى». لم تظهر الصورة على الصفحة الأولى، لكن ها هي، كما تنبأت حسينة.

تنعطف ليلى وتسير في الردهة نفسها حيث، قبل عامين، جاءت هي ومريم بعزيزة إلى زمان. ما زالت ليلى تتذكر كيف كان عليهما أن ينتزعا أصابع عزيزة من حول رسغها. تتذكر وهي تجري في الردهة، تكتم النحيب، ومريم تنادي عليها، وعزيزة تصرخ مذعورة. الآن، أصبحت جدران الردهة مغطاة بالملصقات: ديناصورات، وشخصيات رسوم متحركة، تمثالي «بوذا» في باميان، ومعارض لأعمال الأيتام الفنية. كثير من الرسومات تصور دبابات تهدم أكواخًا، ورجالًا يلوحون ببنادقهم طراز «AK-47»، وخيام مخيمات اللاجئين، ولقطات من الجهاد.

تنعطف ليلى في الردهة وترى الأطفال الآن، ينتظرون خارج غرفة الدرس. تستقبلها الطرحات والرؤوس الحليقة المغطاة بالطواقي، الأجساد الصغيرة النحيلة، والجمال الكامن في هيئتهم الرثة.

عندما يرى الأطفال ليلى، يركضون إليها. يركضون إليها بأقصى سرعة، يداهمونها. تختلط التحايا الصاخبة، الأصوات الحادة، اللهاث، يتشبثون بها، يشدونها، يتخبطون فيها، يتدافعون لكي تحملهم بين ذراعيها. أيادٍ صغيرة ممدودة تتوسل الاهتمام. بعضهم يدعونها «أمي»، فلا تعترض.

يستغرق الأمر من ليلى هذا الصباح بعض الجهد كي تهدئ الأطفال، كي تجعلهم يقفون في صف واحد، وتقودهم إلى غرفة الدرس.

طارق وزمان شيدا غرفة الدرس بعد أن هدما الجدار بين غرفتين متجاورتين. الأرضية لا تزال مليئة بالشقوق وبها بلاطات مفقودة. هي الآن مغطاة بالمشمع، لكن طارقًا وعد بتركيب بعض البلاطات الجديدة وفرشها بالسجاجيد قريبًا.

عُلقت فوق باب غرفة الدرس لوحة مربعة، صنفرها زمان ودهنها بالأبيض الناصع، وكتب عليها بفرشاة أربعة أسطر من الشعر. تعرف ليلى أن تلك الأسطر هي رد منه على أولئك الذين يتبرمون من أن أموال المساعدات الموعودة إلى أفغانستان لا تتدفق، وأن إعادة البناء تتم ببطء شديد، وأن هناك فسادًا، وأن الطالبان يعيدون تجميع أنفسهم بالفعل وسوف يعودون للانتقام، وأن العالم سوف ينسى أمر أفغانستان ثانية. السطور من غزليات حافظ المفضلة لديه:

لسوف يرجع يوسف إلى كنعان، لا تحزن

لسوف تصير العشش جنَّات ورد، لا تحزن

وإن جاء طوفان وأغرق كل ما هو حي

فنوح دليلك في الطوفان، لا تحزن

تمر ليلى أسفل اللوحة وتدخل غرفة الدرس. يجلس الأطفال في مقاعدهم، يفتحون كراساتهم، يثرثرون. تتكلم عزيزة مع بنت في الصف المجاور. تندفع طائرة مصنوعة من الورق عبر الغرفة في قوس عالٍ، يتناولها أحدهم ويرميها من حيث أتت.

تقول ليلى، وهي تضع كتبها على مكتبها:

ـ افتحوا كتب اللغة الفارسية يا أطفال.

ووسط جوقة من رفيف الصفحات، تمضي ليلى باتجاه النافذة العارية من الستائر. عبر الزجاج، ترى الصبية في الملعب يصطفون للقيام بالرميات الحرة. فوقهم، فوق الجبال، ترتفع شمس الصباح. تنعكس على السور المعدني لملعب كرة السلة، على السلسلة التي عُلقت فيها الإطارات المتأرجحة، على الصافرة التي تتدلى من حول عنق زمان، ونظارته الجديدة السليمة. تفرد ليلى كفيها على زجاج النافذة الدافئ. تغمض عينيها. تترك ضوء الشمس يسقط على خديها، على أجفانها، على جبينها.

لدى عودتهم إلى كابل، اغتمت ليلى لأنها لم تعرف أين دفن الطالبان مريم. تمنت لو تزور قبر مريم، لو تجلس معها برهة، وتترك لها زهرة أو اثنتين. لكنها ترى الآن أن الأمر لا يهم، فمريم ليست بعيدة، إنها هنا، في تلك الجدران التي أعادوا طلاءها، في الأشجار التي زرعوها، في البطاطين التي تمنح الأطفال الدفء، في تلك الوسائد والكتب والأقلام. موجودة في ضحكات الأطفال. موجودة في القصائد التي تقرأها عزيزة وفي الأدعية التي تتمتم بها وهي تصلي ميممة وجهها نحو الغرب. لكنها موجودة، أكثر من أي شيء، في قلب ليلى، حيث تسطع بوهج ألف شمس.

تنتبه ليلى إلى أن شخصًا ينادي باسمها، تستدير، وتُميل رأسها غريزيًّا، رافعة أذنها السليمة قليلًا. إنها عزيزة:

ـ مامي؟ هل أنت بخير؟

كان السكون قد غم الغرفة، وجلس الأطفال يراقبونها.

توشك ليلى على الإجابة، لكن أنفاسها تنحبس فجأة، وتنطلق يداها إلى أسفل، تضعها على البقعة التي شعرت فيها قبل لحظة بموجة تعبرها. تنتظر، لكن لا شيء إلا السكون.

ـ مامي؟

تبتسم ليلى:

ـ نعم يا حبيبتي. أنا بخير. نعم. بأفضل حال.

تفكر ليلى، وهي تمضي إلى مكتبها في أول غرفة الدرس، في لعبة الأسماء التي لعبوها على العشاء ليلة أمس. كانت قد أصبحت طقسًا ليليًّا منذ أخبرت ليلى طارقًا والطفلين. يتجادلون مرة بعد مرة، ويدافع كل منهم عن اختياراته: طارق يحب «محمد». «زلماي»، الذي شاهد «سوبرمان» مؤخرًا على شريط فيديو، يحتار لماذا لا يمكن تسمية ولد أفغاني باسم «كلارك». عزيزة تحشد بقوة لـ«أمان»، أما ليلى فتحب عمر.

لكن اللعبة تقتصر على أسماء الأولاد. فلو كانت بنتًا، فليلى تعرف اسمها.

تعقيب

على مدار نحو ثلاثة عقود، ظلت أزمة اللاجئين الأفغان واحدة من أكثر أزمات العالم حدة. إذ أجبرت الحرب والقحط والفوضى والاضطهاد ملايين الناس ـ مثل طارق وأسرته في هذه القصة ـ على هجران ديارهم والهروب من أفغانستان والاستقرار في باكستان أو إيران المجاورتين. وقد بلغ عدد اللاجئين الأفغان في ذروة الهجرة نحو ثمانية ملايين لاجئ في الخارج. واليوم، يظل أكثر من مليوني لاجئ أفغاني في باكستان.

ومنذ عام ٢٠٠٢، عاد نحو خمسة ملايين لاجئ إلى ديارهم بمساعدة من المفوضية العليا للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين. وفي سبتمبر ٢٠٠٧، قمت بزيارة لبعض من هؤلاء العائدين في شمال أفغانستان. التقيت بأُسر تعيش على أقل من دولار في اليوم، وتقضي شتاءات بأكملها حبيسة حفرات تحت الأرض. زرت قرى تفقد، بصورة دورية، ما بين عشرة وخمسة عشر طفلًا يقضون في العراء كل شتاء وكل صيف. هؤلاء الذين التقيت بهم كانوا يشربون المياه من أنهار موحلة، ويموتون بأمراض تسهل الوقاية منها. لا يجدون سقفًا يحميهم، ولا تتوفر لهم أية

مرافق صحية، ولا مدارس، ولا غذاء، ولا وظائف. لقد شعرت أنني صرت حطامًا.

تأسست «مؤسسة خالد حسيني» نتيجة لتلك الرحلة التي تغير من حياة الإنسان. مع تلك المؤسسة، نأمل أن نحدث تغييرًا حقيقيًّا ومستمرًّا. في عام ٢٠٠٩، تعاونت المؤسسة مع المفوضية العليا للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، وموَّلتا بناء منازل لتلجأ إليها ٧١ أسرة مشردة في شمال شرق أفغانستان. وهناك خطط تجري لبناء مزيد من المنازل للمشردين من العائدين. وسوف يستهدف تمويلنا أولًا تلك المشروعات التي تفيد اللاجئين، والنساء والأطفال، وهما فئتان عانتا أكثر من أية فئات أخرى في هذا البلد المحاصر، وتمثلان العمود الفقري لمستقبل أفغانستان.

إن حاجة أفغانستان لإعادة التعمير هائلة، واحتواء فيض المعاناة الإنسانية هناك مهمة جبارة. ولمعرفة المزيد عن هذا الشأن، أو عن «مؤسسة خالد حسيني»، برجاء زيارة: www.khaledhosseinifoundation.org

مع الشكر.

خالد حسيني
نوفمبر ٢٠٠٩

شكر وعرفان

قبل الشكر، عليَّ توضيح بعض الأمور. إن قرية جُل دامَن هي مكان متخيل ـ بحد علمي. وأولئك الذين يعرفون مدينة هِرات سيلاحظون أنني سمحت لنفسي بالقليل من الحرية في وصف الجغرافيا المحيطة بها. وأخيرًا، فإن عنوان هذه الرواية يأتي من قصيدة نظمها صائب تبريزي، الشاعر الفارسي ابن القرن السابع عشر.

أود أن أشكر «قيوم سَرْوَر»، و«حكمت سادات»، و«إليز هاثواي»، و«روزماري ستاسيك»، و«لورانس كويل»، و«حليمة جاسمين كويل» على مساعدتهم ودعمهم.

شكر خاص جدًّا لوالدي، بابا، على قراءته لهذا المخطوط، وعلى ملاحظاته، وكالعادة، على حبه ودعمه. ولأمي التي تتغلغل روحها الرقيقة المؤثِرة في هذه الحكاية. أنت من وراء القصد يا أمي. والشكر موصول لأنسبائي على كرمهم وعطفهم. ولبقية عائلتي الرائعة، إنني مدين بالفضل والعرفان لكل واحد منكم.

وأود أن أشكر وكيلة أعمالي، «إلين كوستر»، على إيمانها الدائم،

«جودي هوتشكيس» (إلى الأمام!)، «دافيد جروسمان»، «هيلين هيلر»، و«تشاندلر كروفورد» الذي لا يكل. وأدين بالفضل للجميع في «ريفرهيد بوكس»، واحدًا واحدًا. وعلى وجه الخصوص أتقدم بالشكر لـ«سوزان بيترسن كنيدي» و«جيفري كلوسكي» على إيمانهما بهذه القصة. والشكر الحار موصول أيضًا إلى «مارلين دكسوورث»، و«ميهـهو تشا»، و«كاثرين لينش»، و«كريج د. بوركي»، و«ليسلي شوارتز»، و«هوني ورنر»، و«ويندي بيرل». وشكر خاص لمراجع اللغة الإنجليزية صاحب العين المدققة «طوني دافيز»، الذي لا يفوته شيء، وأخيرًا لمحررتي الموهوبة، «ساره ماكجرات»، على صبرها، وبصيرتها، وتوجيهها.

أخيرًا، شكرًا لك يا «رويا». على قراءة تلك القصة مرة بعد مرة، على تبديد أزمات الثقة الصغيرة التي كانت تنتابني (وبعض الأزمات الكبيرة)، على أن الشك لم يداخلك قطُّ. ما كان لهذا الكتاب أن يخرج من دونك. أحبك.

حاشية
بقلم خالد حسيني

هذا النص مجتزأ عن كلمة ألقيت في معرض «بوك إكسبو أمريكا» في ٢ يونيو ٢٠٠٧.

بدأتُ الكتابة مثل أمير، الصبي في «عدَّاء الطائرة الورقية». فقد نشأت في كابل في سبعينيات القرن العشرين، وكتبت قصائد ومسرحيات صغيرة كنت أتملق أشقائي وأولاد عمومتي لكي يمثلوها على مسرح أمام آبائنا في الحفلات. وكتبت أيضًا قصصًا قصيرة، أتذكرها الآن كئيبة، انفعالية، بل تفاخر بلا خجل بميلودراميتها، كانت تعالج، بطريقتها الطفولية الخاصة، قضايا الإخلاص، والصداقة، والصراع الطبقي. وكانت تعوض ما تفتقر إليه من الدقة وحسن الأسلوب بعاطفة كبيرة جذابة وفياضة، وهي مفردات استخدمها البعض، وربما لذلك ما يبرره، لوصف «عدَّاء الطائرة الورقية».

لقد تغيرت اللغة التي أكتب بها. بدأت الكتابة بالفارسية، ثم كتبت بالفرنسية، والآن أكتب في الأغلب الأعم بالإنجليزية. لكن شيئًا واحدًا ظل ثابتًا: أكتب دائمًا لجمهور من شخص واحد. بالنسبة إليَّ، طالما كانت الكتابة عملًا أنانيًّا موجهًا لخدمة الذات، فيه أحكي لنفسي قصة.

تعرفون، يستحوذ شيء ما على اهتمامي ويدفعني إلى الجلوس ومواصلة العمل. هكذا كُتبت رواية «عدَّاء الطائرة الورقية». كان في ذهني صبيَّان، أحدهما لديه صراع ويقف على أرضيةٍ أخلاقية رخوة للغاية. كنت أعرف أن صداقتهما محكوم عليها بالفشل، وأن ثمة سقوطًا سيحدث، وأن ذلك سيخلف أثره العميق على حياة المحيطين بهما. لكن كيف ولماذا سيحدث ذلك، هذا هو ما أجبرني على الجلوس وكتابة الرواية في مارس ٢٠٠١

لم تكن لديَّ نية لنشر الرواية قطُّ. حتى بعد أن انتهيت من كتابة ثلثيها، لم يخطر ببالي قطُّ أن أحدًا سوف يقرأها حقًّا مع أنني ظننت أن زوجتي ربما تفعل لأنها تحبني. وهكذا، لكم أن تتخيلوا مقدار دهشتي للطريقة التي استُقبلت بها «عدَّاء الطائرة الورقية» في أرجاء العالم منذ نشرها. لقد وصلتني خطابات من الهند، ولندن، وسيدني، وباريس، وأركانسو، ومن كل أنحاء العالم، من قُراء أعربوا لي عن شغفهم. كثير منهم استفسروا عن كيفية إرسال نقود إلى أفغانستان. وبعضهم أخبرني برغبته في تبني يتيم أفغاني. في تلك الخطابات رأيت المقدرة المتفردة للأدب على الربط بين أناس يرتدون ثيابًا مختلفة أو يتعبدون بصور مختلفة، ورأيت كيف أن بعض الخبرات الإنسانية عالمية، مثل الصداقة، والذنب، والغفران، والفقد، والتكفير.

في تلك الخطابات، رأيت أيضًا كيف أنني وضعت نفسي، لغفلة مني، في موقف لا أحسد عليه، حين أتبعتُ «عدَّاء الطائرة الورقية»، وحبرها لم يجف بعد، بكتابة كتاب سيحمل عبء المقارنة مع «عدَّاء الطائرة الورقية»، على الرغم من أن ذلك ليس خطأه. وقد تخلل كل خطابات المعجبين التي استلمتها قدر كبير من الهلع وإحساس بالشفقة على تلك الرواية التي لم تكتب بعد. وأصابني خوف على سلامة أسرتي العقلية، حيث سيكون عليهم أن يحملوا معي العبء وأنا أشرع في كتابة هذا الكتاب الجديد.

كذلك واجهتني تعقيدات أخرى عندما قررت أسلوب سرد يتطلب شخصيتين رئيسيتين، لا واحدة، كلتاهما امرأة. كان ذلك قرارًا اتخذته في أثناء المراجعة الأخيرة لـ«عدَّاء الطائرة الورقية» ـ قصة رجل وابنه تدور حصريًّا في عالم من الرجال. أردت أن أكتب قصة حب أخرى تدور في أفغانستان لكن تلك المرَّة قصة أم وابنتها، عن الحياة الخاصة لاثنتين من النساء الأفغانيات المكافحات. أظن أنه كان بإمكاني أن أسلك طرقًا أسهل، لكنني اخترت هذا الطريق لأنني، ككاتب وكأفغاني، لم أستطع التفكير في قصة أكثر إثارة أو أهمية أو إلحاحًا من كفاح النساء في بلادي. أما من الناحية الدرامية، فيتضاءل أمامها كل موضوع آخر.

لسوء الحظ، إن صورة النساء اللاتي يرتدين البرقع ويمررن بوجه جهم فظ لمسؤول طالباني قد أصبحت شائعة في أرجاء العالم، بل ربما صارت رمزًا. عندما كنت في كابل عام ٢٠٠٣، التقيت برجل يعمل حارسًا شخصيًّا لمسؤول حكومي. أخبرني، في معرض حديثه، بقصة امرأة رآها تُضرب على يد مسؤول طالباني في الشارع. وفي سرده للقصة، استخدم تعبيرًا منمقًا لكنه بغيض. قال إن الرجل ضربها حتى خرج حليب أمها من عظامها. حين كنت أنصت إلى تلك القصة بدا لي أمرًا غير طبيعي أن يحدث هذا في كابل. فقبل زمن ليس بالبعيد، كانت النساء في أفغانستان أستاذات في الجامعات، كن طبيبات ومحاميات، يعملن في المستشفيات، ويدرِّسن في المدارس، ويلعبن دورًا مهمًّا في المجتمع. كن نساء مثل أمي، التي نالت تعليمًا جامعيًّا ودرَّست اللغة الفارسية والتاريخ، ووصلت إلى منصب نائب مدير مدرسة ثانوية كبيرة للبنات. لكن ذلك كان في كابل، وأفغانستان ليست أمة من أبناء الطبقة الوسطى سكان المدن. لطالما كانت هناك فجوة حضارية بين كابل الإصلاحية الليبرالية وأفغانستان الريفية.

الحقيقة المحزنة هي أن قمع النساء على الطريقة الطالبانية في بعض مناطق أفغانستان كان موجودًا حتى قبل زمن طويل من وميض طالبان كفكرة في الأعين الحنون للاستخبارات السرية الباكستانية. فبينما كانت كابل، نسبيًّا، مركزًا للاستقلالية الأنثوية، ظلت أفغانستان الريفية، خصوصًا الجنوب والشرق بطول الحدود مع باكستان، تقليديًّا، منطقة قبلية يسودها النظام البطريركي، حيث يقرر الرجال مصائر النساء. هناك، طالما عاشت النساء قيد الاحتجاز. طالما ارتدين البرقع ونادرًا ما كن يواصلن الدراسة بعد سن الثانية عشرة، وهو ما أدى إلى تفشي الأمية في تلك المناطق. وعلى مدى قرون، كان يُحدد للنساء هناك متى يتزوجن، ومَن يتزوجن، وأحيانًا مقابل كم. لقد ظلت النساء الريفيات الأفغانيات يعشن أغلب سِني عمرهن حياة هادئة وخفية، حياة إذعان وخدمة.

ربما يدهشكم ذلك، لكن على مدار القرن المنصرم جرت محاولات متعددة لتحرير نساء أفغانستان، بطريقة ما، صدرت من كابل. كان هناك ملك يسمى أمان الله في عشرينيات القرن الماضي منع فعليًّا ارتداء البرقع علنًا. وقد شيد أول مستشفى للنساء وأول مدرسة للفتيات. وجلب المدرسين من أوروبا وأرسل النساء إلى أوروبا ليتعلمن. حاول أمان الله أن يمنع الزواج القسري، فرفع سن زواج الفتيات إلى ست عشرة سنة وحظر عادة تقاضي المال مقابل العروس. لسوء الحظ، وغالبًا بسبب تلك المحاولات، حدث تمرد أجبره على مغادرة البلاد. وقد انتهى شيخًا محتضرًا في المنفى.

كذلك كانت هناك محاولات أخرى في الخمسينيات والستينيات والسبعينيات، بعضها أتى بثماره. في عام ١٩٦٤، حصلت النساء الأفغانيات على حق التصويت، لكن إصلاحات كابل كانت تواجَه

دائمًا بالاستهزاء والاحتقار من جانب زعماء النظام البطريركي القبلي، وأحيانًا بالعصيان، كما في حالة الملك المسكين أمان الله.

وهكذا، كما ترون، كانت الحياة بالنسبة إلى بعض النساء في أفغانستان كفاحًا مستمرًّا، قبل مجيء طالبان بزمن طويل. لكنها أصبحت لا تُحتمل مع اندلاع الحرب بين الفصائل، وسيادة الفوضى والتطرف. وفي هذه الأثناء، ومن أوجه كثيرة، حلت النكبة.

لم تعانِ النساء، مثل غيرهن، من القصف ووابل القنابل التي تسقط على مناطق المدنيين فلا تفرق بينهم فحسب، ولم يتعرضن للضرب والتعذيب والإهانة والسجن فحسب، ولم تُنتهك حقوقهن الإنسانية الأساسية مرة بعد مرة فحسب، لكنهن عانين أيضًا، بأعداد كبيرة، من الانتهاكات «الجندرية». كُن يختطفن ويُبعن كجواري، ويُجبرن على الزواج من قادة الميليشيات، ويُجبرن على ممارسة الدعارة، ويُغتصبن، وتلك على وجه الخصوص جريمة شنيعة لا تغتفر كانت تُستغل لترويع العائلات التي كانت تعارض فصيلًا أو آخر.

واليوم، في أفغانستان ما بعد طالبان، ما بعد ١١ سبتمبر، يعود الكلام عن تحرير النساء، وكان يجب أن يعود. لقد كان الفصل العنصري «الجندري» الذي أُجبرت عليه النساء الأفغانيات واحدًا من المظالم الكبرى التي لم تُحل في العالم الحديث. وفوق ذلك، تحتاج أفغانستان إلى نسائها. بل إن مشروع إعادة إعمار أفغانستان برمَّته محكوم عليه بالفشل ما لم تُحترم الحقوق الإنسانية الأساسية لنسائها، وما لم يُسمح لنسائها بالمشاركة.

لقد قالت الملكة ثريا، زوجة الملك أمان الله: «لا تظنن مع ذلك أن أمتنا تحتاج خدمات الرجال فحسب. يجب على النساء أيضًا أن يشاركن، كما فعلت النساء في صدر الإسلام. والخدمات القيمة التي قدمتها النساء

مذكورة على مدار التاريخ. ومنهن نتعلم أن علينا جميعًا المشاركة في تنمية أمتنا». قالت الملكة ثريا تلك الكلمات عام ١٩٢٦، ويبدو لي أن كلماتها ما زالت صالحة بعد ثمانين عامًا، بل ربما أكثر مما كانت وقتها.

عدت إلى كابل عام ٢٠٠٣، والتقيت بأناس من جميع مناحي الحياة، وأتذكر حين وقفت عند ناصية لأرى نساء مغطيات بالكامل يسرن في الطريق، يتبعهن أربعة أطفال، أو خمسة، أو ستة، أو سبعة. أتذكر أنني فكرت: مَن هذه المرأة وراء الحجاب؟ ما الذي رأته؟ ما الذي تحملته؟ ماذا يسعدها؟ ماذا يحزنها؟ ما هي آمالها، أشواقها، إحباطاتها؟ إن «ألف شمس ساطعة» هي، على نحو ما، محاولتي لتخيل إجابات عن تلك الأسئلة. إنها محاولتي لاستكشاف الحياة الخاصة لهاتين المرأتين المتخيلتين والبحث عن الإنسانية العادية جدًّا خلف حجابهن.

«ألف شمس ساطعة» رواية عزيزة جدًّا على قلبي. لقد كانت عملًا قائمًا على الحب، وآمل ألا أبدو مدعيًا حين أقول إنني أنظر إليها بوصفها تعبيري المتواضع عن التقدير لأفغانستان، ولما تتحلى به من قدر عظيم من الشجاعة والصبر والصمود.

آمل أن أشرككم معي، أن أنقلكم، وأن تستطيع الرواية أن تحرك مشاعركم وتترككم بقدر من التعاطف والتراحم تجاه النساء الأفغانيات اللاتي يعانين معاناة لا نظير لها إلا في مجموعات قليلة للغاية في التاريخ الأحدث على مستوى العالم.

عن المؤلف

وِلِد خالد حسيني بمدينة كابل بأفغانستان عام ١٩٦٥ انتقل إلى الولايات المتحدة عام ١٩٨٠ . درس الطب ومارسه في كاليفورنيا، وهو يعيش فيها حتى اليوم. ورواياته «عدَّاء الطائرة الورقية» و«ألف شمس ساطعة» من أكثر الروايات مبيعًا على مستوى العالم، وقد نُشرتا في أكثر من ٥٥ دولة.